# التفسير الموضوعي

## لسور القرآن العظيم

تأليف

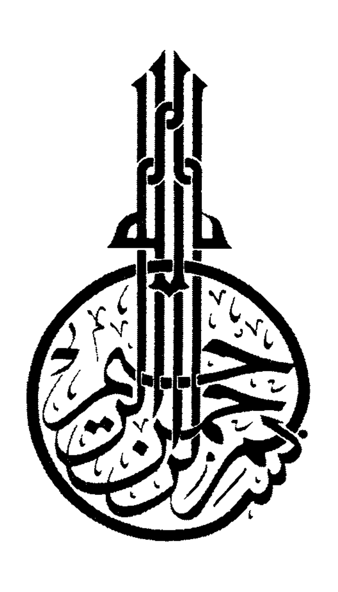
عبد الحميد محمود طهماز

المجلد الثالث:

ويحتوي على تفسير هذه السور

الأعراف - الأنفال - التوبة - يونس





# التفسير الموضوعي

## لسور القرآن العظيم

٣




الطبعَة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م



تُطلب جميع كتبنا من:

**دار القلم - دمشق**

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

**www.alkalam-sy.com**

**الدار الشامية - بيروت**

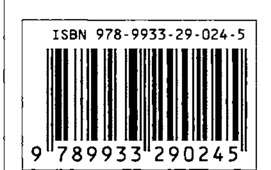
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

**دار البشير - جدّة**

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤






بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

**أما بعد:** فإن للتاريخ تأثيراً كبيراً على حياة الإنسان ومستقبله، ومع أنّ أحداثه مضت، إلا أنها تبقي بصماتها وآثارها واضحةً على سلوكه وممارساته، وتساهم بشكل غير مباشر في تحريك أحداث الحياة البشرية، ودفع مسيرة الوجود الإنساني على الأرض.

ولقد اهتمَّ القرآن الكريم بأحداث التاريخ، وفسح لها مساحة كبيرة فيه، وتخيَّر منها الجانب المؤثِّر المنسجم مع الموضوعات التي يعالجها.

ولئن كانت دراسة التاريخ، وبيانُ الأسباب المحركة لحوادثه،من العلوم المتأخِّرة التي عرفها الناس، فلقد سبق القرآن الكريم إلى هذا العلم، فلم يكتفِ بعرض الوقائع التاريخية كما حدثت، وكما فعل قدماء المؤرخين وكتّاب التاريخ، بل عرض الحدث التاريخي من خلال الأسباب الكامنة وراءه، ومن خلال النواميس الكونية الكبرى التي أبدعها الخالق العظيم لهذا الكون.

وسورة الأعراف هي أكثر طوال السور استشهاداً بأحداث التاريخ، تاريخ

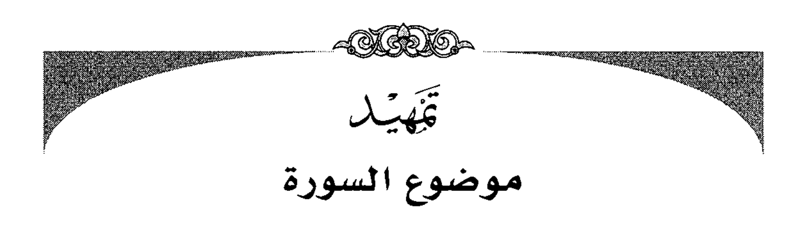
الجماعات والأمم والحضارات، وسبب كثرة استشهادها بأحداث التاريخ؛ يتَّصل بموضوعها الأساس، الذي أرى أن آيات السورة ركَّزت عليه، ودارت في محوره، إنه **أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات**، وهو من أهم الموضوعات التي يجب على الناس أفراداً وجماعات دراستها والعناية بها؛ لصلتها الكبيرة بحاضرهم ومستقبلهم، واستمرار وجودهم الحضاري والمدني.

وقد جاء تفسير هذه السورة ـ بحمد الله وتوفيقه ـ في ثمانية فصول متتابعة بحسب تسلسل آياتها:

- **الفصل الأول: التكليف الجماعي والمسؤولية الفردية يوم القيامة.**
- **الفصل الثاني: قصة الوجود البشري الأول وصراعه المستمر مع الشيطان.**
- **الفصل الثالث: النداءات الإلٰهية الأربعة لبني آدم، وما فيها من تقرير وتحذير.**
- **الفصل الرابع: بيان أن الخلق والأمر لله تعالى وحده، واختلاف الاستعداد والقابلية عند الناس.**
- **الفصل الخامس: صفحات من التاريخ.**
- **الفصل السادس: موسى وفرعون وبنو إسرائيل.**
- **الفصل السابع: بنو إسرائيل بعد الخروج من مصر.**
- **الفصل الثامن: العودة إلى مَسْرح الأحداث في مكة المكرمة.**

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفِّقني للحق والصواب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم.

۞ ۞ ۞



# تمهيد

## موضوع السورة

تعدُّ سورة الأعراف من السور المكية ؛ لأنَّ أكثر آياتها نزلت قبل الهجرة، كما أنها في موضوعها تتفق مع موضوعات العقيدة الإسلامية، التي اهتمَّ القرآن المكي ببيانها.

وقد احتلت القصص التاريخية أكبر مساحة فيها، وتناولت هذه القصص عرض جانب من حركة تاريخ الوجود البشري على الأرض، واهتمت بتاريخ الأمم والمجتمعات والحضارات، واختارت أقوى المجتمعات البشرية من عصور متعددة متوالية، وكأنها أرادت أن ترسم خطّاً بيانيّاً لحركة التاريخ البشري على الأرض، وأبرزت من خلال ذلك السبب الرئيس المحرِّك لأحداث التاريخ البشري، ألا وهو المواجهة بين الخير والشر، الخير المتمثِّل بدعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من جانب، والشر المتمثّل بالشيطان وأتباعه من جانب آخر.

كما أبرزت السورةُ من خلال المقدّمات والتعقيبات (وذلك عندما تتوقف عن سرد الأحداث) بعضَ النواميس الإلٰهية الكونية التي تحكم بتقدير الله تعالى حركة استمرار الموجودات كلها، وأظهرت أيضاً النواميس التي تضبط بتقدير الله تعالى حركة وتاريخ الوجود البشري على الأرض، والأسباب الرئيسة الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات، وبيَّنت في مقابل هذه الأسباب الصفات المثالية للأمة التي هي جديرة ومؤهلة لبناء الحضارة الإنسانية الحقة، حضارة الإيمان والعدل والسلام.

ومع أنَّ سورة الأعراف من أطول السور القرآنية، فإنَّ وحدتها الموضوعية

تبرز بوضوح لكل من يتدبر معاني آياتها، فآياتها متكاملة فيما بينها، يفسِّر بعضها بعضاً، ويكمِّل بعضها بعضاً، وقد تعمَّدْتُ أن أظهر للقارئ هذا الجانب بكثرة استشهادي في تفسير آيات السورة من السورة نفسها، كما سيرى القارئ هذا واضحاً في أول تفسيرها وآخره إن شاء الله تعالى، مما يدلُّ على شدة الانسجام والاتساق بين آيات السورة حول موضوعها الأساس، وهو بيان الأسباب الرئيسة الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات، التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

**١ ـ الانحراف عن أصل الفطرة في الاعتقاد، والإعراض عن دين الله تعالى وأحكام شريعته.**

**٢ ـ الانحراف عن سنن الفطرة والشذوذ في العلاقات الجنسية.**

**٣ ـ الاغترار بالقوة والتكبر والطغيان والعدوان.**

**٤ ـ الطمع والجشع، وسلب حقوق الناس.**

**٥ ـ الاستبداد، وتحكُّم الفئة الفاسدة في السلطة والحكم، وممالأة العامة لهم، والركون إليهم.**

**٦ ـ تحجُّر المشاعر، وتبلُّد المدارك، بسبب السرف والترف والانهماك بشهوات الحياة الأرضية المادية.**

**٧ ـ الانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية وإنكار يوم الحساب والجزاء.**



# الفَصْلُ الأَوَّلُ

## التَّكليفُ الجَمَاعيُّ والـمَسْؤوليَّةُ الفَرديَّةُ يومَ القِيَامَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾.

- **الله أعلم بمراده وأسرار كتابه:**

﴿المص (١)﴾.

بدأ الله تعالى سورة الأعراف بهذه الآية الكريمة المؤلفة من الحروف الأربعة؛ وهي: ألف، لام، ميم، صاد، وهي ثالثُ سورةٍ في المصحف بُدئت بالحروف، فسورتا البقرة وآل عمران بُدئتا بـ ﴿الم﴾ وبُدئت الأعراف بها أيضاً

مع زيادة حرف (صاد)، وثمَّة سورة في المصحف بدئت بحرف (صاد) وسميت به.

ولا تزالُ معاني هذه الأحرف في أوائل بعض السور القرآنية من أسرار الكتاب العزيز، وللعلماءِ أقوالٌ كثيرةٌ في معانيها على سبيل الاحتمال، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يجزمَ ويقطعَ بأنَّ ما ذهب إليه هو المعنى المراد منها، يبقى القول: (الله أعلم بمرادِهِ وأسرارِ كتابه) أحوط وأسلم، ويتفق مع قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

ولا بدَّ أن يكون لهذه الأحرف ارتباط بموضوع السورة ومعاني آياتها، حتى يتمَّ الاتساقُ والانسجامُ الذي تتميَّز به الكلمات القرآنية، والذي يظهر به وجهٌ من وجوه إعجاز الكتاب الكريم، وهذا ما جعل ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينتصِرُ للرأي الذي يقول: إنّ هذه الحروف ذُكِرَتْ بياناً لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلقَ عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنّ ألفاظه من هذه الحروف التي يتخاطبون بها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدّمةِ تفسير سورة البقرة: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل:

- ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة].
- ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران].
- ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في أول سورة الأعراف»[1].

ولم يقتصر حديثُ السورة عن القرآن الكريم في أولها كما ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإنَّما جاء الحديثُ عنه أيضاً في ختام السورة كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٧.

- **تسكين وتثبيت:**

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك يا محمد ـ ﷺ ـ من الله تعالى.

﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: فلا يكن في صدرك ضيق.

ولعلّ سببه شعوره ﷺ بعِظَم الأمانة التي حُمِّلها، وضخامة المسؤولية عنها، وخوفه أن يقصِّر في أدائها والقيام بتبعاتها، فأزالَ الله تعالى خوفه عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب الكريم في أول السورة، فالله جلّ وعلا هو الذي أنزل عليك الكتاب، واختارك لِحَمْلِ رسالته، و﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه العليم الحكيم ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والمعونةُ من الله تعالى تأتي على قدر التكليف والمؤونة، وسيأتي معنا فيما قَصَّه الله تعالى من أخبار الأنبياء في السورة كيف نصر الله تعالى أنبياءه وأيدهم، ولطف بهم، وأعانهم على القيام بما كلفهم به.

ويلاحظ أنَّ النهي في الآية توجَّه إلى الحرج: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ولم يُوجَّه إلى النبي ﷺ، مع أنَّه المرادُ بهذا النهي، وذلك لأن الشعور بالحرج في مثل هذه الأحوال أمر لا إرادي، يطرأ على الإنسان، ويتسلل إلى مشاعره دون إرادة منه، فالنبيُّ ﷺ لم يستجلبه، ولا إرادة له فيه، ولهذا توجَّه النهي إلى الحرج الذي تسلل إلى قلبه عليه الصلاة والسلام بغير إرادته.

وفائدةُ هذا النهي تطمينُ النبيِّ ﷺ، وتسكينُ نفسه، وتخليةُ صدره عن أيِّ حرجٍ يطرأُ عليه، فيقوم ﷺ بحمل الرسالة وأداء الأمانة بقلب ثابت وصدر منشرح. ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: لا يكن في صدرك حرج منه لكي تقدر على الإنذار به،

وهو القرآن الكريم، فإذا كنتَ منشرح الصدر ثابتَ القلبِ استطعت القيام بما كُلِّفتَ به من التبليغ والإنذار على أكمل الوجوه وأتمِّها.

**والإنذار**: الإعلامُ المقترنُ بالتهديد والوعيد، وهو عامٌّ لجميع المكلَّفين، ولهذا حُذف مفعول (تنذر) كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر].

وقدم الإنذارَ لارتباطه بدفع الحرج عن قلب النبيِّ ﷺ، فالقيامُ بالإنذارِ أكثرُ مشقةً من القيام بالتذكير، لأنَّ الإنذار فيه المواجهة مع الكافرين والمعاندين، بينما التذكير موجَّهٌ للمؤمنين، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وفي الكتاب الذي أنزل إليك ذكرى للمؤمنين.

**والذكرى**: الموعظة النافعة، ولمّا كان المؤمنون هم المتعظين بآيات القرآن الكريم، خصَّهم سبحانه بالذكر هنا في أول السورة، وأكَّده في آخر السورة في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣﴾ كما سيأتي معنا.

ويلاحظ في الآية أيضاً أن الإنذارَ أتى أولاً للجميع، ثم أتى بعده دور التذكير للمؤمنين ووعظهم بآيات القرآن الكريم، وهو ما سنراه متَّبعاً في أكثر آيات السورة.

- **التكليف الجماعي:**

وقام النبيُّ ﷺ بما كلَّفه سبحانه به بقلب ثابت، وصدر منشرح، فأدَّى الأمانة، وبلَّغ الرسالة على أتمِّ الوجوه وأكملها، وأصبحت المسؤولية منوطةً بالمكلفين الذين وصلتهم الرسالة، فاتَّجه خطاب الآياتِ إليهم:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: تمسَّكوا بما أنزل الله إليكم من أحكام دينه وشرعه في القرآن الكريم وسُنَّة النبيِّ ﷺ.

فالسنة هي المصدر الأساس الثاني لدين الله وشرعه، وهي من الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

وقد أمر الله تعالى باتباع السُّنَّة في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ خطاب للأمم والمجتمعات البشرية، ففيه تكليف لكلِّ الأمم والمجتمعات البشرية بتطبيق أحكام دين الله وشرعه، ومسؤولية كل مجتمع عن هذا مسؤولية جماعية، وبقاء الجماعة البشرية واستمرار قيام حضارتها مرتبط بمدى تمسُّكها بدين الله تعالى، واتباعها لأحكام شريعته، وهلاك الجماعة البشرية وسقوط حضارتها نتيجة إعراضها عن التمسك بدين الله وشرعه، ولهذا جاء بعد التكليف الجماعي التحذيرُ الجماعي من اتباع غير ما شرع الله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله تعالى، فالتمسك بشريعة الله تعالى اتباع له جلّ وعلا، والإعراض عنها إعراض عنه جلَّ وعلا، واتباع لغيره سبحانه.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾ من شياطين الجن والإنس.

وسماهم ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ لأن اتباعهم وطاعتهم فيما يشرِّعون موالاة لهم.

فالذين يتَّبعون الشرائع الوضعية المخالفة لشريعة الله تعالى يعادون الله تعالى ربهم، ويوالون واضعي هذه الشرائع والقوانين، فالأمرُ كبيرٌ وخطيرٌ، ويجب على المسلمين الذين بهرتهم دنيا الأمم الكافرة وزخارفها، فهجروا شريعةَ دينهم، واتبعوا الشرائع الوضعية التي استحدثَتْها الأمم الكافرة، يجب عليهم أن يدركوا خطورةَ ما أقدموا عليه، على عقائدهم وعلى مصير

مجتمعاتهم، فإنَّ ذلك أعظمُ أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات وتفكك المجتمعات.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما تتعظون إلا قليلاً.

فالآية تدلُّ على قلة المتعظين بآيات الكتاب الكريم بالنسبة للمعرضين عنه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

- **الإهلاك الجماعي:**

ثم أخبر سبحانه عن كثرة المجتمعات البشرية التي أهلكها، والحضارات التي دمّرها، بسبب إعراضهم عن اتباع ما شرع لهم، وتكذيبهم لرسلهم، فقال:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: وكم من بلد أو مدينة أهلكناها بمن فيها.

و(كم) للتكثير، والمعنى: ما أكثرَ المدن التي دمَّرها الله تعالى، بسبب ظلم أهلها، باتباعهم أولياء دون الله تعالى، شرعوا لهم شرائع تخالف شريعته سبحانه.

وحديث الآية عن الإهلاك الجماعي للمدن يؤكِّدُ أنَّ **المسؤولية في الدنيا عن تطبيق شريعة الله مسؤولية جماعية، وأنَّ التكليفَ بتطبيق شرع الله في الأمم والمجتمعات تكليف جماعي**، ولهذا كان العقاب الدنيوي عن الإعراض عن شريعة الله جماعيّاً عامّاً شاملاً كل من رضي بالعيش مع هذا المجتمع الظالم، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: جاءها عذابُ الله ليلاً، أو نهاراً في القيلولة والراحة.

فالعذاب يأتيهم على حين غفلة منهم، دون أن تسبقه أمارة تدلُّ على اقترابه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [النحل].

ونزول الهلاك والعذاب في وقت الدعة والراحة والغفلة على غير توقع، يجعله أكثر ألماً، وأعظم وقعاً وأثراً.

- **اعتراف متأخِّر:**

ففي الآية تحذير من الاغترار بأسباب الأمن والراحة، فمهما كانت المجتمعات الظالمة قوية ومتمكنة، فلا وقاية لها من عذاب الله تعالى وانتقامه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

ووصف سبحانه حالهم عند نزول الهلاك بهم فقال:

﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

اعترفوا بذنوبهم، وأنّهم يستحقون ما أنزل الله تعالى بهم.

ولكنَّ اعترافهم هذا جاء متأخراً، فلا ينفعهم، ولا يدفع عنهم العذاب الذي نزل بهم، فهو كإيمانِ اليائس، لا ينتفعُ به صاحبُهُ، ولهذا لم ينتفع فرعون بإيمانه بعد أن يئسَ من الحياة، وأحاطت به أسباب الهلاك: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس][(١)].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس في هذا التفسير الكامل للقرآن الكريم، تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء].

فالإقامةُ الطَّوعية في المجتمعات الكافرة خطرٌ على دين الإنسان المسلم، كما هي خطرٌ على مصيره، يظلمُ المسلمُ بها نفسه، فيعرِّضها للهلاك الذي قدَّره سبحانه لهذه المجتمعات الفاجرة الظالمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النّسَاء].

وفي الحديث الصحيح: **«إذا أرادَ اللهُ بقومٍ عذاباً أصابَ العذابُ مَنْ كانَ فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالِهم»** [رواه مسلم (٢٨٧٩)].

• **المسؤولية الشخصية:**

إنَّ التكليفَ الجماعي بتطبيق شريعة الله، والتزام منهج دينه، يستتبع المسؤولية الجماعية كما مرّ معنا، وهي التي يترتب عليها في حال الإعراض عن شريعة الله تعالى الإهلاك الجماعي، وهذا في الدنيا فقط كما في الحديث السابق. أمّا في الآخرة فالمسؤوليةُ فرديةٌ شخصيةٌ، فكلُّ إنسانٍ يُسْأَل عن عمله فقط، ويحاسَبُ عما صدر عنه، قال سبحانه يؤكد هذه المسؤولية:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عن الرسالة التي أرسلها الله تعالى إليهم بوساطة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وإثباتُ السؤالِ هنا لا يتعارض مع قوله سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] فمعناه: لا يحاسب غيره عنه، كما في قوله جلّ

وعلا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ١٥]، أو لعلّ هذا في بعض أحوال يوم القيامة، فهو يوم طويل ومواقفه وأحواله كثيرة.

﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أيضاً عن مدى استجابة أممهم لدعوتهم كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وسؤال المرسلين لتوبيخ المعرضين عن رسالتهم، لا للاستعلام، فهو سبحانه علام الغيوب، لا تخفى عليه خافية.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ على الرسل والمرسل إليهم كل ما كان منهم.

﴿بِعِلْمٍ﴾ ثابت ويقين، لا بظن وتخمين.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عنهم وعن أعمالهم.

ويُظهر سبحانه عدلَه للناس يوم القيامة بوزن أعمالهم بميزان الحق والعدل:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي: وزن الأعمال والتمييز بينها يوم القيامة حق ثابت، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: رجحت أعماله الصالحة وحسناته.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالعيشة الراضية في الجنة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ٩﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لقلة حسناته، أو لعدم الاعتداد بأعمالهم بسبب كفرهم، فلا يَقْبَلُ الله من الكفار أي عمل مهما كان صالحاً، وهو القائل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فُطروا عليها، كما سيأتي معنا في آخر السورة عند آية الميثاق العام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ الآية [١٧٢]، أو خسروا أنفسهم لأنهم غبنوها وحرموها من ثواب الله تعالى ورحمته ورضوانه يوم القيامة.

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فبدل أن يؤمنوا بآيات الله تعالى، كفروا بها، وهذا أقبح أنواع الظلم، وأكثرها شرّاً وفساداً.

وقوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بصيغة الحاضر الدالة على التجدّد والاستمرار، يدلُّ على استمرارهم على الظلم وإصرارهم عليه[1].

- **الإنسان والأرض:**

وبعد أن واجهت الآيات الكريمة الإنسان بهذه المواجهة الصريحة بكلِّ ما فيها من إنذار وتهديد، وبيَّنت له واجبه مع أبناء مجتمعه عن تطبيق دين الله وشرعه، وما يترتَّب على ذلك من مسؤولية جماعية وفردية في الدنيا والآخرة، شرعت تتحدَّثُ عن الميزات التي خصَّ الله بها الإنسان لكي يكون أهلاً لحمل هذه المسؤولية:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٠﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لكم القوة والسيادة في الأرض،

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ٢١٤.

وقدرناكم على التصرُّف بكلِّ ما فيها، فالإنسانُ سيّدُ المخلوقات الأرضية، وكل شيءٍ فيها مسخر له، ومذلل لمنفعته.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: جعلنا لكم في الأرض كل ما تحتاجون إليه من أسباب الحياة والعيش، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

ومع كلِّ هذه النعم:

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على نعمه وفضله.

فالأرضُ مسخَّرةٌ للإنسان، فهي له كالمهاد والفراش، وكل ما فيها مهيأ له، وليس ثمّةَ صراعٌ بين الإنسان والأرض، أو بينه وبين الطبيعة، كما يتصور أكثر فلاسفة الغرب وأدباؤه، حتى إنَّهم رأوا أي اكتشاف لبعض ما خلق الله تعالى في الأرض انتصاراً، وأي ريادة للمجالات الفسيحة المحيطة بالأرض أو في داخلها غزواً، غزو البحار، وغزو الصحراء، وغزو الفضاء . . .إلخ؛ وهذا التصور الخاطئ يزيد في غرور الإنسان وتكبره، وينسيه فضل الله تعالى الذي خلقه، وهداه إلى كلِّ ما توصل إليه.

- **مفاتيح الرزق:**

إن الإنسان في تكوينه المادي ابن الأرض، أنشأه الله منها، ومكَّنه فيها، وجعل له فيها كل ما يحتاج إليه من الأرزاق، وأمره أن يستطلع أسرارها، ويستثمر خيراتها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٤].

إن هذا التصور ـ كما قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ ـ: «يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة. . لأنَّه يتحرَّكُ في مواجهة كونٍ صديقٍ لا يبخل عنه بأسراره، ولا يمنع

عنه خيراته، وليس في مواجهة كوْنٍ عدو يتربص به، ويعاكس اتجاهاته، ويسحق أحلامه وآماله .. إنّه تصور بائس، لا بدّ أن يُنشئ حالة من الانزواء والانكماش، أو حالة من الاستهتار والتمرُّد والفردية، وكلتا الحالتين لا تكوِّن إلا القلق المضني، والبؤس النفسي والعقلي، والشرود والتمرُّد.. وهي ليست مأساة الوجودية وحدها من مذاهب الفكر الأوربي، إنها مأساة الفكر الأوربي كلّه»[1].

ويبدو أنّ الحالة الثانية التي توقعها رحمه الله هي التي برزت أكثر في حياتهم الاجتماعية، فالأنانية والقلق والتمرد هي السِّمات البارزة في حياتهم.

التحدي الكبير الذي يواجه الإنسان في حياته على الأرض هو الأسباب التي أقامها جلَّ وعلا بحكمته وإرادته، بين الإنسان وبين خيرات الأرض وأرزاقها، لكي يميِّز سبحانه بين الكسول الخامل، والمجتهد العامل، فلا يستطيعُ الإنسان أن يصل إلى حاجاته وضرورات حياته بسهولة ويسر، لابدَّ له أن يأخذ بالأسباب التي قدَّرها العليم الحكيم للوصول إلى خيرات الأرض وأرزاقها، فهي مفاتيح خزائن فضله ورحمته، فمن استفتح بعلمه وعمله وجده فتح الله تعالى له: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسرَاء: ٢٠].

وهذا التحدي هو الذي بعث الإنسان إلى عمارة الأرض واستثمارها، مما أدّى إلى ظهور المدنيات ونشوء الحضارات.

- **التصوير والتكريم:**

ومن الميزات التي جعلت الإنسان أهلاً للمسؤولية والتكليف، بُنيته المادية الجسدية المتميزة التي تمكِّنه من استثمار خيرات الأرض، والتي امتنَّ الله بها على الإنسان بقوله:

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٦٣ بتصرف واختصار.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أبيكم آدم، فهو أصل شجرة الوجود البشري، فخلْقُهُ خلقٌ لجميع البشر.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بإعطاء آدم صورته البشرية المميزة له عن جميع المخلوقات، والتي انتقلت منه إلى جميع البشر.

فتصوير آدم بصورته الإنسانية الكريمة، تصويرٌ لجميع أبنائه وذريته، وهذا التصوير من نعم الله تعالى الكبيرة على الإنسان، كنعمة خلقه وإيجاده، ولهذا قرن سبحانه بينهما، وذكره سبحانه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

ومنها قوله أيضاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

ويتم التصوير مع التكوين في داخل الأرحام: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

وجاء بعد الخلق والتصوير التكريم:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود التكريم والاحترام لهذا المخلوق الذي سيستخلفه سبحانه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية [البقرة: ٣٠]، والذي سيشرِّفه الله تعالى بالتكليف والمسؤولية في حياته الأرضية، ويجعل له حرية واختياراً، ويبتليه بالخير والشر.

وانقاد الملائكة لأمر الله تعالى:

﴿فَسَجَدُوا﴾ للإنسان سجود التكريم بعد أن بيّن لهم ﷻ أهلية الإنسان في

اكتساب العلوم والمعارف بأسلوب علمي، ذكره جلَّ وعلا في **سورة البقرة** فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فتصوير الإنسان بصورته الخاصة المتميزة، وتسخير المخلوقات له، وتكريمه وتزويده بأهلية اكتساب المعارف والعلوم، كلّ ذلك مقدمة لحياة التكليف والاختبار في الأرض.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ مع أن الأمر الإلـٰهي للملائكة بالسجود شمل إبليس، لأنه كان ملحَقاً بهم، يعيش معهم بسبب كثرة عبادته لله تعالى.



## الفَصْلُ الثَّانِي
# قِصَّةُ الوُجُودِ البَشَرِيِّ الأَوَّل وصِرَاعُهُ المُسْتَمِرُّ مَعَ الشَّيطان

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

- **الإنسان والشيطان:**

وحتى يتم اختبار الإنسان ابتلي بعداوة الشيطان، فبعد تكريم آدم بسجود الملائكة، أظهر إبليسُ عداوته للإنسان فأبى أن يسجد ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] مع أن الأمر الإلـٰهي للملائكة بالسجود شمل إبليس،

لأنه كان ملحقاً بهم، يعيش معهم بسبب كثرة عبادته لله تعالى.

وسأله سبحانه عن سبب عصيانه لأمره ـ وهو سبحانه أعلم ـ لكي يظهر لآدم حقيقة إبليس، ويكشف له عداوته:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: من آدم.

ثم بيَّن سبب ما يراه لنفسه من فضل وتقدُّم على آدم، فقال:

﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، فإبليسُ يرى أنَّ الفضل والتقدم يرجع إلى الأصل، فهو إذن مصدِّر النظريات التي استحدثها بعض الناس القائلة بتفوُّق بعض الأعراق البشرية والأجناس على غيرها، والتي تسببتْ في كثيرٍ من الحروب والنكبات لأبناء آدم، وآخرها الحربان العالميتان الأولى والثانية في النصف الأول للقرن الميلادي العشرين.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من ساحة الفضل والرحمة والكرامة، وهي الجنة.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: فما يصحُّ ولا يستقيمُ أن تتكبر في الجنة، ولا يليق بك أن تعيشَ فيها، وهي دار المتقين المتواضعين.

وفي **الحديث الصحيح**: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنّةَ مَنْ كانَ في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ**» [رواه مسلم (١٤٩)].

﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الأذلاء المُهانين، والجزاء من جنس العمل.

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: أمهلني ولا تُمتني إلى اليوم الذي يبعث فيه الناسُ من قبورهم وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنَّك من المؤخَّرين، لكن لا إلى يوم القيامة كما جاء في سؤاله لينجو من الموت، فلا نجاة لنفس منه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥].

وقد بيَّن سبحانه في **سورة الحِجْر** أنه أنظره إلى يوم الوقت المعلوم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهو الوقت الذي قدَّره سبحانه لموت إبليس، ويكون قبيل قيام الساعة عند النفخة الأولى التي ينتهي بها الوجود البشري في الأرض بموت جميع الناس.

فما دام الإنسان في الحياة الدنيا فهو مُبتلًى بعداوة الشيطان له، كما قال تعالى في **سورة فاطر**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

- **قاطع الطريق:**

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ الشيطان.

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي: بسبب ابتلائي بالسجود لآدم الذي جعلني من الغاوين الضالين.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لآدم وذريته.

﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: على صراطك المستقيم، وهو طريق عبادتك وطاعتك الذي يوصل إلى الجنة، لكي أصدهم عنه، وأجعلهم ينحرفون عنه.

فحال إبليس في هذا كحال المجرمين الذين يقطعون الطريق على

المسافرين، وقوله هذا يدلُّ على إصراره على الشر والضلال، وأنَّ الشرَّ فيه أصيل وليس عارضاً ولا وقتيّاً[١].

فإبليس يسعى جاهداً لكي يجعل الناس ينحرفون عن دين الله ومنهجه وشرعه الذي أرسل رسله ليبينوه للناس، وكثيراً ما حذَّرنا سبحانه من الانحراف عن هذا السبيل في آيات كثيرة، منها ما ذكره في أول هذه السورة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

ومنها قوله سبحانه أيضاً: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

كما علمنا سبحانه أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم، والثبات عليه في كلِّ صلاة، عندما نقول خاشعين ضارعين: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وهكذا أعلن الخبيثُ عداوته للإنسان، وألزم نفسَه أن يسعى بأقصى جهده وطاقته لإضلاله وإبعاده عن طريق الحق:

﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾.

﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أي: من أي جهة أستطيع منها إضلالهم.

قال إمام المفسِّرين محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معناه: ثم لآتينَّهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق، وأحسِّن لهم الباطل»[٢].

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ لفضلك وإحسانك، مطيعين لك ومنقادين لأمرك.

وقول إبليس هذا جاءَ على سبيل الظنِّ والتوقع، فهو لا يعلمُ الغيبَ،

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٦٦.

(٢) جامع البيان: ٨/ ١٠٢.

ولكنّه علم نقاط الضعف البشري، التي يمكنه التسلط على الإنسان بواسطتها، فيحسّن له الضلال، ويبعده عن الصراط المستقيم.

وقد جاء في **الحديث الشريف**: أنه ﷺ قال: «**لمَّا خلقَ الله ﷻ آدمَ، تركه ما شاءَ اللهُ أن يدعَه، فجعلَ إبليسُ يُطيفُ به، ينظرُ إليه، فلمَّا رآه أجوفَ عرفَ أنَّه خَلْقٌ لا يتمالَكُ**» [رواه أحمد (٣/ ١٥٢) وبنحوه في مسلم (٢٦١١)].

فالإنسان مخلوقٌ من تراب الأرض، وذو جوف يصلصلُ ويصوِّتُ إذا ما نقر كالفخار، وعمره في الأرض محدود، فله إذن تعلُّقٌ قوي بشهوات الأرض، ولميوله الأرضية وشهواته الجسدية تأثيرٌ كبير عليه.

استحقَّ الخبيثُ بسبب تكبره وسوء أدبه مع الله تعالى الطردَ من منازل الملائكة في السماء أو من الجنة، كما استحق لعنة الله الملازمة له إلى يوم الدين:

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ مذموماً، **والذأم**: أشد الذم، ولم تُذْكَرْ هذه الكلمة في القرآن إلا في هذا الموضع، فهو ذم شديد خاص باللعين(١).

﴿مَّدْحُورًا ۖ﴾ مبعداً مطروداً.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو قَسَم من الله تعالى أن يدخل من تبع إبليس مَنْ بني آدم جهنم، وأن يملأها بإبليس وذريته وأتباعه.

وقد أكَّد سبحانه هذا في عدة سور، فقال في **سورة صٓ**: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقال أيضاً في **سورة الحجر**: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) انظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري: ٨/ ٧٧.

وقال أيضاً في **سورة الإسراء**: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾.

والمتأمل لهذه الآيات يجدها كلها ذكرت كلمة (تَبِعَ) مما يدلُّ على أن الموالين للشيطان والسائرين وراءه لهم إرادة وكسب واختيار في اتباعهم للشيطان، وإعراضهم عن الصراط المستقيم طريق الرحمن، ولهذا فهم مسؤولون عن اختيارهم وكسبهم. كما يتضح له سرُّ تركيز الآية الكريمة في أول السورة على كلمة (**تبع**) في قوله جلَّ وعلا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾، وقوة الاتساق والانسجام بين آيات السورة.

- **التجربةُ والدَّرْسُ:**

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه قدَّر له أنْ يمرَّ قبل هبوطه إلى الأرض واستقراره فيها بتجربة، يتزوَّدُ منها بذخيرة كبيرة من العِبَر والدروس، ويظهر له من خلالها بأسلوب عملي واقعي شدَّة عداوة الشيطان له، وسعيه الحثيث لإضلاله، وتنغيص حياته، وتكدير معيشته.

أمر الله سبحانه آدم أن يسكنَ مع زوجه في الجنة:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وأباح سبحانه لهما أن يتمتعا بكلِّ ما فيها من الأرزاق والنعيم:

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من غير جهد وتعب وعناء.

فالحياة في الجنة خالية من التعب والنَّصَب، ورزق الجنة غير محجوب عن أهلها بحجاب الأسباب، كما هو الحال في الأرض.

وحرَّم سبحانه عليهما الأكل من شجرة معيَّنة، بيَّنها سبحانه لهما بقوله:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: ولا تَدْنُوَا من هذه الشجرة، فمن حام حول

الحمى يوشك أن يقع فيه، وما يؤدِّي إلى الحرام فهو حرام، وكان هذا التحريمُ ابتلاءً منه سبحانه لآدم وزوجه، لإظهار طاعتهما لأمره، أو مخالفتهما له، وبيَّن سبحانه لهما ما يترتب على المخالفة والمعصية فقال:

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بمعصية ربهم.

وعاش آدم مع زوجه الحياة السعيدة الكريمة الميسَّرة الخالية عن التعب والنصب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه]، وعزَّ على الشيطان الحاقد الحاسد أن يرى الإنسان سعيداً في حياته، فنصب له حبال كيده وأشراك مكره.

• **ظهور السوءة:**

وتمكن الخبيثُ بوسوسته من إغوائهما، وتزيين المعصية لهما، مع أنَّه خارج الجنة، مما يدلُّ على قدرته على إلقاء الوسوسة، وإيصالها إلى الإنسان وهو بعيد عنه:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: ألقى إليهما الوسوسة، وهي الصوت الخفي المتكرر[1].

وهدفه الأول من الوسوسة أن يزيلَ عنهما حرمة أهل الجنة وكرامتها وسعادتها، فيتلطَّخا بوحل المعصية وشؤمها وقبحها.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: ليظهر لهما ما سُتر عنهما من عوراتهما، فعورةُ الإنسان سوءته، وإظهارها وكشفها يسيء إليه، وينزله عن مرتبة

(١) روح المعاني: ٨/ ٩٩.

كرامته التي ميَّزه الله تعالى بها عن الحيوانات، والتي رفعه إليها عندما أمر الملائكة بالسجود له سجود التكريم والاحترام كما مرَّ معنا.

فاللام في قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ لام التعليل، وليست لام العاقبة كما رأى بعض المفسِّرين، الذين رأوا أنَّ الشيطانَ لم يقصد بوسوسته ذلك، ولم يخطر له على بال، وإنَّما آل الأمر إليه[1].

والأصل أن تكون اللام للتعليل، وما ذكره هؤلاء المفسِّرون بصيغة الضعف، هو الأقوى والأظهر، والغرض الأساس للخبيث من وسوسته أن يزيل عن آدم وزوجه الحرمة والكرامة بإظهار عوراتهما وكشف سوءاتهما، وكانا لا يريانها تكريماً لهما.

وما يفعله كثير من الناس في العصر الحاضر، من تعمُّد كشف العورات، وإظهار السوءات، انتكاسٌ عن كرامة الإنسان وحرمته، وارتكاس وانحطاط إلى الحيوانية البهيمية ومزالقها.

• **نقاط الضعف البشري:**

عرف الخبيثُ ـ كما ذكرتُ سابقاً ـ نقاط الضعف البشري، فتسلل إليهما بوسوسته من خلالها:

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: لكي لا تكونا مثل الملائكة في القوة والقدرة، فللملائكة من القوة ما ليس للإنسان.

والنزوع إلى القوة من الغرائز التي جُبل الإنسان عليها، ورُكزت في أصل خلقته وفطرته. وفي قراءة شاذة: **(إلا أن تكونا مَلِكين)** بكسر اللام.

وما نراه عند الأطفال من حُبٍّ تملك للأشياء، والاستحواذ عليها دون الآخرين، أثر من آثار هذه الغريزة، ولا يزال الناسُ منذ فجر وجودهم، يجدُّون وراء القوة، ويبحثون عن مصادرها، ويتصارعون حتى الموت من أجل

(١) روح المعاني: ٨/ ٩٩.

الاستحواذ عليها، يستوي في هذا الأفراد والجماعات، ولهذا النزوع إلى القوة والتنافس عليها أثر كبير في ظهور المدنيات ونشوء الحضارات.

لكنَّ الملائكة مجرَّدون من نوازع الشر، ومفطورون على طاعة الله تعالى والانقياد لأمره: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ولا تسلُّط للشيطان عليهم، ولا عداوة بينهم وبينه، كما هو الحال عند الإنسان، فهم مخلوقات نورانية لا ترابية ولا نارية. وأما الإنسانُ فبنيته المادية الترابية تشدُّه إلى الأرض، رغم النفخة العلوية الروحية التي فيه، وقد ابتلي بعداوة الشيطان.

تُرى لو أُعطي الإنسان ما أُعطي المَلَكُ من القوة، ماذا يفعل بها؟ ماذا صنع الإنسان المعاصر عندما وضع يده على بعض مصادر القوة المادية بواسطة العلوم التي اكتسبها؟ يعيش الناس في العصر الحاضر تحت مظلّة الرعب والخوف، المظلة التي تسمَّى بالتوازن الاستراتيجي بين وسائل الدمار التي تمتلكها الدول الكبيرة، إنَّ لدى كلٍّ منها من وسائل التدمير ما يمكنها من تدمير الحياة البشرية في الأرض عشرات المرَّات، فسبحان الله ما أحكمَه وما أرحمَه! والحمد لله الذي لم يُعطِ الإنسان القوة التي أعطاها للملائكة، اللهم إنَّا نعوذُ بك من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا.

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ وهي نقطةٌ ثانيةٌ من نقاط الضعف البشري، وهي أيضاً خطيرة وثلمة كبيرة، فالإنسان ينزع إلى طول الحياة، يتوق إلى الخلود والبقاء، يكره الموت، ويتكدَّر عند ذكره، وقد عرف الشيطان هذه النقطة أو الثلمة عند الإنسان، فأتاه من خلالها: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وتمكَّن الخبيث بهذا من إيقاع الإنسان الأول في شَرَك خداعه ومكره، وأظهر نفسه بمظهر الناصح الأمين، وأخفى حقيقة العدو اللئيم:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾

أي: أقسم لهما وحلف لهما، وتدل صيغة المفاعلة (**قاسمهما**) على أنَّه كرر القسم أكثرَ من مرّةٍ، وأنهما كانا في أول الأمر لا يثقان به، ولا ينصاعان لوسوسته، وأنّه حصلت بينهما مراوغات ومحاولات بذل فيها الجهد(١).

• **المعصية وشُؤْمُها:**

أخيراً تمكَّنَ الخبيثُ من إنزالهما من مرتبة الطاعة والكرامة:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٢﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي: أنزلهما عمّا كانا من عزِّ الطاعة وشرفها ورفعتها.

ونبَّه سبحانه بهذا اللفظ على أنَّ الشيطان أهبطهما من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإنّ التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل(٢).

﴿بِغُرُورٍۚ﴾ أي: وهما متلبِّسان بخداعه ومكره، فما زال يزيِّن لهما المعصيةَ، حتى أثار شهوتهما إلى المحظور، فغلب عليهما، وأنساهما نهي الله تعالى وتحريمه الأكل من الشجرة، فما أقدما على المعصية تصديقاً للشيطان، وإنّما أكلا منها بسبب ضعفهما أمام الشهوة التي أثارها الخبيث فيهما.

قال الآلوسي ﷺ: «وذهب كثير من المحققين إلى أنَّ التصديق لم يوجد منهما لا قطعاً ولا ظنّاً، وإنّما أقدما على المنهي عنه لغلبة الشهوة، كما نجد من أنفسنا أن نَقْدمَ على الفعل إذا زيَّن لنا الغير ما نشتهيه، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال»(٣). ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥].

---

(١) انظر: نظم الدرر: ٧/ ٣٧٣.
(٢) تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٣٤.
(٣) روح المعاني: ٨/ ١٠٠.

وما إن أكلا منها شيئاً يسيراً حتى أصابهما شؤم المعصية:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ نُزِعَ عنهما لباسُ الجنة، وسِيما أهل الجنة، ورأى كلٌّ منهما عورة الآخر، وفوجئا بما طرأ عليهما من تغيُّر وتبدُّل، وأدركا فوراً جنايتهما ومعصيتهما، وغلبَ عليهما الحياءُ من الله تعالى.

وأخذا يبحثان عن شيء يستر سوءاتهما، فلم يجدا غير ورق شجر الجنة:

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: شرعا يجمعان ورق الجنة، ورقة فوق ورقة، لكي يسترا به عورتيهما. وأتاهما النداء من الله تعالى معاتباً موبِّخاً:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فهما عتابان وتوبيخان من الله تعالى، **الأول على فعل المعصية، والثاني على الاغترار بوسوسة الشيطان**؛ مع أنه عدو ظاهر العداوة للإنسان، وقد حذَّرهما سبحانه من مكره وكيده: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٩].

- **التوبة والمغفرة:**

فأقرَّا بالمعصية، وسألا الله تعالى الرحمة والمغفرة:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ بارتكاب المعصية، فشؤم المعصية ووبالها يعود على أنفسنا.

﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ بفضلك وعفوك وإحسانك.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الهالكين، فلا غنى للإنسان عن رحمة الله وعفوه وفضله، ومن دونها يكون مصيره الخسران والهلاك.

وغفر سبحانه لهما، وعفا عنهما، وهو سبحانه الذي أوحى لآدم بكلمات التوبة والاستغفار: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ومن رحمته سبحانه بالإنسان أنَّه فتح له باب التوبة منذ فجر وجوده، فإذا

نسي ثم تذكَّر، وإذا عثر ثم نهض، وإذا غوى ثم تاب: وجد باب التوبة مفتوحاً له، ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته من بعده، كما تزعم أسطورة الخطيئة التي جعلتها الكنيسة النصرانية أساساً من أسس عقيدتها، فالخطيئة في زعمهم ظلت تلازم البشرية حتى تمثل الإله في صورة المسيح فصُلب، واحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة، ومن ثَمَّ يكتب الغفران لكلِّ نصراني يتَّحد بالمسيح، بواسطة بعض الطقوس التي يجريها في الكنيسة أمام بعض رجال الدين.

إنَّ الأمر في التصور الإسلامي أيسرُ من هذا بكثير ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ لقد نسي آدمُ وأخطأ، ولقد تاب واستغفر، ولقد قَبِل الله توبته وغفر له، وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى، ولم يبقَ منها إلا رصيد التجربة، الذي يُعين الجنس البشري في صراعه طويل المدى مع الشيطان، أي بساطة، وأي وضوح، وأي يسر في هذه العقيدة[١]؟!.

• **الهبوط إلى الأرض والصراع:**

انتهت بهذه النتيجة التجربة وما فيها من دروس وعبر، وأمر الله تعالى الإنسان أن يهبط إلى الأرض التي خُلِق ابتداءً منها ليستخلفه سبحانه فيها:

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾ والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وكرر أمر الهبوط في حقه ليبيِّن أنه قرين الإنسان، وأنه ابتلي به في جميع أحواله. أو الخطاب لآدم وحواء، وخُوطبا بصيغة الجمع لأنهما أصل العنصر البشري كلِّه[٢].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فبين الإنسانِ والشيطانِ عداوةٌ وصراعٌ منذ فجر وجوده، وبين الناس أيضاً صراع هو السبب الرئيس الأول لحركة تاريخ البشرية

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٧٤.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٠٣.

بتقدير الله تعالى، ولولا هذا الصراع لكانت حياة الإنسان في الأرض ساكنة هامدة، لا حِسَّ فيها ولا حركة.

إنَّ جميعَ أحداث التاريخ البشري نابعةٌ من هذا الصراع القائم على الأرض بين الخير والشر، فهو محركها وباعث نشاطها.

إنَّ تفسير القرآن الكريم لأحداث تاريخ البشرية، يلتقي مع ما ذكره فلاسفة التاريخ من علماء الغرب، عندما ردُّوا حركة التاريخ البشري إلى الصراع، ولكنَّه يخالفهم في حقيقة هذا الصراع وأبعاده ومداه، فهو ليس صراعاً بين الطبقات على الموارد المادية ووسائل الإنتاج كما زعم أنجلز وماركس، يؤدِّي في النهاية بزعمهم إلى الحتمية التاريخية، بانتصار طبقة العمال (البروليتارية).

لقد أظهر الواقع أنَّ هذه الحتمية التاريخية وهمٌ وسرابٌ، وقد انهارت الشيوعية في أكبر معاقلها، وتراجعت عن الكثير من مبادئها، وأعلنت فشلها وإفلاسها.

إنَّ الصراعَ الذي يحرك أحداث التاريخ هو الصراع بين الخير والشر، الخير المتمثل في دين الله تعالى وشرعه المنزل على الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين، وبين الشر المتمثل بالشيطان وأوليائه من الجن والإنس كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة].

- **الاستقرار في الأرض:**

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضع استقرار لحياتكم ومعاشكم.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ وانتفاع بما فيها من خيرات خُلقت من أجلكم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

واستقرار الإنسان في الأرض غير دائم، فهو مؤقَّت بوقت محدود، لا يزيد ولا ينقص، قدَّره الخالق العليم الحكيم، ولهذا قال:

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى انتهاء الوقت الذي قدّره سبحانه لكم.

فللأرض اتصال كبير بالإنسان، فمنها خُلق، وفيها يعيش ويموت، وهي مركز صراعاته ونشاطاته الحضارية وسائر ممارساته كما قدَّره سبحانه:

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ذلك هو حكم الله تعالى وقدره، ولا خيار للإنسان فيه ولا حرية، فالأرض هي أمه ووطنه، يستطيع الإنسان أن يرتادَ النجومَ، ويطوف بمركباته في الفضاء الواسع الرحيب، ولكنَّه لن يجدَ مستقرّاً في غير الأرض، ولن يجد مكاناً فيه جميع أسباب حياته ومعاشه بين ملايين الكواكب والأجرام غير الأرض، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وها هو الفضاء أمامكم، قربت بعضه لكم المناظيرُ الضخمة في المراصد العلمية، والمركبات الصاروخية، ابحثوا فيه عن وطن آخر للإنسان، وطوفوا بين أجرامه ومجراته: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [يونس: ١٠١]، واحجزوا منه ما تشاؤون، وتقاسموه كما تريدون[١]، فلن تستطيعوا الاستقرار في غير الأرض.



(١) بدأت تظهر في بعض دول الغرب مؤسسات للمتاجرة بالأراضي في الكواكب والنجوم!.

# الفَصْلُ الثَّالِثُ

## النِّدَاءاتُ الإلـهيَّةُ الأَرْبَعَةُ لِبَنِي آدَمَ وَمَا فِيهَا مِنْ تَقْرِيرٍ وَتَحْذِيرٍ

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

- **يا بني آدم:**

وبعد حديث الآيات عن مبدأ الوجود البشري على الأرض وسماته الكبرى؛ جاء دور النداءات والتعقيبات لتسليط الأضواء على دروسه وعبره من خلال أربعة نداءات بصيغة (**يا بني آدم**).

والحكمة من توجيه الخطاب إلى عامة الناس بهذه الصيغة واضحة، فالعهد قريبٌ بالحديث عن خلق آدم وتصويره وتكريمه، وعن حسد الشيطان له ومَكْره وإغوائه، مما أدّى إلى إنزاله إلى حضيض المعصية، وتجريده من ثياب أهل الجنة، وظهور سوءته، ثم إعلان توبته، وقبولها بفضل الله تعالى ورحمته، وهبوطه إلى الأرض لتكونَ له مستقرّاً ومتاعاً إلى حين. فكل هذه الدروس والمواعظ ليست لآدم وحده، وإنما هي لجميع أبنائه، إنها للإنسان في كلِّ زمان ومكان.

- **اللباس والزينة:**

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ أي: خلقنا لكم لباساً بأسباب نازلة من جهة السماء، بعضها نراه كالمطر، وبعضها لا نراه.

وقد توصَّلت الكشوفات العلمية إلى الإحساس بوجود هذه الأسباب اللامرئية بوساطة الأجهزة الدقيقة الحساسة، والتي عرفوا بوساطتها أنّ الأرضَ تستقبِلُ في كلِّ لحظة أنواعاً كثيرة من الأشعة حتى قال بعضُهم: إنّ التربة التي يزرعها الفلاح في هذه السنة تختلف عن التربة التي كان زرعها في السنوات الماضية.

وقد يكون معنى ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ أعطيناكم ووهبنا لكم، وكلّ ما أنعم الله به على الإنسان فقد أنزله عليه من غير أن يكون هناك علو وسفل، بل هو جارٍ

مجرى التعظيم، كما تقول: رفعتُ حاجتي إلى الأمير، وليس هناك نقل من سفل إلى علو[١].

﴿يُوَرِى سَوْءَاتِكُمْ﴾ أي: يستر عوراتكم، التي أراد إبليسُ إظهارها من أبويكم، وقد نجحَ في تحقيق مراده، كما مرَّ معنا، حتى طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة.

وقد ذكرتُ أنّه ثمة ارتباط بين ستر العورة وكرامة الإنسان، وأنّ كشفها تجريدٌ للإنسان عن كرامته، فمِنْ فضل الله على الإنسان الذي حُرم من ثياب الجنة، وأهبط إلى الأرض، أن أنعم عليه وهو في الأرض بنعمة اللباس الذي يستر بها عورته، ويحفظ له كرامته ومروءته.

﴿وَرِيشًا﴾ أي: وأنزلنا أيضاً عليكم ريشاً، والريش للطائر معروف، وهو لباسه وزينته، فاستُعير للإنسان لأنّه لباسه وزينته.

والمعنى: وأنزلنا عليكم لباسين: لباساً يواري سوءاتكم، ولباساً لزينتكم، لأنَّ التزيين غرض صحيح[٢]؛ بشرط أن تكونَ الزينةُ تناسب حال المتزين، فللرجال زينة تناسب رجولتهم، وللنساء زينةٌ تناسِبُ أنوثتهن، وبشرط آخر أيضاً: وهو عدم الغلو والإسراف، كما سيأتي معنا.

- **جمال الظاهر والباطن:**

ثم انتقلت الآياتُ من الحديث عن لباس الأجساد إلى الحديث عن لباس الضمائر والقلوب:

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الذي يستر عوراتِ النفس، وخصالها المذمومة.

فالعورات تُسْتَر بلباسين: **حسي**: وهو الثياب التي تستر سوءات البدن، **ومعنوي**: وهو التقوى التي تستر سوءات القلوب، وآفات النفوس كالكِبْرِ

---

(١) روح المعاني: ٨/١٠٣.

(٢) تفسير الخازن: ٢/٥٣٧.

والعُجبِ والحقد والحسد والرياء وحب الظهور. . . إلخ؛ ولا علاج لكلِّ هذه الآفات إلا بتقوى الله تعالى ومراقبته.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: ذلك اللباس الذي هو التقوى خيرٌ من لبس الثياب.

فلو تجمَّل الإنسان بأحسن الملابس، وهو لا يتقي الله تعالى، كان كلُّه سوءاتٍ. ولو كان متقياً وليس له إلا خُرَيْقة تواري عورته، كان في غاية الجمال والستر والكمال، المهمُّ جمال الباطن، والأفضل أن يجمع الإنسانُ بين جمالِ الباطنِ والظاهر، ولعلّ النبيَّ ﷺ نبه إلى أهمية جمال الباطن في قوله الكريم: «**ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّه، ألا وهِيَ القلبُ**» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)].

فمن اتقى الله كان به مؤمناً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخيرية عليه، فحسن سمته وسلوكه، واستقامت أخلاقه، ورُئيت عليه بهجةُ الإيمان ونوره، «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ».

﴿ذَٰلِكَ﴾ إنزال اللباس.

﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: من الدلائل التي تدلُّ على وجود الله تعالى وَجُودِه وإحسانه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يظهرون سوءاتهم، فيعرضون بذلك عن تكريم الله تعالى لهم. ومع الأسف فإنَّ كثيراً من بني آدم في هذا العصر لا يتذكَّرون نعمة الله عليهم باللباس والزينة.

- **الكاسيات العاريات:**

وبعد بيان أهمية اللباس وستر العورة، وعلاقته بزينة الإنسان وكرامته، جاء النداء الثاني لبني آدم يحذِّرهم من مكر الشيطان وكيده وفتنته:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: لا يوقعنكم الشيطان بالفتنة، ويبعدكم عن طريق الجنة.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: كما تسبَّبَ بإخراج أبويكم من الجنة.

﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الذي كان يسترهما في الجنة.

وصيغة المضارع (**ينزع**) تدلُّ على استمرار الشيطان على تعرية الإنسان وإظهار عورته، أو لكون أثر النزع ـ وهو الحرمان من لباس الجنة ـ لا يزال مستمرّاً، فقد خرج آدم وزوجته من الجنة عاريين.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ أي: ليرى كلٌّ واحد سوءة الآخر.

فهدف الشيطان إظهار سوءة الإنسان وعورته لأبناء جنسه، فيكون سبباً لإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش والزنى.

وهذا ما تسعى إليه دُور الأزياء ومصممو الملابس، إنّهم يستهدفون أول كلِّ شيءٍ إظهار المفاتن، وإبراز العورات، بشكل يثير الغرائز، ويفجر الشهوات، حتى أصبحَ الناسُ في كثير من الحالات لا يستطيعون التمييز بين الكاسيات والعاريات، تماماً كما جاء في **الحديث الشريف**: «**صنفانِ منْ أهلِ النّار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُخْتِ المائلةِ، لا يَدْخُلْنَ الجنَّةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ ريحَها ليوجدُ مِنْ مسيرةِ كذا وكذا**» [رواه مسلم (١٦٨٠)]. «**البخت**»: نوع من الإبل.

وقد أصبح لهذا الدور شأنٌ كبير في المجتمعات الإسلامية، واحتلت مواقعَ الصدارة في معظم المجلات والصحف، مع أنَّ هدفها الأساس هو إظهار

العورات وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، واستنزاف أموالهم.

**• من صور الجاهلية قديماً وحديثاً:**

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ بيوتَ الأزياء ومصمميها، وأساتذةَ التجميل ودكاكينها، لهي الأربابُ التي تكمن وراءَ هذا الخبل الذي لا تفيقُ منه نساء الجاهلية الحاضرة، ولا رجالها كذلك، إنَّ هذه الأرباب تصدرُ أوامرها، فتطيعها القطعانُ والبهائمُ العاريةُ في أرجاء الأرض طاعةً مزريةً، وسواء كان الزي الجديدُ يناسِبُ قوام المرأة أو لا يناسبه، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أولا تصلح، فهي تطيعُ صاغرةً، تطيعُ تلك الأرباب، وإلا عُيِّرت من بقية البهائم المغلوبة على أمرها»[1].

وممّا يزيد في خطورة مكر الشيطان:

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي: هو وذريته.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فهو يأتيكم من حيث لا تشعرون، لأنّه محجوب عن أبصاركم، فعليكم شدَّة الحذر والوقاية منه، والانتباه لكيده.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فسلطانُ الشياطين على الكافرين أقوى، وتسلُّطهم عليهم أشدّ، بسبب ما بينهم وبين الشياطين من التناسب والميل إلى الشرور والآثام.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ الصحيحَ حصنٌ للمؤمن من كيد الشيطان وفتنته، فالكفار يستحسنون الفواحش، ويستحلون الفجور:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ أي: فعلاً قبيحاً متناهياً في القبح، ونهوا عنه:

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٨٤.

﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ فالقومُ أدمنوا على الفواحش وألفوها، فإذا ما نُهوا عنها احتجُّوا لها بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله تعالى.

وكان العربُ ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت الحرام في ثيابهم التي لبسوها، يتأوَّلونَ في ذلك أنّهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريشٌ، وهم الحُمُس، يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيٌّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسيٌّ ثوباً طافَ عرياناً، وربَّما كانت امرأة فتطوفُ عريانةً فتجعل على موضع العفَّة شيئاً ليستره بعض الستر.

وأكثر ما كان النساء يطفْنَ عراةً في الليل، لأن الليل ستر، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أنَّ فعل آبائهم مستندٌ إلى أمر الله وشرعه، فأنكر الله عليهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾.

فقال تعالى ردّاً عليهم:

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك[1].

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو إنكارٌ وتوبيخٌ، لأنهم نسبوا إلى الله تعالى أقوالاً لا علم لهم بها، ويتنزَّه سبحانه عنها.

• **الوسطية والاعتدال:**

فهو سبحانه لا يأمرُ إلَّا بما يصلح العباد والبلاد:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ﴾ أي: بالعدل، وهو الوسطُ في كلِّ شيء، المتجافي

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٣.

عن طرفي الإفراط والتفريط[١].

فالشريعةُ الإسلامية قائمةٌ على التوازن والتوسط بين متطلَّبات الروح والجسد لدى الإنسان، وكل خلل يحدث في هذا التوازن، نتيجة سوء الفهم أو الجهل، يؤدِّي إلى اضطراب في حياة الإنسان وسلوكه، وفساد في بنية المجتمع، وتآكل في حضارته.

فالصلاةُ التي هي أهمُّ العبادات في الإسلام لها وقتٌ محدَّد تؤدَّى فيه، فإذا ما حان وقتُها فعلى المسلم أن يؤدِّيها على وجهها الصحيح المستقيم في أيِّ مكان كان، سواء كان في المسجد أو خارجه:

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجهوا إلى عبادته سبحانه، مستقيمين على أمره، فهي تؤدَّى في أي مكان، فالأرضُ في الإسلام كلُّها مسجدٌ، قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطيْتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قبلي: كانَ كُلُّ نبيٍّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصّةً، وبُعِثْتُ إلى كُلِّ أحمرَ وأسودَ، وأُحِلَّتْ لي الغنائمُ، ولم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعِلَتْ لي الأرضُ طيِّبة طهوراً ومَسْجداً، فأيّما رجلٍ أدركتْهُ الصلاةُ صلَّى حيثُ كان، ونُصِرْتُ بالرعبِ بينَ يديْ مسيرة شهرٍ، وأعطيتُ الشفاعةَ**» [رواه مسلم (٥٢١)].

يجب أن تكون العبادة لله تعالى وحده:

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾. ومما يساعد الإنسان على ذلك، ويجعله مخلصاً لله وحده في عبادته، أن يتذكر مسؤوليته يوم القيامة أمام ربّه جلَّ وعلا:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما أنشأكم من العدم يعيدكم يوم القيامة إلى حكمه وأمره سبحانه، ويبعثكم فريقين كما كنتم في الدنيا، فمن ماتَ على الإيمان يبعثُ مع المؤمنين، ومن ماتَ على الكفر يبعثُ مع الكافرين.

وفي الحديث الشريف: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يُبْعَثُ كُلُّ عبدٍ على ما ماتَ عَلَيْهِ**» [رواه مسلم (٢٨٧٨)].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٤١.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم أهلُ الإيمان والطاعة، الذين وفَّقهم سبحانه إلى الإيمان والالتزام بأحكام الإسلام.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: أوجب عليهم الضلالة، والسبب:

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أعرضوا عن دين الله وشرعه، واتبعوا ما شرعت لهم شياطين الإنس والجن، مخالفين أمره جلَّ وعلا الذي جاء في أوائل السورة: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: وهم يظنون أنفسهم على هدايةٍ وحق.

وفيه دليلٌ على أنَّ الكافر الذي يظنُّ أنَّه في دينه على الحق، والجاحد المعاند في الكفر سواء(١)؛ لأن الأول لم يستعمل عقله ومواهبه استعمالاً صحيحاً كاملاً كما سيأتي معنا في آخر السورة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

- **تحريم الإسراف:**

وتأكيداً للوسطية والاعتدال التي تتميَّزُ بها الشريعة الإسلامية، انتقلتِ الآياتُ من الحديث عن شأن الإنسان في الصلاة والعبادة، إلى الحديث عن شأنه في المطالب الدنيوية والجسدية، من خلالِ النداءِ الثالث الموجَّه إلى بني آدم:

---

(١) تفسير الخازن: ٢/ ٥٤٢.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ٣١﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾ أي: تزيَّنوا بما أباحَ الله لكم من اللباس والرياش، عندما تجتمعون للعبادة، وخصَّ التزيين عند العبادة بالذكر لأن العرب كانوا ـ كما مرَّ معنا ـ يطوفون بالبيت عراة.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ سترَ العورة زينة للإنسان، بل هو أعظم زينة له، فمهما استعمل الإنسان من وسائل الزينة، فإنَّه يبدو قبيحاً إذا كان مكشوف العورة بادي السوءة.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مما أحلَّ الله لكم من الطعام والشراب، فالإسلامُ دين الحياة، أمر الإنسان أنْ يستجيبَ لكلِّ مطالب جسده المادية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

بشرط الاعتدال والتوسط، وعدم الإسراف والتقتير، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ في التزيين والأكل والشرب وغير ذلك من المباحات.

**والإسراف**: مجاوزة حدّ الاعتدال المشروع، والنهي عن الإسراف نهي عن ترك الحدود المشروعة، ولهذا قال كثير من المفسِّرين: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدي إلى الحرام(١)، أولا تتجاوزوا حدود الاعتدال في الزينة والطعام والشراب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**كُلوا واشربوا، والبسوا وتصدَّقوا، من غيرِ مَخِيْلَة، ولا سَرَفٍ، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يرى نعمتَهُ على عبدِهِ**» [رواه البخاري تعليقاً (١٠/ ٥٢) وأحمد (٢/ ١٨٢) والنسائي (٥/ ٧٩) وابن ماجه (٣٦٠٥)].

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٤٣؛ وروح المعاني: ٨/ ١١٠.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم ولا يرضى عنهم. وهو تهديد شديد للمسرفين.

**• الأصل في الأشياء الإباحة:**

ودلّتِ الآيةُ على أنَّ جميع المطعومات والمشروبات حلال، إلا ما خصَّه الشرعُ بدليل في التحريم، لأنّ الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع، وثبت تحريمه(١).

ولهذا أنكر سبحانه على الذين يحرمون بعض الأشياء من عند أنفسهم، ولا دليل لهم يدلُّ على تحريمها، فقال:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ من الثيابِ والرياش وكلِّ ما يُتجمَّل به.

﴿ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: التي أخرجها سبحانه من الأرض من أجل عباده.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ والمستلذّات التي لا ضررَ فيها من المآكل والمشارب؟!.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خلقها الله سبحانه في الدنيا للمؤمنين، لكي يستعينوا بها على عمارةِ الأرضِ بعبادته وطاعته، ولهذا يقيمُ الله الساعةَ عندما لا يبقى في الأرضِ أحدٌ يعبده، وهي الحكمةُ التي خلق الخلق لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرُهم، لأنّه سبحانه حرَّمها يوم القيامة على الكافرين الذين جحدوا فضل الله عليهم واستعملوا نعمه في الدنيا في غير

(١) تفسير الخازن: ٢/٥٤٣.

طاعته، كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

فهي خالصةٌ للمؤمنين يوم القيامة، وخالصةٌ أيضاً عن الهم والتعب والكدح كما هو الحال في الدنيا، تأتيهم أرزاقهم في الجنة وكلُّ ما تشتهيه أنفسهم من غير تعب وعناء، كما ذكرنا سابقاً.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ وما فيها من أحكام تنظِّم حياةَ الإنسان الدينية والدنيوية، وتظهر السمة البارزة للشريعة الإسلامية، وهي الوسطية والاعتدال، وتلاؤمها مع حياة الإنسان، وشمولها لجميع جوانبها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق ويعملون بها، فلا خيرَ في علم لا عمل به.

وإنَّ سوءَ فهم كثير من المسلمين لحقيقة الإسلام وجهلهم بأحكام شريعته، من أعظم الأسباب التي أدَّت إلى ضعف الحضارة الإسلامية وتآكلها وانحسارها.

● **المحرَّمات:**

وفي مقابل الإباحة الأصلية، التي قررتها الآيات، انتقلت إلى بيان المحرَّمات على وجه الإجمال:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: سرَّها وجهرها.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي: وحرَّم كل ما يوجب الإثم.

وهو تعميمٌ بعد تخصيص، لأنَّ الفواحشَ وإن كانت في اللغة اسماً لكلِّ ما تفاحش من قول أو فعل، لكنه أصبح في العرف مخصوصاً بالزِّنى واللواط، ولعلَّ سببه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:

٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] وستأتي معنا.

وقيل: **الفواحش**: الكبائر؛ **والإثم**: الصغائر؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: إنَّما حرَّم ربي الكبائر والصغائر[1].

﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وحرَّم البغي بغير الحق، وهو الظلم والكِبْرُ، والاستطالة على الناس، ومجاوزة الحدِّ بلا حق.

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي: وحرَّم الشرك الذي ما أنزل الله فيه حجَّةً ولا برهاناً، كما هو في الحقيقة والواقع، فلا حجَّة للشرك ولا برهاناً.

ووصفه سبحانه بذلك تهكماً بالمشركين، وتنبيهاً إلى أنَّ أصول العقيدة يجبُ بناؤها على الحجج والبراهين القطعية، ولا يجوز بناؤها على الظنِّ والتقليد.

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وحرَّم الافتراء عليه سبحانه، وذلك بأن يصفوه بصفات لا تليق بكماله وجلاله ﷻ.

أو: حرَّم أن تنسبوا إليه سبحانه تحريم أشياء لا علم لكم بتحريمها.

تلك أهم المحرَّمات القطعية في دين الله تعالى، فكيف كذبوا على الله عندما استحلوا الفواحش كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

- **سنن إلَهية ونواميس عُلْوية:**

ظهر لنا من خلال النداءات الإلٰهية الماضية لبني آدم أسباب كثيرة تؤدي إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات؛ منها: **اختلالُ التوازن في سلوك الأفراد والجماعات بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية.**

**فالانهماك في اتباع الشهوات، وإرواء الغرائز الجسدية، والإسرافُ في المطاعم والمشارب والزخارف والزينة، وشيوع الزِّنى والعُري، وكشف العورات**

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/ ٥٤٥.

**استجابة لوساوس الشيطان، كلُّ ذلك سيؤدي إلى انحلال الأخلاق وانهيار المجتمعات.**

**كما أنَّ الغلو في العبادات والمتطلبات الروحية، والانصراف الكامل إليها، وإهمال متطلبات الحياة الدنيوية، يؤدِّي أيضاً إلى تعطيل طاقات الإنسان عن عمارة الأرض واستثمارها وتحقيق معنى استخلافه فيها، بما يفرضه على نفسه من رهبانية وعُزلة، فيتوقف النمو، وتتآكل الحضارة وتضعف، ثم تنهار.**

ومع ذلك؛ فإنَّ مسيرة الحياة الإنسانية على الأرض غير خاضعة لوتيرة واحدة، وغير ملتزمة بطريقة معيَّنة، بل نراها في اضطراب دائم، وتذبذب مستمر، والخط البياني للمسيرة البشرية يرتفعُ تارةً وينخفِضُ تارة أخرى، ويسرع ويتباطأ، وذلك بسبب ارتباط حركة التاريخ البشري بالصراع القائم بين الخير والشر، بين الرسالات الإلـٰهية والشرائع السماوية، وبين الشيطان وأتباعه وأنصاره.

ومن خلال هذا الصراع الذي قدَّره العليم الحكيم يتشكَّل تاريخ الوجود البشري على الأرض، ويمارس الإنسان حريته واختياره، يعلو أو يهبط، يعمر أو يخرب، يستقيم أو ينحرف.

ومن وراء كُلِّ ذلك نواميس علوية وسنن إلـٰهية لا تتبدل ولا تتغير، لأنها بمشيئته سبحانه وحكمته وعلمه، وقد ذكرها سبحانه في آيات كثيرة؛ منها: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ومنها: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

ومنها ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ولهذا قال تعالى هنا يبيِّن أن هلاك الأمم وسقوط الحضارات وإن كان مرتبطاً بأسبابٍ تتَّصلُ بحرية الإنسان واختياره، فإنَّه لن يخرج عن النواميس الإلـٰهية الثابتة، التي جعلها ﷻ بمثابة الكوابح والضوابط لمسيرة تاريخ البشرية:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ قدَّره سبحانه بسابق علمه ومشيئته، أجلٌ في التمكُّن والظهور والارتفاع في سُلَّم العمران والتحضُّر، وأجلٌ أيضاً للتراجع والانهيار والهلاك، فالتاريخ دُوَل، كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ودوام الحال من المحال، وكلّ شيء في هذه الدنيا مصيره إلى الزوال والانتهاء: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدَّر لهم.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: قطعة من الزمان قليلة.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فالآجال المقدَّرة في علم الله ومشيئته، لا يستطيعُ فردٌ أو أمَّةٌ أن يغيِّرها، عجزت همم الرجال عن خرق أسوار الأقدار.

- **المسؤولية والجزاء:**

وجاء النداء العلوي الرابع لبني آدم، يبيِّن لهم مسؤوليتهم وتشريفهم بالتكليف، وما يترتب على ذلك من حساب وجزاء:

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: إن أتاكم رسل اختارهم الله تعالى منكم.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ أي: يعرضون عليكم أحكامي وشريعتي، ويخبرونكم بها، ويبينونها لكم بالتتابع، فالتعبير بـ (**يقصُّون**) يفيد معنى التتبُّع والتتابع، فالرسل يتبع بعضهم بعضاً دون اختلاف بينهم في أصول رسالاتهم وشرائعهم.

والإتيان بـ (إن) الشرطية، وضم (ما) إليها، لتأكيد معنى الشرط، دلَّ على أن إرسال الرسل أمر جائز عليه سبحانه لا واجب[1]، فهو من رحمته سبحانه وفضله.

﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الكفر والشرك.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل في طاعة الله وعبادته.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الله تعالى.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما يفوتهم من الدنيا وزينتها عندما يموتون.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ المنزَّلة على المرسلين.

﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾: أي أعرضوا عنها تكبّراً وعناداً.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلم ممن كذب على الله تعالى، فزعم أنَّ هذا حرَّمه الله سبحانه، أو ادَّعى أنه يوحى إليه، وهو في الحقيقة كذّاب دجال.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ فأعرض عن دعوة رسله.

إنّهما أمران متساويان بالكفر والقبح: الافتراء على الله تعالى، وتكذيب رسله، يجمعهما مصير واحد:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: أولئك الكاذبون والمكذِّبون يأتيهم

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٢/ ٥٤٧.

في حياتهم الدنيا ما كتب لهم من أرزاق وأموال، فكفرهم لا يمنع عنهم ما قدَّر الله لهم من أرزاق الدنيا، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولما سأل إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يرزق المؤمنين من أهل البلد الحرام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ﴾ قال له سبحانه: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

- **الحكم والتنفيذ:**

فتمتُّعهم برزق الله سبحانه يمتدُّ إلى نهاية أعمارهم، وحينئذ ينقطع رزقهم، وينتهي تمتُّعهم:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم.

﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: أين أولياؤكم الذين أطعتموهم، وعصيتم من أجلهم الله تعالى؟! وهو سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استعلام.

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: غابوا عنّا.

غابوا عنهم وهم في أشدِّ الحاجة إليهم.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ وبهذه الشهادة يكونون هم الذين حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب والخلود في النار.

وينفذ الله تعالى الحكم عليهم يوم القيامة:

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: مضت وعاشت قبلكم من كفار الجن والإنس.

وهذا يدلُّ على أنَّ الكفار يساقون إلى النار أمماً وجماعات، بعد أن يحشر كلُّ إنسان مع أمثاله في الكفر والفجور، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١].

ويساق إلى النار أولاً جماعات الزعماء ورؤوس الكفر والضلال، ثم يليهم أتباعهم على حسب دركاتهم في الكفر والفجور، قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وفي النار يستقبِلُ بعضُهم بعضاً باللعن والشتم بدلاً من التحية والسلام:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ في الكفر والفجور، كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

- **سقوط الأقنعة:**

فعلاقات المودَّة والصحبة التي أساسها الكفر، تنقطع يوم القيامة، وتتحول إلى عداوة وبغضاء، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا يركب بعضهم بعضاً من شدَّة الزحام، وهو ما يشير إليه الإدغام في (**ادّاركوا**)(١)؛ فالنار تمتلئ بهم كما أخبر سبحانه فيما سبق: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

ويضيقها سبحانه عليهم زيادةً في عذابهم: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

---

(١) نظم الدرر: ٧/٣٩٧.

وترتفع حرارة اللقاء فيما بينهم في جهنم:

﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ أي: الجماعات التي تأخر دخولها في النار، وهم العامة والأتباع.

﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ الذين سبقوهم إلى النار، وهم زعماء الكفر ورؤساء الضلال:

﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي: كانوا سبب إضلالنا.

﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: عذاباً مضاعفاً، لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿قَالَ﴾ الحق سبحانه:

﴿لِكُلٍّ﴾ من الأتباع والمتبوعين.

﴿ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما أُعد لكلٍّ فريق من العذاب.

أما المضاعفة للزعماء والقادة فلضلالهم وإضلالهم، وأما المضاعفة للأتباع فلضلالهم، وتقليدهم الأعمى، بسبب غلبة أهوائهم وشهواتهم عليهم، فقد دأبَ زعماءُ الكفر والضلال ـ لكي يثبِّتوا زعاماتهم ـ على نشر الفساد والفواحش في مجتمعاتهم، ولهذا نرى أسواق الفساد رائجةً في المجتمعات التي يحكمها الطغاة والمستبدُّون: الفواحش، وبيع الذمم، والخيانة، والمتاجرة بالرتب والمراتب، وغيرها من أنواع الفساد، فما سار الأتباع وراء زعمائهم إلا من أجل مصالحهم وشهواتهم.

ولهذا يردُّ عليهم الزعماء والقادة يذكِّرونهم بالحقيقة:

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأنكم سرتم وراءنا بإرادتكم واختياركم من أجل شهواتكم ومصالحكم.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بإرادتكم واختياركم لا بسبب اتباعكم لنا.

إنها لمواجهة كبيرة، ومصارحة تامة في جهنم، حيث تسقط جميع أقنعة النفاق والتزوير والتزييف: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [صۤ: ٦٤].

أظهر الحكيم العليم من خلالها الداء العضال الذي ينخر في جسم كثير من المجتمعات البشرية، ممتدّاً من رأسها إلى قواعدها، حتى يهلكها ويدمرها، إنَّه داء المداهنة والنفاق المستشري في المجتمعات التي يحكمها الطغاة والمستبدون، وواجب الشعوب والأمم في مثل هذه المجتمعات ألا يركنوا إلى الظالمين، وألا يكونوا من أعوانهم والملتفِّين حول موائدهم، فإن ذلك يزيدهم طغياناً وفساداً، ويعرِّض أتباعهم للمسؤولية الكبرى يوم القيامة: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومن الدعاء الذي علَّمه سبحانه للأنبياء والصالحين ليدعوه به: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس].

- **حسرة ويأْس:**

ومع الحسرة التي تملأ صدورهم، أيئسهم سبحانه من رحمته، وقدَّر عليهم الحرمان الكامل من أي سبب من الأسباب التي تخفف عنهم العذاب، فهم محرومون حتَّى من لحظة أمل، يتصوَّرون فيها من مخيلتهم أنهم سيكونون من الناجين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا يستجابُ لهم، ولا تنزل عليهم رحمة أو بركة، فهم محرومون حرماناً كاملاً من أي سبب من أسباب النجاة.

أو: لا تفتَّحُ لأرواحهم أبوابُ السماء عند موتهم، ويؤيده ما جاء في حديث **البراء بن عازب** رضي الله عنه: أنّ رسول اللهِ ﷺ قال: «**وإنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان**

في انقطاعٍ من الدنيا، وإقبالٍ إلى الآخرةِ، نزلَ إليه مِنَ السماءِ ملائكةٌ سودُ الوجوهِ، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلسَ عند رأسِهِ، فيقولُ: أيتُها النفسُ الخبيثةُ اخرجي إلى سُخْطٍ من اللهِ وغضبٍ، فتفرق في جسدِهِ، فينتزعُها كما يُنتزَعُ السَّفُودُ[1] من الصوفِ المبلولِ، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفةَ عينٍ، حتى يجعلوها في تلك المسوحِ، ويخرجُ منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَتْ على وجهِ الأرضِ، فيصعدونَ بها، فلا يمرُّون بها على ملأ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذه الروحُ الخبيثةُ؟ فيقولون: فلانُ ابنُ فلانٍ، بأقبح أسمائه التي كان يُسَمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهيَ بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحُ فلا يفتحُ له» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧)].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: في ثقب الإبرة، والمعنى: لا يدخلون الجنّةَ أبداً، إذ علّق دخولهم الجنةَ على أمرٍ مستحيل الوقوع، والعربُ كانوا يضربون المثلَ في عِظَمِ الخلقة وضيق المسلك بالجمل وثُقْب الإبرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وبمثل هذا الجزاء الدائم الذي لا ينقطع ولا أمل في انتهائه.

﴿نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين عظُمتْ ذنوبهم وجرائمهم.

ولا يخفى التناسب بين ضخامة جِرْم الجمل، وضخامة ذنوب المجرمين.

وكما يأتيهم العذاب من داخل نفوسهم التي أحرقها الندم وسحقها اليأس، يطوقهم عذاب النار من كلِّ مكان:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: لهم فراش تحتهم من نار جهنم.

---

(١) قضيب من الحديد ذو أشواك.

﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ولهم أغطية من نار من فوقهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

فالقوم بين نارين: نارِ الندم والحسرة في صدورهم، ونارِ جهنم التي تشوي جلودهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر، ولغيرهم بالطغيان والعدوان.

- **تقرير وترغيب:**

وفي مقابل الحديث عن عذاب الكافرين، توجَّهتِ الآياتُ للحديث عن مصير المؤمنين الصالحين، الذين يصلحون ولا يفسدون، ويعدلون ولا يظلمون، ويبذلون ما في وسعهم لعمارة الأرض لطاعة الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

بهذا الأسلوب المعجز أبرز سبحانه السمة الكبرى التي تتميَّزُ بها الشريعة الإسلامية، فهي شريعةٌ سمحةٌ ميسَّرةٌ، لا حرج فيها ولا عُسْر، تتفق مع فطرة الإنسان، وتلائم إمكاناته وقدراته، ففي أثناء الحديث عن ثواب المؤمنين الصالحين، أخبر سبحانه عن سماحة الشريعة الإسلامية وسهولة تكاليفها بجملة معترضة بين المبتدأ وخبره، بصيغة الفعل: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي: ما كلّف الله تعالى نفساً إلا ما يمكنها القيام به بسهولة ويسر، فطريق الجنة إذن سهل وميسَّر، وبهذا جمعَ سبحانه بهذا الأسلوب بين التقرير والترغيب، مع المعنى الأساس الذي سيقت الآيةُ لبيانه، وهو الحديث عن مصير المؤمنين الصالحين يوم القيامة.

ثم تحدَّثتِ الآياتُ عن العلاقة بين أهل الجنة، فهي على النقيض تماماً مما هي عليه بين أهل النار، فلا خصامَ بين أهل الجنَّة، ولا تحاسد،

ولا تباغض، لأنَّه سبحانه هذَّب نفوسهم و كمَّلها وجمَّلها قبل أن يكرمَهم بدخول الجنة:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حقد تعلق فيها بمقتضى ما كان بينهم في الدنيا من خلاف وخصام، فلا يبقى فيها إلا المودَّة والمحبة.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخلُصُ المؤمنونَ من النارِ، فيُحْبَسُونَ على قنطرةٍ بينَ الجنَّةِ والنارِ، فيقتصُّ لبعضِهم من بعضٍ مظالمُ كانتْ بينهم في الدُّنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذِنَ لهم في دخولِ الجنَّةِ، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنَّةِ منه بمنزلِهِ كان في الدنيا**» [رواه البخاري (٦٥٣٥)].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فمنازلهم عالية مشرفة على أنهار الجنة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: الحمد لله الذي أرشدنا، وبيَّن لنا طريق الهداية، ووفقنا للسير عليه حتى وصلنا إلى هذا النعيم العظيم.

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فالطرقُ كثيرةٌ، والمزالق خطيرةٌ، فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً. فالقومُ في غاية الخضوع والتواضع لله تعالى، لا يرونَ لأنفسهم أي فضل، ولا لعلمهم أي قيمة بجانب فضله سبحانه وتوفيقه.

﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوعد الصادق، وهو دخول الجنة لمن يؤمن بالله تعالى ويذعن لدينه وشرعه.

ولمَّا تواضع القومُ لله تعالى، وأقرُّوا بفضله سبحانه عليهم، ولم يروا لأنفسهم وأعمالهم أي فضل، أكرمهم جلَّ وعلا بنداء فيه تنويه بأعمالهم الصالحة:

﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم الصالحة شملتكم الرحمة وأدخلتكم الجنة.

وهكذا عاد بنو آدم الذين أطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان: إلى الجنة التي أخرجهم الشيطان منها، وهم في صُلْب أبيهم آدم. أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم بفضله وكرمه.

● **يوم الأذان:**

ويبدو أنَّ الغِلَّ الذي ينزعه الله من صدور أهل الجنة، هو ما كان بينهم فقط، أمَّا غِلُّهم على أهل النار فيبقى، ففي بقائه زيادة سعادة أهل الجنة ونعيمهم، فكلَّما أرادوا التشفي من أعدائهم وهم يُعَذَّبون في النار، أمكنهم ذلك، وأقدرهم سبحانه عليه، حتى إنهم ينادونهم ويكلِّمونهم:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ من كانوا يَعرفونهم في الدنيا، نادوا الذين عرفوهم وواجهوهم في ميادين الدعوة والجهاد، وفي ميادين الصبر والمصابرة، نادى الذين ألهبت سياطُ القهر والظلم أجسادهم، نادوا جلَّاديهم:

﴿أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾، وقالوا لهم على سبيل التوبيخ والتَّشَفِّي:

﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ في كتابه وبلسان رسله.

﴿حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ﴾؟.

وهل يستطيع أهل النار أن يقولوا غير نعم؟!:

﴿قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ﴾ أعادهم بعد الموت، وبعثهم من قبورهم، وحشرهم وسألهم، وحرمهم من الجنة، وأدخلهم النار، وكانوا في الدنيا ينكرون كلَّ هذه الحقائق المؤيَّدة بالبراهين القاطعة.

وانتهى الحوار بين أهل الجنة وأهل النار بنداء علوي، زاد أهل الجنة فرحاً وسروراً، وأهل النار كَمَداً وحسرة:

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لعنة خالدة باقية متجدّدة، لا تنتهي، كما أفادته (أن) الدالَّة على الابتداء.

يروَى: أنَّ طاوساً[١] دخل على هشام بن عبد الملك، فقال له: اتق الله واحذر يوم الأذان، فقال: وما يومُ الأذان؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فصعق هشام، فقال طاوس: هذا ذل الصِّفة، فكيف ذل المعاينة؟![٢].

والصدّ عن دين الله تعالى وشرعه أقبح جرائمهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعون أنفسهم وغيرَهم عن الدخول في دين الله تعالى والسير على الصراط المستقيم.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويريدون أن يسيروا على السبيل الأعوج المنحرف، يرفضون الاستقامة والصدق والأمانة والإيمان، ويميلون إلى الغش والمكر والخيانة.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وفوق ذلك ما كانوا يصدِّقون بالحساب والمسؤولية في يوم القيامة، وهو من أعظم وسائل التهذيب والتربية والاستقامة.

- **أصحاب الأعراف:**

يتميَّز يومُ القيامة بكثرة النداءات فيه حتى سمَّاه سبحانه يوم التناد، على لسان مؤمن آل فرعون عندما قال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر].

(١) من علماء التابعين.

(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٢١٠.

ومن هذه النداءات نداء أصحاب الأعراف، الذين سُمِّيت السورة باسمهم، قال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار حاجزٌ يفصل بينهما.

﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي: وعلى أعالي هذا الحاجز رجال.

**فالأعراف**: جمع عرف، وهو ما ارتفع من الشيء، لأنه أشرف وأعرف مما ينخفض عنه، ومنه قيل: عُرف الديك، لارتفاعه على ما سواه من الجسد.

ويبدو أنّهم رجال صالحون من ذوي المعرفة والعلم والفضل، أو أنبياء؛ فكلمة (**الأعراف**) تدلُّ على علو مكانهم، والمعرفة تدلُّ على علو مكانتهم، وقد وصفهم الله تعالى في قوله:

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾:

وتفسيرُ الكلمةِ بأصل المعنى اللغوي لها، أولى ممّا ذهب إليه أكثر المفسِّرين، بأنَّ أصحاب الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال الله جلَّ ثناؤه فيهم: هم رجال يعرفون كلّاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يصحُّ سنده»[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بما يظهر على وجوههم من أثر الإيمان والطاعة، أو من أثر الكفر والفجور، وقد ذكر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في مواضع متعدِّدة أن أهل الجنة يتميَّزون عن أهل النار يوم القيامة ببياض الوجوه ونضارتها وحسنها، منها قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران].

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ٨/ ١٣٩.

ومنها أيضاً قوله جلَّ وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

وجاء في أحاديث نبوية كثيرة: أن النبيَّ ﷺ يتعرَّف يوم القيامة على أمته بالغُرَّة والتَّحْجيل، وهما بياض وجوههم وأطرافهم من أثر الوضوء، ولما سُئِلَ رسول الله ﷺ: كيف تعرفُ من لم يأتِ بعدُ من أمتك يا رسول الله؟ قال: «**أرأيتَ لو أنَّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ محجَّلةٌ بين ظهريْ خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ، ألا يعرِفُ خيلَه؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**فإنَّهم يأتون غُرّاً محجَّلينَ مِنَ الوضوءِ، وأنا فَرَطُهم على الحَوْضِ**» [رواه مسلم (٢٤٩)].

وقوله سبحانه: ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ يدلُّ أيضاً على أنَّ أصحاب الأعراف يميِّزون بين أهل الجنة وأهل النار في أرض المحشر قبل دخولهم إلى الجنة والنار، فالمعرفةُ ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ لا بمكانهم، فإذا ما رأَوْا أصحابَ الوجوه المستنيرة النضرة، سلَّموا عليهم، وبشروهم بدخول الجنة.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: أصحاب الأعراف.

﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: نادوهم مسلِّمين عليهم قبل دخولهم إلى الجنة.

﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وهم يأملون ويرجون دخولها.

- **نظرة في وجوه أهل النار:**

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: وعندما ينظرون إلى أصحاب النار.

وقوله: ﴿صُرِفَتْ﴾ يدلُّ على أنَّ أصحاب الأعراف ما كانوا راغبين في النظر إلى وجوه المغضوب عليهم، لكي لا يتأذَّوا بمنظرهم المرعب، ولكنَّ أبصارَهم وقعتْ عليهم من دون قصد منهم، إذ قدَّر سبحانه ذلك.

﴿قَالُوا﴾ أي: أصحاب الأعراف متعوِّذين بالله تعالى أن يكونوا منهم بسبب ما رأوا من سواد وجوههم وقُبح منظرهم:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال السُّدِّيُّ[1]: «وإذا مرُّوا بهم، بزمرةٍ يُذهب بها إلى النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾»[2].

وعندما تقع أبصار أصحاب الأعراف على من عَرفوا في الدنيا من زعماء الكفر والضلال، نادوهم موبِّخين لهم:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ بصفاتهم التي كانت لهم في الدنيا، أو بالصفات التي ظهرت عليهم في الآخرة.

﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: ما نفعكم جمعكم في الدنيا للأموال والأعوان والخدم والحشم.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وما نفعكم أيضاً تكبركم وطغيانكم واستبدادكم وظلمكم.

وتابعوا لوم رؤوس الضلال وتقريعهم، وهم يشيرون إلى الذين كانوا في الدنيا مظلومين مقهورين مستضعفين، بسبب إيمانهم واستقامتهم:

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي: كنتم في الدنيا تقسمون على أن هؤلاء المؤمنين الضعفاء، لن يرحمهم الله تعالى، ويفضلهم عليكم.

---

(١) من علماء التفسير، وهو السدي الكبير، معتمد في التفسير عند ابن كثير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣.

لقد أعمى الكِبْرُ والغرور أبصاركم وبصائركم، حتى ظننتم أنَّكم أصحاب المكانة والتقدُّم في الدنيا وفي الآخرة أيضاً، إن كان هناك آخرة بحسب زعمكم، فقد كنتم تقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ الآية [الأحقاف: ١٤]، وتقولون أيضاً: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

انظروا إلى حُسن منظرهم وحالهم ومصيرهم، ها هم يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

فالشأنُ في الآخرة يختلف عنه في الدنيا، التقدُّم في الآخرة بالإيمان والعمل الصالح، لا بالأموال ولا بالأولاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

- **نداء التذلُّل والاستجداء:**

وأخيراً ذكرت لنا الآياتُ نداء أهل النار، فالقارئُ الذي قرأ نداء أهل الجنة وأصحاب الأعراف لا بدَّ أن تتشوَّف نفسُه لسماع نداء أهل النار، يدافعون فيه عن أنفسهم، ويعتذرون عمَّا سلف منهم في الدنيا، ولكنَّ نداءَهم كان نداءَ تذلُّلٍ واستجداءٍ لأهل الجنة:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من طعام الجنة، فالقومُ يعذَّبون بالعطش والجوع، وليس لهم في جهنم شراب غير الحميم: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]؛ وغير الزقوم والضريع: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية].

ولا شكَّ أن رؤيتهم لأهل الجنة ـ وما هم فيه من نعيم ـ تزيدُ في عطشهم وجوعهم، إنهم عبيد البطون، أتعبتهم بطونهم في الدنيا، وعذبتهم في الآخرة.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: أصحاب الجنة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ الذي أنزله الله تعالى عليهم.

﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فلم ينظروا إليه نظرة التقدير والاحترام اللائقة به، بل استهزؤوا بدعاته، وأعرضوا عن رسله.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم الدنيا ببهارجها وزخارفها الزائفة، ومتاعها الزائل عن العمل للآخرة.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: يعاملهم سبحانه معاملة المنسيين المهمَلين المبعَدين، لا أنه سبحانه ينسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه].

وقوله تعالى أتى على سبيل المقابلة كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦].

أو أتى بمعنى: نتركهم في النار معذَّبين فلا يجيبُ الله تعالى دعاءهم، ولا يرحمهم، ولا يخفِّف عنهم، كما تركوا الإيمان بالله واليوم الآخر.

﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: ونتركهم في العذاب بسبب جحودهم لآيات الله تعالى وإعراضهم عن دينه وشرعه.

- **الكتاب المفصَّل والشريعة الكاملة:**

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: بيَّنَّا فيه الدلائل والأحكام والمواعظ وغير ذلك، مما علمنا حاجة الناس إلى بيانها وتفصيلها، فشريعته كاملة.

أو فصلناه على علم بكلِّ ما فيه، لا كيفما اتفق، حتى جاء بريئاً من كلِّ خلَلٍ وقدْحٍ، معجزاً على مدى الدهر[1]: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وجعلناه:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون بأنّه كلامُ اللهِ تعالى، أنزله على رسوله ﷺ.

فلماذا لم يبادروا إلى الإيمان به؟! وماذا ينتظرون؟!:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: هل ينتظرون إلّا أن يقعَ ما فيه من عذاب وحساب؟ فالاستفهام ينكر عليهم إعراضهم عن رسالة القرآن الكريم.

**والتأويل**: ما يؤولُ إليه أمره وعاقبته، وكان **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه يقول: «**إنَّ القرآنَ نزلَ حيثُ أُنزلَ، ومنه آيٌ قد مضى تأويلهنَّ قبل أن ينزلن، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهنَّ بعد النبيِّ ﷺ بيسير، ومنه آيٌ يقعُ تأويلهنَّ بعد اليوم، ومنه آيٌ يقعُ تأويلهنَّ عند الساعة على ما ذُكر من الساعة، ومنه آيٌ يقعُ تأويلهنَّ يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار**» [رواه البيهقي في (السنن الكبرى)][2].

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: يقول الذين تركوه في الدنيا

---

(١) تفسير النيسابوري: ٨/١٠٣.

(٢) انظر: المختصر: ١/٥٥٧، تفسير الآية (١٠٥) من سورة المائدة.

قبل مجيء تأويله عندما يرون تأويله يوم القيامة، ويشاهدون النشرَ والحشرَ والحسابَ والجنة والنار:

﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ الثابت الصادق الصحيح.

﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ في هذا اليوم، ويدفعوا عنا ما نحن فيه من العذاب.

﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا.

﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الكفر والفجور، ولكن هيهات، هيهات، فلا تنفعهم شفاعة الشافعين، ولا عودة لهم إلى الدنيا، إنَّها أمانيُّ باطلة، وأوهام كاذبة.

﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع أعمارهم في الكفر والمعاصي.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغاب عنهم.

﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة المزعومة التي عبدوها من دون الله تعالى.



## الفَصْلُ الرَّابِعُ

# الخَلْقُ والأَمْرُ للهِ وَحْدَه واخْتِلافُ الاسْتِعْدادِ والقَابليَّةِ عِنْدَ النَّاسِ

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

- **التدرُّج في الخلق:**

والله ﷻ الذي أنزل الكتابَ المفصَّل والشريعةَ الكاملةَ، هو وحده الذي يجبُ أن يُطاعَ ويُعبدَ، فالحاكميةُ والتشريعُ له وحده، لأنَّه هو الخالق والمالك والمدبر.

ولقد جاءت الكشوفاتُ العلميةُ الحديثةُ تؤكِّدُ أنَّ الكونَ حادث غير قديم، وأنَّه خاضعٌ لنواميس وسنن تدلُّ على أنَّ له خالقاً مدبراً، يضبط حركته، ويدبر أمره:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: إنَّ مالككم وخالقكم هو الذي خلق السماوات والأرض، فخالق الكون والإنسان واحد.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الله تعالى التي لا يعلمُ مداها إلا هو سبحانه، لا من أيامنا الأرضية، فالمرادُ من اليوم معناه اللغوي، وهو مطلق الوقت(١).

وما يذكره العلماءُ من أرقامٍ لعمر الكونِ ليست سوى تخميناتٍ وظنونٍ قائمة على نظريات تخطئُ أو تصيبُ، المهم أنَّ الآية الكريمة تؤكد حقيقة التدرج في الخلق، التي يقول بها العلماء في العصر الحاضر؛ فالله سبحانه ما خلق الخلق دفعة واحدة، إنَّما خلقه على مراحل وأطوار فصَّل سبحانه بعضها في **سورة فصلت**، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

ولا شك أنَّ لله سبحانه حِكَماً جليلة وكثيرة في التدرُّج في الخلق، فهو سبحانه قادر على إيجاد المكوَّنات كلِّها دفعة واحدة، وفي مثل لمح البصر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ومن غير أسباب ووسائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

ولعلَّ من حِكم التدرُّج في الخلق، أن يبيِّن لنا سبحانه بعض أدلَّة وجوده وقدرته وحكمته، وأنَّه خلقَ الخلق بمحض إرادته واختياره، وأنه خلقه بمقتضى نواميس كونية أبدعها، مما ينفي وجودَ المصادفةِ في الخلق، كما يزعم الملاحدةُ الماديون.

---

(١) روح المعاني: ١١/ ٦٤.

• **سبيل الهدى:**

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو أعظم المخلوقات، ويُطلق في اللغة على أكثر من معنى: فهو سريرُ الملك، وسقفُ الملك، والملك، والسلطان، والعز[(١)].

لقد أخبر سبحانه في سبعة مواضع من القرآن الكريم أنّه جلَّ وعلا استوى على العرش، وقرن ذلك بأنَّه خلق السماوات والأرض، هذا الموضع **أولها**.

**وثانيها**: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ الآية [يونس: ٣].

**وثالثها**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

**ورابعها**: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه].

**وخامسها**: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

**وسادسها**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

**وسابعها**: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

مما يدلُّ على أن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ صفة من صفات كماله وجلاله، تدلُّ على عظمته وقدرته ﷻ، **نؤمن بها كما أخبر عنها سبحانه من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل**: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

روى البيهقيُّ في كتابه «الأسماء والصفات» عن عبد الله بن وَهْب، قال: كنا عند مالك بن أنس، فدخل رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٢١١.

﴿ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك، وأخذته الرُّحَضاء - عرق كثير - ثم رفع رأسه، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوعٌ، وأنتَ رجلُ سوءٍ وصاحبُ بدعةٍ. أخرجوه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الظاهر المتبادِرُ إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمرُ كما قال نُعيم بن حماد الخزاعي، شيخ البخاري، قال: **مَنْ شبَّه اللهَ بخلقِهِ كفر، ومن جحدَ ما وصفَ اللهُ به نفسَه فقد كفر، وليس فيما وصفَ اللهُ بِهِ نفسَه ولا رسولُه ﷺ تشبيهٌ، فمن أثبتَ للهِ تعالى ما وردتْ به الآياتُ الصريحةُ والأخبارُ الصحيحةُ على الوجهِ الذي يليقُ بجلالِ اللهِ، ونفى عن الله النقائصَ، فقد سلك سبيل الهدى**»(١).

● **إبداع ونظام:**

ومن أدلَّةِ وجود الله تعالى وقدرته وعظمته، إبداعه لنظام حركة الأفلاك، وتوالي الليل والنهار، وتعاقب الفصول والشهور والأوقات:

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يغطي بقدرته الليل بالنهار، ويؤكد هذا المعنى قراءة حميد بن قيس: (**يَغشى الليلَ النهارُ**) بفتح الياء، ونصْب الليل، ورفع النهار، وتوافق القراءتين أولى من تخالفهما، فالليل قبل النهار، ويُعلم هذا من قوله تعالى أيضاً: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يسٓ: ٣٧]؛ لأنَّ المسلوخَ منه يكون قبل المسلوخ(٢)، فالأصل ظلام الليل، ونور النهار طارئ عليه.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ سريعاً، بلا فاصلٍ بينهما، فهما يتعاقبان بنظام دقيق محكم لا يتغير، يدلُّ على عظمة خالقه ومبدعه، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسٓ: ٤٠].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٥.

(٢) انظر: روح المعاني: ٨/ ١٣٦.

إنَّ الكونَ كلَّه في حركة مستمرة منضبطة بنواميس دقيقة، وإنَّ الروعةَ لا تكمنُ في ضخامة المكونات وكثرتها فقط، بل وفي حركتها الدقيقة الموزونة:

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ أي: خلقهن سبحانه وهن مذللات لأمره، وهو الناموس الكوني الذي أبدعه تعالى لهن، فلا يخرجن عليه.

مما يدلُّ على أنَّ هذه الأجرام الكبيرة خاضعة لإرادته سبحانه وحده، فهي مخلوقة محكومة خاضعة لخالقها ﷻ، فلا تستحقُّ أن تُعبد وتُعظَّم، إنَّما المستحق للعبادة هو خالقُها ومسيِّرها جلَّ وعلا.

**• التشريع لله وحده:**

والنتيجة التي يجب استخلاصها من هذا العرض السريع لخلق الكون وما فيه من نواميس تضبط حركته، وتحكم مسيرته، هي في قوله تعالى:

﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ فالكون بكلِّ ما فيه له وحده ﷻ، لأنه هو خالقه ومبدعه، ويدبِّر أمره من أصغر ذراته إلى أعظم أجرامه، فيلزمُ من هذا أن يكون الأمر فيه لمالكه وحده، لا يشاركه فيه أحدٌ، فهو المالك والحاكم، يحكم ما يريد، ويشرع ما يريد، جلَّ وعلا، لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه:

﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ الآية [يوسف: ٤٠].

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: تنزَّه وتقدَّس جلَّ وعلا في ذاته وأسمائه وصفاته عن كلِّ نقص، وكذلك في خلقه وأمره، فهما في غاية الكمال والإحكام.

وأصل كلمة (**تبارك**) إمَّا من البركة، ومعناها الزيادة والنماء، وهو سبحانه ربُّ المخلوقات كلها خلقها، ويمدُّها بعد خلْقِها بأسباب وجودها وكثرتها ونمائها. أو من البروك، وهو الثبات والدوام، وهو سبحانه الحي القيوم الباقي الدائم المنزَّه في ذاته وصفاته وأسمائه عن كلِّ تغيُّر ونقص:

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

• **الدعاء مخُّ العبادة:**

وبعد بيان هذه النتيجة اللازمة القطعية، توجّهت الآياتُ بالخطاب إلى جميع المكلَّفين بهذا الأمر الملزم الذي يظهر التناسق والاحتباك بين آيات السورة:

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي: توجَّهوا إلى الله تعالى ربِّكم بالدعاء والعبادة والطاعة.

فهو خالقكم، ومالك أمركم، هو الذي خلقكم، وصوَّركم، ومكنكم في الأرض، وسخر لكم ما في السماء والأرض، وحذَّركم من مكر الشيطان عدوكم الذي يسعى لكي يصرفكم عن طاعة ربِّكم وعبادته، فالآيةُ هنا تؤكد ما سبق في صدر السورة: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

وجاء هذا التأكيد بعد بيان فضله سبحانه على الإنسان في خلقه وتصويره وتمكينه، وبعدَ بيان قصته مع الشيطان، فواجبُ الإنسانِ أن يدعو الله ويتوجَّه إليه وحده.

ادعوا ربَّكم، فإنكم مسؤولون يوم القيامة أمامه، ادعوه وأنتم متذللون له جلَّ وعلا، خاضعون لأمره، منقادون لشرعه، فالدعاء مخُّ العبادة، ولا يقدم الداعي على الدعاء إلا إذا عرف من نفسِهِ الحاجةَ إلى ما يدعو به، وأنه عاجز عن تحصيله، وعرف أيضاً أن ربَّه يسمع الدعاء، ويعلم حاجة الداعي، ويستجيب له، ولا شك أن معرفة العبد نفسه بالعجز والنقص، ومعرفة ربه بالقدرة والكمال، من أعظم العبادات[1]؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: ادعوه وأنتم في حال التضرُّع والتذلُّل والاستكانة له وحده ﷻ.

﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرّاً، فإنَّ الإخفاءَ دليلُ الإخلاص، وهو سبحانه سميع عليم، ومن أدب الدعاء الإخفاء.

---

(١) روح المعاني: ٨/ ١٣٩.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه قال: كنا مع النبيِّ ﷺ في سفرٍ، فجعلَ الناسُ يجهرون بالتكبيرِ، فقال النبيُّ ﷺ: «**أيُّها الناسُ ارْبَعُوا على أنفسِكم، إنَّكم ليسَ تدعونَ أصمَّ ولا غائباً، إنَّكم تدعونَ سميعاً قريباً، وهو معكم**» [رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)].

ومعنى «**اربعوا على أنفسكم**»: ارفقوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين أمره سبحانه والمعرضين عن دينه وشرعه، ومنهم المتجاوزون في الدعاء، الذين يدعون غير ربِّهم، أو الذين يسألونه في دعائهم ما لا يليق بهم أن يسألوه منه سبحانه، كأن يسألوه شيئاً محرَّماً أو قطيعة رحم.

**عن أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**لا يزال يستجابُ للعبدِ ما لم يدعُ بإثمٍ أوقطيعةِ رحمٍ، ما لم يَسْتَعجِلْ**» قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «**يقولُ: قَد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرَ يستجيبُ لي، فيستحسرُ عندَ ذلك، ويَدَعُ الدعاءَ**» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

وقوله: «**يستحسر**» أي: ينقطع عن الدعاء.

- **الفساد والتلوُّث:**

إن الإعراض عن دين الله وشرعه يؤدِّي إلى الفساد في الأرض، وانتشار الظلم بين الناس، كما يؤدِّي إلى انقسام المجتمعات إلى شيع وأحزاب، وتفككها وضعفها، وتآكل الحضارات وسقوطها، ولهذا قال تعالى محذِّراً من هذه النتائج السيئة:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي: بعد أن جعلها الله تعالى صالحة، فخلقها على الوجه الملائم للإنسان ومعاشه، كما مرَّ معنا في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وأصلحها سبحانه أيضاً بالشرائع السماوية التي أنزلها على أهل الأرض، يبيِّن لهم فيها ما يصلح لهم من المناهج والشرائع التي تُسعدهم، وتُبقي لهم الأرضَ صالحة لحياتهم، عامرة بسعيهم وجدهم ونشاطهم.

**إنَّ** التزامَ دينِ الله وشرعه، والسير على منهج التوسط والاعتدال الذي امتازت به الشريعة الإسلامية، كما مرَّ معنا، من غير سرف ولا ترَف، **هو الذي** يحفظُ جمال الأرض ونقاءَها وبيئتَها الصالحة للحياة عليها.

**وإنَّ** خروجَ الناس عن دين الله تعالى، واتباعهم لأهوائهم وشهواتهم من خلال الشرائع الوضعية التي تعكس حبَّ الذات والتملك والجشع والطمع في نفوسهم، **هو الذي** أدَّى إلى فسادِ الأرضِ وتلويثِ بيئةِ الحياة فيها.

لقد أدَّى الطمعُ بالإنسان إلى إفساد الأرض وتلويث البرِّ والبحر والجو، حتى أصبح الوجود البشري على الأرض مهدَّداً، وأخذت أنماطٌ من الحياة الحيوانية الفطرية بالانقراض.

إنَّ نفايات المفاعلات النووية وما يتَسرَّبُ من إشعاعاتها، وعادم المعامل، وأسلحة التدمير الشامل من ذرية وكيميائية وجرثومية، أثَّر على بيئة الحياة في الأرض وأظهر الخلل فيها، وما الفجوةُ التي حدثت في الغلاف الأوزوني المحيط بالأرض إلا مظهراً من مظاهر الخلل والفساد في بيئة الحياة.

أضف إلى ذلك أنماط الحياة البشرية المصادمة للفطرة والكرامة الإنسانية المستحدثة، والتي أدَّت إلى الانحلال الخُلُقي والتمزق الاجتماعي، وتغلُّب نزعة الأنانية والفردية، وعدم الشعور بالانتماء والمسؤولية على كثير من الشباب في العصر الحاضر.

● **سبيل النجاة:**

لقد مرَّ معنا أن الله تعالى نواميس في خلقه ثابتة لا تتغير، منها ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وسيأتي معنا ما يماثله في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وإنَّ الطغيان والعدوان، والسرف والترف، والجشع والطمع، الذي تتسم به حياة الناس في ظلِّ الحضارة المادية وشرائعها الوضعية: أصبحَ خطراً يهدد بقاءها، وينذر بسقوطها، ولا نجاة للبشرية من هذا المصير المظلم إلا بالعودة إلى دين الله تعالى وشرعه، وهو ما أمر به سبحانه بعد أن حذّر من عاقبة الفساد في الأرض، فقال:

﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ارجعوا إلى دينه وشرعه، وأنتم خائفون من بأسه وانتقامه، وراجون رحمته وفضله.

فلا يأسَ من رحمة الله ولا قنوط، ومهما ابتعد الشاردون عن طريقه، وأبعدتهم معاصيهم وآثامهم عن بابه، فإنَّه غفور رحيم، يغفر لهم ويرحمهم إذا عادوا تائبين مستغفرين، ادعوه خوفاً من عدله، وطمعاً في فضله.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون العمل في عبادته وطاعته، وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ لكي يبيِّن أن المراد من الرحمة آثارها، فكأنه تعالى قال: إن إحسان الله وفضله قريب من المحسنين.

• **الرياح المبشِّرات:**

ومن مظاهر فضله وإحسانه على عباده إرساله الرياح الحاملة للخير والخصب والنماء:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: مبشرة بقرب أثر من آثار رحمته وفضله، وهو السحاب الحامل للمطر، كقوله تعالى في **سورة الروم**:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

فالرياح الرطبة التي تأتي بتقدير الله تعالى من جهة البحار، تحمل السحاب، وتبشِّر بقرب نزول المطر، والتنبؤات الجوية القائمة على رصد حركة الرياح واتجاهاتها، وقياس سرعتها وحرارتها، وكثافة بخار الماء فيها، لا تدخل في نطاق التكهُّن والتنبؤ المحظورَين في الإسلام، فهي ليست من الغيب، لأنها تقومُ على أمور مشاهدة محسوسة، بواسطة الآلات التي هدى سبحانه إلى صنعها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حتى إذا حملت الرياحُ السحبَ الكثيفة المشبعة ببخار الماء، فالرياحُ لا تأتي بالسحاب الممطر بشكل دائم ولازم، فقد تأتي أحياناً بالغبار والتراب إذا ما قَدَّر لها سبحانه أن تأتي من جهة الصحارى والأراضي اليابسة الجرداء.

﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: سقنا السحاب بوساطة الرياح لبلد مجدب يابس، لا نبات فيه ولا زرع، فبإرادته تعالى وقدرته تتوجَّه الرياح، وارتباط سيرها بالأسباب الأرضية التي تتصل بتقلبات الطقس لا يتعارض مع هذه الحقيقة، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات، ومشيئته سبحانه نافذة في ذرات الموجودات، وقدرته سبحانه من وراء كل الأسباب والمسببات.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي: فأنزلنا بمشيئتنا وقدرتنا الماء بهذا البلد المجدب القاحل. فنزول الماء من السحاب بتقدير الله تعالى، وكثيراً ما تظهر السحب الكثيفة في جو السماء، ولا ينزل المطر.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي قدَّر سبحانه إخراجها وخلقها.

وهذا دليل على قدرته سبحانه على إخراج الأموات، وبعثهم من قبورهم يوم القيامة:

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون، وتعرفون أنكم مسؤولون عن أعمالكم، وأنه سبحانه لم يخلقكم سدى.

• **القابلية والاستعداد:**

ولا يخرج النبات إلا من الأرض التي جعل الله فيها القابلية والاستعداد للانتفاع بماء المطر والإنبات، فثمَّةَ بقاعٌ كثيرةٌ لا تصلحُ للنبات، وكذلك النفوس البشرية، ترى بينها اختلافاً كبيراً في الاستعداد والقابلية للانتفاع من الشرائع الإلٰهية المنزلة عليهم، قال تعالى:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ذو التربة الطيبة المنبتة.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته سبحانه، ويكون طيباً نافعاً جميلاً.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ أي: والبلد ذو التربة الخبيثة التي لا تصلح للإنبات، إما لقسوتها أو لكثرة الأملاح فيها.

﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: لا يخرج النبات إلا خروجاً قليلاً لا خير فيه.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ وهكذا يقرِّب الله المعاني في ألفاظ وجمل رائعة معجزة.

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يعرفون فضل المنعم عليهم، وينتفعون بما أنعم به عليهم، عندما أرسل إليهم الرسل يحملون لهم الشرائع التي تسعدهم في الدنيا والآخرة.

إنَّهم أصحابُ القلوب الطيبة التي تقبلُ شرع الله تعالى وتعمل به، فتبني ولا تخرِّب، وتصلح ولا تفسد، وفي الحديث الشريف: عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ ما بعثني اللهُ من الهُدى والعلم، كمثلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكانَ منها نقيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ، فأنبتتِ الكلأَ والعشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادبُ، أمسكتِ الماءَ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى، إنَّما هي قيعانٌ لا تمسِكُ ماءً، ولا تنبتُ كَلأً، فذلك مثل مَنْ فَقِهَ في دينِ اللهِ تعالى ونفعه ما بعثني الله به، فعلِم وعلَّم،**

**ومثل مَنْ لم يرفعْ بذلك رأساً، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الذي أُرسِلْتُ به»** [رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢)].

فالنفوسُ البشرية مختلفةٌ في مدى استعدادها وقابليتها للخير، تماماً كاختلاف بقاع الأرض في صلاحيتها للزرع والنبات، ولا عجب في ذلك فالإنسان مخلوق من تراب الأرض.

بهذا المثل الرائع عن قابلية الإنسان واستعداده للخير أو للشر، خَتَمَتِ الآيات الكريمة في سورة الأعراف حديثَها عن الإنسان ومبدأ وجوده، وصراعه مع الشيطان، وصلته بالأرض، ومسؤوليته وحريته واختياره وتكليفه، وعلاقته بالكون والنواميس الدقيقة، التي أبدعها الخالق العظيم.



# الفصل الخامس

## صفحات من التاريخ

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝٦٤ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٧٢ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟

فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ
ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ
رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ
فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ
لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ
أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ
﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ
﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا
لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا
تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن
كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ
ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ
يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن
قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾
قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ
ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ
ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ
فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ

وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

- **القرآن الكريم والتاريخ:**

شرعت الآياتُ تعرِضُ لنا صوراً تاريخيةً متلاحقةً لمسيرة الإنسان على الأرض، كشفت لنا من خلالها كيفية تعامل الإنسان مع الرسالات الإلـٰهية من جانب، ومع الشيطان من جانب آخر، صوراً واقعية للحياة البشرية، فيها الاستقامة والانحراف، والعدل والظلم، والعمران والخراب، والخير والشر، وأظهرت لنا من خلالها أيضاً دور المواجهة بين الخير والشر في تحريك أحداث التاريخ، والأسباب الأساسية الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات.

ولقد احتلَّت هذه الصور التاريخية مساحةً كبيرةً من السورة، مما يدلُّ على الأهمية الكبيرة للتاريخ، وأن له دوراً هامّاً في حاضر الوجود البشري ومستقبله.

إنَّ للتاريخ في نظر القرآن الكريم تأثيراً كبيراً على حياة الإنسان ومستقبله، ورغم أنَّ أحداثه مضت وانقضت، إلا أنها تُبقي بصماتها واضحة على السلوك البشري وممارساته، كما أنها تساهم بشكل غير مباشر في تحريك الأحداث ودفعها.

فمن طبيعةِ الإنسانِ أنَّه ينفعلُ مع الحوادث، يتأثَّر ويؤثِّر، وقراءة التاريخ

مرآة، يرى الإنسان من خلالها انفعالاته وردوده الانعكاسية على كلِّ ما يواجهه في حياته، إنَّ التاريخَ ذخيرةٌ حيةٌ من التجارب الواقعية للحياة البشرية على الأرض، تُمدُّ الإنسان بفيض زاخر من العِبر والدروس والعظات.

وروعةُ القرآنِ أنَّه يتخيَّرُ من الحدث التاريخي الجانبَ المؤثِّر في الإنسان، الذي يتفق مع الموضوعات التي يعالجها، ولهذا فإنَّ على الذي يريدُ أنْ يُلمَّ بالحدث التاريخي من جميع جوانبه، أن يتتبع حلقاته في جميع المواضع التي ذكر فيها، وسيرى في كلِّ موضع شيئاً جديداً، غير موجود في المواضع الأخرى.

اختارتِ الآياتُ الكريمةُ عدداً من المجتمعات البشرية البائدة الموغلة في القدم، والتي قامت في بلاد العرب، حيث أُنزل القرآن الكريم، وفي البلاد المتاخمة لها، ويبدو أنَّ هذه البلاد، هي البلاد التي شهدت بزوغ فجر الحضارات البشرية، وظهور المجتمعات الإنسانية قبل غيرها، فهي البلاد التي تتوسط العالم القديم في قاراته الثلاث المتجاورة: آسية، إفريقية، أوربة؛ كما أنها تتمتَّع بمناخ معتدل، وفيها سهول كبيرة ذات تربة خصبة، تجري فيها أنهار غزيرة دائمة الجريان، مما يجعلها صالحةً لنمو المجتمعات البشرية أكثر من غيرها؛ فلا عجب أن يركِّز القرآن على تاريخ المجتمعات البشرية التي عاشت في هذه البلاد، إذ هي غنية بالتجارب الإنسانية بسبب كثرة الأمم التي سكنتها أو مرَّت منها، كما أنه سبحانه أرسل فيها كثيراً من الأنبياء والمرسلين، وأنزل فيها أعظم الشرائع.

لقد عرضت الآيات بعض الصور التاريخية لهذه المجتمعات بحسب تسلسلها الزمني، فبدأت بأقدمها ثم بالذي يليه... وكأنَّ السورةَ ترسم لنا خطّاً بيانيّاً لحركة تاريخ المسيرة البشرية على الأرض، من مبدأ وجودها وحتى عصر خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ عندما ظهرت الأمة المسلمة وحضارتها الإسلامية، وبهذا فصَّلت الآيات ما سبق أن ذكرته مجملاً

في أول السورة: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾، وبيَّنت لنا من خلال العرض الميداني الواقعي أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات.

• **قوم نوح:**

نوح عليه السلام أول رسول أُرسلَ إلى أهل الأرض، والدليل على ذلك ما ورد في حديث الشفاعة، المتفق على صحته، قال فيه رسول الله ﷺ عن نوح: «... **فإنَّه أولُ رسولٍ بعثه الله إلى أهلِ الأرضِ**».

و بعثته عليه السلام إلى أهل الأرض باعتبار الواقع، كما قال ابن حجر رحمه الله، لصدق أنهم قومه، بخلاف عموم بعثة نبينا محمد ﷺ لقومه ولغير قومه[1].

ويبدو أنَّ قومَ نوح كانوا هم أهل الأرض في ذلك الزمن الموغِل في القدم، وكانوا يقيمون في العراق، بلاد ما بين الرافدين، قبل أن ينتشرَ الناس في الأرض.

وكان الناسُ في أول أمرهم منذ أبيهم آدم عليه السلام موحِّدين، يعبدون الله وحده، ثم طرأت عليهم الوثنية، فعبدوا الأصنام، وقد بيَّن ابن عباس رضي الله عنهما كيفية انتشار عبادة الأصنام بينهم، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلكَ أولئك ونُسِخَ العلمُ، عُبدت. [رواه البخاري (٤٩٢٠)].

ومعنى قوله: **(ونسخ العلم)** أي: ضاع علمهم بأصل الأنصاب، وفشا بينهم الجهل، ويؤيده ـ أي: ابن عباس رضي الله عنهما ـ قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٣].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٣٤.

وقصة نوح مع قومه قصة طويلة، امتدَّت على مدى تسعة قرون ونصف، ولم تعرض لنا الآياتُ سوى حلقة من حلقات المواجهة الكثيرة بينه وبينهم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لأنَّه لا يستحق العبادة أحد غير الله.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

فمهمة الأنبياء الأساسية أن يدعوا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، أما الإيمانُ بوجوده سبحانه، فأمرٌ مركوز في فطرة الناس، وكل الدلائل العقلية تدلُّ عليه جلَّ وعلا، ولهذا قال نوح لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وهي الكلمةُ التي قالها أيضاً جميعُ المرسلين لأممهم، كما سيأتي معنا.

- **استكبار وعناد:**

وكان ردُّ رؤساء الضلال في قومه غليظاً وخشناً:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ الذين يملؤون الأبصار بزينتهم وخَدَمهم وأعوانهم.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهابٍ وابتعادٍ عن طريق الصواب.

وكلمة (نراك) تدلُّ على استكبارهم واستعلائهم.

ونفى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن نفسه صفة الضلال على أبلغ وجه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ وهي المرَّة الواحدةُ من الضلال.

ثم استدرك مثبتاً لنفسه صفة الرسالة التي أكرمه بها ربُّ العالمين:

﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومبيِّناً المهمة التي كُلِّفَ بها:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وهي أحكام دينه وشرعه.

﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ وأتحرَّى ما فيه صلاحكم وسعادتكم، فلا أريد لكم إلا الخير.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأعلم من صفات كمال الله وجلاله ما لا تعلمون، فهو رحيم بعباده، يغفر للتائبين ويرحمهم، وهو شديد العقاب، لا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين المعرضين عن رسالة ربِّهم.

وكان قومه قد استبعدوا رسالته، واستنكروا أن يرسله الله إليهم، فردَّ على استنكارهم قائلاً:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فتعجُّبكم لا معنى له، واستنكاركم لا داعي له. **والذكر**: الوحي.

﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ تعرفونه، وتعرفون نسبه وصدقه وأمانته.

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ من عذابه سبحانه.

﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ الكفرَ والمعاصيَ بطاعته سبحانه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالإنذار يدفع إلى التقوى، وهي سبب الرحمة.

وجيء بحرف الترجي **(لعل)** في الرحمة، للتنبيه على عزة الرحمة وعلو مطالبها، وأنها منوطة بفضل الله تعالى ومشيئته، فلا اعتماد إلا عليه(١).

---

(١) انظر: روح المعاني: ٨/ ١٥٣.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأصرُّوا على شركهم وكفرهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ من العذاب الذي نزل بهم، وهو الغرق بالطوفان.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين، وما آمن به إلا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ في السفينة التي صنعها بأمر الله ووحيه، كما ذكر سبحانه في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: كانوا عُمْيَ القلوب والبصائر عن رؤية دلائل الحقِّ الواضحة، بسبب تكبُّرهم واتباعهم لشهواتهم وأهوائهم.

وهكذا أهلك اللهُ مجتمعاً بشريّاً كان من أقدم المجتمعات البشرية وجوداً، ودمَّر حضارته بسبب إصرارهم وعنادهم الذي امتدَّ تسعة قرون ونصف، مما يدلُّ على طول أعمارهم ورسوخ حضارتهم.

- **عاد قوم هود:**

ثم طوت الآيات أحقاباً طويلة من الزمن، حتى انتعش الوجود البشري مرَّة ثانية في الأرض، بعد أن تكاثر أبناءُ نوح الذين كانوا معه في السفينة، واختارت الآياتُ أُمّةَ عاد قوم هود ﷺ، الذين كانوا يسكنون في الأحقاف، في الجنوب من شبه الجزيرة العربية، ويسمَّى اليوم بصحراء الربع الخالي، وكان في الماضي خصباً كثير الخيرات، غنيّاً بالمياه والنباتات، قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ وهي الكلمة التي قالها نوح لقومه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى فتعبدوه وتطيعوه وحده.

وبادر الملأ من قومه إلى معارضة دعوته، والصدِّ عن رسالته، كما فعل الملأ من قوم نوح عليه السلام:

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي: في حُمقٍ وجهالةٍ وقلَّة عقل.

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

وردَّ هود عليه السلام عليهم نافياً ما اتهموه به، كما فعل نوح عليه السلام:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾.

أمين على رسالة ربي، أو أمين في نُصْحكم.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٦٩﴾.

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾؛ ولا بدَّ أن يلحظ القارئ كثرة التشابه بين قوم نوح وبين قوم هود، ممَّا يدلُّ على أنَّ طبيعة الإنسان لم تتغير مع مرور الزمن.

- **قوة الأبدان والعضلات:**

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ أي: اذكروا فضل الله عليكم إذ

جعلكم تخلفون قوم نوح في عمارة الأرض واستثمار خيراتها، فاحذروا أن ينزلَ بكم من العذابِ والهلاكِ مثل ما نزل بهم.

ويبدو أنَّ أمة عادٍ كانت في ذلك الوقت أقوى الأمم وأغناها، فكأنَّ الأرضَ كانت لهم وحدهم، كما كانت لقوم نوح عليه السلام، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فكأنَّ الآياتِ في سورة الأعراف اختارت في عرضها لمسيرة حركة التاريخ البشري، أقوى الأمم في عصرها، وأغنى المجتمعات، وأعظمها حضارة ومدنية، لكي تبيِّن أسباب هلاكها وسقوط حضارتها.

ومما يؤكد أن قوم هود كانوا أقوى الأمم في عصرهم، أنَّه سبحانه خصَّهم بقوة أبدانهم وعضلاتهم في عصر كانت قوة الأبدان والعضلات أهم أسباب التفوُّق والتغلُّب، فلم يكن في عصرهم مثلهم في ضخامة الأجسام وقوتها، ولهذا قال لهم هود، وهو يذكِّرهم بفضله سبحانه عليهم:

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي: زاد في قوة أجسامكم وحجمها.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله تعالى عليكم لتعرفوا فضله وإحسانه، فتشكروه وتعبدوه وحده، وقد ذكر الله في **سورة الشعراء** تفصيلاً لبعض آلاء الله تعالى عليهم على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ بلادهم كانت خصبةً، آهلةً بالسكان والعمران، جناتها كثيرة، ومياهها غزيرة، وخيراتها وفيرة، وكان لهم حضارة قوية ما عرفت المجتمعات البشرية مثلها في عصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فشكر المنعم بطاعته والتزام شريعته، هو طريق الفلاح والنجاح، ومرَّ معنا أن الشيطان قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وأصرَّ القوم على كفرهم وعنادهم كما فعل قوم نوح:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ فكأنَّ عبادة الله وحدَه منكر في نظرهم.

﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان.

إنَّ التمسكَ بالتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد من أكبر المعوِّقات التي تقوم في وجه دعوة الأنبياء والمرسلين، وتمنع كلَّ إصلاح وتقدُّم.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إنه العناد والتحدِّي.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد نزل ووجب.

فجعل المتوقع الذي لا بدَّ من نزوله بمنزلة الواقع(١) ممَّا يدلُّ على شدة ثقته عليه السلام بربِّه؛ فهو يعلمُ أنّ لله تعالى نواميس في خلقه لا تتغير، منها إهلاك المعرضين عن دعوة رسله والمعاندين لدينه وشرعه.

﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: عذابٌ وسُخْطٌ.

وأردف عليه السلام يبيِّن لهم حقيقة أصنامهم التي يعبدونها فقال:

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ فهي ليست سوى أسماء، عارية عن المسمَّى، بسبب ضعفها وعجزها، إنْ هي إلا رموزٌ وأسماء مخترعة.

---

(١) تفسير النسفي: ٢/٥٧٨.

﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجّة ولا برهان.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب.

﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

وبعد الانتظار:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من العذاب الذي أنزله الله على الأمّة كلِّها، لأنهم آمنوا وخرجوا على ضلال المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه، ولم يسيروا مع تيار الضلال الغالب عليه، ولم يرضوا به.

﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أوجبها سبحانه على نفسه فضلاً منه وإحساناً، كما قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً كليّاً، ودمرناهم عن آخرهم، لأنهم كذَّبوا بآيات الله.

﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدِّقين بها، ومذعنين لها.

حبس الله عنهم المطر حتى أجدبت بلادهم، ويبست زروعهم، وهلكت أنعامهم، ثم أرسل عليه الريح العقيم والأعاصير المدمرة في أيام نحسات حاسمة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة].

وهكذا أهلك الله أمّةً كانت أقوى الأمم في زمانها، ودمَّر حضارةً كانت أغنى الحضارات وأنضرها في عصرها، لأنَّهم أعرضوا عن دعوته، دعوة الرحمن، واتبعوا وساوس الشيطان.

- **ثمود قوم صالح:**

وانتقلت الآيات إلى موقع حضاري آخر في أرض العرب، وتحوَّلتْ من

الجنوب إلى الشمال، إلى أمةٍ ورثت كلَّ ما كان لعاد من قوة وغنًى وتمكن في الأرض، إلى ثمود التي كانت أيضاً أقوى الأمم في عصرها وأكثرها غنًى وحضارة، قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ أي: معجزة واضحة تدلُّ على صدق صالح عليه السلام في نبوته ودعوته.

﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ معجزة في كيفية خلقها، إذ خلقها سبحانه أمامهم من صخرة، وفي شِربها، فقد كانت إذا وردت ماء البئر تشربه كلّه، وفي عطائها، فقد كانت تعطيهم لبناً كثيراً يكفيهم جميعاً، وما أُعطوها إلا بعد أن سألوها، كما جاء في قوله تعالى عنهم في **سورة الشعراء**: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥﴾.

﴿فَذَرُوهَا﴾ اتركوها.

﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وبعد أن حذَّرهم من عذاب الله الأليم ذكَّرهم بفضله عليهم:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ في القوة والغنى والتمكُّن.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: وجعلكم تنزلون وتسكنون في أرض الحِجْر بين الحجاز والشام.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور في سهولها.

وكلمة (**القصور**) تدلُّ على الغنى وامتداد العمران وكثرة الزخارف فيها.

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي: وتشقون الجبال، وتبنون فيها البيوت، فالعمران كان يغلبُ على حضارتهم، وكانوا يعيشون في غنًى ورخاء، يقيمون في قصورهم شتاءً، ويصعدون إلى بيوتهم الجبلية صيفاً.

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تنشروا الفساد في الأرض، فالإعراض عن عبادة الله تعالى ودينه وشرعه، يؤدِّي إلى نشر الفساد، فنعمُ اللهِ كثيرةٌ، والأرضُ صالحةٌ للعيش الكريم السعيد، فلا تفسدوها بموالاة الشيطان واتباع الأهواء والشهوات.

- **ضعف وقوة:**

استجابت لدعوة النبي صالح عليه السلام فئة قليلة من عامة قومه، وأبى أكثرهم، وانضمُّوا إلى الأغنياء والوجهاء، وتعرَّض المؤمنون للأذى والسخرية، وعرضت لنا الآيات مشهداً من مشاهد المواجهة بين الفئة الضعيفة المؤمنة وبين زعماء الكفر والضلال ومن وقف معهم:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: للذين آمنوا وقبلوا دعوة صالح عليه السلام.

وجاء التقييد بوصف الإيمان، لكي يبيِّن أنَّ بعضَ العامةِ قد استجابَ لدعوة الحق وآمن بها، وأما أكثرهم فظلُّوا على كفرهم متابعين لزعمائهم ورؤسائهم.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، قال لهم ذلك على سبيل السخرية

والاستهزاء والتهديد والوعيد، ولهذا عدل المؤمنون عن الجواب بـ (نعم) إلى إعلان إيمانهم بدعوة صالح عليه السلام على سبيل التحدي:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ فصدقُ صالحٍ واضحٌ معلومٌ، والواجب المبادرة إلى الإيمان برسالته، وهو ما نواجهكم به، ولو كان يسوءُكم ويؤلمكم.

عجباً للإيمان، ما أعظمَ تأثيره على النفوس والقلوب! جعل الفئة المستضعفة المقهورة فئةً قويةً تتحدَّى جبروتَ الظالمين، وتعلن كلمة الحق في وجوههم مجلجلة مدوية.. لقد سكب الإيمانُ بالله القوةَ في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، فأصبحوا أقوياء بعد أن كانوا ضعفاء.

وفوجئ الطغاة المتكبرون بشجاعة المؤمنين وثباتهم وقوة إيمانهم، فلم يجدوا ردّاً عليهم ليحفظوا ماء وجوههم، ويستروا خزيهم، إلا أن يعلنوا كفرهم:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

- **وقفة على الأطلال:**

ثم تمادوا في طغيانهم:

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أي: قتلوا الناقة المعجزة.

﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن الانقياد لأمر ربهم الذي أخبرهم به صالح عندما قال لهم: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولا شك أنهم قالوا

ذلك على سبيل التحدي والعناد، كما فعل قوم عاد قبلهم، فمواقف المعاندين المعرضين عن دين الله متشابهة، ولو اختلف الزمان والمكان.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، أخذتهم كما يؤخذ الشيء اليسير الحقير.

ودلَّ حرف الفاء في قوله: (**فأخذتهم**) على التعقيب، فلم يُمهلوا كثيراً بعد عقرهم الناقة المعجزة، بل عجل الله تعالى في إهلاكهم والانتقام منهم.

وقد بيَّن سبحانه في **سورة هود** أنه أمهلهم ثلاثة أيام فقط، عانوا في أثنائها أشد أنواع القلق والخوف مع الترقُّب والانتظار: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

وجاءتهم الصيحة من فوقهم والزلزلة من تحتهم:

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ هامدين لا حراك بهم، دمَّرت الزلزلةُ قصورَهم ومساكنهم وسائر عمرانهم.

ونجَّى الله ﷻ نبيَّه صالحاً والمؤمنين، فوقف عليه السلام على أطلال قومه وخرائب عمرانهم وجثثهم الهامدة:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: أشاح بوجهه عنهم لهول منظر الخراب والدمار والموت.

﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وكما خاطب صالحٌ قومه بعد أن أهلكهم الله، خاطب نبيُّنا محمد ﷺ قتلى المشركين بعد غزوة بدر حين أُلقوا في القليبِ، ناداهم بأسمائهم وأسماء

آبائهم: «**يا فلان ابنَ فلان، ويا فلان ابنَ فلانٍ أيسرُّكُم أنَّكُم أطعتم الله ورسوله؟ فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقّاً؛ فهل وجدتُم ما وعَد ربُّكم حقّاً؟**» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلِّمُ من أجسادٍ لا أرواحَ لها؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**والذي نفسُ محمَّدٍ بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم**» [رواه البخاري (٣٩٧٦)] قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً.

وهكذا أهلك الله تعالى أمة ثمود، وسقطت حضارتهم، فلم يبقَ منها إلا الأطلال والقصور المنحوتة في صخور الجبال، وعندما مرَّ بهم النبيُّ ﷺ وأصحابه، وهم في الطريق إلى تبوك، قال ﷺ: «**لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسَهم إلا أن تكونوا باكينَ، حذراً أن يصيبَكم مثل ما أصابهم**» ثم زجر فأسرع حتى خلفها. [رواه مسلم (٢٩٨٠)].

- **قوم لوط:**

ومضت الآيات مع حركة التاريخ البشري في الأرض، وتجاوزت أمماً كثيرة وحضارات كبيرة، حتَّى وصلت إلى العصور التاريخية التي تمكَّن الإنسان من رؤية بعض معالمها، ومعرفة شيء عن أحداثها، ووصلت إلى عصر إبراهيم عليه السلام، حيث انتشرت المجتمعات البشرية وتكاثرت، وبرزت فيه عدَّة حضارات، واختارت الآيات منها مجتمعاً بشريّاً كان يقيم في أرض فلسطين في منطقة البحر الميت أو بحيرة لوط، وقفت الآيات عند هذا المجتمع البشري لكي تبيِّن سبباً من أكبر أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو الخروج عن سنن الفطرة التي فطر الناس عليها في شأن تكاثرهم وتناسلهم، وتلبية رغباتهم الجنسية.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ منكراً وموبِّخاً:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة التي بلغت أقصى غاية في القبح والسوء.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن مباشرة العمل القبيح قبيح واختراعه أقبح.

ثم بيَّن عليه السلام هذه الفاحشة المنكرة والباعث عليها فقال:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ أي: أمثالكم من الذكور، كما في قوله تعالى في **سورة الشعراء**: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

فالقوم كانوا شاذِّين جنسيّاً، يأتي بعضهم بعضاً دون تمييز بين صغير وكبير، وما ذكر الرجال هنا إلا زيادة في النكير عليهم وتوبيخهم.

﴿شَهْوَةً﴾ أي: من أجل الشهوة فقط، لا من أجل غرض آخر، وهو التكاثر والتناسل وبقاء النوع، فالقوم عبيد الشهوة الشاذَّة.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: متجاوزين النساء، ومعرضين عنهن، وهن محل الاشتهاء الفطري للرجال.

- **الإسراف والشذوذ:**

ثم بيَّن عليه السلام سبب الشذوذ، ومجاوزة الفطرة، فقال:

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: خارجون عن حدود الاعتدال.

فحياة الترف والسرف، التي سبق أن حذَّر سبحانه منها في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] هي التي أدَّت بهم إلى الانحراف والشذوذ.

ولهذا انتشر الشذوذ في كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة المترفة، كالمجتمعات الأوربية والأمريكية، المجتمعات التي أباحت الزنى، وسهَّلت الاتصال بالنساء، وشجَّعت عليه بكلِّ وسائل إعلامها، ومن أجله استحدثوا فنون التعري وإظهار السوءات.

فالشذوذ الجنسي ليس سببه منع اختلاط الرجال والنساء، وتحريم الزنى، ومنع المرأة من كشف زينتها، وإظهار مفاتنها أمام الرجال، كما يزعم بعضهم، إن شهادة الواقع تكذِّبهم، وتخرق عيونهم، ففي أوربة وأمريكة لم يبقَ ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كلِّ ذكر وكلِّ أنثى ـ كما في عالم البهائم ـ ومع ذلك انتشر الشذوذ الجنسي بينهم، ومعدله في ارتفاع دائم، ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ السلوك الجنسي عند الرجال والسلوك الجنسي عند النساء في تقرير كنزي الأمريكي[1].

ويلاحظ المتدبِّر للآيات الكريمة أنَّ لوطاً عليه السلام لم يبادر إلى دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، كما فعل سلفه من الأنبياء في الكلمة التي قالها كلُّ واحد منهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، بل بادر عليه السلام إلى تحذير قومه من عواقب الشذوذ المنتشر بينهم، لأنه لاحظ شدَّة تأثير الشذوذ عليهم، لقد غلب على عقولهم وقلوبهم وسدَّ كلَّ منافذ الخير فيهم، حتى أصبحوا صرعى شهوتهم وشذوذهم، فهم في سكرة الشهوة لا يسمعون أي موعظة تتعلق بغير ما هم فيه، شأنهم شأن من أدمن على المخدرات، وقد وصف الله سبحانه حالتهم هذه في **سورة الحجر** فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾.

ولهذا بادر عليه السلام أولاً إلى إيقاظهم من سكرتهم، وإنقاذهم من حمأة الشذوذ الذي تمكَّن منهم، ومواجهة العلة المستحكمة فيهم، وهذا يدلُّ على أن مهمة الأنبياء عليهم السلام لا تقتصر على إصلاح عقيدة الناس وعبادتهم، بل تمتدُّ مهمتهم إلى إصلاح حياتهم الاجتماعية، وتتصدَّى لكلِّ المفاسد الأخلاقية المنتشرة بين الناس.

- **مطر من حجارة:**

وتجاهل القومُ نصحَ لوط، ومواجهته لهم بعلَّتهم، وتذكيرهم بعواقبها

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٣١٦.

الوخيمة، وبدل أن يردوا عليه، التفت رؤساء الضلال والفساد فيهم إلى العامة، وهم يسخرون من لوط ومن كان من أهله، ويتوعدونهم بطردهم من بلدهم:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

عابوا عليهم تنزههم عن حمأة الفواحش التي انغمسوا فيها، مما يدلُّ على شدة تأثير الشذوذ عليهم، حتى أنزلتهم إلى هذا المستوى الهابط، حيث اختلَّت الموازين، وانعكست القِيَم، فأصبحت الرذيلة فضيلة في نظرهم، وصارت العفّة جريمة يُعاقب صاحبها بسببها، ويُطارد من أجلها، فلا مكان له بين الملوثين الفاسدين.

ولا خير في مثل هذا المجتمع، ولا علاج له إلا الاستئصال والحسم، بسبب تحكُّم الفساد فيه:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ ممَّن كانوا معه في بيته، إذ دبَّ الفساد وانتشر في جميع بيوتهم وأسرهم، كما قال سبحانه في **سورة الذاريات**: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وهو بيت لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: كانت من الباقين في العذاب، لأنها كانت تُسر الكفر، وتوالي قومها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ من حجارة لا من ماء، كما ذكر سبحانه في **سورة هود**: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾.

وقد أخطأ سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ عندما قال: «وقد أمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف، ترى هل كان هذا المطر المغرق والماء الدافق لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه؟!»[١]؛ مع أنه رَحِمَهُ اللهُ قال في موضع آخر: «حجارة ملوثة بالطين»[٢].

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فالعاقبة أليمة، لأن الجريمة كبيرة وخطيرة، إنَّ انتشار الشذوذ الجنسي في مجتمع من المجتمعات مؤشر خطير إلى انحلال هذا المجتمع وتآكله وسقوط حضارته.

مضى لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بعيداً دون أن يتوقف أو يلتفت، كما فعل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما وقف على أطلال قومه، فالمنظر مُخيف لا يُحتمل، وتابع السير كما أمره ربه في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

- **قوم شعيب:**

وعندما اقتربت الآيات الكريمة في مسيرتها التاريخية من عصر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقفت عند مجتمع بشري، عاش في موقع متوسط بين بلاد قوم لوط وبلاد ثمود في الحجر، وهو مجتمع المديانيين، مجتمع التجار ورجال الأعمال الواقع بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، ولقد استفاد المديانيون من موقع بلادهم على طرق التجارة، فاشتغلوا بها، ودرَّت عليهم أرباحاً طائلة وثروات كبيرة.

وقفت الآيات عند هذا المجتمع لتبيِّن سبباً كبيراً من أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو الطمعُ والجشعُ الذي يؤدِّي إلى انتشار الغش في المعاملات، والاحتيال في المبادلات التجارية. قال تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣١٦.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٩١٥.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾؛ بدأ عليه السلام كما بدأ سلفه من الأنبياء بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده، فهي أساسُ كلِّ إصلاح، ولا صلاحَ لأيِّ مجتمع من دونها، ولم يخرج عن هذه القاعدة غير لوط عليه السلام بسبب كثرة الشذوذ الغالب على قومه كما مرَّ معنا.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جاءتكم معجزة واضحة دالَّة على صدق نبوتي.

وسكتت الآياتُ عن هذه المعجزة، وانتقلت في الحديث عن مواجهة شعيب للمفاسد الاجتماعية التي كانت تنخر في جسم المجتمع المدياني، وتهدِّده بالهلاك والسقوط.

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: أتموا الكيل والميزان.

﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم.

- **التلاعب بالمقاييس:**

إن انتشار الغش والاحتيال والتلاعب بالمكاييل والموازين في الأمة، يؤدِّي إلى تمزق في بنيتها الاجتماعية، وكساد في اقتصادها، وركود في تجارتها، فلا يثق الناس بعضهم ببعض، ويبقى كلُّ طرف من أطراف المعاملات على حذر من الأطراف الأخرى، فلا يتعامل معهم إلا مضطرّاً.

ولقد حذَّر الله سبحانه في عدة آيات من القرآن الكريم من العواقب الوخيمة للتلاعب بالمقاييس الموضوعة لضبط التبادلات التجارية بين الناس، كالمكاييل والموازين، وسمَّى سورة كاملة بالمطففين الذين يفعلون ذلك، بدأها

مهدِّداً متوعداً بقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾.

فالتلاعبُ بالمقاييس يؤدّي إلى نشر الفساد في الأرض، ولهذا قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ﴾ أي: بعد أن جعلها الله صالحة لحياة الإنسان، وبعد أن أصلحها سبحانه أيضاً بالشرائع التي أنزلها كما مرَّ معنا في قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

فإنّ الصدقَ والأمانةَ في المعاملات التجارية يؤدِّيان إلى إنعاش الاقتصاد ورواج التجارة وزيادة الأرباح، وقد لمس هذا كبارُ المنتجين في الدول الصناعية، فعملوا على تحسين إنتاجهم لترويجه بين الناس وكسب ثقتهم، لا حبّاً بالصدق والأمانة، فإنهم مصدر كبير للتزوير والخيانة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم حقّاً مصدِّقين بدعوتي منقادين لرسالتي، فلا بدَّ للأخلاق الطيبة الحسنة أن تستندَ إلى قيم ثابتة راسخة في وجدان الإنسان، وإلا تغيرت وتبدلت بحسب تقلب المصالح المادية وتغيرها.

وتابع شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مواجهة الآفات الاجتماعية المنتشرة بين قومه فقال:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: لا تقطعوا الطرق على المسافرين

وأنتم تتوعدونهم، فقد حملهم الطمع والجشع على اعتراض طرق القوافل المارة ببلادهم لكي يأخذوا منها الإتاوات والمكوس[١].

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: وتمنعون عن دين الله تعالى.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ فكانوا يضطهدون المؤمنين ويؤذونهم، ويحاولون فتنتهم عن دينهم كما كان مشركو قريش يفعلون بالمسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون أن تكون شريعة الله موافقةً لأهوائكم وشهواتكم.

ولا يخفى ما في خطابه عليه السلام من التوبيخ والتهكم بهم، حيث طلبوا ما هو محال، إذ طريق الحق لا يعوج[٢].

وبعد أن واجههم عليه السلام بمفاسدهم وأمراض مجتمعهم، ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي: كثَّر عددكم بعد القلَّة، وكثَّر أموالكم بعد الفقر، فاشكروا نعمة الله عليكم وأطيعوه واعبدوه وحده.

﴿وَٱنظُرُوا۟﴾ نظر التفكُّر والاعتبار.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط.

- **الدعوة والحرية:**

رأى قادة المجتمع المدياني وأصحاب الثراء والسلطان في دعوة شعيب عليه السلام خطراً يهدِّد مكانتهم وزعامتهم، إنه يواجههم بظلمهم وبغيهم، وينكر عليهم الوسائل التي اتبعوها لزيادة ثرواتهم، فدعوته عليه السلام لم تقتصر على إصلاح العقيدة والعبادة، بل انتهت إلى إصلاح المجتمع كلِّه وإصلاح أنماط التعامل والكسب فيه، فلا ينبغي أن يكون فيه احتيال وخداع، واعتداء على حقوق الضعفاء والغرباء، وأكل أموالهم بالباطل، فتصدوا له محاولين منعه عنها: ﴿قَالُوا۟

---

(١) الضرائب المأخوذة من التجار المسافرين.

(٢) انظر: روح المعاني: ٨/ ١٧٨.

يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٦].

ثم هدَّدوه بإخراجه وإبعاده عن بلده لكي يأمنوا من خطر دعوته، وأخذوا يلاحقون الذين استجابوا لدعوته، يؤذونهم، ويضيِّقون عليهم.

وانقسم المجتمع المدياني إلى طائفتين: الطائفة المؤمنة المستضعفة، والطائفة الغنية المستكبرة.

وعزَّ على شعيب عليه السلام أن يرى المؤمنين مضطهدين مستذلين، فطالب بالكفِّ عن أذاهم، وإعطائهم حرية العقيدة والعبادة، فقال:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟﴾ أي: احبسوا أنفسكم عن اضطهاد المؤمنين والعدوان عليهم، أعطوهم حريتهم.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ أي: حتى يقضيَ الله بيننا فإنه سبحانه سينصر الحقَّ وأهله، ويخذل الباطل وأهله.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ﴾.

فلا بدَّ للحقِّ أن ينتصر إذا ما أتيحت له الحريةُ في مواجهة الباطل، وهو ما طلبه شعيب من قومه عندما قال لهم: ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ﴾ أي: ارفعوا أيديكم عن المؤمنين، واتركوا الأفكار تتواجه بحرية، فنحن لا نجبركم على الدخول في ديننا، فدعونا نبلِّغ دعوة ربنا دون أن تضيقوا علينا.

وهذا ما كان نبينا محمد ﷺ يبحث عنه عندما أخذ يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم، فكان يوافي في الموسم الحجاج في منازلهم في عكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يحموه حتى يبلِّغ رسالة ربِّه ﷻ[1].

---

(١) سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، للمؤلف، ص١٩٥.

فعلى الدعاة في العصر الحاضر أن يدركوا أهمية الحرية لدعوتهم، عليهم أن يسعوا إلى إقامة المجتمع الحر، الذي يستطيعون أن يبلِّغوا فيه دعوة الله بحرية، فهي دعوة قوية مؤيدة بدلائل الحقِّ يمكنها أن تكتسح جميع الدعوات المخالفة لها، إذا ما أتيح لها ميدان التفكير الحر الكريم.

• **مصرع المستبدِّين:**

ورفض القومُ دعوة شعيب إلى الحرية، ورأوا فيها خطراً عليهم، فأجهزوا عليها، وفرضوا جوَّ القهر والاستبداد على الناس.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ فلا حرية لكم، إمَّا الطردُ والإبعادُ عن الوطن، وإما أن تعودوا إلى العيش الذليل في ظلِّ النُّظم الجائرة.

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها؟! فالعقائد لا تُبنى بالإجبار والإكراه.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ فبعد أن نجانا الله من هذه العقائد الفاسدة، وهدانا إلى الإيمان، وأذاقنا لذَّته وحلاوته، نرجع إليها! هذا لن يكون أبداً!.

قال شعيبٌ ذلك على سبيل التغليب، إذ عدَّ نفسه واحداً من الجماعة المسلمة التي كانت كافرة، ثم هداها الله تعالى، وإلا فهو لم يكن قط كافراً،

شأنه كشأن سائر الأنبياء ﷺ، لا يكون منهم كفر أبداً، محفوظون منه قبل النبوة، ومعصومون منه بعدها.

ثم ردَّ ﷺ الأمر إلى مشيئة الله تعالى وقدره فقال:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ إنه أدب الأنبياء الرفيع مع الله تعالى، فلا ينبغي للمؤمن أن يغتر بإيمانه، بل عليه أن يفوض الأمر إلى الله، وأن يسأله دائماً أن يثبته عليه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكما أنَّ مشيئته سبحانه نافذة بكلِّ شيء فعلمه أيضاً محيط بكل شيء:

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيجب الاعتماد عليه وحده.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في الثبات على الإيمان، والنجاة من كيد الأشرار.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: افصل واحكم بيننا وبينهم بالعدل.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين.

ولم يستطع الطغاةُ المستبدّون أن يمنعوا شعيباً من تبليغ دعوة ربه، إذ كان من أشراف قومه، وله فيهم منعة وحماية، كما ذكر سبحانه في **سورة هود**: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾، فالتفتوا إلى المؤمنين الضعفاء يتهدَّدونهم، ويسومونهم أنواع الأذى والاضطهاد:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

تخسرون أرزاقكم، وتطردون من أعمالكم ووظائفكم، وتحرمون من أسباب رزقكم ومعاشكم، كما يفعل الظالمون المستبدُّون في هذا العصر وفي كل عصر، ولكنَّ البغي والظلم لا يدوم، والله سبحانه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٩١﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ومعها الصيحة، كما ذكر سبحانه في موضع آخر فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧].

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ هامدين، لا حراك فيهم ولا حياة.

وبهذا المصير الأليم سقط مجتمع الطمع والجشع والاستبداد، ودالت دولة المتكبِّرين الظالمين:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ٩٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ كأنهم ما كانوا وما أقاموا في بلدهم دهراً طويلاً، يتمتعون برغد العيش وسعة الرزق.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خسروا أموالهم وحياتهم وآخرتهم.

ولا يخفى التوافق بين تعليق الآية على هلاكهم وسقوطهم، وبين قولهم الذي كانوا يتوعدون به المؤمنين: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] فمن الخاسرون: الهالكون أم الناجون؟!.

ووقف شعيب ﷺ على أطلال قومه ينظر نظرة الأسى والحزن، ثم أعرض عنهم:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وهو يدفع حزنه وأساه.

﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ﴾. ثم سأل نفسه سؤال المتعجب من حزنه على هلاكهم، كأنه ينكر على نفسه أن تحزن عليهم:

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فهم كافرون غير مأسوف على هلاكهم.

ولكنَّ قلوبَ الأنبياء لا تحمِل حقداً على أحد، ولا تريدُ للناس إلا الخير والسعادة.

- **أزمات ومنعطفات:**

وتوقفت الآياتُ قليلاً عن مسيرتها مع تاريخ الأمم الهالكة والحضارات الساقطة، وكأنها أرادت من وقفتها هذه أن تعطيَ القارئَ فترةَ تأمُّلٍ وتفكُّرٍ في أسباب هلاك هذه الأمم وسقوط حضارتها، كما أرادت أن تبيِّن حقيقة بارزة في تاريخ الوجود البشري على الأرض، فحياة الأمم والشعوب لا تسير على نسق واحد، ولا تتبع خطّاً واحداً، ثَمّةَ منعطفاتٌ كبيرة تعترض مسيرتها، وأزمات كبيرة تواجهها، قدَّرها العليم الحكيم، لكي تنتبه هذه الأمم إلى طريقها، وتتعرَّف على أخطائها، وتصحح اتجاهها وخط سيرها، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: بالبؤس والفقر، ونقص الأرزاق، وكساد الأسواق، وهو ما يسمَّى في عصرنا الحاضر: الأزمات الاقتصادية، أو الكساد الاقتصادي.

﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: ضرر على صحتهم وأبدانهم، فتفشو بينهم الأمراض.

أو: ضرر ناتج عن الكوارث الطبيعية؛ كالأعاصير والفيضانات والزلازل.

والآيةُ لا تعني أن الأمراض والنكبات والأزمات تأتي مع دعوة الأنبياء عليهم السلام، وإنَّما تحدث هذه المصائب بعد إعراض الأمم عن دعوة الأنبياء، وبعد تكذيبها لهم، وهجرها لشريعة الله تعالى المنزلة عليهم. والحكمة منها:

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: لعل المعاندين المكذِّبين تلين نفوسهم وتخشع قلوبهم، فيقبلون على الله تعالى تائبين مستغفرين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا

ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام].

فالأمة التي لا تنبهها الشدائد والأزمات، وتظلُّ سادرة في ضلالها، مصرَّة على أخطائها، لا بدَّ أن تصل في النهاية إلى حافة الهاوية والسقوط، والرخاء المادي الذي يأتي بعد الأزمات، هو مقدِّمة الهلاك والدمار:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ **والسيئة**: كلُّ ما يسوء الإنسان، **والحسنة**: كلُّ ما يستحسنه الطبع والعقل، والمراد منهما هنا: الشدة والرخاء، والمعنى: أنه تعالى جعل مكان البأساء والضراء، النعمة والسعة والخصب والصحة[١].

- **مؤشرات الهلاك والسقوط:**

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: حتى كثروا، كثرت أولادهم، ونمت أموالهم، وأبطرتهم النعمة.

وكلمة (**عفوا**) توحي بحالة نفسية خاصة، حالة قلة المبالاة، حالة الاستخفاف والاستهتار.. وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة، حين يطولُ بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء ـ أفراداً وأمماً ـ كأن حساسية أنفسهم قد ترهلت، فلم تعد تفعل شيئاً، أو تحسب حساباً لشيء[٢].

﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كما مسنا، وذلك من عادة الدهر وتقلباته، وتعاقب أحواله.

ردُّوا ذلك إلى الدهر، وغفلوا عن النواميس الإلٰهية في تدبير شؤون الخلق، وأنهم حسب الناموس الإلٰهي يُستدرجون إلى هاوية الهلاك والسقوط،

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/ ٦٠٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٣٧.

فأعمارُ الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد، وسنن الله تعالى في خلقه لا تتغير كما مرَّ معنا، فلا ينبغي لنا أن نغترَّ بما نرى عند بعض المجتمعات الكافرة من رخاء في العيش، وسعة في المال، فقد يكون مقدمة الهلاك والدمار، وإنَّ من يتأمَّل في حياتهم، يجدهم في حقيقة الأمر أشقياء لا سعداء، ويرى عواملَ السقوطِ ومقدمة الدمار تنخر في جسم مجتمعاتهم، فالتفكك الأسري والاجتماعي، والانحلال الخُلُقي، والشذوذ الجنسي، وانتشار الزنى حتى بين المحارم، وشيوع الأمراض الجنسية، والعقم والإيدز، والآفات الاجتماعية، كالمخدِّرات والخمور، والأمراض العصبية والنفسية، وعصابات المجرمين، وطرق التلقيح الشاذَّة، وبنوك النطف البشرية، والمتاجرة بها، وتلوث البيئة... إلخ، كلُّ هذا مؤشرات على اقتراب هذه المجتمعات من هاوية الهلاك والسقوط[1].

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة على غير توقع.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو أشدُّ أنواع الهلاك، لأنه ينزل فجأة على غير توقع وانتظار، كما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من زوالِ نعمتِكَ، وتحوُّلِ عافيتِكَ، وفُجاءَةِ نقمتِكَ، وجميعِ سخطكَ**» [رواه مسلم (٢٧٣٩)].

- **ترغيب وتحذير:**

إنَّ بقاء المجتمعات واستمرار الحضارات منوط بمدى التزام الناس بدين الله وشرعه، ولو أنَّ أصحاب الحضارات البائدة والأمم الهالكة استجابوا لدعوة

(١) مسز بوش، زوجة رئيس أغنى وأقوى دولة في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) تحدثت فقالت: مشاكلنا: الإدمان، والأمهات الأطفال (شابات في عمر ١٤ عاماً و١٥ عاماً أمهات بلا أزواج)، وقضية الأسر المفكّكة، والبطالة... العاصمة فيها أكبر نسبة من الجرائم والتشرد والتسيب. (مجلة الوطن العربي، العدد ١١٩).

أنبيائهم، ما حلَّ بهم الهلاك والدمار، بل زادهم الله تعالى من نعمه، وأمدَّهم بأسباب العيش الكريم والحياة السعيدة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ التي أهلكها الله تعالى بسبب كفرها وظلمها.

﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله تعالى.

﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ ما حرم سبحانه عليهم.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ليسرنا لهم سبل العيش الكريم السعيد من كلِّ جانب.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الأنبياء، فلم يؤمنوا، ولم يتقوا.

فالأزمات الاقتصادية، والكوارث والنكبات، وانتشار الأمراض، وقيام الحروب والفتن؛ لا تكونُ إلا بسبب ابتعاد الناس عن دين الله وخروجهم على طاعته.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بإرادتهم واختيارهم.

فمتى يدرك الناس هذه الحقيقة؟! فالله سبحانه ما خلقهم ليفسدوا في الأرض، ويطغى بعضهم على بعض، وما استخلفهم إلا ليعمروا الأرض بطاعته، وينشروا العدل في ظل شريعته، وعليهم أن يعتبروا بمصير الأمم قبلهم، وأن يكونوا على حذر من عذاب الله تعالى وانتقامه.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ ليلاً.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾؟! والاستفهام ينكر عليهم ما هم فيه من غفلةٍ وعدم انتباه، والاعتبار بمصائر الأمم السابقة، وهو موجَّهٌ إلى سكان المدن والحواضر، لأنَّهم في العادة أكثر انشغالاً بشؤون الحياة، وانهماكاً بملذَّاتها.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهاراً.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهم يلهون، ويشتغلون بما لا فائدة فيه.

وكأنَّ هذا الإنكار موجَّهٌ في العصر الحاضر إلى الملايين من سكان الحواضر، الذين يتكدَّسون في الملاعب وصالات اللهو والعبث، يموجون ويهيجون، ويرتفعُ صراخهم وضجيجهم لحركة لاعب، أو انثناءة راقصة، غافلين عن مصيرهم.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ بأسه ونقمته، وقدرته عليهم، وأخذه إياهم، وهم في حال لهوهم وغفلتهم.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين ضيعوا حياتهم وأعمارهم في لهوهم وغفلتهم.

قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات؛ وهو مشفق وَجِلٌ، والفاجر يعمل بالمعاصي؛ وهو آمن[1].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبين.

﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: يخلفون مَنْ كان يعيشُ قبلهم في الأرض، ويرثون ديارهم، كما قال سبحانه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٨.

ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ إنها دعوة للانتباه والاعتبار.

﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أنه سبحانه قادر على إهلاكهم بذنوبهم ومعاصيهم، كما أهلك الذين من قبلهم.

ثم بيَّن سبحانه أنهم في قبضته وقدرته، ورهن إرادته ومشيئته، فقال:

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ونحن نختم على قلوبهم، فلا سلطان لهم عليها، وإذا ختم عليها بسبب ذنوبهم، أصبحت محجوبة عن قبول أي موعظة:

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع الانتفاع والتدبر والاتعاظ.

- **تثبيت ومواساة:**

والتفتتِ الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تواسيه وتثبِّته في مواجهة عناد قومه وإعراضهم:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وهي الحججُ والبراهين الدَّالة على صدقهم وصحة رسالتهم، تماماً كما جئت قومك بالبيِّنات.

﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾؛ لأنهم اعتادوا على تكذيب الحق، وأدمنوا على الباطل، واستمرُّوا على ذلك بعد بعثة الرسل ومجيئهم بالبيِّنات، كأنه لم يُرسَل إليهم أحد، أو كأنهم لم يروا حجة، ولم يشاهدوا معجزة، فاستمرُّوا على التكذيب والكفر بعد رؤية الحجج ومشاهدة المعجزات، ولم ينتفعوا بها.

فللعادات والتقاليد التي ألفها الإنسان تأثيرٌ كبيرٌ عليه، ولقد ألف القوم الكفر والضلال، وطال عليهم الأمد فيه، حتى أصبحت قلوبهم قاسية متحجّرة،

لا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكراً، إلا ما يتصل بأهوائها وشهواتها، ولهذا ختم الله عليها:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وإذا طبع الله على قلوبهم، حُجبت عن سماع دعوة الخير والتأثُّر بها.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: لأكثر الأمم الماضية.

﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: وفاء بالعهد.

﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الطاعة، ناكثين للعهد.

والمراد **بالعهد**: إما عهد الفطرة التي فطركم الله سبحانه عليها، والذي سيأتي الحديث عنه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

أو عهد الإيمان الذي كلِّفوا به بواسطة المرسلين، ونصبت لهم من أجله الدلائل والحجج، وأنزلت الآيات، وأجريت المعجزات.

وما دام شأن أكثر الناس عدم الوفاء بالعهد، فلا عجب أن تلقى من قومك ما تلقى من عناد وإعراض، فشأنهم في هذا شأن أكثر الناس من قبلهم.



الفَصْلُ السَّادِسُ

# مُوسَى وفِرْعَوْنُ وبَنُو إسْرَائيل

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (١٢٠) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى

ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

- **بنو إسرائيل في مصر:**

وعادت الآياتُ بعد هذه الوقفة التأمُّلية القصيرة، إلى متابعة حركة التاريخ البشري، ففتحت صفحةَ التاريخِ على قصة موسى عليه السلام مع فرعون وبني إسرائيل والمجتمع المصري.

كان المصريون في تلك الفترة يضطهدون بني إسرائيل ويظلمونهم، لأنَّهم غرباء عنهم، إذ رحل آباؤهم إلى مصر، وسكنوا فيها، في زمن يوسف عليه السلام، عندما كانت مصر تحت حكم ملوك الهكسوس.

ويلاحظ أنَّ الآيات توقفت طويلاً عند هذه القصة، حتى أخذت من السورة مساحة كبيرة، إذ تناولت فيها الحديث عن أمتين ومجتمعين، وعن نبيين كريمين، أُرْسِلا معاً في وقت واحد، هما موسى وهارون عليهما السلام، كما يلاحظ أنَّ القصةَ لم تنتهِ عند هلاك فرعون وجنوده، كما حدث في القصص السابقة، بل امتدَّ حديثُ الآيات عن الناجين من ظلم فرعون، ماذا فعلوا بعد نجاتهم، وكيف

كان موقفهم من موسى وهارون عليهما السلام، وكيف كان تمسُّكهم والتزامهم بالشريعة التي كُلِّفوا بها.

رسمت الآياتُ في بداية القصة خطّاً بيانيّاً عامّاً لأحداثها، بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد الرسل الذين سبق ذكرهم.

﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بالمعجزات التي أيدناه بها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: كفروا بها.

فالآياتُ واضحات، ومع ذلك كذّب بها فرعون وملؤه بدل أن يصدقوا بها، وهو عين الظلم، لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض.

- **مهمة موسى** عليه السلام:

ثم شرعت الآيات تفصل حوادث القصة، وبدأت تصف المواجهة الأولى بين موسى عليه السلام وفرعون:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

ناداه باللقب الذي كان يُنادى به ملوك الأسرة المصرية الحاكمة تأليفاً له، ثم عرَّفه بصفته المتعلقة بمهمَّته، ولم يعرِّفه بنفسه، لأنَّ فرعون كان يعرف موسى، فقد نشأ في قصره، وتربَّى في كنفه.

وكلمة موسى: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كبيرة، ودعوى عريضة، فوجئ بها فرعون وهو في مجلس ملكه، يحيط به وزراؤه وقُوَّاده وأعوانه، وقد صدرت عن موسى بصيغة التأكيد والقطع، مما يدل على شدَّة ثقة موسى عليه السلام بنفسه الذي تابع كلامه مؤكداً صدق رسالته قائلاً:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وفي قراءة (**حقيق عليَّ**) أي: واجبٌ عليَّ ألا أقول على الله إلا الصدق، لأنَّ الأنبياءَ والمرسلين هم أعرف الناس بجلال الله تعالى وكماله، وأكثرهم خشية وتعظيماً له، فلا يخبرون عنه إلا ما هو حق وصدق، ومع ذلك:

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحجَّة قاطعة تدلُّ على صدق رسالتي.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وظلمك، ودعهم لكي يذهبوا معي إلى الأرض المباركة.

فمهمة موسى لم تكن قاصرةً على تبليغ الدعوة، كما فعل سلفه من الأنبياء والمرسلين، فمن مهمته أيضاً أن ينقذ بني إسرائيل من ظلم فرعون، ويخرجهم من مصر إلى الأرض المباركة في فلسطين.

• **المعجزتان:**

وطلب فرعون من موسى أن يظهر المعجزة، ويقدِّم البيِّنة:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

في دعواك أنك رسول من رب العالمين، فبادر موسى ﷺ إلى إظهار المعجزة الأولى دون تردد:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ ألقى موسى عصاه، فانقلبت بعد إلقائها بقدرة الله ومشيئته إلى ثعبان حقيقي ظاهرٍ واضحٍ.

وقبل أن يستيقظوا من هول المفاجأة، أظهر ﷺ المعجزة الثانية:

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه.

﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ بياضاً نورانيّاً خارجاً عن المألوف والمعتاد.

وجحد فرعونُ وبطانته المعجزتين، واتَّهموا موسى عليه السلام بالسحر:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

ماهر في السحر. وأضاف فرعون تهمة ثانية فقال:

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أرض مصر، إنَّها عقدة الحاكم الظالم المستبد، فكل معارض لظلمه واستبداده يُتَّهم بأنه طامع في الحكم والسلطان.

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: تشيرون في أمر هذا الذي يزاحمكم على السلطة والحكم.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّر أمرهما، وأصل (أرجه) أرجئه.

﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ وأرسل في المدن رجالاً يجمعون السَّحَرة ويأتون بهم:

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

ويبدو أن صناعة السحر والشعوذة كانت رائجة في المجتمع المصري في ذلك العصر.

وطلب السَّحَرة الأجر من فرعون:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝١١٣﴾.

سألوه الأجر على ما يقدِّمون من سحر إن تغلَّبوا على موسى عليه السلام، فالسحر صنعتهم، ومورد رزقهم.

وفي قراءة (**أَئِنَّ لنا لأجراً؟**) بصيغة الاستفهام المفيد للشرط، فهم لا يهتمُّون بغير المال والمكافأة، ولا يرون في الموضوع أي صلة بالدين والعقيدة.

ووعدهم فرعون ومنَّاهم:

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾.

﴿قَالَ نَعَمۡ﴾. وأطمعهم بالمكانة والتعظيم:

﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾.

● **المباراة:**

واجتمع الناس في ميدان كبير خارج المدينة في ضحى يوم عطلة وراحة وزينة، كما ذكر سبحانه في **سورة طه**: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩﴾.

ووقف موسى عليه السلام في مواجهة السحرة، الذين خيَّروه قائلين:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ۝١١٥﴾.

وتدلُّ كلماتهم هذه على رغبتهم في أن يقدِّموا عروض سحرهم قبل موسى عليه السلام، لكي يصرفوا أعين الناس إليهم، فالساحر لا يستطيعُ أن يغيِّر حقيقة الشيء، ويقلبه عن ماهيته، ولكنه يستطيع أن يجعل الناظر إليه يتخيل ذلك.

وأجابهم موسى على سبيل التحدي:

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٦﴾.

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ ما يحملون من حبال وعصي.

﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: صرفوا أعين الناس عن الحقيقة، وهي أنَّ

حبالهم وعصيهم لا تزال كما هي جامدة لا تتحرك، وجعلوا الناس يتخيلون أنها تتحرك، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه].

واستعان السحرةُ للوصول إلى مأربهم ببعض الحركات والأصوات المرعبة المخيفة، دلَّ على ذلك قوله سبحانه:

﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: استدعوا إدخال الذعر والخوف في نفوس الناس.

﴿وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ عظيم في فن السحر، أو في نظر الناس المشاهدين لهم.

وتأثَّرت الجموع المحتشدة بما شاهدت، وهاجت واضطربت، حتى إنَّ موسى ساوره شيء من الخوف والقلق أن تضيعَ الحقيقةُ بين ركام هذا الباطل، ولكنَّ الله سبحانه ثبَّته وبشَّره بالنصر والظفر، فالحقيقة لن تضيعَ في ركام الباطل لأنَّها مؤيدةٌ من الله تعالى، قال سبحانه في **سورة طه**: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾. ثم أمره أن يلقي عصاه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

وما إن ألقاها حتى انقلبت بقدرة الله تعالى حية عظيمة، ابتلعت كل وسائل الكذب التي ألقاها السحرة في الميدان.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فظهر الحق وانجلى وثبت.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والتمويه والكذب، لمعارضة المعجزة.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ أي: غُلِب فرعون وملؤه وجنوده هنالك في ميدان التحدي.

﴿وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ وصاروا ذليلين مبهوتين.

• **هزيمة الباطل:**

وأما السحرة فكان لهم شأن آخر، عرفوا حقيقة المعجزة، وعظمة خالقها، فخرُّوا على الأرض ساجدين لله ﷻ:

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

كأنّما ألقاهم على الأرض مُلْقٍ، مما يدلُّ على أن الحقَّ بهرهم، فلم يتمالكوا أنفسهم من عظمة ما شاهدوا، واضطرهم إلى السجود لرب العالمين، وأعلنوا إيمانهم به، وانقيادهم لأمره، واتباعهم لرسوله:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

ولم يكن إيمانُ السحرة هزيمة للطغيان والاستبداد فقط، وإنَّما كان أيضاً كشفاً لزيفه، وإظهاراً لقبحه وخداعه، ولهذا لجأ فرعون لكي يستتر على هزيمته ومساوئه، إلى أسلوب التهديد والوعيد، وتوجيه التُّهم إلى المؤمنين:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بالله تعالى.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: من غير أن آذن لكم.

فمعنى (**قبل**) هنا: من غير، كما في قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩][١] أي: من غير أن تنفد كلمات ربي، فكلماته سبحانه لا تنفد.

ولو أنَّ السحرة استأذنوا فرعون بالإيمان بالله تعالى وتصديق دعوة موسى وهارون، فلن يأذن لهم، لأنه لن يتخلَّى عن استبداده وطغيانه.

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ٢٦١.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يدلُّ على شدة تكبُّره وطغيانه، فكأنَّ سلطان القلوب بيده، وتحت أمره ومشيئته، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «كأنّما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق، وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها، أو أن يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم، وهم أنفسهم لايملكون من أمرها شيئاً، أو يستأذنوه في أن تشرق أرواحهم، وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها، أو كأنّما كان عليهم أن يدفعوا اليقين، وهو ينبت من الأعماق، أو أن يطمسوا الإيمان، وهو يترقرق من الأغوار، أو أن يحجبوا النور، وهو ينبعث من شعاب اليقين»[1].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي: إن ما صدر عنكم كان مؤامرة تمَّت بينكم وبين موسى سرّاً.

﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: لتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وأصحاب السلطة والسلطان فيها، وتحلُّوا محلَّهم وتصبح الدولة والسلطة لكم.

إنه الأسلوب نفسه الذي يلجأ إليه المستبدُّون في كلِّ عصر ليستروا فسادهم واستبدادهم، ويخنقوا معارضيهم، ويتمكَّنوا من تصفيتهم والقضاء عليهم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تآمركم.

ثم فصَّل ما أجمل من تهديد ووعيد، فقال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ اليد من جانب، والرجل من جانب آخر.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على جذوع النخل، كما جاء في **سورة طه**: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

إنه التهديد بالعذاب حتى الموت بعد أن اتهمهم بالتآمر مع موسى عليه السلام مع

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٥٠.

أنه ما كان يعرفهم ولا رآهم ولا اجتمع بهم، وفرعون يعلم ذلك، وما قال ما قال إلا تستُّراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى في **سورة الزخرف**: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

• **الشهداء البررة:**

ولم يتأثَّر السحرة بتهديد فرعون ووعيده، ولم تتزعزع قلوبهم المؤمنة التي كانت قبل الإيمان متعلقة بالدنيا ومتاعها الزائل، كما مرَّ معنا في قولهم لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

إنها الآن تتحدَّى جبروتَ الطاغية، ولا تبالي بتهديده ووعيده، وتستعلي على الدنيا بكلِّ ما فيها من شهوات وأموال ورتب ومراتب:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

راجعون، وما عنده سبحانه من الثواب والنعيم أعظم وأبقى، وذكر سبحانه في **سورة طه** أنهم قالوا لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

وقالوا له أيضاً في **سورة الشعراء**: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

فهم لا يبالون بتهديده ووعيده، بل واجهوه أيضاً بالحقيقة التي حاول التستُّر عليها باختراع تهمة التآمر والمؤامرة، فقالوا له:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ أي: وما تعيب علينا وتريد

(١) وانظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٣.

الانتقام منّا إلا لأننا آمنّا بالبراهين والدلائل التي هدانا ربنا إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

فلم يكن إيمانُ السحرة مجرَّدَ عاطفة ثارت في صدورهم عندما رأوا المعجزة، بل كان إيماناً عقليّاً بعد التفكير والتدبُّر في آيات الله سبحانه، ثم توجهوا إلى الله تعالى يستمدّون منه الصبر والثبات، ويستعينون به على مواجهة ظلم الطاغية المستبد:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صب علينا من الصبر ما يغمرنا ويملأ قلوبنا.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، غير مفتونين ببغي الظالمين وعدوانهم.

وهكذا تحول السحرة من كفرة فجرة إلى شهداء بررة.

- **بطانة السوء:**

يبدو أنَّ فرعون كان يتهيَّب من موسى عليه السلام في أول الأمر، ويخشى أن يمسَّه بشيء من الأذى، ولعلَّ السبب أنه كان يتيقن في قرارة نفسه صدق موسى، ولا بدّ أن تكونَ المعجزةُ قد تركت في نفسه الخوف والرهبة من أذاه، فلم يُنزل به ما أنزل بالسحرة من التعذيب والتقتيل، حماه الله سبحانه مع أخيه هارون من بطش الطاغية وظلمه كما وعدهما عندما كلَّفهما بالرسالة: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه].

وعزَّ على بطانة السوء، التي تحيطُ عادةً بأمثال فرعون من الحُكَّام المستبدِّين، أن يروا دعوة موسى مستمرةً، فهي خطر على مصالحهم ومناصبهم، فشرعوا يحرِّضون فرعون على البطش بموسى وقومه:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أتترك موسى وقومه لينشروا الفساد في أرض مصر؟!.

إنَّهم يرون في الإيمان فساداً، لأنه يهدد مصالحهم ومراتبهم وامتيازاتهم.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي: ويتركك ومعبوداتك؛ وهي الأصنام التي اتخذها، وأمر قومه بعبادتها، وفي قراءة (**وإلـٰهَتِك**) كعبادتك لفظاً ومعنى، أي: ويتركك ويترك عبادتك، والمراد من العبادة معناها العام، وهو الطاعة.

ويصعبُ على الطغاة المستبدِّين أن يروا أحداً يخرجُ على طاعتهم، ويخالف أمرهم، لأنهم اعتادوا على استعباد الناس، فكلماتهم تشريعٌ لهم، والويل لمن يخالفها، يُتهم فوراً بالفساد والخيانة والتآمر والعمالة للأجنبي.. ويكون مصيره السجن والتعذيب والإعدام.

وعرف المقربون من فرعون كيف يثيرون غضبه على موسى والمؤمنين، إذ كانوا يعلمون مدى تألُّهه وحرصه على الاستبداد والتسلط والطغيان، فنجحوا بأسلوبهم هذا في إثارة غضبه:

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كان يفعل من قبل ببني إسرائيل، إذ أمر بقتل كل مولود ذكر فيهم وترك الإناث، كما قال تعالى في **سورة القصص**: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾، والسبب أنَّ المنجِّمين والكهنة أخبروه بزوال ملكه على يد مولود من بني إسرائيل قد اقترب زمنه.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي: غالبون.

وتدلُّ كلمته هذه على شدَّة تكبُّره وطغيانه وظلمه، وكأنّه أراد بهذه أن يطمْئِن رجال حاشيته الخائفين على مصالحهم ومراتبهم من دعوة موسى عليه السلام.

- **المحنة:**

وبدأت محنة المؤمنين بعد هذه الكلمات التي صدرت عن فرعون، وأخذ موسى وأخوه هارون بتثبيت المؤمنين وتقوية عزائمهم في مواجهة المحنة:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

فالأمر ليس كما زعم فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فالظلم لا يدوم، والطغيان لا يستمر، وهما من أعظم أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، والعاقبة الطيبة للمصلحين المتقين، لا للمفسدين الظالمين.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ قوم موسى:

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة والدعوة، وهي المحنة الأولى.

﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ نبيّاً ورسولاً، تدعو إلى عبادة الله وحده.

ولا يخفى ما في كلامهم من تبرُّم وشعور بالخيبة من دعوة موسى عليه السلام، كأنَّهم أشاروا إلى موسى عليه السلام بأنَّ دعوته لم تغيِّر شيئاً من أحوالهم السيئة.

وتكشف كلمتهم هذه عن طبيعتهم المادية، فالمهم عندهم أن تتغيَّر أوضاع حياتهم ومعيشتهم أكثر من التغيُّر الذي حدث في عقيدتهم وعبادتهم.

فما كان من موسى عليه السلام إلا أن بشرهم بقرب نصر الله تعالى:

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ وتصبحوا أصحاب السلطة والسلطان.

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من خير أو شر، وطاعة أو عصيان، فيجازيكم عليه، فالله سبحانه لا يجازي العباد على حسب علمه، إنما يجازيهم على حسب عملهم.

وفي كلماته عليه السلام تعريض بقومه، فكأنَّه أشار إليهم بأنَّ الظلم والفساد يمكن أن يقع منكم كما وقع من فرعون ومَلَئه، والله سبحانه يبتلي عباده بالخير

والشر، كما في قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وهو سبحانه يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون.

واستمرَّتِ المحنةُ سنوات كثيرة، ومن لطفه سبحانه ورحمته بعباده المؤمنين الممتحنين، أنه أنزل في أثنائها الكوارث والنكبات بفرعون وقومه، فشُغِلوا بها عن تعذيب المؤمنين واضطهادهم، حتى إنَّهم طلبوا في آخر الأمر من موسى عليه السلام أن يسأل الله تعالى أن يرفعها عنهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ أي: بسنوات القحط والجدب.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وتلف في المحاصيل الزراعية بما يصيبها من الآفات.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلَّهم يتعظون، فالشدائدُ قد ترقق القلوبَ، وتليِّن النفوسَ، ولكن قلوبهم لم تلن بسبب شدة قسوتها وتحجُّرها، وظلُّوا على كفرهم وعنادهم.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الغيث والخصب والسعة.

مما يدلُّ على أنَّ سنوات الجدب والقحط ما كانت متوالية، فقد تخللتها سنوات خير وخصب، فلم يقدِّر سبحانه استئصالهم بالقحط والجدب.

﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن مستحقون لها، ونحن أصحابها وأهلها، ولم يردُّوها إلى الله تعالى، ويشكروه عليها.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ تسوءُهم كالقحط والجدب وتلف المحاصيل.

﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءموا بموسى والمؤمنين، ويقولوا: هذا القحط والبلاء بسببكم، ولولا وجودكم بيننا لما أصابنا هذا الجدب والقحط.

وهذا شأن الكافرين في كلِّ مكان وزمان، يردُّون الحوادث إلى غير خالقها ومدبرها سبحانه، فالخير لهم، والشر بسبب مخالفيهم، قال سبحانه في **سورة يس**: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝١٩﴾.

وكان الكفَّار يقولون مثل هذا لرسول الله ﷺ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٧٨].

وردَّ سبحانه على فرعون وملَئه بقوله:

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما يصيبهم من خير أو شر فبمشيئة الله تعالى وتقديره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن كلَّ شيْءٍ بقدر من الله تعالى، وأنَّه سبحانه خالق كلِّ شيء، وهو على كلِّ شيء وكيل.

- **الآيات المفصَّلات:**

واستمرّ موسى عليه السلام يدعوهم ويذكِّرهم، واستمرُّوا على طغيانهم وفسادهم، وأرادوا منه أن يكفَّ عن دعوتهم:

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٣٢﴾.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾ أي: من معجزة، قالوا له ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية.

﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ وتصرفنا بها عما نحن عليه.

﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بمصدِّقين.

وكانت كلمتُهم هذه الدالَّة على شدة إصرارهم على باطلهم، بداية مرحلة جديدة من الابتلاء أشد وأشق من المرحلة الأولى؛ أرسل الله عليهم فيها أنواعاً متعددة متوالية من النكبات والمصائب:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الأمطار والسيول التي طافت بهم، وطغت على أراضيهم ومدنهم وبيوتهم.

﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ الذي أتى على زروعهم وثمارهم ومحاصيلهم.

﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ في أشعارهم وأبشارهم يمتص دمائهم.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ ملأت مياههم وآنيتهم.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ الرعاف الدائم[1] الذي كاد أن يهلكهم، ويستنزف دماءهم.

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ واضحات، أو أتتهم هذه المعجزات متواليات متميزات عن بعضها، ومع كلِّ ما تقدَّم لم يؤمنوا.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عريقين في الإجرام.

ثم سلَّط الله عليهم بلاء أشد من كلِّ ما تقدَّم، وهو الطاعون، فمات منهم به خلق كثير:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: أصيبوا بالطاعون، حتى كان الذي يُصاب به يُهجر، فلا يقترب منه أحد، ولا يدفن، وقد ابتلي به بنو إسرائيل بعد ذلك بسبب معاصيهم كما سيأتي معنا.

وفي الحديث الشريف: **عن أسامة بن زيد** رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**الطاعونُ رجزٌ أو عذابٌ أُرسِلَ على بني إسرائيل، أو على مَنْ كان قبلكم، فإذا**

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٦٢٠.

**سمعتُم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه»** [رواه البخاري (٣٤٧٣) ومسلم (٢٢١٨)].

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أكرمك من كرامة وإجابة الدعوة.

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ أي: لئن دعوتَ الله وكشف عنَّا هذا الوباء الذي ابتلينا به.

﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ وهكذا ألان الطاعونُ نفوسَهم، وأزال شيئاً من قسوة قلوبهم، فوعدوا موسى بالإيمان برسالته، والسماح لبني إسرائيل أن يخرجوا معه إلى الأرض المباركة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ بدعوة موسى عليه السلام.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي: كشفه سبحانه عنهم إلى أجل معيَّن قدَّره العليم الحكيم لهلاكهم، وما وعدوا به موسى من استجابة لدعوته لم يكن سوى انعكاس لحال الخوف والرعب الذي نزل بهم، فما كانوا صادقين في وعدهم، والله سبحانه يعلم حقيقتهم، وما رفع عنهم الطاعون إلا استدراجاً لهم إلى الأجل الذي قدَّره سبحانه لهلاكهم واستئصالهم.

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: ينقضون عهدهم مع موسى عليه السلام، ويرجعون إلى بغيهم وطغيانهم.

وهذا حال كثير من الناس؛ يلجؤون إلى الله تعالى وقت الشدة والخطر فقط، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل].

- **هلاك الطاغية وجنوده:**

رفع الله عن فرعون وقومه أنواع الابتلاء الذي أنزله بهم، وانتهت مرحلة

البأساء والضراء، وأتت بعدها حالة السعة والرخاء، لتكون مقدِّمة لهلاكهم، بحسب سنَّته سبحانه في خلقه التي سبق الحديث عنها عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ۝٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأعراف].

ولما بلغوا الأجل المقدَّر لهلاكهم، أهلكهم سبحانه:

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ۝١٣٦﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ في البحر العميق.

﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى.

﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ معرضين ومنشغلين بشهواتهم وأهوائهم.

وما أنزل الله تعالى العذابَ والهلاكَ على المجتمع المصري كلِّه، كما فعل في المجتمعات البشرية الماضية التي قصَّ علينا خبرها، قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب، إنَّما أنزل سبحانه عذابه بفرعون وأعوانه وجنوده فقط، وأخبر عن ذلك في قوله في **سورة القصص**: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾.

ويلاحظ أنَّ الآيات في سورة الأعراف فصَّلت في قصة موسى وفرعون المراحل والحوادث التي سبقت هلاك فرعون وجنوده، فذكرت وقائع في القصة غير موجودة في غيرها من السور، ولمَّا وصلت إلى هلاكهم ذكرته مجملاً، وتركت تفصيله إلى سور أخرى في القرآن الكريم كسورة يونس وطه، ولعلَّ سبب ذلك أنَّ السورة اهتمَّت بالحديث عن الأسباب المؤدِّية إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات، ولهذا فصَّلت الحوادث التي أدَّت إلى الهلاك إبرازاً لأسبابه وانسجاماً مع موضوعها الأساس.

أدَّى هلاك فرعون وجنوده إلى انتعاش بني إسرائيل وظهورهم وقوتهم كما أدَّى أيضاً إلى انكماش الحضارة المصرية وتآكلها وسقوطها:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ وهم المؤمنون من بني إسرائيل الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون.

﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الأرض المباركة في بلاد الشام.

ولم يتم لهم هذا بعد هلاك فرعون مباشرة، لأنهم ـ كما سيأتي معنا ـ ما أطاعوا موسى عليه السلام، وما شكروا الله على ما أنعم عليهم، وإنَّما تمَّ لهم هذا بعد مرحلة التيه في سيناء، وقد وصلوا إلى ذروة التمكين والاعتزاز في عهد داود وسليمان عليهما السلام، ولم يدم لهم طويلاً بسبب فسادهم وعصيانهم[1].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: أهلك سبحانه عدوهم، ونجَّاهم من ظلمه بسبب صبرهم مع موسى عليه السلام على الشدائد والمحن.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمران والقصور.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ في الحدائق والبساتين.

ولم تفصِّل الآيات كيفية تدمير المنشآت الحضارية الكبيرة التي كانت في مصر، والتي لا يزال بعضُ آثارها قائماً حتى العصر الحاضر، تدلُّ على ضخامة هذه الصروح العمرانية، وعلى القوة المادية الكبيرة التي بلغتها الحضارة المصرية القديمة، وإنَّما اكتفت الآيات بالإخبار عن سقوطها، وانتهاء دورها التاريخي، بعد أن فصَّلت الأسباب التي أدَّت إلى ذلك.



(١) انظر تفصيل ذلك في: (تفسير سورة الإسراء) في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد سمَّيناه: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

## الفَصْلُ السَّابِعُ

# بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ الخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ

يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ

سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ
حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا
يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ
قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا
ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ
لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ
لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم
بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ
هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا
يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ
يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ
كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذۡ أَخَذَ
رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن
تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ
مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتۡلُ
عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ
شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ
يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ

وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

• **جهل ونكران:**

لم تتوقف الآيات في هذه القصة عند هلاك المكذِّبين، كما فعلت في القصص السابقة، بل تابعت الحديثَ عن بني إسرائيل مع موسى وهارون ﷺ، وهم في طريقهم بعد خروجهم من مصر إلى الأرض المباركة، إلى فلسطين:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي: يسَّر الله تعالى لهم اجتياز البحر، ففتح لهم فيه طريقاً، كما قال سبحانه في **سورة طه**: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال أيضاً في **سورة الشعراء**: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ أي: مرَّ موسى وبنو إسرائيل على قوم.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يواظبون على عبادة أصنام، فأُعجب بنو إسرائيل بهذه العبادة!.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنماً نعبده.

﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ كما لهؤلاء القوم أصنام.

إنه طلبٌ عجيبٌ، يطلبونه من نبيِّ الله موسى ﷺ الذي يدعوهم إلى عبادة الله وحده، والذي أخرجهم من مصر تحت راية التوحيد، وغضب ﷺ من طلبهم هذا وردَّ عليهم:

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله تعالى، وأنه هو وحده المستحقُّ للعبادة.

أو: إنكم متصفون بصفة الجهل، وهي السفه والحماقة والطيش؛ فمن قريب رأوا الآيات العظيمة التي تدلُّ على عظمة الخالق سبحانه: انفلاق البحر، وإهلاك فرعون وجنوده، ونجاتهم من ظلمه وطغيانه، فما أجهلهم!.

وتابع موسى عليه السلام يبيِّن لبني إسرائيل ضلال هؤلاء القوم الذين يريدون تقليدهم في ضلالهم:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مدمَّر وهالك ما هم فيه من الضلال والكفر، فمعبوداتهم هذه يمكن تكسيرها وتدميرها، فلا تستحق أن تُعبد.

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وعبادتهم باطلة لا خير فيها.

ثم قال لهم موبخاً ومنكراً:

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: كيف أطلب لكم معبوداً غير الله تعالى؟!.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنعم الكبيرة والآيات العظيمة التي أعطاها لكم، والتي لم يعطِ مثلها لغيركم، فكيف تقابلون نعم الله تعالى بهذا الجهل والجحود، وتسألون معبوداً غيره سبحانه؟!.

وأضاف عليه السلام مذكِّراً لهم ببعض نعم الله تعالى عليهم:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ وفي قراءة: **(نجاكم)**.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ والابتلاءُ كما قلنا سابقاً يكون بالخير والشر، والنعمة والمحنة، وقد نجح القوم بالمحنة لما صبروا، ونجَّاهم الله تعالى منها، وسقطوا في ابتلاء النعمة، فجحدوا، ولم يشكروا الله تعالى، وطلبوا عبادة غيره ﷻ.

كتب سيد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآية فقال: «إنَّ موسى عليه السلام لا يواجه اليومَ طاغوتَ فرعون وملئه، فقد انتهتِ المعركةُ مع الطاغوت، ولكنَّه يواجه معركة أخرى، لعلَّها أشد وأقسى وأطول أمداً... إنَّها معركة استصلاح نفوس بني إسرائيل، التي أفسدها العيشُ الطويلُ في ظلِّ الاستبداد والظلم والإرهاب، فامتلأت بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من جانب آخر، وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية، التي تتعرَّض طويلاً للإرهاب والطغيان»[1].

ولا شك أنَّ الظلم والاستبداد والإرهاب يفسِدُ النفوس القابلة للفساد، فثمة شعوب كثيرة حَكَمها حُكَّام مستبدُّون، وعاشت في ظلِّ إرهابهم وظلمهم فترات طويلة، ومع ذلك لم تصل إلى هذا الحد الهابط من الفساد، فالنفوس البشرية أنواع في قابليتها واستعدادها للخير والشر كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ولدى بني إسرائيل استعداد كبير للفساد، أكدته مواقفهم التي ذكرتها الآيات الآتية.

- **صعقة موسى:**

سأل موسى عليه السلام ربَّه أن يُنزل عليه الكتاب الذي وعده به عندما كان في مصر، فأمره تعالى أن يهيِّئ نفسه لهذا الأمر، فيقبل على العبادة معتزلاً الناس ثلاثين يوماً، وفعل موسى ذلك، فأمره سبحانه أن يزيد عليها عشرة أخرى، قال تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٦٢.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾.

وقبل أن يعتزل موسى عليه السلام قومه ويتوجه لميقات ربه بجانب جبل الطور، استخلف عليهم أخاه هارون:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾. وأوصاه عليه السلام قائلاً:

﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ولا شك أنّ موسى يعلم حرص أخيه هارون على الإصلاح، وأنه لا يتأثّر بأهواء المفسدين، فهو نبيٌّ كريم معصوم بعصمة النبوة، ولكنَّ موسى عليه السلام أراد التأكيد والتحذير، لكونه يعلم طبيعة قومه، وما عندهم من قابلية واستعداد للفساد، كما يعلم أن في قومه أشخاصاً فاسدين مفسدين، سيستغلون فترة غيابه في نشر فسادهم في المجتمع الإسرائيلي.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ في المكان والزمان الذي عيَّنه له الحق سبحانه.

﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ من غير واسطة، أكرمه سبحانه بسماع كلامه.

وهو من الخصائص التي خصَّ الله تعالى بها موسى عليه السلام، طمحت نفس موسى إلى أكثر من ذلك:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: أكرمني بكرامة ثانية، وهي كرامة النظر إلى ذاتك المقدَّسة، كما أكرمتني بكلامك.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لن تستطيعَ رؤيتي، وأنت في حياتك الأرضية الزائلة المحدودة.

فـ (لن) هذه ليست لنفي الرؤية على وجه التأبيد كما رأى بعض أصحاب الفرق، وإنما لنفي قابلية الرؤية في الدنيا، وهي كائنة يوم القيامة للمؤمنين، بعد أن يكملهم الله تعالى ويجملهم، وتزول عنهم العوائق الدنيوية التي كانت فيهم.

وقد ثبتت الرؤية بالآياتِ القرآنيةِ الكريمةِ والأحاديث النبوية الصحيحة:

من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة].

وقوله ﷻ في الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقوله جَلَّ جَلَالُهُ أيضاً: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والزيادةُ هي رؤيةُ المؤمنين لربهم جلّ وعلا.

كما جاء في الحديث الشريف: عن **صُهيب** رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «**إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، قال: يقولُ الله تباركَ وتعالى: تريدونَ شيئاً أزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلْنا الجنّةَ وتنجِّنا من النارِ؟ قال: فيكشِفُ الحجابَ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إلى ربِّهم ﷻ**» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [رواه مسلم (٢٩٧)].

ومعنى قوله: «**فيكشفُ الحجابَ**» أي: تُزال مانعية الرؤية عن المؤمنين، فيكمِّلهم الله تعالى حتى يصبحوا أهلاً لرؤيته سبحانه. فالحجاب فينا نحن[1].

وقد مرَّ معنا أنَّه سبحانه يكمِّل أهل الجنة خَلْقاً وخُلُقاً عند قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**هل تُضارُّونَ في رؤية القَمر ليلةَ البدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**هل تضارّونَ في الشمسِ ليس دونها**

(١) انظر: (تفسير سورة يونس) في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

**سحابٌ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**إنَّكم ترونه كذلك**» [رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٩٩) واللفظ له].

ومعناه: ترونه سبحانه رؤية واضحة لا شك فيها كوضوح رؤية الشمس والقمر، كما يليق بجلاله سبحانه.

ومما يؤكد أنَّ قوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ لنفي قابلية الرؤية واستطاعتها في الدنيا، أنه سبحانه قال لموسى بعد ذلك:

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ إذا تجليت لك، والجبل أمكن وأثبت وأقل تأثُّراً، ومع ذلك:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر له على الوجه اللائق بجلاله.

﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً مُفَتَّتاً.

ولم يتحمَّل موسى عليه السلام هول منظر الجبل وهو ينهار ويتفتت:

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي: سقط مغشياً عليه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من صعقته وغشيته.

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الإقدام على سؤال الرؤية من غير استئذان.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك.

وظهر بهذا فضل سيدنا محمد ﷺ، فعندما أكرمه الله تعالى بمعجزة الإسراء والمعراج، وأراه من عجائب مخلوقاته في السماوات ما أراه، لزم ﷺ حدود ما أكرمه الله تعالى برؤيته، ولم يطمح ببصره إلى أكثر منه أدباً مع ربِّه جل جلاله، فاستحق ثناءه الكبير عليه في قوله سبحانه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم].

- **الشريعة والحضارة:**

وبعد أن أفاق موسى عليه السلام من صعقته، وأقبل على الله سبحانه تائباً، ذكَّره سبحانه بما أنعم عليه وما خصَّه به:

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى﴾ التي أنزلتها عليك.

﴿وَبِكَلَـٰمِى﴾ وبتكليمي إياك.

﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ فإن من الشكر الرضا بالنعمة والقناعة بها.

وأنزل عليه سبحانه التوراة مكتوبة في ألواح، وقال جلَّ وعلا في وصفها:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاجون إليه في أمر دينهم وشريعتهم، أي: كتبنا له فيها الأحكام الشرعية التي يحتاجون إليها في جميع شؤون حياتهم.

فالشريعة أمر أساس في بناء حياة الأمة الاجتماعية والحضارية، وبقاء الأمة واستمرار حضارتها مرهون بمدى تمسكها بالشريعة المنزَّلة عليها.

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: كتبنا له كلَّ شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام.

فالشريعة الصالحةُ الكاملةُ هي التي تلبي جميع الحاجات التشريعية للأمة في شؤون دينها ودنياها، وهي مقوم أساس من مقومات الحضارة، والمطلوب من بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلِّ حضارة الظلم والقهر والاستبداد عندما كانوا في مصر، أن يقيموا في الأرض المباركة حضارة العدل والإيمان والحرية والسلام، وهاهي الشريعة الكاملة قد أنزلها الله عليهم، وهاهو نبي الله موسى ﵇ يقودهم إلى الأرض المباركة، فهل سيكونون أهلاً لهذه المهمة الجليلة

ويرتفعون إلى مستواها؟ أم ستتقاصر هممهم وعزائمهم عنها، ويختار سبحانه لها غيرهم من الأمم؟ هذا ما ستكشف عنه الآيات في سورة الأعراف.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وحزم وعزم، فالمهمة التي كُلِّفتم بها شاقة وكبيرة، تحتاج إلى جد وعزم وحزم.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بعزائمها وواجباتها، ولا يتتبعوا رخصها فيعملوا بها فقط، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون في شرائعه المنزلة رُخَص لبعض الحالات الضرورية، فلا ينبغي العمل بالرخص فقط، وترك الواجبات والعزائم.

والتفتت الآيات تخاطب بني إسرائيل بأسلوب الوعيد والتهديد:

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار و التباب.

قال ابن جرير: «وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: (سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري) على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره»[1].

- **المعرضون عن الحق:**

وتابعت الآياتُ بأسلوب التهديد والوعيد، فبيَّنت سنَّةً من سُنَنِه سبحانه في خلقه، بقوله جلَّ وعلا:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ المبثوثة في الكون، والدالَّة على عظمته سبحانه ووحدانيته، أو آياتي المنزلة على رسلي، فلا ينتفعون بها.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٠.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بالطبع على قلوبهم، فلا يتفكَّرون بما يشاهدون من الآيات والدلائل، ولا يعتبرون بمصائر الأمم قبلهم، كما مرَّ معنا في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

فالكبر من آفات النفس الكبيرة، يجعل صاحبه قليل الفهم ضعيف الإدراك، لا ينتفع بموعظة، ولا يعتبر بمثل.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ كما فعل فرعون وملؤه، لم يؤمنوا بالمعجزات الكثيرة التي رأوها.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ بل يبتعدون عنه معرضين.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ أي: إذا رأوا أيَّ طريق من طرق الضلال والفساد سارعوا إلى السير عليه، مما يدلُّ على الاضطراب والخلل في تفكيرهم وانعكاس القِيَم في نظرهم.

إننا لنرى في عصرنا الحاضر كثيراً من المسلمين المفتونين بحضارة الغرب المادية تنسحب عليهم هذه الآية تماماً، يعرضون عن الحقِّ الذي في دينهم وشرعهم، ويتمسَّكون بكلِّ ضلال وباطل يأتيهم من غيرهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض لا غفلة سهو وجهل[١].

وسبب هذه الغفلة أنَّهم كذَّبوا بيوم القيامة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، ولا قيمة لحياة الإنسان إذا لم يستشعر في قرارة نفسه بمسؤولية في حياته، إنها جوهر حياته، ومحور وجوده:

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٦٣٥.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ﴾ ضاعت أعمالهم، وذهبت جهودهم سدًى، لأنهم جرَّدوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام ربهم، فماذا يبقى من حياتهم؟.

﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا؟!.

- **العِجْل الذهبي:**

وحدث في أثناء غياب موسى عن بني إسرائيل ما كان موسى يخشى حدوثه، فبينما كان عليه السلام بجانب الطور يناجي ربه، ويتلقَّى التوراة التي فيها الشريعة الإلٰهية، لتكونَ أساس المجتمع والحضارة في الأرض المباركة، كان بنو إسرائيل عاكفين على عبادة عجلٍ مصنوعٍ من الذهب؛ ولهذا العجل قصة:

عندما أغرق الله فرعون وجنوده في البحر، التقط الإسرائيليون بعض حليهم التي كانوا يتزينون بها، ويزينون بها أيضاً سلاحهم ومتاعهم، فلقد كان المصريون القدماء يحرصون على التحلِّي بالذهب، ويتخذون منه الأساور، دل على ذلك ما ذكره سبحانه في كتابه عن فرعون أنه قال عن موسى عليه السلام: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾ [الزخرف].

وكتم القومُ عن موسى عليه السلام أمرَ هذه الغنائم من ذهب المصريين، فقد كانوا يعلمون أنها لا تحل لهم، فما أحلَّ الله الغنائم إلا للمسلمين كما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره: «**أُعطيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي... وأُحلَّتْ لي الغنائمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي...**» [رواه مسلم (٥٢١)].

واستيقظ الضمير الديني للقوم في أثناء غياب موسى عنهم، وتساءلوا فيما بينهم: ماذا يصنعون بهذه الحلي؟ فأشار عليهم أحد رؤوس الضلال والفساد

فيهم، ويُدعى السامري، وكان يتظاهر بالورع والصلاح، أن يلقوها في النار، وأوقد الرجل لهم النار، وألقوا الحلي الذهبية فيها، وكان الرجلُ على خبرة بصياغة الذهب، فأخذ هذا الذهب المذاب في النار، وصنع منه تمثال عجل، ثم أخذ قبضة تراب كان يحتفظ بها، قبضها من أثر مَلَكٍ رآه، وهو متشكِّل بهيئة البشر أنزله الله تعالى عند انفلاق البحر، فقد انتبه السامري إلى أنَّ الأرض التي يطؤها تخضرُّ بتقدير الله تعالى، كأنَّ حياة سرت فيها، فأخذ منها قبضةً من التراب، احتفظ به لأمر دبَّره في نفسه، أقرَّ بذلك عندما سأله موسى بعد ذلك: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه].

ألقى السامري حفنةَ الترابِ هذه في جوف العجل الذهبي، فسرى به نوع من الحياة الجزئية المحدودة بتقدير الله تعالى، وأثَّرت فيه قبضةُ التراب هذه كما تتأثر قطع الحديد بالمغناطيس القريب منها، وجعله هذا التأثُّر يصوِّت ويخور كما تخور البقر، وقال السامري لبني إسرائيل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: ٨٨] أي: ذهب موسى إلى مناجاة إلٰهه ونسي أنه هنا.

فعكفوا على عبادته، وفُتِنوا به لكونه من ذهب، فالذهب كان ولا يزال معبود بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٩٣].

وحبُّ اليهود للذهب والمال أمرٌ معروف ومشهور، عبدوا العجل الذهبي، وأعرضوا عن نصح هارون لهم، وقالوا له: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] ففتنتُهم بالعجل الذهبي كبيرةٌ. قال تعالى هنا:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝١٤٨﴾.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: عجلاً متجسداً، فهو

مجرَّد تمثال من ذهب.

﴿لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ له صوت كصوت البقر، فكيف فُتنوا به، وعبدوه من دون الله تعالى؟!.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ﴾؟! فهو عاجز، لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر من الكلام وإرشاد السبيل.

﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ معبوداً وإلٰهاً.

﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ في عبادته، كما قال سبحانه في **سورة البقرة**: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

ولما انتبهوا وعرفوا قُبْحَ ما صنعوا ندموا:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: أي ندموا.

﴿وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول توبتنا.

﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ويستر خطيئتنا.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الذين ضيعوا ثواب عباداتهم كلِّها بشركهم وكفرهم.

- **خيبة أمل:**

وأخبر علَّام الغيوب نبيَّه موسى عليه السلام بما أحدث قومه من بعده:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حزيناً.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ﴾ أي: بئسما فعلتم في غيابي.

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: أعجلتم سخط ربّكم وعذابه بعبادة العجل؟!.

واحتمله الغضب لله تعالى:

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ ألواح التوراة.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ وهو يظن أن هارون قد قصَّر في نُصحهم وزجرهم.

﴿قَالَ﴾ هارون.

﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ أي: يا ابن أمي، ذكَّره بأمه ليرقق قلبه عليه، مع أنهما شقيقان.

﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي﴾ عندما وعظتهم وزجرتهم.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فلا تفعل بي ما يجعل الأعداء يفرحون بما يصيبني منك.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل.

ترك موسى رأس أخيه هارون، واتجه إلى الله تعالى يسأله الرحمة له ولأخيه فقط، لم يسألها لأحد من بني إسرائيل، فقد رأى عليه السلام أنهم لا يستحقون رحمة الله تعالى بعد أن لوَّثوا أنفسهم بعبادة غيره تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

وهذا يدلُّ على خيبة الأمل المُرَّة التي أصيب بها موسى عليه السلام، لقد كان يرجو ويأمل أن يبني بهم في ظلِّ شريعة التوراة مجتمع الإيمان والعدل والسلام في الأرض المباركة، ولكن مواقفهم هذه بددت آماله عليه السلام، حتى سأل الله تعالى ـ في آخر المطاف معهم ـ أن يفرق بينه وبينهم، كما حكى الله سبحانه عنه في سورة المائدة عندما رفضوا تنفيذ أمره وقتال أعدائهم الذين كانوا يسكنون في فلسطين: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ

ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥][1]، تلك هي النتيجة التي انتهى إليها موسى ﷺ بعد المعاناة الطويلة مع قومه بني إسرائيل.

ثم بيّن سبحانه حُكمه في عُبَّاد العجل فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

وأي فرية وكذبة أعظم من قولهم في العجل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]، كما سبق معنا في تفسير الآية (١٤٨).

ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بعباده، يقبل توبتهم، ويغفر لهم، إن تابوا واستغفروا، ورجعوا عن كفرهم وفجورهم:

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد عملها، وهذا دليل على أنهم أقلعوا عن السيئات، وهجروها نادمين على فعلها.

﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ أي: جدَّدوا إيمانهم بعد ارتدادهم وكفرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ أي: سكن غضب موسى ﷺ.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها في أثناء غضبه.

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في: (تفسير سورة المائدة) وهو جزء من تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه (الحلال والحرام في سورة المائدة).

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: وكُتِبَ فيها ما فيه هدى ورحمة، **والنسخ**: الكتابة. ففيها الأحكام التي ترشد إلى الحقِّ والعدل والرحمة والسعادة.

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون الله تعالى ويخشونه، ويلتزمون شريعته.

- **ميقات التوبة:**

وتابعت الآيات مسيرةَ بني إسرائيل التاريخية، وهم في طريقهم إلى الأرض المباركة:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ من قومه.

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم، وأهل الصلاح والتقى فيهم.

﴿لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ لكي يخرجوا مع موسى إلى مكان مناجاته ربَّه، ليتضرَّعوا إلى الله تعالى، ويستغفروه، ويسألوه أن يتوب على بني إسرائيل بعد عبادة العجل.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة، فصعقوا.

وبيَّن الله في **سورة البقرة** سبب ما أنزله بهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فعندما وصلوا مع موسى إلى مكان المناجاة عند جبل الطور، وشرع موسى عليه السلام يناجي ربَّه، ويتلقَّى وحيه، سألوا موسى أن يروا الله سبحانه جَهْرة، وقالوا له: لن نصدق أنك تناجي ربَّك حتى نرى الله جهرة، فرجف الجبل بهم فصعقوا وماتوا! أولئك هم خيار بني إسرائيل، اختارهم موسى بنفسه، وهو أَخْبَرُ الناس بقومه، وإذا كان خيارهم هكذا، فما بالك بعامتهم؟!.

إنَّ الآية تكشف عن طبيعة النفوس المادية الغليظة التي لا تؤمن إلا بالمحسوسات، فقلوبهم قاسية، وطباعهم مادية غليظة خشنة، فأيُّ خير يُرجى

من مثل هؤلاء القوم، ولنتذكَّر هنا قوله تعالى الذي مرَّ معنا في السورة: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

**وقد يقول قائل:** لقد سأل موسى الرؤية قبلهم.

**فأقول:** هناك فرق كبير بين من سأل الرؤية حبّاً لله تعالى وشوقاً إليه، وبين الذين سألوا الرؤية شكّاً وريبة.

ووقف موسى على الجبل وحيداً بين أجساد المصروعين، واتجه إلى الله تعالى داعياً بضراعة وخشوع:

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ أي: إنك قادرٌ على إهلاكنا من قبلُ عندما كنا بين أمواج البحر، فرحِمتنا ونجيتنا من ظلم فرعون ومن البحر، فكما رحمتنا في الماضي، أسألك أن ترحَمَنا في حاضرنا.

هكذا تعرَّض عليه السلام لرحمة الله تعالى السابقة لاستجلاب رحمته اللاحقة.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ من العناد وسوء الأدب وعبادة العجل.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك، فكأنه عليه السلام يقول: إنِ الأمرُ إلا أمرك، وإنِ الحكمُ إلا لك، فما شئت كان.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلَّ لمن هديت، ولا مُعْطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كلُّه لك، والحكم كلُّه لك، لك الخلق والأمر(١)، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبعد هذا الثناء على الله تعالى، فوَّض الأمر إليه جلَّ وعلا:

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أي: متولِّي أمورنا كلّها، ثم طلب المغفرة والرحمة.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ العافين، المتجاوزين عن الذنوب والمعاصي.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٤.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تحسن فيها أحوالنا.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾: أي تبنا إليك، وأنبنا إليك، من هاد يهود: إذا رجع.

﴿قَالَ﴾ الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام:

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ فمشيئته سبحانه طليقة، نافذة في كلِّ شيء، يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء، وهو سبحانه العليم الحكيم.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكلُّ المخلوقات من آثار رحمته جلَّ وعلا.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فسأوجبها على نفسي تفضُّلاً وإحساناً.

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يدفعها غنيهم لفقيرهم، مما يدلُّ على أنَّ مجتمعهم مجتمع متكافل متعاون، لا حقد فيه ولا حسد، ولا طمع ولا جشع.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدِّقون بأنها من عند الله، فيلتزمون بأحكامها، ويقيمون دعائم حضارتهم على نهجها.

- **بناء الحضارة الإنسانية:**

قفزت الآيات الكريمة فوق أحقاب كثيرة من الزمان تزيد على ألفين من السنين، وتجاوزت أمماً كثيرة وحضارات متعددة، لكي تبيِّن هوية الذين يتصفون بهذه الصفات الكريمة، فكأنَّ جميع الأمم والشعوب الذين عاشوا في تلك الأحقاب الطويلة، لا توجد فيهم هذه الصفات، ولا يصلحون لأن يكونوا بناة الحضارة الإنسانية الحقة، حضارة الإيمان والحق والسلام.

ترى من هم أولئك الموصوفون بهذه الصفات، الذين كتب الله تعالى على نفسه أن يرحمهم؟ إنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الذي لم يمارس القراءة والكتابة.

وهذه الصفة من صفات كماله عليه الصلاة والسلام، لأنَّها من أدلَّة صدقه في نبوته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

**والأمِّي** أيضاً: المنسوب إلى الأمة الأُمِّيّة، وهي الأمة العربية، وكانت الأميةُ فاشية بينهم في الجاهلية قبل الإسلام، وفي الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّا أُمةٌ أُمّيّةٌ، لا نكتُبُ ولا نحسبُ**» [رواه مسلم (١٠٨٠)].

- **النبي ﷺ في التوراة والإنجيل:**

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ باسمه ونعوته.

﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾. ذكر سبحانه الإنجيل قبل نزوله، كما ذكر النبي ﷺ والقرآن الكريم قبل مجيئهما، وقد أنزل الله التوراة والإنجيل على بني إسرائيل، أنزل التوراة سابقاً على موسى عليه السلام، والإنجيل لاحقاً على عيسى عليه السلام.

ورغم التغيير والتحريف اللذين لحقا بالتوراة والإنجيل، وخاصة ما يتصل بالنبي ﷺ والإسلام، بقيت فيهما بعضُ الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ ورسالة الإسلام التي أرسل بها، منها ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة ٧ ـ ٩: «ولسوف أزلزلُ كلَّ الأمم، وسوف يأتي حِمَدا

(Himada) لكلِّ الأمم، وسوف أملأُ هذا البيتَ بالمجدِ، كذلك قال ربُّ الجنودِ، ولي الفضةُ، ولي الذهبُ، هكذا يقول ربُّ الجنود، وفي هذا المكانِ أعطي السلامَ، هكذا يقولُ رب الجنود».

قال الدكتور البروفسور داود بنيامين الكلداني قسيس الكنيسة الكاثولكية الرومانية، والذي أسلم بعد ذلك وسمَّى نفسه (عبد الأحد داود): «لقد قمتُ بترجمة هذه الفِقْرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية، كانت ابنةَ عمٍّ لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدَّس والتي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة (حِمَدا) إلى الأُمنية، وكلمة (شالوم) إلى الإسلام»[1].

ثم بعد أن استعرض معنى كلمة (حِمَدا) باللغة العبرية، وجد أنَّ لها معنى آخر وهو الحمْد، فقال: «وأيًّا من المعنيين نختار فإنَّ الحقيقةَ الناصعةَ بأن كلمة (أحمد) هي الصيغة العربية لكلمة (حِمَدا) وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريب فيه ولا مراء فيه. ولقد جاء في القرآن الكريم في **سورة الصف** الآية السادسة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾، وفي إنجيل يوحنا الذي كتب باليونانية استعمل الاسم (باراكليتوس) وهو صيغة وثنية، لم تكن معروفة في دنيا الأدب الإغريقي، ولكن كلمة (بيركليتوس) والتي توافق وتطابق اسم (أحمد) في معناه ومغزاه، وفي إشراقه وسموه وتمجيده، وفي مقامه المحمود الأعلى، لا بدَّ وأن تكون ترجمتها من اليونانية (حِمْدا) أو لعلَّها (حميده) بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح، ولكن واأسفاه لا يوجد هناك إنجيل باق على الزمن باللغة الأصلية التي تحدَّث بها السيد المسيح»[2].

---

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص٥١.

وفي أثناء فتح الصحابة ﵃ لمصر، ظفر **عبد الله بن عمرو بن العاص** ﵄ ببعض كتب أهل الكتاب، فقرأها، واشتهر بين الصحابة باطِّلاعه على كثير من علوم أهل الكتاب وكتبهم، ولمَّا سأله **عطاء بن يسار** عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «**أجل واللهِ إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتُكَ المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا سخَّابٍ في الأسواقِ، ولا يدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيمَ به الملةَ العوجاءَ، بأن يقولوا: لا إلـٰه إلا الله، ويُفْتَحُ به أعينٌ عميٌ، وآذانٌ صمٌّ، وقلوبٌ غُلْفٌ**» [رواه البخاري (٢١٢٥ و٤٨٣٨)].

ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدد من الآيات والسُّور، وذكر أيضاً أنَّ الصحابة ﵃ قد ذُكرت بعض صفاتهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

- **من خصائص الشريعة الإسلامية:**

ومن خلال الصفات التي ذكرتها الآيات للنبي ﷺ أظهرت بعض الخصائص والسمات للشريعة الإسلامية:

**أولها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

**وثانيها: تحليل الطيبات وتحريم الخبائث:**

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ وهي كما مر معنا: المستلذات النافعة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقد ذكرتُ ثمة أن الأصل في الأشياء الإباحة.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ المستخبثة الضارة، فكل ما يضر الإنسان في دينه وعقله وعرضه ونفسه فهو حرام في الإسلام، ولهذا حرَّم الله تعالى المسكرات والدم المسفوح ولحم الميتة والخنزير، وبعد أن ثبتَ ضررُ الدخانِ وأنَّه من الخبائث ظهر حكمه في الإسلام وهو المنع والتحريم.

**وثالثها: السماحة والتيسير:**

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: يخفِّف النبيُّ ﷺ في شريعته الإسلامية، التكاليف الشرعية الثقيلة التي شرعت في الشرائع السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ الآية [المائدة: ١٥].

وقوله أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] **قال: قد فعلتُ**» [رواه مسلم (١٢٥)].

﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة؛ وذلك مثل: قتل النفس في التوبة بعد الردَّة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيين القصاص في القتل، وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت... شُبِّهت بالأغلال مجازاً، لأنَّ التحريم يمنعُ من الفعل، كما أن الغِلَّ يمنع من الفعل(١).

هذه الصفات الثلاثة التي أبرزتها الآيةُ الكريمةُ للشريعة الإسلامية، تدلُّ على أنها الشريعة الصالحة للإنسان لكي يبني في ظلِّها حضارة العدل والإيمان والسلام.

ثم تحدَّثت الآياتُ عن الأمة التي ستحمل هذه الشريعة، وتبني تلك الحضارة في قوله تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: صدقوا برسالة النبي ﷺ.

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/٦٤٨.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عرفوا قدره العظيم ﷺ، فعظَّموه ووقَّروه وفخَّموه، ومنعوه مِنْ كل من يريده بسوء، ولا شكَّ أن التمسُّك بسنَّته وتعظيمها، من تعظيمه ﷺ وتوقيره.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه، وجاهدوا في سبيل إعزاز دينه، ونشر رسالته وتطبيق شريعته.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، أي: التزموا بأحكام دينه، وتمسَّكوا بمنهجه وشريعته، فجعلوها أساس حياتهم في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون في الدنيا والآخرة.

وكل من اتصف بهذه الصفات، فهو من هذه الأمة، مهما كان لونه وجنسه ووطنه، فالأمة المسلمة أمة عالمية إنسانية، أكدت هذه الحقيقة الآيات الكريمة عندما التفتت هذه الالتفاتة الرائعة لتخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

**كلماته**: المنزلة على جميع رسله.

- **الماء والغمام والمنُّ والسَّلْوى:**

وبعد هذه القفزة الكبيرة ما يزيد على ألفين من السنين، عادت الآيات إلى الحديث عن بني إسرائيل، وهم في مسيرتهم التاريخية من مصر إلى فلسطين، وبدأت حديثها بالثناء على طائفة قليلة منهم، ظلُّوا متمسكين بالحق:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة.

﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يدعون إلى الحق، ويرشدون الناس به.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام.

وتدلُّ هذه الشهادة الطيبة على دقة الأخبار القرآنية وصحتها وواقعيتها، فمن هؤلاء من أدرك النبيَّ ﷺ وآمن به كعبد الله بن سلام، وكان من كبار أحبار اليهود بالمدينة المنورة، وميمون بن يامين، وزيد بن سَعنة، وغيرهم.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: جعلناهم اثنتي عشرة قبيلة.

فالسِّبْطُ في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، وذلك لأنَّ آباءهم هم أولاد يعقوب الاثنا عشر: يوسف عليه السلام وإخوته.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أي: عندما طلب قومه السُّقيا والماء، وهم في صحراء سيناء.

﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فضرب.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ فانفجرت.

﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط عين يستقون منها.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فلا يتزاحمون على الماء، ولا يختصمون، كما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

ومما أنعم الله به عليهم أيضاً:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ ليقيهم وهج الشمس وحرها.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾ وهو كلُّ ما منَّ الله عليهم من طعام دون تعب ولا عناء، يجدونه كالصمغ معلقاً على أغصان الأشجار والنباتات، أو يأخذونه من الأرض.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمنُّ المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً... ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «**الكمأةُ من المنِّ، وماؤها شفاءٌ للعينِ**» [رواه البخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩) واللفظ له]»(١).

﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ نوع من الطيور يشبه السمّاني، كانوا يأكلون منه.

وقال لهم سبحانه:

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وهو أمر للإباحة.

- **ظلمٌ وفسقٌ وفساد:**

وحذَّرهم من المعاصي ونشر الفساد، كما مرَّ معنا في آية **سورة البقرة**: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾؛ ولكنَّ القوم لم يشكروا الله على نعمه، ولم ينفذوا ما أمرهم به، بل فسقوا عن أمره، وظلموا بذلك أنفسهم، دلَّ على ذلك قوله تعالى في ختام الآية:

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ومن صور فسقهم وظلمهم، ما فعلوه عندما أمرهم الله أن يدخلوا إحدى القرى التي مرُّوا بها في سيناء، وهم في طريقهم إلى فلسطين، ولعلَّ سبب ذلك أنهم تبرَّموا من الطعام الذي أنعم الله به عليهم، كما حكى سبحانه ذلك عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ الآية [البقرة: ٦١].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٧.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وأباح لهم سبحانه ما فيها من طعام: ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ والقرية التي أمروا أن يسكنوا بها هي إحدى قرى صحراء سيناء، وقد جرى لهم هذا الأمر في فترة التيه، وكانتِ القريةُ محاطةً بأسوار، كما هو شأن جميع القرى والمدن في ذلك الوقت، فأمرهم سبحانه عندما يدخلون من بابها، أن يدخلوا خاضعين له تائبين مستغفرين، يحنون ظهورهم، ويسألونه سبحانه أن يحطَّ عنهم ذنوبهم وأوزارهم.

﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: اسألوا الله أن يحطَّ عنكم ذنوبكم.

﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ لله تعالى، تحنون ظهوركم، ووجوهكم إلى الأرض، ووعدهم سبحانه على ذلك المغفرة والثواب العظيم.

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلم يفعلوا ما أمرهم الله تعالى به، وفسقوا عن أمره:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ ودخلوا دخول المتكبِّرين المتجبرين المتحجرين، صدورهم ورؤوسهم إلى السماء.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو مرض الطاعون الذي مرَّ معنا ذكره.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾. وقال في **سورة البقرة**: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

- **بلد الممسوخين:**

واستمرَّتِ الآياتُ تكشِفُ الستار عن جانب من تاريخ بني إسرائيل، لكي

تبيِّنَ أنَّهم غيرُ جديرين بالتمكين في الأرض المباركة، وإقامة حضارة الإيمان والعدل والسلام.

اتبعت الآياتُ في عرضها للواقعة التاريخية التالية أسلوبَ التحدِّي ليهود المدينة المنورة الذين عاصروا النبيَّ ﷺ، بسبب مواقفهم السلبية المخزية منه عليه الصلاة والسلام، خاطبت الآياتُ النبيَّ ﷺ تأمره أن يسأل اليهودَ عن بلد الممسوخين إلى صور القردة والخنازير.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: التي كانت واقعة على ساحل البحر، وهي بلدة أيلة، أو إيلات، الواقعة على خليج العقبة من البحر الأحمر.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: عندما يعتدون في يوم السبت، ويعصون أمر الله تعالى فيه، أمرهم الله تعالى أن يعظِّموا يوم السبت، ويجعلوه يومَ عبادةٍ لا عملَ فيه، فخالفوا أمره، واحتالوا لصيد السمك فيه.

ابتلاهم الله تعالى بظهور السمك في شواطئهم يوم السبت:

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ ظاهرة على الماء بكثرة.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ﴾ وتغيبُ بعيداً في أعماق البحر.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ أي: نختبرهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وخروجهم على طاعة ربهم.

وتدلُّ الآية على أنّ معاصي كثيرة وكبيرة قد انتشرت بينهم، ولهذا ابتلاهم الله تعالى بظهور السمك يوم السبت.

وكان فيهم جماعةٌ صالحةٌ، قاموا بوعظهم وتذكيرهم بطاعة ربهم،

وتخويفهم من غضبه وانتقامه مدة طويلة من الزمن، حتى دبَّ اليأسُ من إصلاحهم في نفوس بعضهم، فترك هؤلاء اليائسون الوعظَ والتذكير، وقالوا لإخوانهم المستمرين في الوعظِ والتذكير كما ذكر سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إهلاكاً كليّاً.

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون أن يستأصلهم.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: الوعَّاظ والمذَكِّرون.

﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نعظهم معذرة إلى الله تعالى، كي نظهرَ براءتنا من ذنوبهم، وأننا غير راضين بها.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ونحن نرجو أن يُقْبِلوا في يوم ما على الله تعالى، ويتوبوا عن معاصيهم، ويتقوا ربهم.

ولا شكّ أنَّ هؤلاء الواعظين أفضل عند الله تعالى من الساكتين، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،

ولقوله ﷺ: «**مَنْ رأى مِنْكُم منكراً فَلْيغيِّره بيدِهِ، فإن لم يستطعْ فبلسانهِ، فإن لم يستطعْ فبقلبهِ، وذلك أضعفُ الإيمانِ**» [رواه مسلم (٤٩)].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: تركوا وأعرضوا عما ذكَّرهم به الصالحون.

﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ من العذاب الذي نزل بهم.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شديدٍ لا رحمة فيه.

﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وإصرارهم على معاصيهم.

ثم بيّن سبحانه العذابَ الذي أنزله بهم فقال:

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي: تكبَّروا عن تركِ ما نُهوا عنه من المعاصي.

﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ صاغرين مبعدين ذليلين، كما قال سبحانه في **سورة البقرة**: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ويبدو أنَّ العامَّةَ مُسخوا إلى صُوَر القردة، وأمَّا رؤساء الضلال فيهم فمسخوا إلى صور الخنازير، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

- **الـذِّلَّـةُ والشَّـتات:**

أظهر الله تعالى بما كشف من مواقف اليهود المخزية هذه، استحقاقهم لحكمه الذي ألزمهم به في الدنيا، والذي بيَّنه سبحانه بقوله:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلن، أو حكم.

وفي قوة الكلمة ما يفيد معنى القسم، فجاءت اللام بعدها كأنها جواب القسم:

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: الذي ينزل بهم، العذاب الذي يسوءُهم كالسجن والقتل والتعذيب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ للمستحقين له.

﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأسلم.

والمتأمِّل في تاريخ اليهود يرى صدقَ ما ذُكر في الآية الكريمة هذه، فلقد بعث الله عليهم في أثناء تاريخهم الطويل من يسومهم سوء العذاب، فكلَّما انتعشوا وانتفشوا، وطغوا في الأرض، سلَّط الله عليهم من يسومهم مختلف أنواع العذاب.

وسيبقى هذا الحكم ملازماً لهم إلى يوم القيامة، كما أخبر سبحانه، وما نراه في العصر الحاضر من استطالتهم في أرض فلسطين، وتمكُّنهم فيها، ليس سوى فترة عارضة، ومقدمة لعذاب سينزله الله تعالى بهم، بسبب فسادهم، وبغيهم في الأرض المباركة، وأعمار الأمم والشعوب لا تُقاس بأعمار الأفراد، ثم إن هذا التمكُّن في فلسطين، ليس صادراً في الحقيقة منهم، إنما هو من الدول الكافرة الكبيرة التي تقف وراءهم، تؤيِّدهم وتمدُّهم. كما أخبر سبحانه في **سورة آل عمران** بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

وقد حكم الله تعالى عليهم أيضاً بالتشتت والتفرُّق في بقاع الأرض:

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ فأصبحوا مشتتين في بقاع بعيدة، كما هو المعروف من تاريخهم.

﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ الذين ظلُّوا متمسكين بدين الله تعالى حتى بُعثَ سيدنا محمد ﷺ، فآمنوا به، وصدقوا برسالته، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ أي: منحطون عن مرتبة هؤلاء في التمسك بدين الله.

﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: اختبرناهم بالخير تارة وبالشر تارة أخرى.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحقِّ ويتوبون عن المعاصي والفجور.

• **غرور واستكبار:**

ثم قدَّمت الآياتُ وصفاً موجزاً لموقفهم من شريعتهم المنزلة على موسى في التوراة بعد التفرُّق والشتات:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: أتت بعد الأجيالِ الأولى أجيالٌ أسوأُ حالاً من الأولين.

﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ أي: هجروا أحكام التوراة، وانصرفوا إلى أخذ ما يعرض لهم من شهوات الدنيا.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: يفعلون ذلك وهم يطمعون بالمغفرة، وأنه سبحانه لن يؤاخذهم، وسيتجاوز عنهم.

وهو غرورٌ شيطانيٌّ، خدعوا به أنفسهم بسبب تكبُّرهم، ورؤيتهم لأنفسهم امتيازاً على غيرهم من بني آدم، فلهم بزعمهم مكانة خاصة عند الله تعالى.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: يرجون المغفرة، وهم مصرُّون على الذنوب، عائدون إلى مثلها، غير تائبين ولا مستغفرين.

وردَّ سبحانه على قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ بتوبيخهم وتذكيرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم:

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: المذكور في التوراة.

﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إلا الصدق.

وقد كذبوا عليه سبحانه عندما قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم يعلمون أن مثل هذا القول غير موجود في التوراة، لأنهم قرؤوها وعرفوا ما فيها.

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ أي: ما في كتاب التوراة، وما غرُّوا نفوسهم وأطمعوها بالمغفرة إلا ليُقْبِلوا على شهوات الدنيا دون أي عائق يقوم في نفوسهم.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾الله تعالى ويخافون عذابه.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ هذه الحقيقة؟! كيف يجعل الله سبحانه المتقين الصالحين المصلحين كالمجرمين؟! كما جاء في قوله تعالى في **سورة القلم**: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝٣٦﴾.

ولهذا أثنى الله سبحانه بعد ذلك على المتمسِّكين بالكتاب المنزل عليهم، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ۝١٧٠﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ يحلُّون حلاله، ويحرِّمون حرامه، ولا يتجاوزون أحكامه.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها مستقيمةً كاملةً كما شرعها الله سبحانه، وتخصيص الصلاة بالذكر مع أن التمسك بالكتاب يدلُّ عليها لأهميتها.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ لأنفسهم ومجتمعهم بتمسُّكهم بشريعة ربهم سبحانه.

- **ميثاق تحت الجبل:**

وهو ميثاقٌ معروفٌ عند عامة بني إسرائيل، ذكره سبحانه في التوراة، وذكَّرهم به في القرآن الكريم، أخذه الله على آبائهم في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليتمسَّكوا بأحكام شريعتهم، فبعد أن سكن غضبُ موسى، وأخذَ الألواح، وقرأها عليهم، استثقلوا ما فيها من تكاليف، وأبوا أن يلتزموا القيام بها، فرفع الله الجبل بكتلته الكبيرةِ الهائلةِ فوقهم، وهدَّدهم بإسقاطه فوقهم إن لم يلتزموا

بالقيام بأحكام التوراة، فخرُّوا على الأرض ساجدين، وجعلوا طرفاً إلى الأرض، والطرف الآخر من وجوههم إلى الجبل خشية أن يسقط عليهم:

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي: رفعنا الجبل فوقهم حتى أصبح كأنه مظلة فوق رؤوسهم.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: وتيقنوا أنه ساقط عليهم، وقيل لهم:

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: تمسكوا بأحكام الكتاب المنزل عليكم بعزم وحزم، وجد واجتهاد.

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي: تذكروا كل ما فيه من التكاليف والأحكام، ولا تغفلوا عن شيء منها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلكم تصلون إلى درجة المتقين.

ومع ذلك نقضَ القومُ عهدَهم بعد ذلك، كما أخبر سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ الآية [٦٣].

**• الميثاق الأول والفطرة:**

وانتقلت الآياتُ بعد تذكيرهم بالميثاق الخاص بهم، إلى تذكيرهم بالميثاق العام، الذي أخذه جلَّ وعلا على جميع بني آدم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ الذين ولدهم نسلاً بعد نسل، سوى من لم يُولد له.

﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: أخذ ربك من ظهور بني آدم، فهو بدل من بني آدم.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادهم الذين تفرعوا عنهم.

وفي الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى لأهونِ أهلِ النارِ عذاباً: لو كانتْ لكَ الدُّنيا وما فيها، أكنتَ مفتدياً بها؟ فيقولُ: نعم، فيقولُ: قد أردتُ منكَ أهونَ مِنْ هذا، وأنتَ في صُلْبِ آدم، أَنْ لا تُشْرِكَ، ولا أدخلكَ النارُ، فأبيتَ إلا الشركَ**» وفي روايةٍ ثانية بلفظ: «**قد سُئِلْتَ ما هو أيسرُ مِنْ ذلكَ**» [رواه مسلم (٢٨٠٥)].

و(**الذرية**): هي النسل، واشتقاق كلمة الذرية من الذر، يدلُّ على أن النسل يحصل بعناصر صغيرة جدّاً، تبيَّن في العصر الحاضر أنَّها الخلايا الجنسية، فالنطفةُ ـ كما يقول الأطباء ـ تُشتقُّ من النطفة قبل زمن العلقة، وقبل تجسُّم الإنسان الجديد، فالخلايا الجنسية الابتدائية تُشتقُّ من جدار الحُوَيْصل المحِّي، ثم تهاجر، وتدخل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكوُّن في ظهر المخلوقِ الجديدِ، ثم تتكاثر فيها[١].

والإنسانُ قبل أن يكونَ مجسَّماً بأعضائه وصفاته، هو صيغة كروموزومية وموروثية معينة، فهو (٤٦) كروموزوماً، تحتوي على عدد كبير من المورثات (الجينات) تتوزَّع عليها بصيغة تختلف من إنسان إلى آخر، وهذه الكروموزومات والمورثات وُجِدَتْ كلُّها في آدم عليه السلام . . ثم أخذت تتوزع في ذريته[٢].

وجاء في الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ من ظهرِ آدمَ** عليه السلام **بِنَعْمَان**[٣] **يوم عرفة، فأخرجَ مِنْ صُلبِهِ كُلَّ ذريةٍ ذرأَها فنثرَهم بين يديهِ، ثم كلَّمهم قُبُلاً، قال**: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾» [رواه أحمد (٢٤٥٥) وقال الشيخ أحمد محمد شاكر مصحح المسند: إسناده صحيح، والحاكم (٢/ ٥٤٤) وصححه، ووافقه الذهبي].

---

(١) انظر: القرار المكين، ص١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٣) موضع قرب عرفات.

﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: جعل كلَّ واحد منهم شاهداً على نفسه لا على غيره.

﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ على أنفسنا بهذا الإقرار.

وقد حمل بعض المفسِّرين الآية على ظاهرها كما فسَّرها ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه من طرق كثيرة، وبعضهم رأى أن المراد بهذا الإشهاد هو ما فطرهم عليه من التوحيد، وما أقام لهم من الأدلَّة على ربوبيته ووحدانيته.

وقد فسَّرَ الحسنُ البصري الآية بذلك، ولهذا قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يقل من آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يقل من ظهره، وقد انتصر ابن كثير لهذا الرأي، وردَّ ما روي من الحديث عن ابن عباس بأنه موقوف[1].

لكنّي أرى أنّ الأولى المصير إلى ظاهر الآية والحديث، فمثل ما ورد في الحديث لا يُعرف بالرأي، وعلم المورثات والجينات في عصرنا الحاضر قرَّبَ هذه الحقيقة من الأذهان، وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ أي: أخرج بعضهم من ظهر بعض على نحو ما سيتوالدون ويتناسلون، وهو سبحانه قادر على كلِّ شيء، وقد ذكرتُ أنَّ المختصِّين من العلماء يقولون: إن النُّطَفَ تُشتقُّ من النطف.

نعم؛ يمكن القول بأنَّ معرفة الخالق وتوحيده التي فطر الله تعالى عليها الخلق، من أثر هذا الميثاق العام الأول، قال تعالى فيها: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنّه كان يقول: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما منْ مولودٍ إلَّا يولدُ على الفطرةِ، فأبواه يهوِّدانهِ، وينصِّرانهِ، ويمجِّسانهِ، كما تُنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحسُّون فيها من جدعاءَ**» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ الآية. [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) واللفظ له].

ومعنى «**جمعاء**»: كاملة الأعضاء، و«**الجدعاء**»: مقطوعة الأذن.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٤.

فمعرفة الله تعالى مركوزةٌ في نفس كلِّ إنسان، ولا عبرة بمكابرة الملاحدة من الماديين الدهريين، فهم ينكرون الحقيقة في أعماق نفوسهم، بسبب غرورهم واستكبارهم، وتظهر عندما يواجهون الموت ويُعاينون أسبابه، كما فعل فرعون عندما أدركه الغرق.

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ أي: وأخذ عليكم هذا الميثاق لِئلا تقولوا.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ لم نُنبَّه عليه، لقد فطركم الله عليه، ونصب لكم في الكون المحيط بكم وفي أنفسكم الدلائل الكثيرة التي تذكِّركم به، كما أرسل إليكم الرسل وأنزل الكتب.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ سرنا على طريقهم مقلدين لهم.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من آبائنا، لكن الله سبحانه جعلَ لكلِّ إنسان مكلَّف إرادة وكسباً واختياراً، وزوده بالعقل ليميِّز به، كما أعطاه سمعاً وبصراً، وأرسل إليه مَنْ يدعوه إلى الحق ويبيِّنه له، فهو مسؤول عن اختياره وكسبه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ التي تذكِّرهم وتعظهم وتزجرهم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم وفجورهم، أو عن تقليد آبائهم.

- **المنسلخون من الآيات:**

إنّ الأدلةَ السمعية والعقلية، تقرعُ أسماعهم، وتحيطُ بهم، ولكنَّهم أعرضوا عنها، وسلخوا أنفسهم منها، كما فعل ذلك الرجل الذي آتاه الله الآيات، وقرَّب إليه البيِّنات، فانسلخ منها، فاقرأ عليهم يا محمد ـ ﷺ ـ خبره:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ ففي هذه الكلمات إشارةٌ إلى أنَّ اليهود كان عندهم علمٌ بخبر هذا الرجل.

ولا يهمُّنا معرفة هويته، ولا حاجةَ بنا أن نرجع إلى أهل الكتاب لنسألهم عنه، كما فعل كثير من المفسِّرين، يكفي أن نتعرَّف عليه من خلال الصفات التي وصفته بها الآيات القرآنية الكريمة.

فهو رجلٌ آتاه الله تعالى الآيات، ووفَّقه إلى معرفتها، وشرح صدره لها، حتى أصبح من أهل الصلاح والتقوى والعلم فترةً من الزمن، ثم فُتِنَ عن دينه بوسوسة الشيطان.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من تلك الآيات، بأن كفر بها، وأعرض عنها.

**والسلخ**: كَشْطُ الجلد، وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكلِّ شيء فارق شيئاً على أتم وجه: انسلخ منه[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يسٓ: ٣٧]؛ فالكلمةُ تدلُّ على أنّ الرجل كان متمسِّكاً بالآيات ومتصلاً بها اتصالاً قويّاً، وأنَّه كان على صلاح وتقوى، وكانت هذه الدلائلُ والبراهينُ حصوناً مانعةً له من كيد الشيطان ومكره، فلمَّا انسلخَ منها تمكَّن الشيطانُ من إضلاله.

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وتمكَّن منه، وأخضعه لوسوسته.

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فصار من أتباع الشيطان الضالين.

فمن وفقه الله تعالى إلى تعلُّم بعض علوم الكتاب والسُّنَّة، فعليه أن يتمسك بها ويعمل بها، ولا يهجرها، وينشغل عنها.

---

(١) روح المعاني: ٩/ ١١١.

• **اللاهثون وراء الشهوات:**

ثم بيَّن سبحانه أن هذا الرجل ما ضلَّ إلا باختياره وكسبه، فقال:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: لو أردنا لرفعناه بهذه الآيات إلى المنازل العالية، لكنَّ حكمته سبحانه اقتضت تعليقَ الجزاء والثواب باختيار الإنسان وكسبه.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ولكنَّه مال إلى شهوات الأرض.

**والإخلاد** إلى الشيء: الميل إليه مع الاطمئنان به.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: أصبح تابعاً لهوى نفسه، عبداً لشهوته.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ فصار مثل الكلب الذي من طبعه:

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ فهو يلهث دائماً في التعب والراحة.

وهي حالةٌ تصيبُ الإنسان المنهمك في إرواء شهواته وغرائزه، والمبالغ في الترف والسرف الذي حذَّرت منه الآياتُ فيما سبق معنا في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقد ظهرت أعراضُ هذه الحالة على كثير من الناس في العصر الحاضر، بسبب إسرافهم وانهماكهم في الحياة المادية، مع كثرة المتاع المادي المحيط بهم؛ تراهم في تعبٍ وهمٍّ وقلقٍ واضطرابٍ، وهي أمراضُ العصر، لكثرة انتشارها فيه، والتي يسمونها بالأمراض النفسية والعصبية.

﴿ذَّٰلِكَ﴾ الإنسان الذي انسلخ من الآيات، هو النموذجُ المصغَّر لأمة أرسل الله إليها رسلاً، وأنزل عليها كتباً، وبعثَ فيها كثيراً من الأنبياء، وخصَّها بنعم جليلة، ومعجزات كبيرة: أهلك عدوَّهم، ونجَّاهم من البحر، وظلَّلهم بالغمام،

وأطعمهم المنَّ والسلوى، وأنبع لهم عيون الماء في قلب الصحراء، وأنزل عليهم التوراة مكتوبة في ألواح. . . ثم بعد كلِّ ذلك أعرضوا وغيَّروا وبدَّلوا.

﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ المنزلة في التوراة، والتي تأمرهم أن يتبعوا النبيَّ الأميَّ إن أدركوا زمنه.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون، تلك هي الحكمة الأساسية الكبرى للقصص في القرآن.

فما أسوأ هذا المثل لهؤلاء القوم!:

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

ثم بيَّن جلَّ وعلا تمام إرادته ونفاذ مشيئته، فقال:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ فمن وفَّقه الله للهداية، فهو المهتدي الحقيقي الذي لا يضل، فلا تغترَّ أيها الإنسان بعلمك ومواهبك وقوتك، الجأ إلى الله تعالى دائماً، استعن به، وتوكل عليه، واسأله التوفيق والثبات.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بحرمانه من التوفيق والتثبيت.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ وجاء بصيغة الإفراد في الهداية لأنَّ طريقها واحد، وبصيغة الجمع في الضلال لكثرة طرقه: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وسبب حرمانهم من توفيق الهداية، نابع من داخل نفوسهم، فقد أعرضوا عن أدلَّة الهدى، وأغلقوا أبصارهم وأسماعهم وعقولهم عنها، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أي: خلقنا كثيراً من الجن والإنس، علمنا أنَّ مصيرهم إلى جهنم.

فالله سبحانه ما خلقهم ليعذبهم، وهو القائل: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ولكنه خلقهم ليشرِّفهم بالخلافة في الأرض، لكي يعمُرُوها بطاعته وعبادته، فجعل لهم إرادة، ومنحهم حرية الاختيار، وزودهم بوسائل تمكنهم من التمييز لكي يحسنوا الاختيار، فعطَّلوها:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لأنها معطلة عن الفهم.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ شواهد الحق ودلائله.

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الحق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم التمييز بين الحق والباطل.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنها تميِّز على حسب الإمكانات التي أعطيت لها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عمَّا فيه صلاحهم وسعادتهم، بسبب انشغالهم في شهواتهم وأهوائهم.



الفَصْلُ الثَّامِنُ

# العَوْدَةُ إلى مَسْرَحِ الأحْدَاثِ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن

دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

### • أمة الحق والعدل:

وعندما وصلت الآياتُ إلى تقرير هذه النتيجة، توقَّفت عن متابعة حركة التاريخ البشري، وعادت إلى مكة المكرمة لتخاطِبَ رواد الأمة المسلمة، الأمة التي قفزت الآياتُ قفزتها الكبرى فوق آماد طويلة من الزمان لكي تتحدَّثَ عن رسولها ﷺ، وخصائص شريعتها، وصفات أفرادها، كما مرَّ معنا، تنويهاً بدورها الكبير في بناء حضارة الإيمان والعدل والسلام.

فعلى المؤمنين حتى لا يكونوا من الغافلين أن يلجؤوا إلى الله تعالى، يسألونه التوفيق والثبات، ويدعونه بأسمائه الحسنى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على أحسن المعاني وأشرفها، وأعلى الصفات وأكملها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ أي: اسألوه بها واذكروه بها.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ أي: اتركوا الذين يميلون وينحرفون في أسمائه سبحانه عن الحق إلى الباطل.

فمن إلحادهم في أسمائه ﷻ: أنهم اشتقوا لبعض أصنامهم أسماء من أسماء الله الحسنى، اشتقوا اللات، من الله، والعزى، من العزيز.

﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

فأسماؤه سبحانه توقيفية، لا تعرَفُ إلا من كتابه وسُنَّة نبيه ﷺ، ولا يجوز تغييرُها، كما لا يجوز تسميته سبحانه بغير ما سمَّى به نفسه في الكتاب والسُّنَّة.

وبعد هذا التوجيه الكريم لأبناء هذه الأمة، أثنت الآيات عليهم بقوله تعالى:

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٨١﴾.

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يدعون إلى الحق، ويعملون على نشره بين الناس.

﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ وبالحق يحكمون ويعملون، إنَّهم يقيمونَ دعائمَ الحق والعدل في مجتمعهم، وينهضون بحضارتهم على أساسه، كما يسعون إلى نشره بين جميع الأمم والشعوب.

قال ابن كثير ؒ: «جاء في الآثار أنَّ المرادَ في الآية هذه الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «**هذه لكم، وقد أُعطيَ القومُ بين أيديكم مثلها** ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]».

وفي «**الصحيحين**»: عن **معاوية بن أبي سفيان**، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمرِ اللهِ، على الحقِّ، لا يضرُّهُم مَنْ خذلهم، أو**

**خالفهم حتَّى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم ظاهرونَ على الناس»** [رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٠٣٧)]»[1].

ورواه البخاري بلفظ: «**لا تزالُ من أمتي أمة قائمة بأمر اللهِ لا يضرُّهم مَنْ خذلَهم، ولا مَنْ خالفهم، حتى يأتيهم أمرُ اللهِ، وهم على ذلك**» [رواه البخاري (٣٦٤١)].

- **الأسلوب الأمثل في التربية والدعوة:**

ثم توعدت الآيات بأسلوب الخبر، المعرضين عن دعوة النبي ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ إلى الهلاك والسقوط درجةً درجةً.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وللاستدراج ناموسٌ إلٰهي، مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: وسأملي لهم، فلا أعجِّلُ هلاكهم، ليزدادوا طغياناً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: إنَّ أخذي وبطشي قوي شديد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٠.

ومن أساليب القرآن الكريم في التربية: أنَّه لا يقتصرُ على أسلوب الترهيب والوعيد، وإثارة المشاعر، واستجاشة العواطف، إنَّما يضيفُ إليه الترغيب، ويدعو إلى النظر والتفكُّر، فلا يخاطِبُ القلبَ فقط، بل يخاطب القلب والعقل معاً، وهاهو يدعوهم بعد التهديد والوعيد إلى التفكُّر والنظر بقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ الذي صحبوه وعرفوه مدة طويلة، وهو رسول الله ﷺ، الذي ولد فيهم، ونشأ بينهم على أحسن الخصال وأكمل الخلال.

﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: من جنون، فحاشاه ﷺ من ذلك.

وهذا من افتراءاتهم الباطلة على النبي ﷺ ردَّها الله تعالى في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقوله أيضاً: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

فهو رسول الله ﷺ حقّاً وصدقاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر، يعرف ذلك كلُّ من له أدنى تفكر ونظر.

والجدير بالذكر أنَّ الدعوة إلى التفكُّر في حقيقة جوهره ﷺ تكررت في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

كما تكررت الدعوة إلى التفكُّر في الدلائل الكونية لمعرفة قدرة الله تعالى وعظمته، منها قوله تعالى هنا:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ أي: عليهم أن

ينظروا نظر التفكُّر في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض، وفي كلِّ شيء خلقه الله تعالى فيهما، ليتدبَّروا ويعتبروا.

وعليهم أن يسارعوا إلى هذا التفكر والنظر قبل أن تحينَ آجالُهُم، ويأتيهم الموتُ:

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ فلعلَّ الموت أصبح قريباً منهم.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بعد القرآن الكريم.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، وهو الغاية والنهاية في الفصاحة والبيان، فماذا ينتظرون، وقد اقتربت آجالهم؟!.

ولـمَّا أصرَّ القوم على كفرهم، واستمرُّوا على عنادهم، طبع الله على قلوبهم، وحرمهم من أسباب الهداية، كما هي سُنَّته في خلقه:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ من دون الله تعالى.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون ويتردَّدون في ظلمات كفرهم وفجورهم.

**• متى الساعة؟:**

الإيمان بيوم القيامة من أكبر الموضوعات التي اشتدَّ حولها الخلاف بين النبي ﷺ وبين مشركي العرب، فقد كانوا يستبعدون الحياة الثانية بعد الموت، وينكرون الحساب والجزاء، وكثيراً ما سألوا النبيَّ ﷺ عن وقت القيامة على سبيل الإنكار والتحدِّي، والاستهزاء والسخرية، وما كان رسول الله ﷺ يعلم وقتها، فهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى إثباتها وتقريرها؟ فهم لن يؤمنوا بها حتى يروها ثابتةً واقعةً فعلاً.

وكلمة **(مرساها)** لا تستعمل إلا في الشيء الثقيل، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، ومنه: مرساة السفن، فأمر الساعة كبير وثقيل.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ استأثر سبحانه بعلمها.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يظهرها في وقتها إلا هو سبحانه، فجهل المخلوقات بوقتها مستمر إلى حين قيامها.

ثم بيَّن سبحانه حكمته في إخفائها فقال:

﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: شأنها ثقيل شديد على أهل السماوات والأرض، لما فيها من الأهوال والشدائد، فمجيئها ثقيلٌ على أهل السماوات والأرض، إذ تتغيَّر حينئذٍ النُّظم الكونية، والنواميس السماوية والأرضية كلُّها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فمن الحكمةِ إخفاؤها حتى لا تتعطَّل الحياةُ، وتتوقف مسيرتها، ولهذا قدَّر الحكيم الرحيم ألا تأتي إلا فجأة:

﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ على غير توقع وانتظار، وعجلة الحياة دائرة مستمرة.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ولتقومنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرجلانِ ثوبَهما فلا يتبايعانِهِ ولا يطويانِهِ، ولتقومنَّ الساعةُ وقد انصرفَ الرجلُ بلبن لِقْحَتِه فلا يَطعَمُه، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يُليطُ (يُصْلِحُ) حوضَهُ فلا يسقي فيه،**

**ولتقومَنَّ الساعةُ والرجلُ قد رفعَ أكلتَهُ إلى فيه (فمه) فلا يطعَمُها»** [رواه البخاري (٧١٢١)].

فلو علم هؤلاء الناس أنَّ الساعة ستقومُ عليهم، هل كانوا يهتمون بشؤون حياتهم هذا الاهتمام؟!.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، كثير السؤال عنها.

**فالحفيُّ**: «العالم بالشيء، أو المستقصي في السؤال»(١).

وشأن المؤمن أن يخاف من المسؤولية أمام الله يوم القيامة، فهو خائف وَجِلٌ منها، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

- **النبي ﷺ وعلم الغيب:**

وعادت الآيات لتؤكد أنه سبحانه استأثر بعلم الساعة:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يعلمها غيره.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه سبحانه استأثر بعلمها، ولم يُطلِعْ عليها أحداً من خلقه، ولما أتى جبريل إلى النبي ﷺ وسأله: متى الساعة؟ قال: «**ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائل**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

قال ابن كثير رحمه الله: «فهذا النبيُّ الأميُّ سيد الرسل وخاتمهم، محمد ﷺ، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي، والحاشر الذي يُحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في [صحيح البخاري (٥٣٠١)]: «**بعثتُ والساعة كهاتين**» وقرنَ بين إصبعيه السبابة والتي تليها، ومع ذلك أمرَهُ اللهُ أن يردَّ علم وقت الساعة إليه إذا سُئل عنها»(٢).

وأمرَهُ أيضاً أن يعلنَ ضعفه وعبوديته لله، وبراءته من ادِّعاء علم الغيب:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٧/٣٣٦.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٧٢.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: أنا عبد ضعيف، لا أستطيع أن أجلب لنفسي نفعاً، ولا أدفع عنها ضرّاً، فكيف أملك علم الساعة؟!.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن يطلعني عليه، وقد أعلمه تعالى بأمور مغيَّبةٍ كثيرة، أخبر عنها رسول الله ﷺ، فكانت من دلائل نبوته، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن].

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي: ولو كنت أعلم الغيب من نفسي، لما كانت حالي على ما هي عليه الآن، كنت أستكثِرُ من المنافع، وأجتنِبُ المضار، فلا يمسني ما يسوءُني.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ أي: ما أنا إلا عبد أُرسلت بشيراً ونذيراً.

﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يصدقون برسالتي.

إنه رسول الله حقّاً وصدقاً، الرسولُ الذي قطع الطريقَ على الدجالين مدَّعي علم الغيب، الذين يستغلون ميل النفس البشرية إلى استكشاف حُجُب المستقبل، لكي يحققوا لأنفسهم المكاسبَ المادية، والعجيبُ أنَّ صناعة الدجَل هذه قد انتشرت في العصر الحاضر، عصر العلم المادي، ومردُّ ذلك إلى ضعف الإيمان، وشدة القلق والخوف من المستقبل، حتى خصَّصت أكثرُ الصحفِ والمجلات صفحات فيها لنشر تنبؤات الدجالين، وأطلقت عليهم لقب الروحانيين، ونشر بعضها استطلاعات صحفية كبيرة عنهم، ولهم في عاصمة فرنسا معرض دولي يجتمعون فيه ليعرضوا أكاذيبهم.

ذكرت إحدى المجلات عنهم ما يلي: «شقَّت الأبراج والنجوم وقراءة الكف طريقَها إلى حياة الغربيين، والجميعُ يتذكَّر كيف أن بريجنيف ـ الرئيس السابق في الاتحاد السوفييتي ـ وضع مصيره في كفِّ امرأة منجمة لتعالجه

بأسلوبها الخاص، حتى رونالد ريغن حكمَ أكبر دولة في العالم من خلال المنجمين، فكانت زوجته نانسي تتصل بالمنجمين، وتنظم حسب نصائحهم برنامجَ زوجها اليومي، وبدأ عدد من المؤسسات الصناعية الكبرى تعتمد في اختيار كبار موظفيها على قراءة الكف. . . وتزايد الطلب على المنجمين، وكثرت عيادات الغيب، ففي فرنسا أكثر من خمسين ألفاً من باعة الأحلام والأوهام»[1]؛ فالعلم والمال والقوة لا تغني الإنسان عن الدين والإيمان.

• **الانحراف عن الفطرة:**

ثم بيَّنت الآيات صورة من صُوَر انحراف الإنسان عن التوحيد الذي فُطر عليه إلى الشرك بقوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ آدم عليه السلام.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق من آدم زوجته حواء.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليألفها، وتكون سَكَناً وطمأنينة لنفسه وقلبه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: وطئها، وتم الاتصال الجنسي بينهما.

فما أجمل الكلمات القرآنية! فيها البلاغة والفصاحة، والصراحة والوضوح، مع العفَّة والأدب، والتنزُّه عن سقط الكلام.

﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك عندما يكون الجنين في أول أطواره، لا ثقل فيه.

---

(١) مجلة الوطن العربي، عدد (١٠٨)، ٧/ ٤/ ١٩٨٩م، ص ٤٨.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرت بالحمل كما كانت قبله من حيث قيامها وقعودها وسائر أعمالها، فلم يَعُقْها حملُها عن شيء مما كانت تفعله.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: أثقلها الحمل بسبب زيادة وزنه وحجمه في بطنها.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: توجه والدا الجنين إلى الله تعالى يدعوانه.

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: ولداً سوياً مكتملاً في خلْقه وتكوينه.

﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على إحسانك وفضلك.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي: أعطاهما ربهما ما سألاه، وهو الولد الصالح السَّويُّ المكتمل في تكوينه.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ﴾ أي: جعل هذان الوالدان لله تعالى شركاء في ما أنعم عليهما، فسمَّيا الولد بعبد العزى، وعبد الدار، وعبد شمس، أو نسبا ذلك إلى آلهتهما، أو جعلا الولد ينحرف عن أصل فطرته إلى الشرك، كما مرَّ معنا في الحديث الشريف: «**ما مِنْ مولودٍ إلا يولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يهوِّدانِهِ، وينصِّرانه، ويمجِّسانِهِ** . . .» [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزَّه سبحانه وتقدَّس عن كلِّ شرْكٍ.

وفي قراءة: **(تشركون)** فكأنها تخاطب المشركين في مكة المكرمة.

ودلَّت صيغةُ الجمع في ختام الآية أنَّ المراد منها العموم، وليست الآية في زوجين مخصوصين، كما رأى كثير من المفسِّرين، فقد ذهبوا إلى أنَّ الآية في آدم وحواء، وأن شركهما كان شركاً في التسمية والصفة، لا في العقيدة والعبادة.

واستندوا إلى حديث [رواه أحمد (٥/ ١١) والترمذي (٣٠٧٧) والحاكم] عن الحسن، عن سمرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لمَّا ولدتْ حواءُ طافَ بها إبليسُ، وكان لا يعيشُ لها ولدٌ، فقال: سمِّيه عبدَ الحارث فإنَّه يعيشُ، فسمَّته عبدَ الحارثِ، فعاشَ، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**».

قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوَّدوا ونصَّروا... وهو أحسن التفاسير، وأولى ما حُملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره»[1].

قال القرطبي: «ونحو هذا مذكور من ضعيف الحديث [في الترمذي (٣٠٧٧) وغيره]، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، فلا يعوِّل عليها من له قلب، فإن آدم وحواء عليهما السلام، وإن غرَّهما بالله الغرور، فلا يُلدَغُ المؤمنُ من جُحْر مرتين، قال عكرمة: لم يُخصَّ بها آدم، ولكن جعلها عامةً لجميع الخلق بعد آدم»[2]. وسياق الآيات يؤكد أنها عامة في جميع المشركين.

قال تعالى بعدها:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ أي: ما لا يقْدِر على أن يخلق شيئاً، وهو دليل العجز والضعف الذي يتنافى مع الألوهية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهم مخلوقون فكيف تجعلونهم آلهة؟!.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لا يستطيعون نصر عُبَّادهم.

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فلا يجلبون نفعاً، ولا يدفعون ضرراً، كما قال

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٣٨.

تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس].

• **حملة على الأصنام:**

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لأنهم لا يسمعون.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ لا تتكلَّمون.

وتابعت الآيات هذه الحملة الشديدة على الأصنام بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إن هذه الأصنام عبيد مثل عابديها، فهي مخلوقة مملوكة مثلكم، وحتى يظهر لكم ضعفها وعجزها:

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم ينفعونكم أو يضرونكم.

ألا ترون عجزهم وضعفهم، وتجردهم حتى عن الجوارح التي خلقها الله تعالى لكم؟!:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ﴾.

وترتفعُ حرارةُ المواجهة مع المشركين بعدَ هذه الحملة الشديدة على أصنامهم، وتصل إلى درجة التحدي:

﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: افعلوا بي ما تقدرون عليه من الكيد والمكر.

﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ وعجِّلوا به، ولا تؤخِّروه، فإنني لا أبالي بكم ولا بأصنامكم، لأنِّي متوكِّل على الله سبحانه، ومفوض إليه أمري.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن الكريم.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالنصرة والتأييد، فكيف لا ينصرني ويمنعني من كيدكم ومكركم؟!.

وقد مرَّ معنا في قصص السورة كيف نصر سبحانه أنبياءه، وحمى أولياءه، وأهلك أعداءه.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إشارةٌ إلى كيفية موالاته جلَّ وعلا، فموالاته باتباع كتابه، والتزام شرعه ومنهجه، كما ذكرت السورة في أول آياتها: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾، وبهذا يظهر الاتساق والانسجام بين آيات السورة من أولها إلى آخرها.

فاتباع الشرع الإلٰهي والمنهج الربَّاني هو الضمانُ للمجتمعات البشرية وحضارتها من الهلاك والسقوط.

وفي أثناء حرارة المواجهة تجدِّدُ الآيات مرة ثانية حملتها على الأصنام وهي تخاطب عابديها من المشركين:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: وهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فعجزهم ظاهر واضح.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

فلا سمع لهم ولا بصر، إنك أيها الواقف أمامهم تراهم ينظرونَ إليك

بأعينهم المصنوعة لهم من الجواهر المضيئة المتلألئة، والحقيقةُ أنَّهم لا يبصرون.

• **مجمع مكارم الأخلاق:**

وبعد هذه الحملة الشديدة على الأصنام، أمرت الآية الكريمة النبي ﷺ أن يحسن معاملة المشركين تأليفاً لهم على الإسلام، بقوله تعالى الذي جمع مكارم الأخلاق:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: اقبل من الناس ما عفا وسهل وتيسَّر من أخلاقهم.

وكلمة **(العفو)** يدور معناها على السهولة واليسر.

قال **عبد الله بن الزبير** رضي الله عنهما: أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يأخذَ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية عنه: ما أنزل الله ـ الآية ـ إلا في أخلاق الناس. [رواه البخاري (٤٦٤٣)].

ولما أنزل الله ﷻ على نبيه هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «**ما هذا يا جبريل؟**» قال: «**إن الله أمرك أن تعفو عمَّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**» [رواه الطبري (١٠/ ٦٤٤) مرسلاً، وابن مردويه موصولاً من حديث جابر][(١)].

وعن **عقبة بن عامر** رضي الله عنه قال: لقيتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فابتدأته فأخذتُ بيده، فقلتُ: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «**يا عقبةُ، صِلْ مَنْ قَطَعكَ، وأعطِ مَنْ حرمَكَ، وأعرضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**» [رواه أحمد (٤/ ١٤٨ و١٥٨)].

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف المستحسن من الأفعال، فإن الناس يقبلونه من غير نكير.

---

(١) انظر: فتح الباري: ٨/ ٣٠٦.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: أعرض عن مقابلة السفهاء بمثل سفههم، واحلم عليهم، فالمراد احتمال سفههم وطيشهم، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عُيينة بن حصن.

عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قدم عُيينةُ بنُ حصن بن حذيفة، فنزلَ على ابن أخيه الحُر بن قيس، وكان من النَّفَرِ الذين يُدنيهم عمر، وكان القرّاء أصحابَ مجالس عمر ومشاورته، كهولاً أو شبَّاناً، فقال عيينةُ لابن أخيه: يا ابن أخي لك وَجْهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذن له عمر، فلمَّا دخل عليه، قال: هي يا ابنَ الخطاب، فواللهِ ما تُعطينا الجَزْلَ، ولا تحكمُ بيننا بالعدلِ. فغضبَ عُمَرُ حتى همَّ به، فقال له الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنين إنَّ الله تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين. واللهِ ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقَّافاً عند كتاب الله. [رواه البخاري (٤٦٤٢)].

قال القرطبي: «هذه الآية من ثلاثِ كلماتٍ، تضمَّنت قواعدَ الشريعة في المأموراتِ والمنهياتِ:

فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دخل فيه: صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلةُ الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

ودخل في قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الحضُّ على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزُّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة»(١).

- **حِصْنٌ ووقايةٌ:**

الإحسان يكفُّ عنكَ أذى الإنسان كما قال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٤٤.

وأمَّا الشيطانُ فلا يكفُّه عنك إلا الالتجاء إلى الله تعالى ليعيذك من شرِّه وكيده، ولهذا قال تعالى بعد آية مجامع مكارم الأخلاق:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ أي: إذا أصابك من الشيطان وسوسة، وأنت في حال الغضب، ليصدّك عن الإعراض عن الجاهل، ويحملك على الانتقام منه.

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع استعاذتك، ويعلم أحوالك، فذكرُ الله حِصنٌ ووقاية.

فالشيطان عدو الإنسانِ، يأتي الإنسان وهو في حال الغضب، لكي يورطه في أعمال خطيرة، قد تسبب شقاءه وتعاسته. ولهذا حثَّ النبي ﷺ على كظْم الغيظ ودفع الغضب في عدد من الأحاديث، منها: «**مَنْ كظمَ غيظاً، وهو قادِرٌ على أن ينفذه، دعاه الله سبحانه على رؤوس الخلائق حتى يخيِّره من الحورِ العينِ ما شاء**» [رواه أبو داود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

وجاءت الآية تخاطِبُ النبيَّ ﷺ بالجملة الشرطية، لأن الشيطان لا سبيل له ولا تسلط له على النبي ﷺ، والمعنى: إن حصل في قلبِكَ نزغٌ من الشيطان فاستعذ بالله، وإن لم يحصل ذلك البتة، فهو كقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وهو ﷺ معصوم من الشرك فالخطاب له والمراد غيره من عامة المؤمنين. ويؤكد ذلك قوله تعالى في سياق الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: ألمَّ بهم شيء من وسوسة الشيطان.

﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أمره سبحانه ونهيه.

﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ مواقع الخطأ والزلل، فابتعدوا عنها.

أو إذا زلُّوا وعصوا بادروا إلى التوبة ولم يصرُّوا، بينما يظل أتباع الشيطان وأولياؤه في ضلالهم وغيهم سادرين مصرِّين.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: وأما إخوان الشياطين من الإنس، فإنَّ الشياطينَ يمدُّونهم بالضلال، ويزيِّنون لهم الفجور والآثام.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم، بل يستمرون، لأنهم يجدونهم منقادين ومستجيبين لوسوستهم.

فالشيطانُ ـ كما مرَّ معنا في قصة الإنسان والشيطان ـ عدو الإنسان، وأصل كل شر وفساد، والقلوبُ الخبيثةُ هي التي لديها القابلية والاستعداد لقبول وسوسته كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وأما القلوب الطيبة المؤمنة فلا سلطان للشيطان عليها إلا في حال غفلتها عن ربها جلَّ وعلا.

- **القرآن كتاب البصائر:**

ومن صور عناد أصحاب النفوس الخبيثة وإصرارهم على ضلالهم: إعراضهم عن القرآن الكريم، ومطالبتُهم النبيَّ ﷺ بالمعجزات، مع أنَّ القرآن الكريم أعظم المعجزات، وأكثرها وضوحاً ودلالة على صدقه عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: لولا أحدثتها، وأنشأتها من نفسك.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ أي: إنما ألتزم ما أنزله عليَّ ربي، وأكتفي

به، فلا أتقدَّمُ إليه تعالى بشيء بعد القرآن الكريم، ففيه الأدلة الكافية الواضحة القاطعة.

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هذا القرآن فيه البصائر، وهي جمع بصيرة، وهي للقلب كالبصر للعين، لأنها تجعل القلب يبصر الحقيقة، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات للعين ويظهرها، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤][1].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وفيه أيضاً الهداية والرحمة للمؤمنين.

ولهذا أمر الله تعالى بالإنصات عند تلاوته، إعظاماً له واحتراماً، فمجالس تلاوة القرآن الكريم مجالس ذكر ورحمة:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

وهو أمر مطلوب في الصلاة وخارجها. وكان المشركون يتواصون بالتشويش على النبيِّ ﷺ عندما يتلو القرآن الكريم، حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فعلى المسلمين ألا يتشبَّهوا بالمشركين، وأن يُقْبِلوا على سماع القرآن خاشعين متدبرين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

والإنصاتُ والاستماعُ والتدبُّرُ مقدمةُ الاتباع الذي أمر الله تعالى به في أول السورة: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣].

- **سجود التلاوة:**

وعادت الآيات في خاتمة السورة إلى الحصن والوقاية، فجعلته مسك

---

(١) انظر: تفسير سورة الأنعام (بصائر الحق في سورة الأنعام) في تفسيرنا الموضوعي هذا.

خاتمتها، فمعركة الإنسان مع الشيطان لا تتوقف، والصراع قائم لا ينتهي ما دام الوجود البشري مستمرّاً في الأرض، والشيطان لا يزال على الطريق يراقب الإنسان، ويرصد تحركاته كما مرَّ معنا في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف]؛ فإن أحسَّ من الإنسان غفلةً عن ربه ألقى إليه وساوسه، ورمى عليه شباكه وأشراكه، ولا سبيل للنجاة من شره والسلامة من مكره إلا بذكر الله تعالى القائل:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ لأن ذكر النفس أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء، مع استحضار عظمة المذكور في القلب.

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: وأنتَ في حال الضراعة والاستكانة والخضوع لجلاله وعظمته.

﴿وَخِيفَةً﴾ أي: وأنت في حال الخوف منه ﷻ.

هذا إذا ذكرته في قلبك، وأمّا إذا ذكرته بلسانك، فالأفضلُ أن يكونَ سرًّا لا جهراً:

﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قال ابن كثير: «يستحب أن يكون الذكر خفيّاً، لا يكون نداءً وجهراً بليغاً»[1].

وهو أيضاً مستحب في الدعاء، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وجاء بعد الأمر بالذكر التحذير من الغفلة:

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذين يسلمون أنفسهم وقلوبهم إلى الشيطان، فيقودهم إلى الهلاك والسقوط.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٨٠.

وحتى تشتدَّ عزيمة المؤمنين على الذكر، وتنشط له هممهم، أخبرهم سبحانه أنّهم ليسوا وحدهم في ساحة الذكر والخضوع والخشوع لجلاله، فثمة مخلوقات كثيرة وكبيرة معهم في الساحة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهذا يدلُّ على علو منزلتهم ورفعة مكانتهم، فهم الملائكة المقرَّبون.

﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: وينزهونه عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وكماله و غناه.

﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ لا لغيره سبحانه.

فعليكَ أيُّها المؤمنُ أن تقتديَ بهم، في خضوعهم وانقيادهم لأمره وشرعه، وفي تسبيحهم وسجودهم.

وهذه أول آيات سجود التلاوة في المصحف، وهي من عزائم السجود؛ يسنُّ السجودُ عند تلاوتها أو سماعها اقتداءً بالملائكة المقرَّبين.

عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا قرأَ ابنُ آدمَ السجدةَ، فسجدَ، اعتزلَ الشيطانُ يبكي، ويقولُ: يا ويله، أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فسجدَ، فله الجنةُ، وأمرتُ بالسجودِ فأبيتُ فليَ النارُ**» [رواه مسلم (٨١)].

اللهمَّ اجعلنا ممَّن يتبعون كتابك وسُنَّة نبيِّك ﷺ.

❁ ❁ ❁



# ٨

# تفسير سورة الأنفال

## أسبابُ النَّصْرِ في سُورةِ الأنفالِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## المُقدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

**أما بعد:** فقد سجَّل تاريخ المسلمين في العصور المتأخرة هزائمَ كثيرة متتابعة في مختلف ميادين الحياة، وقد بثت الصحوةُ الإسلاميةُ في كثير من المسلمين روحاً جديداً، جعلتهم يتطلَّعون إلى إحياء مجد سلفهم الصالح، ورفع الرايات من جديد، وتحقيق الانتصارات.

ولا سبيلَ لهم إلى ذلك إلا إذا أحسنوا العودة إلى كتاب ربهم وسنّة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

ويتناول هذا الباب من التفسير: **أسباب النصر من خلال سورة الأنفال** التي أنزلها الله تعالى بمناسبة أول وأعظم نصر تحققَ في تاريخ المسلمين في عهد رسول الله ﷺ، **في غزوة بدر الكبرى**، التي مهَّدت لكل الانتصارات التي تحققت للأمة المسلمة بعد ذلك.

إنَّه يرسم طريق النصر للأجيال المسلمة، التي تتطلَّع إلى النصر، ويبين

نظرةَ الإسلام إلى الحرب والسلام من خلال المعاناة الصادقة الكريمة للنبيِّ ﷺ وأصحابه البدريين، الذين قدر الله تعالى لهم بمشيئته وحكمته أن يكونوا روَّاد الجهاد في الإسلام.

كما أنّ هذا الباب أصدقُ سجلٍّ لأحداث غزوة بدر من خلال أوثق المصادر التاريخية وأصدقها؛ آيات القرآن الكريم وسُنَّة النبي ﷺ[1].

كما جاء صورةً صادقة للهدف الأساس لهذا التفسير المبارك، وهو إظهار الاتساق والانسجام بين آيات السورة، مع تفسيرها تفسيراً علميّاً عصريّاً واضحاً من خلال موضوع السورة الكريمة.

وقد قسَّمت تفسير هذه السورة إلى ثلاثة فصول:

• **الفصل الأول: بيان الأسباب المباشرة للنصر**، من خلال عرض ما حدث قبل المعركة وفي أثنائها.

• **الفصل الثاني: بيان الأسباب غير المباشرة للنصر**، التي ينبغي للأمة أن تسعى دائماً لتحصيلها لتضمن الحياة الكريمة العزيزة لها.

• **الفصل الثالث: التحذير من أسباب الهزيمة**، التي تنعكس آثارُها السلبية على حياة الأمة في السلم والحرب.

وإني لأسأل الله تعالى أن يجعل هذا التفسير فاتحة خير ونصر للمسلمين، وأن يتقبَّله مني.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

❁ ❁ ❁

(١) انظر كتابنا: سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ص٣٣٣ ـ ٣٥٠، ط: دار القلم بدمشق.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

# الأَسْبَابُ المُبَاشَرَةُ للنَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

• **البدَايَة مِن النهَاية:**

نزلت سورة الأنفال، كما روى **البخاري** رحمه الله [٤٦٤٥] عن **ابن عباس** رضي الله عنهما بسبب غزوة بدر، وبدأت أول آياتها تعرضُ آخرَ ما حدث فيها، كأن ما حدث في آخرها أهمُّ أحداثها، فماذا حدث في نهاية غزوة بدر؟.

حاز الصحابة البدريون رضي الله عنهم الغنائم التي غنموها من المشركين، وقيدوا الأسرى، قال **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه: «فينا أصحابَ بدرٍ نزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ حين اختلفنا في النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء» [رواه أحمد (٥/ ٣٢٤)] وقوله: **(بواء)** أي: سواء.

وأصل **النفل**: الزيادة، وسمِّيت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله تعالى وفضل، تفضَّل الله تعالى به على الأمة المسلمة دون غيرها من الأمم.

ففي الحديث الشريف: قال عليه الصلاة والسلام: «**أُعطِيتُ خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي، كان كلُّ نبيٍّ يُبعَثُ إلي قومهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ، وأُحِلَّتْ ليَ الغنائمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعلَتْ ليَ الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجلٍ أدركته الصلاةُ صلَّى حيثُ كانَ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بينَ يدي مسيرة شهرٍ، وأُعطِيْتُ الشفاعةَ**» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

ولأنَّ الغنيمةَ زيادةٌ على ما يحصل للمجاهد من ثواب الجهاد، وبهذا المعنى يُطلقُ اسمُ النافلةِ على الصلاة الزائدة على الواجب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

كما يسمَّى ولد الولد نافلةً، لأنه زيادة على الولد، كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

والاختلافُ أمر خطير، وله تأثير سلبي كبير، ولو أنَّه حدث قبل المعركة لأدَّى إلى نتائج خطيرة بتقدير الله تعالى، ولكنَّه سبحانه سلَّم، فحدث الاختلاف بعد أن تحقق النصر، وهزم الله تعالى المشركين شرَّ هزيمة، وأنزل بهم بطشته الكبرى، التي سبق وتوعدهم بها في قوله الكريم: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

ونزع الله تعالى سبب الاختلاف من أيديهم، وجعل أمرَ تقسيم الغنائم بيد رسول الله ﷺ، يقسِمُها بحسب ما يأمره تعالى، ويشرع له، فقال جلَّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ①﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: حكمُ الأنفالِ مختصٌّ بالله تعالى وبالرسول ﷺ، يقسمه حسب ما يأمره الله تعالى.

وقد بيَّن تعالى كيفية قسمة الغنائم بعد ذلك في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]، كما سيأتي معنا، وقد أخَّر تعالى بيانه ليأتي متناسباً في موقعه من أحداث غزوة بدر.

ولم يؤدِّ الاختلاف الذي حدث بين الصحابة إلى خصام، فما تعدَّى أن يكون اختلافاً في وجهات النظر، انتهى برفعه إلى رسول الله ﷺ وسؤاله عنه، دلَّ على ذلك قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾؛ فقد حسموا خلافهم عندما توجهوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه.

واهتمام السورةِ به لكونه بدايةَ الشقاق والخصام المؤدِّي إلى التفرُّق والتحزُّب والضعف والخذلان، فمبادرةُ السورة إلى ذكره يدلُّ على وجوب المبادرة إلى معالجة مثل هذه الأمور التي تطرأ على المجتمع المسلم، قبل أن

تستفحل وتشتدَّ وتمتدَّ جذورها في جسم الأمة، وعندئذٍ تصبح المعالجة شاقة وبالغة الصعوبة، فمعالجةُ الداء قبل أن يستفحلَ أهونُ وأيسرُ، والأفضلُ من كلِّ ذلك الوقايةُ من أسباب الخلاف والنزاع، والعمل على تجنيب الأمة كل ما يمكن أن يؤدي إلى الخصام والشقاق، وهو ما نلاحظه في تشريعات الإسلام، فقد حرَّم تعالى كل ما يمكن أن يكون سبب اختلاف وخصام بين المسلمين، كأكل الأموال بالباطل والغيبة والنميمة والسخرية والتكبُّر والتفاخر بالأحساب والأنساب. . . إلخ.

● **إصلاح ذات البيـن:**

وبعد أن جعلتِ الآية أمر الأنفال إلى الله تعالى وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام أمرتهم بثلاثة أمور هامة:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

**أولها**: تقوى الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الاختلاف والنزاع، فخشيتُه تعالى ومراقبتُه تزيلُ من النفس أسباب الاختلاف والنزاع.

**وثانيها**: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوالَ أُلفةٍ ومحبّة واتفاقٍ[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال رسولُ الله ﷺ: «**لا تَقَاطَعُوا، ولا تَدَابَرُوْا، ولا تَبَاغَضُوْا، ولا تَحَاسَدُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً**» [رواه البخاري (٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٦٣)].

وقد حثَّ رسول الله ﷺ على إصلاح ذات البين، وبيَّنَ خطورةَ الاختلاف على الدين، فقال: «**ألا أخبرُكم بأفضل من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ**»

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٤.

قالوا: بلى، قال: «**إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ، فانَّ فسادَ ذاتِ البينِ هي الحالِقَةُ**» [رواه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩) وقال: حديث صحيح].

**وثالثها**: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ﷺ في كلِّ ما يأمران به، وينهيان عنه، ويدخل فيه أمر الأنفال، ولا تتحقق طاعةُ الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بالتزام الكتاب الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة.

ووقوع الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ يدلُّ على أهمية الإصلاح وخطورته، فلا تتمُّ التقوى ولا تكتمِلُ الطاعةُ إلا به.

وأساسُ التقوى في ضمير الإنسان ووجدانه، في خوفه من الله تعالى وتعظيمه ومراقبته، وكل ذلك في القلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا**» ويشيرُ إلى صدره. [رواه مسلم (٢٥٦٤)].

فإذا ما وُجِد في القلب شيءٌ من أسباب الخلاف والنزاع كالبغضاء والشحناء والحقد والحسد، دلَّ ذلك على ضعف التقوى، وكان سبباً لحرمان المسلم من نفحات رحمة الله تعالى في الأوقات المباركة.

وقد بيَّن رسول الله ﷺ هذا المعنى في عدد من الأحاديث النبويةِ الشريفة، منها: «**تُعْرَضُ الأعمالُ في كُلِّ خميسٍ وإثنينٍ، فيغفِرُ اللهُ ﷻ في ذلك اليوم لكلِّ امرىءٍ لا يشرِكُ بالله شيئاً، إلا امرأً كانتْ بينَه وبين أخيه شحناءُ، فيقول: اركوا هذين حتى يصطلحا، اركوا هذين حتى يصطلحا**» [رواه مسلم (٢٥٦٥)].

**واركُوا**: أخِّروا.

كما دلَّ على أهمية هذه الأوامر الثلاثة قوله تعالى في ختام الآية:

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين حقَّ الإيمانِ، فالتزموا بهذه الأوامر الثلاثة.

فالمرادُ الحثُّ على التقوى والطاعة، وإصلاح ذات البين، والمسارعة

إليها، فإنَّ كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث، وهي أيضاً أول أسباب النصر وأهمها، فالأمة التي تريدُ النصر يجب عليها أولاً أن تضمَّ صفوفها، وتصلحَ ذات بينها.

**• بين الخوف والرجاء:**

ثم بيَّنتِ الآياتُ على وجه الاستئناف والحصر الظواهرَ الدالة على كمال الإيمان وقوته:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فزعت وخافت تعظيماً لشأنه ﷻ، وخشيةً منه لمجرَّد ذكره سبحانه.

ومن المعلوم أنَّ المؤمن كلَّما ازداد معرفةً بالله تعالى وإيماناً به، ازداد تعظيماً له تعالى وخشية منه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**ما بالُ أقوامٍ يتنزَّهونَ عن الشيءِ أصنعُه، فو اللهِ إنِّي لأعلمُهم باللهِ، وأشدُّهم له خشيةً**» [رواه البخاري (٦١٠١) ومسلم (١١١٠)].

وكان عليه الصلاة والسلام كثيرَ البكاء، ويقول لأصحابه: «**لو تعلمونَ ما أعلمُ - من جلالِ اللهِ تعالى وعظمته - لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً**» قال ذلك في خطبة له قال عنها أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: ما سمعتُ مثلها قط، فغطَّى أصحابُ رسولِ الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ. [رواه البخاري (٤٦٢١) ومسلم (٢٣٥٩)].

فالخوفُ من الله تعالى؛ والبكاء من خشيته؛ من علامات الصالحين المخبتين، الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقد عدَّ عليه الصلاة والسلام من الأصناف السبعة الذين يظلُّهم الله في

ظلِّه يوم القيامة: «ورجل ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناهُ» [رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١)].

ولا منافاة بين قوله تعالى هنا: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وبين قوله في سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ لأنهما مقامان يجتمعان في قلب المؤمن، مقام تعظيمه وخشيته والخوف منه، ومقام رجاء رحمته وفضله وإحسانه، وقد جمع تعالى بينهما في آية واحدة فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣][1].

وقد يكون الاطمئنان بذكر الله تعالى في ذهاب الهموم والأحزان عن قلب المؤمن عندما يذكر الله تعالى، وذلك بسبب ما يفيضُ عليه سبحانه من فيوضات كرمه وإحسانه عند ذكره: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: إذا قُرئت عليهم آيات القرآن الكريم زادتهم تصديقاً بالله تعالى وبرسالة النبيِّ ﷺ، فكل آية من آيات القرآن الكريم تزيدُ إيمانهم وتقوِّيه بسبب زيادة الدلائل والبراهين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

فالقرآن الكريم يثبت الإيمانَ في قلب المؤمن ويقوِّيه، فهو نور على نور، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه، ويفوِّضون أمورهم إليه وحده، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، وهم يعلمون أنّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنّه المتصرِّف في الملك وحده لا شريكَ له، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماعُ الإيمان.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٥.

ومن أهم صفات المؤمنين العملية:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يؤدونها بشكل صحيح مستقيم كما شرعت، يحافظون على أوقاتها، ويحرصون على تحصيل شروطها، وإقامة أركانها وسننها وآدابها، مع الخشوع فيها لجلال الله تعالى وحده.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الزكاة وسائر الحقوق الواجبة والمستحبة.

- **المؤمنون حقّاً:**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتَّصفون بهذه الصفات الخمس، وهي: الخوف من الله تعالى، والإخلاص له وحده، والتوكل عليه، وإقامة الصلاة، والإنفاق من أموالهم في الوجوه الواجبة والمستحبة.

﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: هم المؤمنون حق الإيمان، الذين بلغوا مرتبة رفيعة في الإيمان والصلاح.

ولا يعني هذا أنهم وحدهم هم المؤمنون، فالقرآن الكريم نزل بلسان العرب وهم يقولون: فلانٌ سيد حقّاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقّاً، وفي القوم تجّار، وفلان شاعر حقّاً، وفي القوم شعراء(١).

ويؤكد هذا المعنى قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم مقامات ومنازل رفيعة في الجنة على قدر صدقهم وصلاحهم، ففي الجنة درجات، كما أنَّ في جهنم دركات، قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره عن عمرو بن مرة، المختصر: ٢/ ٨٥.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**في الجنَّةِ مئةُ درجةٍ، ما بين كل درجتين مئةُ عام**» [رواه الترمذي (٢٥٣٢) وحسَّنه].

وقال أيضاً: «**إنَّ أهل الجنَّةِ ليتراءون أهل الغرفِ من فوقهم، كما يتراءون الكوكبَ الدريَّ الغابرَ في الأفُق من المشرقِ والمغربِ، لتفاضلِ ما بينهم**» قالوا: يا رسول الله، تلكَ منازلُ الأنبياءِ لايبلغُها غيرُهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيدهِ، رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين**» [رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١)]. «**الغابر**»: الذاهب.

﴿وَمَغۡفِرَةٞ﴾ أي: ولهم أيضاً سترٌ لذنوبهم، وتجاوزٌ عنها، فضلاً منه سبحانه.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان مهما ترقَّى في درجات الإيمان والصلاح لا يخلو عَنْ بعض الذنوب، ويبقى محتاجاً إلى مغفرة الله تعالى وعفوه، فلا ينبغي لأحدٍ أن يُعْجَبَ بعمله، ويغترَّ بنفسِهِ.

﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ خالٍ عن الكدرِ والمنغِّصات، لأنَّه مِنْ رزقِ الجنةِ ونعيمها.

- **الإخراج من المدينة:**

وبعد أن وصفتِ الآيات الأولى في السورة ما حدثَ حول الغنائم من اختلافٍ في نهاية غزوة بدر، عادت لتحكي أحداث الموقعة العظيمة من بدايتها، وهي تخاطبُ النبيَّ ﷺ بقوله تعالى:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فخروجُ النبيِّ ﷺ من بيته في المدينة المنوَّرة، ليعترض قافلة لقريش مقبلة من بلاد الشام؛ كان بأمر الله تعالى ومشيئته، فهو خروجٌ مشروعٌ ملتبس بالحق، دلَّ على أنَّ اعتراضَ القافلة للاستيلاء على ما تحمِلُ من أموال المشركين أمرٌ مشروع، لأنهم كانوا أعداء للنبي ﷺ، آذوه، وعذبوا أصحابه، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة المنوَّرة آخراً، واستولوا على بيوتهم وأموالهم، فمن حقِّ

المسلمين أن ينتصروا لأنفسهم، وأن يستردوا بما يأخذون من القافلة بعضَ أموالهم. ومن حقِّهم أيضاً أن يعملوا على إضعاف عدوهم، وكسر شوكته، بالاستيلاء على أمواله، التي هي مصدرٌ كبيرٌ من مصادر قوَّته وجبروته.

فالله سبحانه هو الذي أخرجَ النبيَّ ﷺ بما أوحى إليه، وندب ﷺ أصحابه ليخرجوا معه، قال ابن إسحاق:

«لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندبَ المسلمين إليهم، وقال: «**هذهِ عير قريشٍ فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعلَّ الله يُنْفِلُكُمُوْها**».

فانتدبَ الناسَ، فخفَّ بعضهم، وثقل بعضهم، ذلك أنهم لم يظنوا أنَّ رسول الله ﷺ يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجازِ يتحسَّس الأخبارَ، ويسأل من لقي من الركبان، تخوُّفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أنَّ محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أنَّ محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضَمضمُ بنُ عمرو سريعاً إلى مكة»[١].

وكان في خروج النبيِّ ﷺ خيرٌ كبيرٌ له ولأصحابه، فما يختاره الله تعالى خير مما يختاره الإنسان لنفسه.

- **المجادلة في الحق:**

لقد كره فريقٌ من المؤمنين التوجه إلى بدر لقتال جيش قريش الذي خرجَ من مكة لحماية القافلة، وأرادوا اعتراض القافلة، ولكنَّ الله تعالى اختار لهم لقاء جيش المشركين، وظهر بعد ذلك أنَّ ما أراده تعالى واختاره خيرٌ مما اختاروه لأنفسهم.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٨٢.

وظهر هذا المعنى أيضاً في شأن الغنائم عندما نزعها الله من أيديهم، وجعل أمر تقسيمها في يد النبيِّ ﷺ، يقسمها كما يأمره ربه جلَّ وعلا، ولو بقي أمرُ الغنائم في أيديهم لوقع الخصامُ والشقاقُ بينهم بعد أنْ ظهرت بوادره في اختلافهم.

والتشبيه الذي دلَّ عليه حرف الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ سيق لإبراز هذا المعنى، قال ابن كثير: «شبه به في الصلاح للمؤمنين، والمعنى أنَّ الله تعالى يقول: كما أنكم لمَّا اختلفتم في المغانم، وتشاححتم فيها، فانتزعها الله منكم، كان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروجَ إلى الأعداء، وهم النفير الذين خرجوا لإحراز عيرهم، فكانت عاقبة كراهتكم للقتال بأنْ قدَّره لكم على غير ميعاد رشداً وهدى ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]»[1].

فإخراجُ الله تعالى النبيَّ ﷺ إلى قتال المشركين في بدر كان فيه خيرٌ كبير للإسلام والمسلمين، وكذلك ما شرعه سبحانه واختاره في أمر الغنائم كان فيه أيضاً الخير والصلاح للمؤمنين، فالله سبحانه يعلم وأنتم لا تعلمون، والخير فيما يختاره جلَّ وعلا.

﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ القتال بسبب الميل الفطري إلى السلامة، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٌ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أو: بسبب قلة عددهم، وعدم استعدادهم لقتال عدوهم، وذلك أنهم خرجوا لاعتراضِ القافلة كما مرَّ معنا، فكان عددُهم لا يزيد على ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، وليس معهم سوى سبعين بعيراً، يَعْتَقِبون عليها، ومعهم أيضاً فرسانِ فقط للزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما.

ومرَّ معنا أنَّ أبا سفيان علمَ بخروج النبيِّ ﷺ، وأنه أرسل إلى قريشٍ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٨٦، وذكر أنه أول الأقوال التي ذكرها الطبري في تفسيره لهذه الآية.

يستنفرهم إلى الخروج لحمايةِ أموالهم، وإلى جانب ذلك غيَّر الطريق التي كان يسلكها، فسلك طريقاً آخر قريباً من ساحل البحر، وتمكَّنَ بذلك من النجاة، وأرسل إلى قريش الذين خرجوا مع أبي جهل يخبرهم بنجاةِ أموالهم، ويطلبُ منهم أن يرجعوا إلى مكة بعد أن سلمت أموالهم، ولكنَّ أبا جهل أصرَّ على المضي إلى بدر، وقال: والله لا نرجعُ حتَّى نردَ بدراً، فنقيمَ عليها ثلاثاً، فننحرَ الجُزُرَ، ونطعمَ الطعامَ، ونُسْقَى الخمرَ، وتعزفُ علينا القيانُ، وتسمعُ بنا العربُ وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها[1]. **(الجزر)**: صغار الإبل، و**(القيان)**: المغنيات.

وعلم النبيُّ ﷺ بعد أن خرجَ من المدينة بما حدث، فأخبر أصحابه بأنَّ الله سبحانه وعده إحدى الطائفتين، إمَّا الاستيلاء على القافلة وهي العيرُ، أو الانتصار على النفير، وهو جيش المشركين.

ولكنَّ فريقاً منهم كرهوا لقاء النفير، وتمنّوا الاستيلاء على العير، وجادلوا النبيَّ ﷺ في ذلك، وهم الذين قال تعالى فيهم:

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ الذي أراد الله تعالى إظهاره بقتال المشركين، والانتصار عليهم، وكسر شوكتهم.

﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ بعد أنْ أعلمهم الرسولُ ﷺ أنَّ اللهَ وعده إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وقد فاتتهم العير، فلا بد إذاً أن يظفروابالنفير وهم يعلمون صدق رسول الله ﷺ.

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أسباب الموت، بسبب قلَّةِ عددهم، وعدمِ تأهبهم، مع كثرة عدوهم وتأهبه واستعداده.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩١.

- **العير أو النفير:**

ثم واجهتهم الآياتُ الكريمةُ بما أضمروه في قلوبهم، واختاروه لأنفسهم، بينما أراد الله تعالى لهم أمراً آخر أجلَّ وأعظم مما اختاروه:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الظفر بالقافلة، أو النصر على جيش المشركين.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ فرغبتهم متوجهة إلى العير، وودادتهم منصبَّة عليها، لأنها لا خطر فيها. و﴿ٱلشَّوْكَةِ﴾ السلاح أو حدته، وبهذا التعبيرِ بيَّن سبحانه سبب رغبتهم بالعير، وكراهتهم للنفير.

والحرص على الكسبِ من دون عناء ومشقة أمرٌ فطري مركوزٌ في جبلَّة الإنسان، يدل على ضعفه ومحدوديته، والصحابة ﷺ بشرٌ، شأنهم في هذا الأمر كشأن غيرهم من البشر.

وتدلُّ الآيةُ على كمال علم الله تعالى، وأنه يعلم السرَّ وأخفى، يعلم سبحانه كلَّ ما يهجسُ في النفس البشرية من خواطر ورغبات وأماني: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ويريد الله سبحانه أن يثبِّتَ الإسلام ويعزه، ويعلي أمره، بما أوحى إلى رسوله ﷺ، وأنزل عليه من الآيات الكريمة التي شرع فيها الجهاد، وأمره به.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم، ولا يبقي منهم أحداً.

فالجهاد ماضٍ ما دام للكفر شوكة وقوة في الأرض، تمنع انتشار الإسلام، وتحول بينه وبين الناس.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ⁨٨⁩﴾.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: شرع سبحانه ما شرع من الجهاد والقتال، وجمع بين المسلمين والمشركين في بدر على غير ميعاد، لكي يثبِّتَ الحقَّ، ويعزَّ دينه ويظهره، ويدحضَ الباطل ويقمعه ويدحره.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولو كره ذلك المشركون الكافرون.

فإرادته تعالى هي الغالبة، ومشيئتُه سبحانه التامةُ النافذةُ، والتسليم لأمره تعالى والانقياد لمشيئته دون أدنى اعتراض من أهم أسباب النصر.

وهذا يكشفُ لنا جانباً من جوانب عظمة غزوة بدر، فقد كانت هذه الغزوة البداية لِعِزَّة الإسلام وظهوره وارتفاع راياته في جنبات الأرض.

وكان البدريون من الصحابة ﵃ طليعةَ المجاهدين، وروادَ الجهاد الأول، الذين شقوا الطريقَ لكلِّ من سار عليه بعدهم، واقتفى آثارهم إلى يوم الدين، فلا عجبَ أن يكونَ لهم ﵃ امتيازٌ على غيرهم، حتى قال رسول الله ﷺ يبيِّنُ فضلَهم ومكانتَهم عند ربهم: «**لعل الله اطَّلعَ على أهلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شِئْتُم فقد وجبتْ لكم الجنَّة، أو فقد غفرتُ لكم**» [رواه البخاري (٣٩٨٣)].

وعن **رفاعة بن رافع** ﵁ قال: جاء جبريلُ ﵇ إلى النبيِّ ﷺ فقال: «**ما تعدُّونَ أهل بدر فيكم؟**» فقال: «**مِنْ أفضل المسلمين**» قال: «**وكذلكَ مَنْ شهدَ بدراً من الملائكةِ** ﵈» [رواه البخاري (٣٩٩٢)].

- **الدعاء عند اللقاء:**

وتابعت الآيات تصف ما حدث قبل المعركة:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ⁨٩⁩﴾.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي: تسألون الله تعالى وتطلبون منه الغوث والنصر.

عن **ابن عباس** ﵄ قال: حدَّثني **عمر بن الخطاب** ﵁ قال: لمَّا كانَ يومُ

بدرٍ، نظرَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاثمئة وتسعةَ عشرَ رجلاً، فاستقبلَ نبيُّ الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه، فجعلَ يهتفُ بربه: «**اللهمَّ أنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني، اللهمَّ آتِني ما وَعَدْتَنِي، اللهمَّ إنْ تهلِكْ هذه العصابةُ مِنْ أهلِ الإسلامِ لا تعبدُ في الأرضِ**» فما زالَ يهتفُ بربِّه مادّاً يديه مستقبلَ القبلة، حتى سقطَ رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ اللهِ كفاكَ مناشدتُكَ ربَّك، فإنَّه سينجزُ لكَ ما وعدَكَ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ فأمدَّه الله تعالى بالملائكة. [رواه مسلم (١٧٦٣)].

فعلى الأمةِ التي تريدُ النصرَ أن تتوجه إلى الله تعالى بخشوع وخضوع، تدعوه وتسأله النصرَ، بعد أن تستكملَ الأسبابَ المادية في الإعداد والاستعداد التي أمر تعالى بها كما سيأتي معنا.

وعلى المجاهدين بشكل خاص أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء عند اللقاء في ميدان المعركة، فالدعاءُ أقربُ إلى الإجابة في هذا الموطنِ كما فعلَ النبيُّ ﷺ في بدر، وفعله أصحابه أيضاً.

واستجابَ ﷻ لهم، وقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ متتابعين، فالاستجابةُ أعقبت الدعاء.

وقد رويَ: أنَّ النبيَّ ﷺ لما ناشدَ ربَّه خفقَ ﷺ خفقةً، وهو في العريش الذي بنوه له ليتخذَه مقرّاً لقيادته، ثم رفعَ رأسَهُ فقال: «**يا أبا بكرٍ أتاكَ نصرُ اللهِ، هذا جبريلُ آخذٌ بعنانِ فرسٍ، يقوده على ثناياه النقع**»[1]. «**النقع**»: الغبار.

وفي [صحيح البخاري (٣٩٩٢ ـ ٢٩٩٥)]: عن **ابن عباس** ﵄: أنَّ النبيَّ ﷺ قال يومَ بدرٍ: «**هذا جبريلُ آخذٌ برأسِ فرسِهِ عليه أداةُ الحرب**».

ثم خرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/١٩٦.

﴿ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، ثم نزل إلى أرض المعركة، فأشارَ إلى مصارع مَنْ سيقتلُ من رؤوس المشركين قائلاً: «**هذا مصرعُ فلانٍ** ـ ويضعُ يدَهُ على الأرض ـ **هاهنا وهاهنا**» قال أنسُ بن مالكٍ ﵁ راوي الحديث: **فواللهِ ما ماطَ أحَدٌ منهم عن موضعِ يدِ رسولِ الله ﷺ**. [رواه مسلم (١٧٧٩)]. **(ما ماط)**: ما مال ولا عدل.

- **البشارة بالنصر:**

ولكي تبقى قلوبهم متجهةً إليه وحدَه ﷻ، فلا يعتمدوا في النصر على غيره قال:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: وما جعل الإمدادَ بالملائكة إلا بشارةً لكم بالنصر، فإنَّ ذلك يشدُّ من عزيمة المقاتل، ويرفع معنوياته، ويزدادُ ثباتاً وإقداماً.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾ أي: ولتسكنَ بهذا الإمداد قلوبكم، فيزولَ ما كان بها من خوفٍ وقلقٍ بسبب قلةِ عددهم وكثرةِ عدوهم.

وهذا ما تستهدفه برامجُ التوجيه المعنوي للجنود في العصر الحاضر، فإنَّ قادةَ الجيوش يحرصون أشدَّ الحرص على رفع معنويات جنودهم بشتى وسائل التوجيه، كما يحرصون على إزالة الخوف والقلق عن نفوسهم وقلوبهم، فالجنديُّ إذا استبدَّ به الخوف، وسيطر عليه القلق لا يثبتُ في أرض المعركة، ولا يصبر على أهوالها، ويُعدُّ نجاح القائد في رفع معنويات جنوده سبباً هامّاً من أسباب النصر.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ﴾ فلا تحسبوا أنَّ النصر من الملائكة، إنَّما النصرُ من الله تعالى، منوطٌ بمشيئته وحده وقدرته، ومشيئته سبحانه طليقة نافذة، وقدرته كاملة، فلا يحتاجُ إلى وسائل وأسباب: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وما شرع الله الجهادَ، وكلَّف المؤمنين بأعباء القتال إلا ابتلاء لهم واختباراً، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

كما أنَّ قتلَ المؤمنين للكافرين في ميدان المعركة أشدُّ إهانةً للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] فقتل صناديد قريش كأبي جهل بأيدي المؤمنين أنكى للمشركين من موتهم بقارعة أو صاعقة، وأشفى لصدور المؤمنين(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَبُ.

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وشرعه.

- **النوم في الميدان:**

ومما يدلُّ على حكمته سبحانه وكمال قدرته أنه جعل الصحابة البدريين ينامون مطمئنينَ ليلة المعركة، كأنَّهم في بيوتهم وعلى فرشهم لا في ميدان القتال قرب عدوهم، ومن المعلوم أنَّ الخائفَ القلق لايستطيعُ النوم، فلا يغمض له جفن، ولا يهدأ له قلبٌ، ولكنَّ الصحابة ﷺ ناموا في ميدان القتال متوسِّدين رمال بدر، مطمئنين آمنين، فكان نومُهم من نعم الله تعالى عليهم، ذكَّرهم به في قوله الكريم:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: اذكروا فضل الله سبحانه عليكم عندما جعل النعاسَ يغلبُ عليكم، فنمتم آمنين مطمئنين بأمان الله تعالى وحفظه

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٩٠.

ورعايته، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما كان فينا فارسٌ يومَ بدرٍ غير المقدادِ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسول الله ﷺ يصلِّي تحتَ شجرةٍ ويبكي حتى أصبحَ. [رواه أبو يعلى (٢٨٠) وابن خزيمة (٨٢٩) وابن حبان (٢٢٥٧)].

وأنزل الله عليهم المطر في تلك الليلة:

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من الحدث الذي أصابهم في نومهم.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ويبعد عنكم وساوس الشيطان ونزغاته.

وكانت الأرض التي نزلوا بها أرضاً رملية غير متماسكة تغوص فيها الأقدام، وقد استغل الشيطان ذلك، وألقى في نفوسهم الوساوس، خوَّفهم بها من عواقب النزول في هذه الأرض، فردَّ الله كيده بالمطر الذي أنزله عليهم، وثبَّت به رمال الأرض فتلبدت، كما ثبَّت الله تعالى به قلوبهم فقوَّاها.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ وهي شجاعة الباطن.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ وهي شجاعة الظاهر.

وقد أشارت الآية إلى أمرين هامين لهما تأثير كبير على سير المعركة:

**أولهما**: ينبغي لأمير الجند أن يحرص على تأمين راحة جنوده النفسية والبدنية قبل المعركة.

**ثانيهما**: وعليه أيضاً أن يحسنَ اختيار الأرض المناسبة للقتال، بحيث يتمكَّن الجنودُ من سهولة الحركة وسرعة المناورة، كما تساعد على حمايتهم من عدوهم.

وقد فعل النبي ﷺ هذا قبل المعركة، فعندما وصل عليه الصلاة والسلام إلى بدرٍ نزل على أول ماء فيه، فقال له الحُباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول اللهِ أرأيتَ هذا المنزلَ، أمنزلاً أنزلكَهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدَّمَ ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ؟ قال: «**بل هو الرأي والحربُ والمكيدةُ**» فقال: يا رسول اللهِ فإنَّ هذا ليس بمنزلٍ، فانهضْ بالناسِ حتى نأتيَ أدنى ماءٍ من القوم فننزلَه، ثم نغوِّرَ ما وراءَه من القُلُبِ، ثم نبنيَ عليه حَوْضاً فنملأه ماءً، ثم نقاتل القومَ، فنشربُ ولا يشربونَ، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرتَ بالرأي**» فنهضَ

رسولُ اللهِ ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتَّى إذا أتى أدنى ماءٍ من القومِ فنزلَ عليه، ثم أمرَ بالقُلُبِ فَغُوِّرَتْ(١).

وهكذا تمكَّنوا من الماء، وسيطروا عليه، كما ثبَّت الله تعالى الأرض، فأصبح سيرهم عليها سهلاً ميسوراً.

- **مهمة الملائكة في بدر:**

ثم بيَّنَتِ الآيات مهمةَ الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المؤمنين في بدر:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في تأييد المسلمين وتثبيتهم ونصرهم.

﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ بما تلقونه في قلوبهم من التبشير بالنصر والتشجيع.

وللملَك قوة على إلقاء معاني الخير في نفس الإنسان، كما أنَّ للشيطان قوة على الوسوسة في قلب الإنسان، ويسمَّى ما يلقي الملك لَمَّة وإلهاماً، وما يلقيه الشيطان وسوسة(٢).

ويؤيد ذلك الحديث النبوي الشريف: «**إنَّ للشيطانِ لمّةً بابن آدمَ، وللمَلَكِ لمّةً، فأما لَمَّةُ الشيطانِ، فإيعادٌ بالشرِّ، وتكذيبٌ بالحقِّ، وأمَّا لَمَّةُ المَلكِ، فإيعادٌ بالخيرِ، وتصديقٌ بالحقِّ، فَمَنْ وجدَ ذلك فليعلمْ أنَّه من الله تعالى، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله مِنَ الشيطانِ الرجيم**» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٩٧)].

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ وهو جندي من جنود الله، أيَّد به نبيَّه ﷺ في معارك كثيرة، منها:

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٢. **والقُلُب**: الآبار. ومَعْنى **غُوِّرت**: طمست ودفنت.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ٣/ ١٨.

**معركة بدر**، ومرَّ معنا قوله ﷺ: «**ونُصِرْتُ بالرعبِ بَيْن يَدي مسيرة شهرٍ**» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

وفي **غزوة بني قريظة** ألقى الله الرعبَ في قلوبهم فنزلوا من حصونهم المنيعة مستسلمين، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وفي **غزوة تبوك** ألقى الله الرعب في الجموع المحتشدة من جيوش الروم عندما سمعوا بخروج النبي ﷺ لقتالهم من المدينة المنورة، وكانَ بينهم وبينه مسيرة شهر، وعندما وصل عليه الصلاة والسلام إلى تبوك، لم يجدْ جيشاً، ولم يلقَ حرباً.

﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: فاضربوا أيها المؤمنون فوق رقاب الكفرة لكي تقطعوا رؤوسهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [محمد: ٤].

ورأى بعضُ المفسرين أنَّ الأمرَ بالضرب موجه إلى الملائكة، وأنهم شاركوا فعلاً في القتال، واستندوا إلى بعض الروايات الدالة على مشاركة الملائكة في القتال، لكنَّ قوله تعالى السابق: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] يدلُّ على أن مهمة الملائكة كانت تثبيت المؤمنين وتبشيرهم، ورفع معنوياتهم، ومن المعلوم أنَّ للمَلَك قوة لا تعادلها أي قوة للبشر، فملَكٌ واحدٌ يكفي لإهلاك جيش المشركين بأجمعه، ولا يحتاجُ الأمرُ إلى ألف من الملائكة مردفين.

﴿وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وهي أطرافُ أصابع اليدين، جمع بنانة.

والمعنى: إذا لم تتمكنوا من الضربِ فوقَ أعناقهم، فاضربوهم في أي مكانٍ، ولو كان رؤوس أصابعهم، فإنَّ ذلك يؤدي إلى إثخانهم بالجراح، وإضعافهم وهزيمتهم.

ولا شكَّ أنَّ قطع رؤوس أصابع المقاتل يعوقه عن القتال، ويمنعه من

استعمال سلاحه، فعلى هذا يمكن أن يكون تكرير لفظ ﴿وَٱضۡرِبُواْ﴾ أريدَ به توجيه المؤمنين إلى موطنٍ من مواطن الضعف عند أعدائهم، وهو مكشوفٌ للمجاهدين يسهلُ عليهم الوصول إليه.

فالآية الكريمة توجِّهُ المجاهدين إلى ضرب العدو في مقاتله، وتلفت أنظارهم إلى مواطن الضعف عند عدوهم ليضربوه من خلالها، وهو أمرٌ يحرص عليه كبار القادة العسكريين قبل المعركة، يبحثون بواسطة أجهزة استخباراتهم عن نقاط الضعف عند عدوهم لكي يضربوه من خلالها، دون أن تلحق بقواتهم خسائر كبيرة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الأمر بضربهم على رقابهم ورؤوس أصابعهم.

﴿بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ لأنهم خالفوا أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، فساروا في شق وطريقٍ يخالف الطريق الذي شرعه الله تعالى وسار عليه الرسول ﷺ.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وما أنزله بهم في بدرٍ شيءٌ قليل من عقابه تعالى وعذابه الذي أعده لهم يوم القيامة.

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى المشركين تبكيتاً لهم وتقريعاً:

﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ العقاب والعذاب.

﴿فَذُوقُوهُ﴾ اعرفوا طعمه، فهو مقدمة لعذابٍ أكبر ينتظركم.

﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ولعلَّ هذا ما أراده رسول الله ﷺ عندما وقف على الحفرةِ التي أُلقيتْ فيها جثثُ قتلى المشركين في بدر؛ فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ تركَ

قتلى بدرٍ ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم فقال: «**يا أبا جهل بن هشام، يا أميةَ بنَ خلفٍ، يا عتبةَ بنَ ربيعةَ، يا شيبةَ بنَ ربيعة، أليس قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّاً؟ فإنِّي قد وجدتُ ما وعدني ربِّي حقّاً**» فقال عمرُ: يا رسولَ اللهِ كيفَ يسمعوا؟! وأنَّى يُجِيْبوا وقد جيَّفوا؟! قال: «**والذي نفسي بيده، ما أنتُم بأسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنَّهم لا يقدرونَ أن يجيبوا**» [رواه مسلم (٢٨٧٤)][(١)].

وهذا يدلُّ على أنّ عذاب القبر حق، وقد ذُكر هذا الحديث في صحيح مسلم لإثباتِ عذاب القبر.

- **الثبات عند الضربة الأولى:**

وبعد أن تحدَّثت الآيات الكريمة عما حدث قبل بدء القتال في بدر، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم، وتأمرهم بالثبات عند لقاء العدو والشروع بالقتال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض، **والتزاحف**: التداني في القتال[(٢)].

﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم، ولو كانوا أكثرَ عدداً وعدَّة منكم.

فكلمة ﴿زَحۡفٗا﴾ تدلُّ على كثرتهم، بحيث يُرى الجيش لكثرته كأنه يزحف.

والثبات في وجه العدو عند أول اللقاء أهم عنصر في المعركة يحقق النصر، قال رسول الله ﷺ: «**الصَّبْرُ عندَ الصدمةِ الأُولى**» [رواه مسلم (٩٢٦)].

وقال أيضاً: «**يا أيُّها الناسُ لا تتمنوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ**» [رواه مسلم (١٧٤٢)].

---

(١) قوله: (كيف يسمعوا؟ وأنَّى يجيبوا؟) هكذا هو في عامة النسخ المعتمدة من غير نون، وهي لغة صحيحة، وإن كانت قليلة الاستعمال، كما في هامش صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٠٣.

(٢) تفسير الخازن: ٣/ ٢٠.

ولهذا يعمد القادة المحنكون إلى توجيه أقصى قوَّتهم إلى عدوهم في الضربة الأولى لكي يُشيعوا الذعر والخوف في قلوب جنود العدو، ويُحْدثوا الخلل والاضطراب في صفوفه، فالثبات في وجه الضربة الأولى يقرر غالباً نتيجة المعركة بتقدير الله تعالى، فهو أمر خطير وحاسم في المعارك.

ولهذا توعَّدت الآيات الكريمة الذين لا يثبتون في وجه العدو بأشد أنواع الوعيد:

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: إلا إذا كان يريد الكرَّ بعد الفرِّ، وتظاهَرَ بالفرار أمام العدو ليخدعَه، ويستدرجَه ليتمكن منه.

فمخادعةُ العدوِّ في الحرب أمرٌ جائزٌ ومشروعٌ، قال عليه الصلاة والسلام: «**الحَرْبُ خَدْعَةٌ**» [رواه البخاري (٣٠٣٠)].

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أو ترك القتال لينحازَ وينضمَّ إلى جماعة مسلمة من جنود المسلمين محتاجين إلى معونته ومساعدته، كما فعل خالدُ بن الوليد رضي الله عنه عندما ترك قتال الفرس في العراق، وانحازَ مع بعض جنوده إلى جند المسلمين في بلاد الشام، تنفيذاً لأمر الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.

ويمكنُ أن يقالَ في معنى الآية: إنَّه اضطر إلى الانسحاب من وجه العدو فانسحبَ انسحاباً منظَّماً، وانضمَّ إلى ولي أمر المسلمين، ليعيدَ تنظيم صفوفه، ويعودَ إلى القتال مرَّة ثانية، ولهذا قال بعض المفسرين: **المتحيِّزُ**: الفارُّ إلى النبيِّ ﷺ وأصحابه، كذلك من فرَّ اليومَ إلى أميره وأصحابه[1].

وقد فعل الصحابةُ رضي الله عنهم في معركة مؤتة مثل هذا الانسحاب أو التحيُّز، فقد فوجئوا بجموع كثيرة من جيوش الروم تزيدُ على مئة ألف، بينما كان عددُ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٩٢.

الصحابة ثلاثة آلاف، ومع ذلك قاتلوهم، وثبتوا في وجوههم، حتى استشهدَ أمراؤهم الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة ﵃، ولما استلم خالد بن الوليد الإمرةَ، تمكن من الانسحاب والرجوع بالجيش إلى المدينة المنورة، وجعل الناسُ عندما وصلوا يحثون عليهم التراب، ويقولون: يا فُرَّار فررتم من سبيل الله! فيقول الرسول ﷺ: «**ليسوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّارُ إنْ شاءَ اللهُ**»[1].

وعن **عبد الله بن عمرو** ﵄ قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حَيْصة، فكنت في من حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة، ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «**من القوم؟**» فقلنا: نحن الفرَّارون، فقال: «**لا، بل أنتم العكارون، أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين**» فأتيناه حتى قبَّلنا يده، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾. [رواه أحمد (٢/ ٧٠) وأبو داود (٢٦٤٧) والترمذي (١٧١٦)]. و«**العكارون**»: الكرَّارون.

فالانسحاب من أرض المعركة جائز في مثل هاتين الحالتين المذكورتين في الآية الكريمة، ويجب أن يكون انسحاباً منظماً لإعادة الكَرَّة واستئناف القتال، أما إذا كان انسحاباً كيفيّاً، بحيث ينسحب كل جندي كما يحب ويشتهي من دون هدف ولا نظام، فهو الهزيمة المحرمة في الإسلام، والتي ينطبق على من يفعله قوله تعالى:

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجع وهو متلبس بغضب الله تعالى وآثار سخطه.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قال ابن كثير ﵀: إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام، وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٧؛ وسيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص٤٣٢.

[٢٧٦٦] ومسلم [٨٩]: عن **أبي هريرة** ﵁ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ**» قيل: يا رسول اللهِ، وما هنَّ؟ قال: «**الشركُ باللهِ، والسحرُ، وقتلُ النفس التي حَرم اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ الربا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتولِّي يومَ الزحفِ، وقذفُ الغافلاتِ المحصناتِ المؤمناتِ**»[1].

• **المعركة:**

وفي صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة حدثتِ المعركةُ، وبدأ القتالُ بالمبارزة، وخرج من صفوف المشركين الأسودُ بن عبد الأسد المخزومي، وقصد إلى حوض المسلمين ليشربَ منه ويهدمه، فتصدى له حمزة ﵁ فقتله داخلَ الحوض.

ثم خرجَ من المشركين عُتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فدعوا إلى المبارزة، فخرجَ لهم ثلاثةٌ من الأنصار، فأَنِفوا من مبارزتهم، ونادى مناديهم: يا محمَّدُ أخرج لنا أكفاءنا من قومنا. فأخرجَ لهم رسولُ الله ﷺ ثلاثةً من بني هاشم: عُبيدةَ بنَ الحارث وحمزةَ وعليًّا ﵃، فقُتِلَ المشركون الثلاثة، وجُرِحَ عبيدةُ، وحُمِلَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وماتَ ﵁ بعد ذلك بجوارِ النبيِّ ﷺ.

وبدأ القتالُ بهجوم شنَّه المشركون، وأمر النبيُّ ﷺ أصحابه أن يثبتوا لهجوم المشركين، وأن يردُّوهم بالنبالِ وقال: «**إن اكتنفكُم القومُ فانضحوهم بالنَّبلِ**»[2].

ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الميدان بنفسه، فأخذ حفنةً من تراب الأرض، ورماها في وجوه المشركين وقال: «**شاهتِ الوجوهُ**» [رواه الطبراني في

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٩٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٥.

الكبير (٣١٢٧ و٣١٢٨) وفي الأوسط كما في مجمع البحرين (٢٣٧) بإسناد حسن كما في مجمع الزوائد (٦/ ٨٤)][1].

فما بقي أحدٌ من المشركين إلا دخل في عينيه ترابٌ من تراب هذه الرمية.

وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يشدوا على المشركين، ويهجموا عليهم، وقال محرضاً لهم: «**والذي نفسُ محمَّدٍ بيدهِ، لا يقاتِلُهم اليومَ رجلٌ فيُقْتَلُ صابراً مُحْتسِباً، مُقبِلاً غيرَ مدْبرٍ، إلا أدخله اللهُ الجنة**» فقال عمير بن الحمام من فتيان الأنصار، وفي يده تمراتٌ يأكلهنَّ: بخٍ بخٍ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذفَ التمراتِ من يده، وأخذَ سَيفَه فقاتل القومَ حتَّى قُتل[2].

ونجح هجومُ الفئةِ القليلة المسلمة الصابرة، وفرَّ المشركون، وقد ملأ الرعبُ قلوبهم، بعد أن خلَّفوا وراءهم سبعين قتيلاً، فيهم رأس الشرك أبو جهل عمرو بن هشام، وسبعين أسيراً.

- **تأديب المنتصرين:**

وكي لا يصيبَ المؤمنين زهوُ المنتصرين وفخرُهم وإعجابُهم بجهادهم وأنفسِهم، أنزل الله تعالى عليهم مؤدِّباً لهم، ومذكراً لهم، بأنَّه هو الذي نصرهم، وهو الذي قتل من قُتل من أعدائهم:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: لم تقتلوهم بقوتكم، ولكنَّ الله قتلهم بمشيئته وقدرته، وبمعونته وتأييده لكم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي: وما كنت الرامي على الحقيقة

---

(١) وفعل رسول الله ﷺ ذلك أيضاً في غزوة حنين كما في صحيح مسلم (١٧٧٧).

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٦.

عندما رميت التراب في وجوههم، ولكن الله هو الذي رمى، لأنه سبحانه هو الذي أوصل التراب والرمال إلى أعينهم.

وتدلُّ الآية على أن الله تعالى خالق للعبد ولأفعاله، وأن أفعال العبد وإن كانت كسباً له فهي من خلق الله سبحانه وبمشيئته وقدرته.

والله تعالى يبتلي عباده بالمحنةِ والنعمةِ، وقد ابتلى الله تعالى المؤمنين بالنصر في بدر:

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ وكانت نتيجته حسنة طيبة، إذ كانوا ﵃ أهلاً للنصر الذي أنعم الله تعالى به عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

ثم بشَّرهم الله سبحانه بأن كيد الكافرين ومكرهم صائر إلى الضعف والاضمحلال:

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

لأنه تعالى مع عباده المؤمنين المتقين ينصرهم ويؤيدهم.

وتأكيداً لهذه الحقيقة التفتت الآياتُ إلى الكافرين المنهزمين تقرِّعهم وتتهكم بهم:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُۖ﴾ وذلك أنَّ أبا جهل دعا مستفتحاً في أول القتال فقال: اللهمَّ أَقْطَعُنا للرحم وآتانا بما لا يُعرف فأحنه الغداة[1]. أي: اجعله مدحوراً مهزوماً.

(١) سيرة ابن هشام: ٢/١٩٦.

﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﷺ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فلقد جاءهم الإسلام بعز الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿وَإِن تَعُودُوا۟﴾ لمحاربته عليه الصلاة والسلام.

﴿نَعُدْ﴾ لنصره وتأييده.

﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: مهما كانت الجموع التي تحشدونها كبيرة فلن تنفعكم شيئاً، لأنه تعالى مع المؤمنين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم.



# الفَصْلُ الثَّانِي

## الأسبابُ غيرُ المباشرةِ للنَّصر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ

وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

- **طاعة الله ورسوله ﷺ:**

وبعد أن بيَّنتِ الآياتُ الكريمةُ الماضية أسباب النصر المباشرة في المعركة، والتي يجبُ تحصيلها قبل القتال وفي أثنائه، شرعت الآياتُ تبيِّنُ الأسباب غير المباشرة للنصر، والتي تبقى بها الأمة المسلمة قوية عزيزة منيعة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فهو كقوله تعالى في صدر السورة: ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وقد أمرت تلك الآية بطاعة الله ورسوله ﷺ في شأن الأنفال، وأمَّا هذه الآية فقد أمرت بالطاعة العامة الشاملة

في جميع شؤون الحياة، ولهذا حذَّر سبحانه بعدها من الإعراض عن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ بقوله:

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: لا تُعرضوا عن الرسول ﷺ، فطاعتُهُ ﷺ طاعةٌ لله تعالى كما في قوله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فهو ﷺ المبلِّغ عن الله تعالى، فطاعته ﷺ لازمة كطاعة الله تعالى.

﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أنَّ طاعته واجبةٌ عليكم بعد أن علمتم ما دعاكم إليه، وبعد أن بلَّغكم رسالة الله تعالى، فكل من بلغته رسالةُ الإسلام، أو سمعَ شيئاً من القرآن الكريم، وفهم معانيه، قامت عليه الحجَّةُ، ولزمته الإجابة، وعليه طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

يجب على الأمة المسلمة التي تسمع كلام الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار أن تلتزمَ بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام؛ باتباع أحكام الكتاب الكريم، والتمسُّك بسنَّته عليه الصلاة والسلام، كما يجبُ عليها أن تُعْرِضَ عن كلِّ الشرائع الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، فسماع القرآن الكريم يُلزِمُ السامعَ بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ بآذاننا.

﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم وجوارحهم وسلوكهم، ويُعرضون عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

وهذا كان حال المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون بالسماع والطاعة، بينما هم يضمرون العصيان والمخالفة، قال تعالى فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ

عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

وكذلك كان اليهود أيضاً في المدينة المنوَّرة إذا سمعوا النبيَّ ﷺ قالوا: سمعنا وعصينا، كما جاء في قوله تعالى عنهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وهذا مع الأسف حال كثير من المسلمين في العصر الحاضر، يسمعون كلام الله تعالى، ويتظاهرون بالتأثر بمواعظه وزواجره، وفي الوقت نفسه يظلون مُصِرِّين على معاصيهم وآثامهم.

قال القرطبي رحمه الله: «دلَّتِ الآية على أنَّ قول المؤمن: سمعت وأطعت؛ لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله، فإذا قصَّر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي واقتحمها؛ فأي سمع عنده وأي طاعة؟!»[1].

ثم أخبر سبحانه أنَّ هؤلاء شرُّ الخلق والخليقة، فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ عن سماع الحق سماع إجابة وخضوع وانقياد.

﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن الإقرار بالحق وإعلان الانقياد له والرضا به.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يستعملون عقولهم فيما خُلِقَتْ من أجله، وهو التمييز بين الحق والباطل، فهؤلاء شرُّ الدواب، لأنَّ كلَّ دابة مما سواهم مطيعة لله تعالى فيما خلقها له، وهؤلاء خُلقوا لطاعته تعالى وعبادته فكفروا، ولهذا شُبِّهوا بالأنعام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٨٨.

لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم بينَ تعالى أنَّه لا خير في هؤلاء، وأنَّ نفوسهم قد غلب عليها الخبث والشر فقال:

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع الإجابة والخضوع والانقياد، وسماع الفهم والانتفاع.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع الانتفاع بعد أن علمَ أنَّه لا خيرَ فيهم.

﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لأعرضوا عن الحق، ولم ينقادوا له رغم معرفتهم أنه حق.

وهو حال المعرضين عن الحق عناداً واستكباراً كفرعون وملئه، فقد رأوا المعجزات التي أيد الله بها موسى عليه السلام، واستيقنوا بدلالتها على صدق موسى، ومع ذلك جحدوها: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

• **الحياة والجهاد:**

ثمَّ كرَّر تعالى النداء للمؤمنين فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بطاعتهما، والانقياد لأمرهما.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول ﷺ، فهو المبلِّغ عن الله تعالى.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الإنسانية الكريمة الطيِّبة، الحياة العزيزة المنيعة.

وفي الآيةِ الكريمة دعوةٌ إلى الاستجابة المطلقة لله تعالى ولرسوله عليه

الصلاة والسلام، ولكن مجيئها في سياق آيات الجهاد وفي سورة الأنفال التي نزلت بمناسبة غزوة بدر يجعلُ الدعوة في الآية دعوةً مخصوصةً إلى الجهاد، فالأمةُ المجاهدةُ هي التي تحيا الحياة الحقيقية، الحياة الكريمة اللائقة بالإنسان الذي كرمه ربه وسخر له كثيراً من مخلوقاته.

**وقد يقول قائل**: كيف يكون الجهاد حياةً وفيه القتلُ والموتُ؟!.

**فأقول**: القتل بالنسبة للمجاهد في سبيل الله تعالى حياةٌ أعلى وأشرف من الحياة الدنيا، حياة برزخية خاصة، يُكْرِم الله تعالى فيها الشهداء بنعيم الجنة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما بالنسبة للأمة المسلمة المجاهدة، فالجهادُ يعطيها الحياة الكريمة العزيزة المنيعة، وبهذا يكونُ الجهاد حياة للمجاهدين الشهداء، وحياة للمجاهدين الأحياء، ويؤكد هذا أنه عندما أراد بعض الأنصار ترك الجهاد والانصراف إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية بعد أن أعزَّ الله الإسلام، و دخل الناس في دين الله أفواجاً، أنزل الله تعالى فيهم قوله الكريم: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] [انظر الحديث الذي رواه أبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢)].

فالإعراضُ عن الجهاد والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك، لأنه يؤدي بالأمة إلى الذلَّة والاستكانة وتمكُّن عدوها منها.

وينبغي أن تكونَ الاستجابةُ لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام عن طواعيةٍ واختيارٍ، ورغبةٍ ومحبَّةٍ، لا عن قهر وإكراه وإجبار، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فالقلوب بيده سبحانه، ولا سلطان للإنسان على قلبه، ولا يستطيعُ أن يتحكم بعواطفه ومشاعره، فمن علم الله فيهم خيراً وفَّقهم إلى الاستجابة لدعوة رسوله عليه الصلاة والسلام، وشرح صدورهم لذلك، ومن علم أنَّ نفوسهم ودخائلهم يغلبُ عليها الخبث والشر حال بينهم وبين الاستجابة لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد سبق أيضاً مثل هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فالآية تحثُّ المؤمنين على المبادرة فوراً إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ، وتحذِّرهم من عواقب التثاقل عنها وتأخيرها، وكأنها تقول لهم: ما دامتْ قلوبكم مقبلةً على الإيمان، فبادروا إلى تلبية دعوة الرسول ﷺ، فإنَّ القلوبَ بيد الله تعالى يقلِّبها كيف يشاء، ولهذا علَّمنا سبحانه أن ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكان النبيُّ ﷺ يكثرُ أنْ يقولَ تعليماً لنا: «**يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلبي على دينكَ**» [رواه أحمد (٣/ ١١٢، ٢٥٧) والترمذي (٢١٤٠) وابن ماجه (١٩٩)].

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: واعلموا أيضاً أنكم إلى الله تعالى يوم القيامة تجمعون، فيجازيكم أو يُثيبكم على حسب استجابتكم لدعوة رسوله عليه الصلاة والسلام.

- **التحذير من الفتن:**

ويترتب على مخالفة الرسول ﷺ وعدم الاستجابة لدعوته، التعرض للفتن والمصائب والنوازل، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فما من فتنة أصابت المسلمين بعده عليه الصلاة والسلام، إلا بسبب مخالفتهم لأمره، أو تركهم لسُنَّته، ولهذا جاء التحذيرُ من الوقوع في الفتن بعد الأمر بالاستجابة لدعوته عليه الصلاة والسلام مباشرة، قال تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين

البلاء العام وقاية، بإصلاح ذات بينكم، واجتماع كلمتكم على أمر الله، وردٌّ من خالف إلى أمر الله[١].

فطاعةُ الله ورسوله وقايةٌ من الفتن، بينما المعاصي والآثام أسبابُ البلاءِ والفتن، وشرُّها يصيب العصاة وغيرهم من أبناء المجتمع، لأنهم سكتوا على المعاصي، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال رسول الله ﷺ: «**مثلُ القائم على حدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمثلِ قومٍ استهموا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفلها، فكان الذينَ في أسفلها إذا استقَوُا الماءَ مروا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً، ولم نؤذِ مَنْ فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعاً**» [رواه البخاري (٢٤٩٣) والترمذي (٢١٧٣)].

وقوله: «**استهموا**» أي: اقتسموها بالقرعة.

فالله سبحانه يعذِّبُ العامة بذنوب الخاصة إذا انتشرت المنكرات والفواحش بينهم:

ففي الحديث الشريف: عن أم **المؤمنين السيدة زينب** رضي الله عنها، قالت: استيقظَ رسولُ الله ﷺ محمراً وجهُهُ، وهو يقول: «**لا إلـٰه إلا الله، ويلٌ للعربِ مِنْ شرٍّ قَدِ اقتربَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثْلُ هذِهِ**» وحلَّقَ بإصبعه الإبهام والتي تليها، قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنهلكُ وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ**» [رواه البخاري (٧٠٥٩) ومسلم (٢٨٨٠)][٢].

وشُؤْم المعاصي والمنكرات يعمُّ جميعَ أبناء المجتمع في الدنيا فقط:

فعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا أنزلَ اللهُ بقوم عذاباً، أصابَ العذابُ مَنْ كانَ فيهم، ثم بُعِثُوْا على أعمالهم**» [رواه البخاري (٧١٠٨)].

فالفتنةُ إذا عُمِلَتْ هلكوا جميعاً، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار

---

(١) نظم الدرر: ٨/ ٢٥٧.

(٢) انظر: (العواصم من الفتن في سورة الكهف)، وهو باب من تفسيرنا الموضوعي هذا.

المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغيَّر وجبَ على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجرانُ تلك البلدة والهربُ منها[١].

ثم ختم سبحانه الآية مؤكِّداً التحذير من مخالفة أمره، ببيان شدة عقابه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

والجدير بالذكر هنا أنَّ انتشار المعاصي وشيوع المنكرات في المجتمع من أكبر أسباب الهزيمة والتخلُّف، لأنه يؤدي إلى الانحلال والفوضى والاختلاف.

**• مأوى المجاهدين:**

ولمَّا كان الصحابة ﷺ نواةَ الأمة المسلمة، وأولَ مَنْ حمل رسالتها، وحفظ أمانتها، وقام على نشرها، وتبليغها بعد رسول الله ﷺ؛ وجَّه سبحانه إليهم الخطاب في سياق هذه الآيات، وذكَّرهم فيه بفضله تعالى عليهم، لكي يعرفوا مدى مسؤوليتهم، وثقل التبعة الملقاة عليهم:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مكة.

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ في المدينة المنورة، وجعلها لكم مأوًى تتحصنون به من أعدائكم، كما جعلها قاعدة انطلاق وارتكاز لكم في جهادكم، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ في بدر، وفي غيرها من الغزوات والمعارك.

وتدلُّ الآية على أهمية الأرض التي تكون للمجاهدين بمثابة قاعدة انطلاق لهم في جهادهم، كما تكون حصناً لهم يتحصنون به ويأوون إليه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يعرضُ نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٩٢

عندما كان في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، يبحث عن مأوى يتخذه مع أصحابه قاعدة انطلاق لتبليغ رسالة الإسلام، ونشره بين الناس، وما أنزل الله تعالى آيات الجهاد وكلَّف المسلمين به حتى وجد النبيُّ ﷺ القاعدةَ والمأوى في المدينة المنورة، فالمأوى وقاعدة الانطلاق ونقطة الارتكاز: ضرورة من ضرورات الجهاد، ينبغي للمجاهدين أن يُحَصِّلوها قبل الشروع في الجهاد.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بالغنائم التي أحلَّها لكم، كما مرَّ معنا.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ الله تعالى على فضله بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام.

- **التحذير من الخيانة:**

للخيانة دور كبير في الفشل والهزيمة، وهي لا تعني فقط موالاة العدو خفية، وإفشاء أسرار المجاهدين، وإيصالها إلى العدو، وتمكينه من معرفة نقاط الضعف في المجتمع الإسلامي عامة، وفي صفوف المجاهدين خاصة.. الخيانة في نظر الإسلام أشمل من هذا، إنَّ أي خلل ونقص يحدثه المسلم في عمله الذي كُلِّف به في شؤون دينه ودنياه، يعدُّ خيانة للأمانة التي يحملها، والمسلم يحمل أمانات كثيرة.

ولهذا توجَّهت الآيات بالخطاب إلى المسلمين تذكِّرهم بمسؤوليتهم عن الأمانات التي يحملونها، وتحذِّرهم من خيانة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وخيانة الأمانات التي كُلِّفوا بحملها والمحافظة عليها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وأنتم تعلمون تبعة الخيانة، أو تعلمون أنكم تخونون، فالخيانة صدرت منكم عن قصد وعمد لا عن سهو وخطأ[(١)].

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٣١.

ولمّا كان الباعث على الخيانة الحرص على المصالح المادية في الأموال والأولاد غالباً، قال سبحانه:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وامتحان من الله تعالى لكم، هل تطيعونه تعالى في أموالكم وأولادكم، أم تعصونه وتخونون أماناتكم من أجل أموالكم وأولادكم؟.

وذكر بعضهم أنها نزلت في أبي لبابة عندما أشارَ إلى يهود بني قريظةَ وهم محاصرون بأنَّ الحكم فيهم القتلُ(١).

وقد حذَّر سبحانه من الافتتان بالأموال والأولاد في عدد من الآيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فثوابُه سبحانه وجناتُه خيرٌ لكم من الأموال والأولاد، الذين لا يُغنون عنكم شيئاً يوم القيامة.

ثم يأتي النداء الرابع من الله تعالى للمؤمنين جامعاً لكلِّ ما تقدَّم بأسلوب الترغيب، لا بأسلوب الوعيد والتحذير:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: يجعل لكم نوراً

(١) انظر تفصيل القصة في: السيرة النبوية، لابن هشام: ٣/ ١٤٣؛ وتفسير الطبري: ٩/ ٢٢١.

وهداية في قلوبكم، تفرقون بها بين الحق والباطل، فترون الحق بجماله وضيائه، وترون الباطل بقُبحه وظلمته، فإنَّ من اتقى الله تعالى بفعل أوامره وترك نواهيه، وُفِّقَ لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاحه، ومخرجه في الدنيا، وسعادته يوم القيامة[1]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

**فالفرقان**: مصدر زيدت فيه الألف والنون، وأُريد به الوصف الفارق بين الحق والباطل[2].

فالتقوى تورثُ صاحبها النظر السديد، والرأي الثاقب، والقدرة على التمييز بين الخير والشر.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ بسترها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها، فضلاً منه سبحانه:

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

- **المؤامرة:**

ثم شرعتِ الآياتُ تبيِّنُ بعض جرائم المشركين، وإعراضهم عن الحقِّ، وعنادهم وضلالهم، وكأنه تعالى بهذه الآيات أراد أن يبيِّنَ لنا ضرورةَ مجاهدةِ الكفار وقتالهم وكسر شوكتهم، ووضع حدٍّ لفسادهم وإفسادهم، فتشريعُ الجهاد أمرٌ ضروري، وفيه حِكَمٌ كثيرة وكبيرة، ولا بد لأمثال هؤلاء المجرمين المعاندين من قوة تدفعهم وتقمعهم، وتمنع عن الناس شرَّهم وضلالهم.

وقدَّمت الآيات الحديث عن مكرهم بالنبيِّ ﷺ، ومحاولتهم التخلص منه بأي وسيلة ولو كانت القتل، وقد اجتمعوا لهذا الأمر في دار الندوة.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني من لا أتَّهم من أصحابنا عن **عبد الله بن عباس**

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٩٩.

(٢) أضواء البيان: ٢/ ٣٤٩.

ﷺ قال: لمَّا أجمعوا لذلك، واتَّعدوا أن يدخلوا في دارِ الندوةِ، ليتشاوروا فيها في أمرِ رسولِ اللهِ ﷺ غَدَوْا في اليوم الذي اتَّعدوا له، فاعترضهم إبليسُ في هيئةِ شيخ جليل، قال: شيخٌ من أهل نجد سمعَ بالذي اتَّعدتم له فحضرَ معكم ليسمع ما تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونُصحاً.

فدخل معهم، فتشاوروا، وقال قائلٌ منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا باباً، ثم تربَّصوا به ما أصابَ أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، لئن حبستموه ليخرجنَّ أمْرُه من وراءِ البابِ إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، فانظروا في غيره.

وقال قائل منهم: نخرجُهُ مِنْ بَيْن أَظْهُرِنا فننفيه من بلادنا. فقال الشيخ النجدي: ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسْنَ حديثه، وحلاوةَ منطقه، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلَّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، ثم يسيرُ بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم، دبِّروا فيه رأياً غير هذا.

قال أبو جهل: أرى أن نأخذَ من كلِّ قبيلةٍ فتًى شابّاً جليداً نسيباً، ثم نعطي كلَّ فتًى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، ويتفرَّق دمه في القبائل جميعاً. فقال النجديُّ: القولُ ما قالَ الرجلُ، هذا الرأي الذي لا رأيَ غيره. فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له[1].

وأنزل الله تعالى بعد ذلك قوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليحبسوك ويوثقوك.

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٩١ باختصار.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ بردِّ مكرهم عليهم وجعلهم خائبين خاسرين.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ لأنه يجازي الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشد ضرراً عليهم، وأعظم بلاءً من مكرهم[١].

أو لأنه سبحانه لا يمكر إلا بالحق والصواب، ومكرهم باطل وظلم، فمكر الخلق من الحيلة والعجز، ومكر الخالق من الحكمة والقدرة[٢].

- **عناد واستكبار:**

ثم تحدَّثت الآيات عن موقفهم عندما يسمعون القرآن الكريم، وعن شدَّة إعراضهم عنه، ومعاندتهم لآياته الساطعة وحججه البالغة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾ بآذاننا فقط، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ﴾ وهذا منهم قولٌ بلا فعل، وإلا فقد تحدَّاهم أكثر من مرَّة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وقالوا معاندين:

﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا القرآن إلا ما سطَّره الأولون من الحكايات والأخبار. فما أشدَّ عنادهم وما أعظمَ وقاحتهم!.

وأبلغُ منه قولهم:

---

(١) فتح القدير: ٢/٣٠٣.

(٢) تنوير الأذهان: ٢/٢٠.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إنْ كانَ القرآن الكريم هو الحق الثابت المنزل من عندك.

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تهلكنا بها.

﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾! وبهذا القول بلغوا الغاية في الجحود والفساد، والوقاحة والصلف والاستكبار، فبدل أن يقولوا: اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهْدِنا إليه، قالوا ذلك معاندين مستكبرين، وهذا يدلُّ على شدة حسدهم للنبي ﷺ وبُغضهم له، فكأنَّ الهلاك والعذاب أهون عليهم من متابعته عليه الصلاة والسلام والإيمان برسالته، فنارُ الحسد المتأججة في صدورهم جعلتهم يسألون لأنفسهم الهلاك بالحجارة أو العذاب الأليم.

ولله دَرُّ ابن المعتزِّ القائل:

اصبِرْ على كَيْدِ الحسو ... دِ فإنَّ صبْرَكَ قاتِلُه
كالنارِ تأكُلُ بعضَها ... إنْ لَمْ تَجِدْ ما تأكُلُه

والقائلُ أيضاً:

للهِ دَرُّ الحَسَدِ ما أَعْدَلَه ... بدأ بِصَاحِبِه فَقَتَلَه

- **الأمانان:**

وردَّ سبحانه عليهم فبيَّن أنه قادر على إهلاكهم، ولكنه ﷻ أخَّر العذاب عنهم إكراماً للنبيِّ ﷺ المقيم بينهم:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ﴾ يا أكرم الخلق.

﴿فِيهِمْۚ﴾ «فإنه لِعَيْنٍ تُجازى ألف عينٍ وتُكْرَمُ»[(١)].

وعدلت الآيةُ عن توجيه الخطاب إليهم فوجهته إلى النبيِّ ﷺ زيادة في بيان شرفه عليه الصلاة والسلام، وفضله ومكانته عند ربه ﷻ، فإقامته عليه الصلاة والسلام بينهم بركةٌ عليهم، ورحمةٌ من الله تعالى بهم.

وكان عليه الصلاة والسلام يقيمُ في أقدس البلاد، في البلد الحرام، الذي حرَّمه الله تعالى يومَ خلق السماواتِ والأرضَ، ومع ذلك فإن حلوله ﷺ في البلد الحرام زاده شرفاً وبركةً وحرمةً وتعظيماً، قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد]؛ فهو عليه الصلاة والسلام الرحمة المهداة من الله ﷻ إلى العالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبعد أن بيَّن سبحانه بركة وجوده عليه الصلاة والسلام على البلاد والعباد أتبعه ببيان ما يخلفهُ ﷺ بعدَ موته وانتقالهِ إلى الرفيق الأعلى فقال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي: لو استغفروا لم يعذَّبوا، فكأنَّ المطلوبَ من ذكر هذا الكلام استدعاءُ الاستغفار منهم[(٢)].

قال عليه الصلاة والسلام: «**أنزلَ اللهُ عليَّ أمانَيْنِ لأمتي:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ **فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفارَ إلى يومِ القيامةِ**» [رواه الترمذي (٣٠٨٢)].

- **ولاة المسجد الحرام:**

وعندما أصرَّ المشركون في مكة المكرمة على الكفر، وخرج النبيُّ ﷺ من بينهم، وهاجر إلى المدينة المنورة، عذبهم الله تعالى بتسليط النبي ﷺ وأصحابه عليهم في بدر، فقُتلَ مَنْ قُتل منهم، وأُسِرَ من أُسر، وقال جلَّ وعلا يبيِّن سبب تعذيبه إياهم:

---

(١) نظم الدرر: ٨/ ٢٧٢.

(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ١٦٣.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: كيف لا يعذِّبهم الله.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: يمنعون المؤمنين الموحِّدين عن عبادة الله وحده في المسجد الحرام، ويقولون: نحن ولاة البيت الحرام؛ نصدُّ من نشاء، وندخلُ من نشاء، فردَّ عليهم سبحانه بقوله:

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ فهم بسبب شركهم وكفرهم لا يصلحون لولاية المسجد الحرام الذي بُني لعبادة الله وحده، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من المسلمين الموحِّدين.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه لا ولاية لهم على المسجد الحرام.

ودلَّت الآية على أنَّ بعضهم يعلمون هذه الحقيقة، ويجحدونها عناداً واستكباراً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة].

ثم بيَّن تعالى حقيقةَ عبادتهم التي كانوا يؤدُّونها عند المسجد الحرام فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي: صفيراً وتصفيقاً.

والمكاءُ والتصديةُ ليستا بصلاةٍ، ولكن الله سبحانه أخبر أنهم جعلوا مكانَ الصلاة التي أُمِروا بها المكاء والتصدية[1]، ولهذا قال سبحانه لهم:

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي نزل بكم يوم بدر.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

- **التمييز بين الخبيث والطيِّب:**

ومن جرائمهم أيضاً أنهم كانوا ينفقون الأموال الكثيرةَ للصدِّ عن سبيل الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ قال ابن إسحاق: لما أصيبت قريشٌ يومَ بدرٍ، ورجع فلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بالعير، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعِكْرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجالٍ من قريش أصيبَ آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلَّموا أبا سفيان بن حرب ومَنْ كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إنَّ محمداً قد وَترَكُم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلَّنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا. ففعلوا، ففيهم أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في المُطْعِمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً؛ منهم: أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، فكان يطعِمُ كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشراً من الإبل.

وعلى كلِّ تقديرٍ فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصّاً[2].

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٣٨.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٠٣.

وقد أخبر تعالى أنهم سينفقون أموالهم للصدِّ عن سبيل الله، وأن ذلك لن ينفعهم:

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغمّاً، لأن أموالهم تذهب من غير حصول المقصود.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في آخر الأمر.

وفي الآية بشارة للنبي ﷺ وللمسلمين بالنصر على المشركين، والتمكين للإسلام في الأرض.

ثم بيَّن سبحانه عاقبة المصرِّين على الكفر يوم القيامة فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يساقون إليها لا إلى غيرها.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فبالجهاد يميِّزُ اللهُ تعالى المؤمنين عن الكافرين:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ والفاسد من الصالح، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وفي يوم القيامة يظهر عدل الله سبحانه وفضله عندما يجعل أهل الإيمان والصلاح في الجنة بفضله:

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم، ويضمّ بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا ويتزاحموا، ثم يطرحهم في جهنم.

﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ بعدله سبحانه.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أموالهم وأنفسهم.

ولا يخفى ما في الآية من تحقير للكافرين واستهانة بهم، فرغم كثرتهم

وكثرة أموالهم، فإنَّ شأنهم شأن الأشياء القذرة الحقيرة التي يجمع بعضها إلى بعض لتُرمى دفعة واحدة في جهنم.

- **الإسلام يجُبُّ ما قبلَه:**

والدعوة الإسلامية مستمرَّة لا تتوقف، فهي في الحرب والسلم، وقبل القتال وبعده وفي أثنائه، وما شُرعَ الجهادُ إلا لحماية الدعاة إلى الله تعالى، وإزالة طواغيت الكفر، الذين يقفون في طريق الدعوة، ويمنعون انتشارها بين الشعوب والأمم، وهاهي الآياتُ في سورة الأنفال تأمر النبيَّ ﷺ أن يدعو المشركين بعد انتهاء القتال في بدر إلى الإسلام:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ﴾ عن الكفر بالدخول في الإسلام.

﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: يغفر الله لهم كل ما مضى من كفرهم وفجورهم وعدوانهم.

ففي «**صحيح مسلم**» [١٢١]: أنّه لمَّا أتى عمرو بن العاص إلى النبيِّ ﷺ مُسلِماً، بسط النبيُّ عليه الصلاة والسلام يده ليبايعه، فقبضَ عمرٌو يده، فقال: «**ما لك يا عمرو؟**» قال: أردتُ أن أشترطَ، قال: «**تشترط بماذا؟**» قال: أن يُغفر لي، قال ﷺ: «**أما علمتَ يا عمرو أنَّ الإسلامَ يهدمُ ما كان قبله، وأن الهجرة تهدمُ ما كان قبلها، وأنَّ الحجَّ يهدِمُ ما كان قبله**».

وقال ﷺ: «**الإسلام يَجُبُّ ما قبلَهُ**» [رواه ابن سعد في الطبقات (٦/ ١٣١)].

فبابُ الدخول في الإسلام مفتوحٌ دائماً، والدعوةُ الإسلاميةُ مستمرة لا تتوقف، ودلَّ الحديث على أنَّ الله تعالى يغفِرُ كلَّ الذنوب للكافر المحارب للمسلمين إذا جاء مسلماً مستسلماً.

وبعد أن رغَّبهم الله تعالى بالتوبة والتجاوز عن كل جرائمهم ومعاصيهم، هددهم سبحانه وتوعَّدهم إذا عادوا إلى العناد والفساد، فقال:

﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في إهلاك أعدائه سبحانه ونصر أوليائه.

- **الاستمرار في الجهاد:**

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين تحضُّهم على الثبات في الجهاد، والاستمرار فيه، فالطريق طويل، والمعوقات كثيرة، والعقبات كبيرة، والجهاد ماضٍ ما دام للكفر في الأرض شوكة ومنعة:

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: قاتلوا الكفار حتى لا تبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم.

وهذا ما فهمه الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من الآية الكريمة، فمن المعلوم أنَّه اعتزل الخلاف الذي حدث بعد مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما جاءه رجل وقال له: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال رضي الله عنه: قد فعلنا على عهدِ رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجلُ يُفْتَنُ في دينه، إما أن يقتلوه، وإما يوثقوه، حتى كَثُرَ الإسلامُ فلم تكنْ فتنةٌ. [رواه البخاري (٤٦٥٠ و٤٦٥١)].

فهذا هو المرادُ من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزولَ هذه الفتنة(١).

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: ويكون الخضوع والاستسلام لأحكام

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ١٦٩.

الله تعالى، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكم الإسلام والعيش بين المسلمين في ظلِّ سماحة الإسلام وعدله.

فالله سبحانه لم يشرعِ الجهادَ ويأمرْ بالقتالِ لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وهو سبحانه القائل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولا تقوم العقيدة بالإكراه، فالعقيدة لا تقوم إلا بالاقتناع والفهم، وإنَّما شُرِعَ الجهادُ لحماية الإسلام والمسلمين، ولتأمين نشره بين الناس، وإزالة العوائق التي تمنع انتشار الإسلام، وتَحُول دون تبليغه للناس.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن قتالكم، والصدِّ عن سبيل الله، فكفُّوا عن قتالهم، فهو كقوله سبحانه الآتي: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام وعن الخضوع لأحكامه.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ يتولَّى أموركم، ويؤيِّدكم وينصركم إن أطعتموه وتمسَّكتم بسُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو سبحانه:

﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

ففي الآية حضٌّ على الاستمرار في الجهاد، والثبات عليه مع الثقة بنصر الله تعالى وتأييده.

- **الغنيمة والفيء:**

وعليكم أن تعلموا أيضاً كيفية قسمة الغنائم التي أحلَّها سبحانه لكم، كيلا يقع بينكم اختلاف حولها:

﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ من **الغنائم**، وهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالقوة والغلبة، بيَّن الله تعالى في هذه الآية كيفية قسمتها.

وأما **الفيء**، وهو ما يسَّر الله تعالى للمسلمين من أموال الكافرين من غير قتال وقهر، كأموال بني النضير التي نزلوا عنها بسبب الخوف والرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوبهم، فقد بيَّنه سبحانه في قوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر].

فالغنيمة تخمَّسُ، توزع أربعةُ أخماسٍ منها على المجاهدين الغانمين، ويوزَّعُ الخمسُ الباقي منها على المصارف الخمسة المذكورة في آية الحشر السابق ذكرها، وفي قوله تعالى هنا:

﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وذِكْرُ الله تعالى في أول المصارف الخمسة للتعظيم، فسهم للرسول ﷺ في حياته، ويصرف بعده في مصالح المسلمين، أو يرد على المصارف الأربعة الأخرى، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا نورث ما تركناه صدقة**» [رواه مسلم (١٧٥٧)].

وسهم لذي القربى، وهم قرابته ﷺ من بني هاشم وبني المطلب بسبب نصرتهم للنبي ﷺ، والأسهم الثلاثة الباقية تُعْطَى لليتامى والمساكين وأبناء السبيل المنقطعين في الطريق، أي: تعطى للضعفاء في المجتمع إقامةً للتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع المسلم، وقد يكونُ النصرُ الذي تحقق ببركة دعائهم، قال رسول الله ﷺ: «**ابغوني الضعفاءَ، فإنَّما تُرْزَقُونَ وتُنْصَرُونَ**

**بضعفائِكُمْ**» [رواه أحمد (٢١٦٢٨) وأبو داود (٢٥٩٤) والترمذي (١٧٠٢) والنسائي (٣١٧٩)].

وفي رواية: «**هل تُنْصَرُون وترزقونَ إلَّا بضعفائكم؟!**» [روا البخاري (٢٨٩٦)].

- **يوم الفرقان:**

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: اعملوا بهذه القسمة وارضوا بها، إن كنتم آمنتم بالله تعالى.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من الآيات والمبشِّرات والملائكة والنصر، وما أنزل الله تعالى كلَّ ذلك في يوم بدر إلا تكريماً للنبي ﷺ، فهو المقصود بكل ما أنزله الله تعالى في هذا اليوم، ولهذا أفرده تعالى بالذكر، ونسبه إلى ذاته المقدَّسة بصفة العبودية تشريفاً له ﷺ وتكريماً.

﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يومَ معركة بدر الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل.

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بإرادته سبحانه وتقديره دون موعد سابق بينهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثمَّ بيّنَ سبحانه كيفَ جمع بقدرته ومشيئته بين الفريقين لكي يقع الفرقان فقال:

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِذْ أَنتُم﴾ نازلون.

﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بشاطئ الوادي القريب من المدينة المنورة.

﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ والمشركون نازلون بشاطئ الوادي الآخر البعيد عن المدينة المنوّرة.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْۚ﴾ والقافلة على الطريق السفلي القريب من ساحل البحر على بعد ثلاثة أميال منكم.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم والمشركون على اللقاء في بدر.

﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ بسبب بُعْدِ المكان عن مكة المكرمة وقربه من المدينة المنورة، وأيضاً بسبب قلَّة المسلمين وكثرة المشركين.

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ولكنَّه سبحانه بقدرته ومشيئته قدَّر ذلك وقضاه، حتى وصل الجمعان إلى بدر في يوم واحد، ومن غير ميعاد سابق، ليقعَ ما أراد الله وقوعه في يوم الفرقان، فهو سبحانه الفعَّال لما يريد، وقضاؤه كائن لا محالةَ، وقد قضى جلَّ وعلا بإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

وبذلك قامت الحجَّةُ على المعاندين وظهرت:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليستمرَّ في الكفر من استمرَّ في الكفر على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجَّة عليه.

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ ويؤمن من آمن عن حجَّة وبصيرة، فالإيمان حياة القلوب كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وإلى هذا المعنى ذهبت السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها في حديث الإفك: فهلكَ فيَّ مَنْ هلكَ. [رواه البخاري (٢٦٦١ و٤٧٥٠)].

وقد مرَّ معنا أن يوم بدر كان حقّاً فرقاناً بين الحق والباطل.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ودعائكم.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم وأحوالهم.

ثم كشفت الآيات الكريمة عن بعض التدبيرات الإلٰهية الخفية التي مهدت للقتال وما أعقبه من النصر:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ فقد رأى النبيُّ ﷺ المشركين جمعاً قليلاً، بمشيئته تعالى وقدرته، وأخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه بذلك، ممَّا جرَّأهم على القتال وشجعهم عليه.

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لضعفتم وهِبتُم المشركين، وحدث بينكم اختلاف في أمر قتالهم، وهذا يدلُّ على أنَّ إظهار القوة للعدو له تأثير على معنويات العدو وإحراز النصر.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: ولكنه سبحانه بلطفه ورحمته سلَّمكم من ذلك.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عليم بكل ما يخفى في الصدور من شجاعة وجبن وجرأة وخوف.

وعندما وقف الجمعان أمام بعضهما في ساحة القتال، هيَّأ الله تعالى أيضاً الأسباب المعنوية التي تشجِّعهما على الاقتتال والالتحام، فهو ﷻ خالقٌ للأسباب والمسببات:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ لتتجرَّؤوا على قتالهم، وتطمعوا في النصر عليهم، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد قُللوا في أعيننا يوم

بدر حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: بل هم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه؛ فقال: كنا ألفاً. [رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير في تفسيرهما](١).

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إنَّ أصحابَ محمد أكلةُ جزورٍ، أي: لا يتجاوزون المئة، وهكذا أغرى الله تعالى كلًّا من الجمعين بالآخر.

﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: كان مقدراً في الأزل، فلا بدَّ من وقوعه كما تعلقت به إرادته جلَّ وعلا.

وكرَّره في الآيتين إبرازاً لأهميته، فالتقدير بمشيئته سبحانه أزلاً وأبداً، لا بمشيئة غيره، وكما بدأت الأمور بمشيئته تعالى تنتهي أيضاً بمشيئته سبحانه:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فالبدايةُ والنهايةُ منه وإليه جلَّ وعلا.

وتقليل المسلمين في أعين المشركين كان قبل القتال، ثُمَّ بعد أن بدأ القتال والتحم الجمعان قلَّل الله المشركين في أعين المؤمنين تثبيتاً لهم، ورفعاً لمعنوياتهم، وكثَّر المؤمنين في أعين المشركين، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

فلا تعارض بين الآيات، فكلُّ آية تصفُ حالة من حالات يوم بدر وطوراً من أطواره.

❁ ❁ ❁

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره: ٢/ ١١٠.

## الفَصْلُ الثَّالِثُ

# التَّحْذِيرُ مِنْ أَسْبَابِ الهَزِيمَةِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

- **التنازع والاختلاف:**

بعد أن بيَّنت الآياتُ أسباب النصر المباشرة وغيرِ المباشرة، اتجهت اتجاهاً جديداً يغلبُ عليه أسلوبُ التحذير من أسباب الهزيمة، واستهلَّتْ حديثها بتذكير المسلمين بواجبهم الأساس الأول عند لقاء العدو في ميدان القتال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ لقتالهم، ولاتفرُّوا، فالفرارُ كبيرةٌ من كبائر الذنوب، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال].

ثم أمرتهم بالإكثار من ذكر الله تعالى في أثناء القتال:

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ولا تغفلوا عنه سبحانه ولو في أشدِّ الأحوال وأخطرها، فإنَّ ذكر الله تعالى في مثل هذه الأحوال استمداد لمعونته وتأييده، واستنزال لنصره، ففي الحديث القدسي: «**أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حيثُ يذكرني**» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

ويؤيده قول الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ويدلُّ ذكره سبحانه في مثل هذه الأحوال العصيبة على شدَّة محبته تعالى.

ومرَّ معنا عند قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآثار الطيِّبة للذكر، وذِكْرُهُ سبحانه يستدعي طاعته:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالتزام ما شرعه سبحانه في الجهاد، وهذا الالتزام أهم أسباب النصر كما مرَّ معنا في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ثم حذَّرت الآية الكريمة المسلمين من أكبر أسباب الفشل والهزيمة بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ فإنَّ الاختلافَ يؤدي إلى الفشل والضعف.

﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تتلاشى قوّتكم، وتضيع جهودكم، فعاقبةُ الاختلاف والتنازعِ مُرَّةٌ ووخيمةٌ.

﴿وَاصْبِرُوٓاْ﴾ على مكاره القتال وشدائده ومخاطره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يؤيدهم ويقوّيهم وينصرهم.

• **التحذير من التكبر والطغيان:**

ثم حذرتهم الآيات أيضاً من التشبه بأعدائهم في تكبرهم وطغيانهم وفخرهم وإعجابهم بأنفسهم، واغترارهم بقوتهم، فإنَّ ذلك من أسباب الفشل والهزيمة:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾ وهم النفير جيش المشركين، وعلى رأسهم أبو جهل عمرو بن هشام، الذين خرجوا من مكة لحماية القافلة، كما مرَّ معنا، ولمَّا علموا بنجاة القافلة أصروا على الذهاب إلى بدر.

﴿بَطَرًا﴾ أي: طغياناً وتكبراً وفخراً، فبدل أن يشكروا الله تعالى على نجاة أموالهم، ويعودوا إلى مكة، توجَّهوا إلى بدرٍ، وقال قائلهم ـ وهو أبو جهل ـ: واللهِ لا نرجعُ حتى نردَ بدراً، فنقيمَ عليها ثلاثاً، فننحرَ الجُزُرَ، ونطعمَ الطعامَ، ونُسقى الخمرَ... كما مرَّ معنا.

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ومن أجل أن يراهم الناس، فالقوم يريدون الافتخار بقوتهم وأموالهم أمام الناس، كأنهم يرون لأنفسهم فضلاً على الناس بما لديهم من قوة وأموال.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وليمنعوا الناس من الدخول في دين الله تعالى، ويعوقوا انتشاره بينهم.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وفيه وعيد شديد لهم ولكل من يتشبَّه بهم، فهو سبحانه عليم بجميع أحوالهم وأعمالهم ونيَّاتهم، وهم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، ولهذا سقاهم في بدر كؤوس المنايا بدل الخمور، وأقام عليهم النوائح بدل القيان.

• **التحذير من وساوس الشيطان ومكره:**

ثم كشفت الآياتُ للمؤمنين على سبيل التحذير لهم دَوْرَ الشيطان في توريط المشركين، وتزيينه لهم القدوم إلى بدر، ثم كيف تخلَّى عنهم وخذلهم، عندما جَدَّ الجد وبدأ القتالُ والصدامُ بين الفريقين:

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: حبَّبَ إلى المشركين أعمالهم الفاسدة، كالتكبر والطغيان، وحبِّ الرياء والسمعة، والصدِّ عن سبيل الله تعالى.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ أي: ألقى في صدورهم، وخيَّل لهم أنهم لا يُغلبون، بسبب قوَّتهم وكثرة عددهم وعُدَدهم، وأوهمهم أنه مجير لهم، فالقولُ مجازٌ عن الوسوسة(١).

ويمكن أن يكون الشيطانُ قد قال ذلك لهم حقيقةً، كما فعل عندما تآمروا على قتل النبيِّ ﷺ قبلَ الهجرةِ، وقد مرَّ معنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

ويؤيِّد هذا المعنى قولُ ابن عباس رضي الله عنهما: لمَّا كان يومُ بدرٍ سار إبليسُ برايته

---

(١) انظر: روح المعاني: ٤/ ١٥.

وجنودهِ مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أنَّ أحداً لن يغلبكم، وإنِّي جارٌ لكم[(١)].

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ فلمَّا التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة.

﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع مدبراً.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ وتلك عادةُ عدوِّ الله لمن أطاعه وانقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم شرَّ مَسْلَم، وتبرَّأ منهم عند ذلك[(٢)]؛ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: إني أرى الملائكة الذين لا ترونهم.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ما رُئيَ الشيطانُ في يومٍ أقلَّ ولا أحقرَ ولا أصغرَ منه في يومِ عرفةَ؛ لِمَا يرى من نزولِ الرحمةِ إلا ما رأى يوم بدرٍ**» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «**رأى الملائكة يزَعُها جبريلُ**» [رواه مالك في الموطأ (١/ ٤٢٢)].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وكذب عدو الله، والله ما به مخافة، ولكن عَلِمَ ألا قوة له ولا منعة.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

- **التحذير من المنافقين وإشاعاتهم الكاذبة:**

وللإشاعات الكاذبة دور كبير في بثِّ روح التخاذل والهزيمة في نفوس المقاتلين، وما أكثرَ ما أدَّت إلى تحويل الانتصارات إلى هزائم! ولهذا تحرصُ الدول قديماً وحديثاً على إذاعة الإشاعات الكاذبة في المجتمعات المعادية، وتسخِّرُ لِبَثِّها مختلف وسائل الإعلام، وتحشد لأجل ذلك كل ما لديها من

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١١١.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

إمكانات، وترسم من أجلها الخطط والبرامج، حتى أطلقوا عليها في العصور المتأخرة: الحرب الباردة، أو حرب الدعايات، أو الحرب النفسية.

وأكثر الإشاعات خطورةً تلك التي تصدر من داخل المجتمع، من أولئك الذين يُخفون في نفوسهم ولاءهم للعدو، وهم الذين يُسَمَّون في العصر الحاضر: (الطابور الخامس)، وقد سماهم الله تعالى: المنافقين، وحذَّر من مكرهم وكيدهم وافترائهم في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى هنا:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهو ما يخفون في قلوبهم من الكفر وموالاة أعداء المسلمين؛ قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ﴾ أي: غرَّ المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى بدر دينهم، فهم نفر قليلون، يقاتلون أضعافهم، فقد خدعهم دينهم، لأنه حملهم على تعريض أنفسهم لخطرٍ لا قِبَلَ لهم به.

بمثل هذه الإشاعات عمل المنافقون على توهين عزائم المؤمنين، وإضعافِ معنوياتهم، وتخويفهم من قوة عدوهم.

وقد تكرر منهم مثل هذه الأقوال في أكثر المعارك والغزوات، ففي غزوة الأحزاب حكى الله تعالى عنهم قولهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وبيَّن سبحانه كيف نواجه إشاعات المنافقين وافتراءاتهم، وذلك بكتمانها، وعدم إشاعتها بين الناس أولاً، ثم بتبليغها إلى أولياء الأمور في المجتمع ليبينوا حقيقتها، ويكشفوا زيفها وخداعها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ

ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وإنّ ثقة المؤمنين بنصر الله تعالى وتوكلهم عليه يحميهم من التأثر بإشاعات المنافقين والمرجفين، ولهذا ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد استأجر أبو سفيان ـ عندما كان زعيماً للمشركين ـ بعضَ الرجال لكي يندسُّوا بين صفوف المسلمين في المدينة المنورة، وينشروا فيهم الإشاعات الكاذبة، ففشلوا، ولم يتأثر الصحابة ﷺ بافتراءاتهم بسبب قوة إيمانهم، وتوكلهم على ربهم، وأنزل الله تعالى يثني عليهم، ويشهد لهم بصدق الإيمان وحسن التوكل قوله الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران][1].

- **في غمرات الموت:**

وأخذت الآياتُ بعد ذلك تتوعَّدُ المنافقين والكافرين بسوء العاقبة والمصير عند الموت وبعده، وقد اتبعت أسلوبَ التهديد غير المباشر، فوجهت الخطابَ للنبيِّ ﷺ، أو لكل من يصلح لتوجيه الخطاب إليه، فجاء هذا الأسلوبُ متناسباً ومنسجماً مع الأساليب الملتوية التي يسير عليها المنافقون:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: لو رأيتَ الملائكة وهم يقبضون أرواح الكفار عند موتهم، لرأيت أمراً عظيماً مخيفاً مرعباً.

---

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران في تفسيرنا الموضوعي هذا، الذي جاء تحت عنوان: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ والملائكة يضربون الكفار على وجوههم وظهورهم، ويقولون لهم:

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ فما تلقونه الآن قليل من كثير، ومقدمة لعذاب أشد ألماً وأعظم حسرة، وهو الاحتراقُ في نار جهنم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والهون.

﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: بسبب كفركم وفجوركم ومعاصيكم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فلا يكون منه سبحانه ظلمٌ، ولا يُنْسَبُ إليه ظلم البتة، ولفظة ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾ ليست للمبالغة، إنَّما هي كبزَّاز وعطَّار وجزَّار[١].

وتدل الآية على أنَّ للإنسان كسباً واختياراً فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال، وهذا الكسب والاختيار مناط مسؤوليته أمام الله تعالى القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤][٢].

- **من تاريخ الطغاة والمكذبين:**

ثم ضرب الله تعالى مثلاً من تاريخ الطغاة والمكذبين تأكيداً لعدله وحكمته جلَّ وعلا، فقال:

---

(١) انظر: تنوير الأذهان: ٢/ ٣٠.

(٢) انظر لتوضيح هذا المعنى: تفسير سورة يونس، الذي جاء في تفسيرنا الموضوعي هذا تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: عادة هؤلاء المعاندين من كفار قريش في مكة المكرمة، ومن المنافقين في المدينة المنورة، كعادة آل فرعون، وفرعونُ كان ولا يزالُ أقبحَ مثالٍ للظلم والطغيان والتجبر.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الكافرة والمكذبة.

﴿كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كما فعل المشركون والمنافقون.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: فأهلكهم الله وعذبهم بسبب ذنوبهم، فلم يظلمهم سبحانه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُغلب، ولا يُدْفَعُ عقابُه عمن أراد معاقبته.

- **أسباب زوال النِّعم:**

ثم بيَّن سبحانه سنَّة من سننه في خلقه جلَّ وعلا، وتدلُّ على تمام عدله وكمال حكمته، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فلا يزيلُ الله تعالى نعمة أنعم بها على قوم من الأقوام حتى ينتقلوا من الحالِ التي كانوا عليها عند النعمة إلى حال أسوأ وأقبح مما كانوا عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

فأسباب زوال النعم ونزولِ العذاب والنقم نابعةٌ من سلوك الناس وأعمالهم، والله سبحانه ما خلقهم ليعذبهم، وإنَّما خلقهم ليرحمهم، ويمنَّ

عليهم برحمته وإحسانه، ويسعدهم بطاعته وعبادته، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ومن كماله جلَّ وعلا اتصافه بالرحمة والإحسان، وبالغضب والانتقام، ولكنَّ رحمته سبحانه سبقتْ غضبه.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**لمَّا خلقَ الله الخلقَ كتبَ في كتابِهِ، فهو عنده فوقَ العرشِ: إنَّ رحمتي تغلبُ غضبي**» وفي رواية: «**سبقتْ رحمتي غضبي**» [رواه البخاري (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١)].

ومعنى سبق الرحمة وغلبتها: أنها أقدمُ تعلُّقاً بالخلق، وأكثرُ وصولاً إليهم[1].

ولهذا كانت قريشٌ قبل الإسلام تنعم بالأمن والرخاء، ولما بعث الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، كذَّبوه وعاندوا دعوته، فغيَّر الله تعالى حالهم، ونزع عنهم نعمة الأمن والرخاء، وسلط عليهم النبيَّ ﷺ وأصحابه، فبارت تجارتهم، وفقدوا كثيراً من أموالهم وأنفسهم، حتى فتح الله تعالى مكة المكرمة للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ويعلم جميع أقوالهم وأعمالهم.

تلك هي سنَّته تعالى الجارية في خلقه، فالذي لا يعرف قدر النعمة ولا يشكر المنعم، تُسلبُ النعمةُ منه وتنزعُ عنه، وشأن مشركي مكة فيما نزل بهم كشأن فرعون وقومه والأمم المكذبة قبلهم:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أيَّدَ الله تعالى بها الرسل الذين أرسلوا إليهم.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ١١٥. وانظر: تفسير سورة الأنعام في تفسيرنا الموضوعي هذا الذي جاء تحت عنوان: (بصائر الحق في سورة الأنعام).

﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم.

وبيَّن سبحانه كيفية إهلاك فرعون وقومه على وجه الخصوص، لكثرة ما كانوا فيه من النعم، وشدَّة معاندتهم وتكبرهم:

﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ أي: وكل من المكذبين السابقين كفرعون وقومه، ومن المكذبين اللاحقين كمشركي قريش، كانوا ظالمين لأنفسهم، بسبب إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم.

ولايخفى أن تكرار ذكر فرعون وقومه جاء لمعنى آخر لم يكن في المعنى الأول، إذ **الأولُ**: لبيانِ أنَّه تعالى أهلكهم لمَّا كفروا، **والثاني**: لبيانِ أنه تعالى لم ينزعْ نعمته عنهم ويغيِّر حالهم حتى غيروا ما بأنفسهم، وكذَّبوا أنبياءَهم.

- **التحذير من الغدر ونقض العهد:**

الإسلام دين السلم والسلام، أنزله الله تعالى لرعاية مصالح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، والجهادُ في الإسلام ليس غايةً في حدِّ ذاته، إنما هو وسيلةٌ لعزَّةِ المسلمين وأمنهم، وتأمين انتشار دعوتهم، ولهذا شرع الله تعالى إلى جانب شريعة الجهاد والقتال قيام العهود والمواثيق بين المجتمع الإسلامي وبين المجتمعات البشرية الأخرى، وأعطى وليَّ أمر المسلمين الحق الشرعي في عقد المعاهدات والمواثيق الدولية إذا ما رأى فيها مصلحةً للمسلمين، وأمر سبحانه برعاية هذه المعاهدات والوفاء بها، ما دامت الأطراف الثانية ترعاها وتحفظها، كما حذَّر سبحانه في الوقت نفسه المسلمين من الغفلة عن عدوهم، والاعتماد على عهودهم ومواثيقهم معه.

فالكفر لا يأتي بخير أبداً، والكفار أكثر الخلق شرّاً وضرّاً، قرر سبحانه هذا المعنى محذراً من غدرهم وشرهم فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فما داموا مصرين على الكفر، بعيدينَ عن الإيمان، فهم شرُّ مَنْ يدبُّ على الأرض، فالكفر أصل كل شرٍّ، والإيمان أصل كلِّ خير.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦﴾.

أي: الذين كلَّما عاهدوا عهداً نقضوه، لأنهم لا يتقون الله تعالى ولا يخشونه، فهم كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

ثم بيَّن سبحانه كيفية التعامل معهم في حال نقضهم العهد، فقال:

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾.

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ أي: فإذا ما ظفرتَ بهم في ميدان القتال وتمكَّنتَ منهم.

﴿فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ فاغلظ عليهم في القتال، وشدِّد عليهم، واضربهم ضربةً تؤدب بها غيرهم ممن يريدون نقض العهد والغدر.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلَّ ذلك يكونُ موعظةً لهم يتعظون بها، وينزجرون عن نقض العهد والغدر.

• **الخدعة في الحرب لا في العهد:**

هكذا ينبغي أن يُعامل الناقضون للعهد، وأما الذين يريدون الغدر ونقض العهد، فالأمر معهم يختلف:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ﴾ أي: غدراً ونقضاً للعهد، بعلامات وأمارات تلوح منهم.

وهذا يدلُّ على وجوب الحذر منهم، ومراقبة تحركاتهم، وعلى ولي أمر المسلمين أن يرصدَ المجتمعات الكافرة، وأن يطَّلع على كل أحوالهم، ولو كان مرتبطاً معهم بعهود ومواثيق، لكي لا يُفاجأ بغدرهم ومكرهم.

﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ أي: أعلمهم أنك نقضتَ العهد الذي بينك وبينهم.

فالإسلامُ يحرِّمُ الغدر، لأنه دين الصدق والوفاء، والمسلمون مكلَّفون بتعاليم الإسلام وأخلاقه ومُثُلِه في السلم والحرب، ومع الصديق والعدو، وهذه الحقيقة هي التي تجذبُ الناس إلى الدخول في الإسلام وترغبهم فيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ الناقضين للعهد والغادرين مهما كانوا ولو كانوا من المسلمين.

ذكر ابن كثير في تفسيره: أنَّ **معاوية** رضي الله عنه كان يسيرُ في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمدُ غزاهم، فإذا شيخٌ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاءٌ ولا غدرٌ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كانَ بينه وبينَ قومٍ عهدٌ، فلا يَحُلَّنَّ عقدةً ولا يشدَّها، حتى ينقضيَ أمدُها، أو ينبذَ إليهم على سواء**» فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عَبَسة رضي الله عنه.
[رواه أحمد (٤/ ١١١) وأبو داود (٢٧٥٩) والترمذي (١٥٨٠) وقال: حديث حسن صحيح].

**وقد يقول قائل:** ألم يقل النبيُّ ﷺ: «**الحَرْبُ خَدْعَةٌ**» [رواه البخاري (٣٠٣٠)] والانتصار على العدو يقتضي الاحتيال عليه؟.

**فأقول:** مخادعةُ العدوِّ والاحتيالُ عليه تتعارض مع معاهدته ومهادنته، **والخدعةُ في الحرب**، كما قال رسول الله ﷺ، لا في العهد، فما دام العهد قائماً فالواجبُ الوفاءُ به.

إنَّ الإسلام يعاهدُ ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره، نبذ العهد القائم جهرةً وعلانيةً، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفضَ يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان، وبذلك يرتفعُ الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إنَّهُ لا يبيِّتُ الآخرين بالهجوم الغادر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروِّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم، فأما بعدَ نبذ العهد فالحرب خدْعةٌ، وكل وسائل الخدعةِ حينئذٍ مباحةٌ لأنها ليست غادرة.

إنَّ الإسلامَ يريدُ للبشرية أن ترتفعَ، ويريدُ للبشرية أن تعفَّ، فلا يبيحُ الغدرَ في سبيل الغلب، وهو يكافحُ لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمحُ للغاية الشريفة أن تستخدمَ الوسيلة الخسيسة[1].

ولا يعني إعلامُ العدو بنقض العهد ونبذه عدم الحرص على مفاجأته بالهجوم؛ فهذا أمرٌ وذاك أمر آخر، فمفاجأة العدو بالهجوم، وإنزال الضربة الأولى به أمرٌ مشروعٌ في الإسلام، سنَّه رسول الله ﷺ، وكان حريصاً على تحقيقه في أكثر غزواته، فكان إذا أراد غزوة أخفى الجهة التي يقصدها، وإذا ما سُئل عنها ورَّى بغيرها ـ أي: أوهم أنه يريد غيرها ـ، لكي يفاجئ العدو، ويغزوهم وهم غارّون غافلون.

فقد ذكر الإمام النووي في تبويبه لصحيح مسلم في أول كتاب الجهاد فقال: باب جوازُ الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدُّم الإعلام بالإغارة.

ثم ذكر مسلم [١٧٣٠] حديث ابن عون قال: كتبتُ إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال؟ قال: فكتبَ إليَّ: إنّما كان ذلك في أولِ الإسلام. قد أغارَ رسولُ اللهِ ﷺ على بني المُصْطَلِقِ وهم غارون... إلى أن قال: وحدَّثني هذا الحديثَ **عبدُ الله بن عمر**، وكان في ذلك الجيش.

وقد شنَّع أحدُ الكتَّاب المعاصرين على نافع وخطَّأه، لأنه رأى نافعاً قَصَرَ أمر الدعوة قبلَ القتال على أوَّلِ الإسلام، مع أنَّ نافعاً ما قصدَ إلى هذا المعنى، ما قصدَ إلا بيانَ جوازِ الإغارةِ على الكفارِ الذين بلغتهم الدعوة.

وعن **كعب بن مالك** رضي الله عنه قال: لم يكن رسولُ اللهِ ﷺ يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها. [رواه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٢٧٦٩)].

وإن الله تعالى لبالمرصاد لكلٍّ من يحاولون استغلال هذا المبدأ الإسلامي الرفيع، ويحاولون المكر والخديعة، ولهذا قال تعالى يتوعَّدهم ويتهدَّدهم:

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٥٤٢.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا ونجوا منَّا، فلا نقدرُ عليهم.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ إنهم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، فمهما حاولوا الإفلاتَ بالهرب والفرار فهم في قبضةِ قدرته سبحانه، وهو قادر على أن ينزل بهم عذابه في أي مكان وزمان، فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

- **إعداد قوة الرمي والهجوم:**

التفتت الآياتُ بعد ذلك إلى المؤمنين تأمرهم بإعداد كلِّ ما يستطيعون إعداده من أسباب القوَّة، القوَّة التي تجعل عدوهم يهابهم، ويخشى جانبهم، ويحافظُ على عهوده ومواثيقه معهم، قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝﴾.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ وبيَّن رسول الله ﷺ أن القوة التي تأمر الآيةُ بإعدادها، هي القوة العسكرية التي يمكن أن يوجَّه بها أقصى الضربات للعدو، والتي تنزِلُ به أفدحَ الخسائر.

ففي الحديث الشريف: عن **عقبة بن عامر** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو على المنْبَرِ يقول: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ **ألا إنَّ القوةَ الرَّميُ، ألا إنَّ القوةَ الرَّميُ، ألا إنَّ القوَّة الرَّمْيُ**» [رواه مسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤)].

فقوة الجيش المادية في قوة رماياته التي يرمي بها العدو، وفي قوة نباله ونيرانه وقذائفه وصواريخه، وفي قوة الطاقة المدمرة التي يستطيع توجيهها إلى العدو.

وتدلُّ الآية على أنَّه يجب على المسلمين أن يحصِّلوا كلَّ أسباب القوة خاصةً قوة الرمي في أثناء القتال.

وقوة الرمي وحدها لا تكفي لإحراز النصر، فلا بدَّ بعدَ رمي العدو وتدميره من استثمار ذلك، بالمبادرة إلى احتلال مواقعه، واستئصال ما تبقَّى من قوته، والقضاء على مقاومته، وذلك بشنِّ الهجوم عليه.

وهذا يتطلبُ إعدادَ القوة المهاجِمة، قوة الهجوم والانقضاض على العدو لاحتلال مواقعه وأرضه، ولمَّا كانت الخيلُ أسرع وسائل الهجوم والكرِّ والفرِّ في ميادين القتال، خصها سبحانه بالذكر في آية إعداد القوة، فقال:

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أي: وأعدوا ما تستطيعون من الخيل المربوطة المجهزة للهجوم والانقضاض على العدو بعد إثخانه وتدميره بقوة الرمي.

فكأنَّ الآيةَ الكريمة ترسم مبدأ عسكريّاً هامّاً مقرَّراً عند كبار القادة العسكريين؛ وهو إضعاف العدو بقوة الرمي أولاً، ثم الهجوم عليه ثانياً للقضاء عليه.

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على إعداد الخيل والفروسية للجهاد عليها في سبيل الله في أحاديث كثيرة، منها:

عن **عروة بن الجعد** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة**» [رواه البخاري (٢٨٥٠)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخيلُ ثلاثةٌ، فهي لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، ولرجل وِزْرٌ: فأمَّا التي هِيَ أجرٌ، فالرَّجُلُ يتَّخذها في سبيلِ اللهِ، ويعدُّها له، فلا تُغَيِّبُ شيئاً في بطونها إلَّا كتبَ الله له أجراً، ولو رعاها في مرجٍ، ما أكلتْ من شيءٍ إلا كتبَ اللهُ له أجراً، ولو سقاها مِنْ نهرٍ، كان له بكلِّ قطرةٍ تغيِّبُها في بطونها أجرٌ ـ حتى ذكرَ الأجر في أبوالها وأرواثها ـ، ولو استنت شرفاً أو شرفين كُتبَ له بكلِّ خطوة تخطوها أجرٌ. وأما الذي هي له سِترٌ، فالرجلُ يتَّخذُها تكرُّماً وتجمُّلاً، ولا يَنْسَى حقَّ ظهورها وبطونها في عُسْرِها ويُسْرِها، وأما الذي عليه وِزْرٌ، فالذي يتخذُها أشَراً وبطراً وبَذَخاً ورياءَ الناس فذاك الذي عليه وزر**» [رواه البخاري (١٤٠٢) ومسلم (٩٨٧)].

وقوله: «**شرفاً أو شرفين**»: أي قطعتْ مرتفعاً أو مرتفعين من الأرض.

كما كان النبيُّ ﷺ يحثُّ أصحابه على إتقان الرماية والفروسية والتدرُّب عليهما، ويشتركُ معهم في ذلك، فعن **سلمة بن الأكوع** رضي الله عنه قال: خرجَ رسولُ الله ﷺ على نفرٍ من أسلم ينتضلون بالسوق، فقال: «**ارموا بني إسماعيلَ، فإنَّ أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان**» فأمسك أحدُ الفريقينِ بأيديهم، فقال: «**ما لكم لا ترمون؟!**» فقالوا: كيف نرمي وأنتَ معهم؟ فقال: «**ارموا وأنا معكم كلُّكم**» [رواه البخاري (٢٨٩)].

وقوله: (**ينتضلون**) أي: يتدرَّبون على إصابة الهدف.

وعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: أجرى رسولُ اللهِ ﷺ ما ضُمِّرَ من الخيل من الحفياءِ إلى ثنيةِ الوداع، وما لم يُضمَّرْ من الثنيَّةِ إلى مَسْجدِ بني زُريق. [رواه البخاري (٤٢٠) ومسلم (١٨٧٠)].

وقد عوَّدنا سبحانه في كتابه أن يخاطب الناس بما يعقلون في عصر التنزيل، ولهذا لم يذكر سبحانه وسائل القتال والهجوم الحديثة التي اهتدى الإنسان إليها كالدبابات والطائرات والمدمرات وغيرها، فقد جاء ذِكرُ الخيل مثالاً لإعداد ما يمكن أن يكون سبباً للقوةِ ووسيلة للنصر، ولقد أصبحت الناقلاتُ الحديثةُ للجنود في الجو والبحر والبر من أهم أسباب النصر في العصر الحاضر، ويجب على المسلمين أن يعدُّوها بأيديهم، وألا يكونوا عالةً بها على غيرهم، فإن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ يدل على ذلك، وقد أثبتت شواهد العصر الحاضر **أنَّ الأمة التي تصنع سلاحها بأيديها هي الأمة القوية العزيزة**.

ويتطلَّبُ إعداد القوة علماً وعملاً ودرايةً وخبرةً، ويجب على المسلمين أن يكونوا سبَّاقين في كلِّ هذه الميادين، وإلا كانوا جميعاً آثمين لتقصيرهم فيما أوجب سبحانه عليهم في هذه الآية.

- **القوة الاقتصادية:**

ثم بيَّن تعالى ما يترتب على إعداد القوة من عزةٍ ومنعةٍ، ورهبةِ العدو وخوفه واحترامه للعهود والمواثيق، فقال:

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ولا شكَّ أنَّ عدو الله هو عدو المسلمين، وكذلك عدو المسلمين هو عدو الله تعالى.

فالمسلمون يوالون أولياء الله تعالى، ويعادون أعداءه، وكرَّر صفة العداوة لله والمسلمين تقبيحاً لحال الكفار، وبياناً لشدة عنادهم وإعراضهم، وهم المشركون في مكة ومن وقف بجانبهم من قبائل العرب.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي: وترهبون أعداءً آخرين لا تعلمونهم، إمَّا لكونهم يخفون عداوتهم لكم كالمنافقين، أو لكونهم بعيدين عنكم، وبهذا المعنى تنسحبُ الآيةُ على جميع الكفار في شتَّى بقاع الأرض.

وقوله سبحانه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بسبب كثرتهم وبُعدهم يؤكد المعنى الثاني.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم بغضهم للإسلام والمسلمين وكيدهم بهم.

ويتطلَّب إعداد القوة العسكرية في العصر الحاضر قوة اقتصادية يمكنها أن تتحملَ النفقات الباهظة لإعداد الأسلحة الكثيرة المعقدة، وتدريب الجنود على استعمالها، وهذا واجبٌ آخر يقتضيه الإعداد، فما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجب، وهو ما دلَّ عليه أيضاً قوله تعالى في آية الإعداد:

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تثابون عليه ثواباً كاملاً.

﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً.

- **الإسلام والسلام:**

وإعدادُ القوةِ لا يعني بالضرورة مباشرة القتال والحرب، فالإسلامُ دينُ السلام، والجهادُ في الإسلام وسيلةٌ لعزَّة الإسلام والمسلمين وتأمين نشر الدعوة بين الناس، ولهذا شرع الله تعالى جواز مهادنة الكفَّار ومسالمتهم بعد أن أمر بإعداد القوة، فقال:

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي: مالوا للمصالحة والمسالمة.

﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ فمِلْ إليها، أي: إلى المهادنة والمسالمة.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ولا تخفْ من مكرهم وكيدهم، فإن الله تعالى كافيك كيدهم، وعاصمك من مكرهم.

وينبغي أن يكونَ هذا حال المسلمين في كلِّ الشؤون، يعدُّون ويستعدُّون، ويهيئون كل الأسباب المادية، وفي الوقت نفسه يعتمدون على الله، وتبقى قلوبهم وأرواحهم موصولة به.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

ودلَّ توجيه الخطاب للنبيِّ ﷺ على أنَّه يجوزُ لولي أمر المسلمين أن يصالح الأعداء ويسالمهم إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن كان للمسلمين مصلحةٌ في الصلح لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه، فلا بأسَ أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه»[١].

وقد صالحَ النبيُّ عليه الصلاة والسلام قريشاً صلح الحديبية، وكان فيه مصلحة كبيرة للإسلام والمسلمين، حتى سمَّاه الله تعالى فتحاً بقوله الكريم: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١].

فأمرُ الصلح والحرب منوطٌ برأي ولي أمر المسلمين، وليس بحتم أن يقاتل الكفار أبداً، أو يُجابوا إلى الهدنة أبداً[٢].

- **الوحدة بعد الفرقة:**

وتثور عند المصالحات وتوقيع المعاهدات الهواجس والظنون ومشاعر القلق والحيرة والتردُّد، ولا سبيل إلى الخلاص من كلِّ ذلك إلا بالثقة بالله تعالى والتوكُّل عليه، ولهذا توجهت الآيات إلى النبيِّ ﷺ تقوِّي ثقته بالله تعالى، وتشدُّ من عزيمته بقوله جلَّ وعلا:

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٤٠.

(٢) انظر: روح المعاني: ٤/ ٢٧.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إن كانوا يريدون بالصلح خديعة ومكراً فإن الله تعالى كافيك مكرهم وكيدهم، وكما أيدك ونصرك عليهم في الحرب فإنه سبحانه يعصمك من كيدهم ومكرهم في السلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ مع ما كان فيها من عصبيات وضغائن وأحقاد، حتى أصبحوا كنفس واحدة وجسد واحد، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجَسَدِ بالسهرِ والحمَّى**» [رواه مسلم (٢٥٨٦)].

فوحدةُ الأمة وأُلفتها تدفعُ عنها مكرَ أعدائها وكيدهم، وتجعلها في مأمنٍ من جميع مؤامراتهم ودسائسهم، وما نجحَ أعداءُ الإسلام في تآمرهم على المسلمين وكيدهم بهم، إلا بسبب تفرُّق المسلمين وتخاذلهم وتدابرهم، وما أكثر الشواهد المؤيدة لهذه الحقائق في تاريخ المسلمين وحاضرهم.

وإنَّ مِنْ أجلِّ النعم التي أنعم الله بها على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، تآلفهم وتضامنهم بسبب إخلاصهم، وببركة محبّتهم وطاعتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، فما كان أحدٌ يتصوَّر أن يجتمعوا حول رسول الله ﷺ هذا الاجتماع القوي الوثيق بعد طول التشتت وكثرة التمزُّق والتشرذم، حتى قال سبحانه يبيِّن نعمته الجليلة عليهم في تأليفهم وجمعهم:

﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ وهذه شهادةٌ من الله تعالى أنَّ أُلفتهم ووحدتهم لم تقمْ على المنافع المادية، فالصحابةُ ﷺ الذين

كوَّنوا نواة الأمة المسلمة لم يجتمعوا على المنافع المادية، وأن أموال الأرض كلَّها لتعجز عن جمعهم والتأليف بين قلوبهم.

ولقد حرصَ النبيُّ ﷺ منذ البداية على تنزيه دعوته عن أي غرض مادي دنيوي، لأنَّ الأغراضَ الدنيوية من أموال ومناصبَ تفرِّقُ ولا تجمعُ، وتمزِّقُ ولا توحِّدُ، ولمَّا بايع الأنصار النبيَّ ﷺ بيعة العقبة التي كانت اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا؟ قال: «**الجنة**»[(١)].

فلم يعدهم عليه الصَّلاة والسَّلام بأيِّ منفعةٍ دنيوية في مقابل دخولهم في الإسلام وجهادهم في سبيله.

فالإيمانُ بالله تعالى والاعتصام بدينه وشرعه هو الذي يوحِّد ويؤلف:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ﴾ بقدرته ومشيئته سبحانه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالقلوبُ التي يؤلِّف بينها ربها لا يفرِّقها شيء.

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلَبُ، ولا يُخيِّبُ رجاءَ مَنْ توكلَ عليه. ﴿حَكِيمٌ﴾.

● **القوة بعد الضعف:**

لقد جعلَتْهم هذه الألفة في ظلِّ شريعة الله تعالى أمةً قويةً تتحدى أعتى الأمم وأقواها، وتتغلَّبُ على أشدِّ الصعاب، وتقتحمُ أكبر الأخطار، مع ما كانوا عليه من قلَّة في العَدد والعُدد، حتى قال الله تعالى فيهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: يكفيك الله، ويكفيك من اتَّبعك من المؤمنين.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٧.

ولاشك أنه سبحانه هو وحده الكافي، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فالفضل لله تعالى وحده، والكفاية من الله تعالى وحده أيضاً، ولكنه سبحانه أراد أن ينوِّه بفضل الصحابة ﷺ من المهاجرين والأنصار، وأن يبيِّنَ أنهم أصبحوا بعد أن ألَّف بين قلوبهم أمةً قويةً يُعْتَمَدُ عليها بعد الله تعالى، أمة جديرة أن تحمِلَ أمانةَ اللهِ ورسالته إلى جميع أمم الأرض وشعوبها، وتتحمَّل في سبيل هذا الهدف كل المخاطر والصعاب.

ويمكن أن يكون معنى الآية: الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين بتثبيتهم وتقويتهم، ولهذا أمر الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام أن يشجِّعهم على الجهاد ومواجهة الأخطار مهما كانت:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ أي: شَجِّعهم وحُثَّهم على القتال.

وكان رسول الله ﷺ يحرِّضهم على القتال عند صفِّهم ومواجهة العدو، كما فعل يوم بدر؛ حيث قال لأصحابه: «**قوموا إلى جنَّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ**» قال عُميرُ بنُ الحُمام الأنصاريُّ: يا رسول الله جنةٌ عرضُها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخٍ بخٍ. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما يحملكَ على قولِكَ: بخٍ بخٍ؟**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءةَ أن أكون من أهلها. قال ﷺ: «**فإنَّكَ مِنْ أهلها**» فأخرجَ تمراتٍ مِنْ قَرَنه، فجعلَ يأكلُ منهنَّ، ثم قال: لئنْ أنا حَيِيْتُ حتَّى آكلَ تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلةٌ. فرمى بما كان معَهُ من التمرِ، ثم قاتلهم حتى قتل. [رواه مسلم (١٩٠١)].

وقوله: (**بخ بخ**): كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير. وقوله: (**قرنه**) أي: جعبته.

ثم بيَّن سبحانه قوةَ المؤمنين بعد أن ألَّف بين قلوبهم فقال:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة الحياة الدنيا، وأنَّ وراءها حياة ثانية خالدة، فحرصهم على الحياة الدنيا يحملهم على الفرار من أرض المعركة.

والآية وإن جاءت بصيغةِ الإخبار إلا أنَّ المرادَ منها الأمر والتكليف، فكأنه سبحانه يقول: إن يكنْ منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مئتين[1].

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا مكلَّفين بالثبات في وجه عدوهم ولو كانت قوَّته تبلغ عشرة أضعاف قوَّتهم.

ولمَّا كانت شريعةُ الإسلام شريعة رحمة ويسرٍ، لا حرجَ فيها ولا مشقة، خفف الله تعالى عنهم بقوله الكريم:

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ﴾ في العَدد والعُدد.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم في المعارك التي خاضوها جميعاً أقلَّ عدداً وعُدداً من عدوِّهم، مع ذلك نصرهم الله سبحانه، وأيَّدهم، ومكّن لهم في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ فالصبر سبب النصر سواء أكانت قوة العدو أضعافاً كثيرة من قوة المسلمين أو كانت ضعفاً واحداً فقط، ولهذا ذكره تعالى قبل التخفيف وبعده.

﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: بمشيئته وقدرته، فالنصر من

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٥/١٩٨.

الله تعالى في جميع الأحوال، كما مرَّ في قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم.

والتخفيف في الحكم لم يمنع الصحابة ﷺ من الثبات في وجه عدوهم في واقع الأمر، ولو كانت قوَّتُه تزيدُ على عشرة أضعاف قوَّتهم، كما في غزوة مؤتة ومعركة اليرموك ومعركة القادسية وغيرها من معارك الفتح المظفَّرة.

• **التحذير من الانشغال بالأسرى:**

ثم حذَّرت الآيات الكريمة المؤمنين من الانشغال بأسر جنود العدو في أثناء القتال، فإن ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوة المسلمين لجمع الأسرى وحراستهم في وقتٍ يحتاجون فيه إلى توجيه كل قوتهم لضرب العدو وإضعافه، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه.

وقد حدثَ يوم بدر أنَّ الصحابة ﷺ بادروا إلى أسر المشركين قبل انتهاء القتال، وكان عليه الصَّلاة والسَّلام في العريش، وسعد بن معاذ ﷺ قائمٌ على بابه في نفر من الأنصار يحرسون الرسول ﷺ، وكره سعدٌ الأسر، وظهرت آثار الكراهة على وجهه، فقال له ﷺ: «**لكأنكَ يا سعدُ تكرهُ ما يصنعُ القومُ**» قال: أجل واللهِ يا رسولَ اللهِ، كانتْ أولَ وقعةٍ أوقعها الله بأهل الشرك، فكانَ الإثخانُ في القتلِ بأهلِ الشرك أحبَّ إليَّ من استبقاءِ الرجالِ(١).

واستشار ﷺ بعد ذلك أصحابه في الأسرى فقال: «**ما ترونَ في هؤلاءِ الأسرَى؟**».

فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ اللهِ هم بنو العمِّ والعشيرةِ، أرى أن نأخذَ منهم فديةً، فتكونَ لنا قوةً على الكفارِ، فعسى اللهُ أن يهديهم للإسلام.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما ترى يا ابنَ الخطابِ؟**».

قلتُ: لا واللهِ يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنِّي أرى أن

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٩٧.

تمكِّننا فنضربَ أعناقهم، فتمكِّن عليّاً من عَقيلٍ فيضرب عنقه، وتمكِّنني من فلانٍ ـ نسيباً لعمرَ ـ فأضرب عنقه، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكفر وصناديدُها.

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكرٍ، ولم يهوَ ما قلتُ، فلمَّا كان من الغدِ جئتُ فإذا رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ قاعدين يبكيانِ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنتَ وصاحبُك؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيتُ لبكائِكما.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أبكي للذي عرضَ عليَّ أصحابكَ من أخذِهمُ الفداءَ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذهِ الشجرة**» وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. [رواه مسلم (١٧٦٣)].

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: حتى يبالغَ في قتل جنود العدو، فيؤدي ذلك إلى ضعف قوة الكفر، ورجحان قوة الإسلام في الأرض.

ولهذا لمَّا قويَ المسلمون، واشتدَّ سلطانهم، أنزل الله عليهم قوله الكريم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وهذا مبدأ عسكري هام شرعه الله تعالى، وهو لا يمنع من المبادرة إلى أسر عدد قليل من جنود العدو إذا احتاج المسلمون إليهم ليعرفوا منهم قوةَ عدوِّهم، ونقاط الضعف في صفوفه، فللضرورة في الشريعة أحكامها، وتقدَّر بقدرها.

واستجواب الأسير للاستعلام منه عن أحوال العدو أمرٌ جائزٌ ومشروع، فعله الصحابةُ يومَ بدرٍ قبل بدء القتال، فعندما نزل الصحابة بدراً، ووردت عليهم روايا قريش ـ أي: الإبل التي يستقون عليها الماء ـ وفيهم غلام أسود لبني

الحجاج، فأخذوه، فكان أصحابُ رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علمٌ بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعُتبة وشيبةُ وأمية بن خلف. فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبركم، هذا أبو سفيان.. ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلمَّا رأى ذلك انصرف ـ أي: سلَّم من صلاته ـ، قال: «**والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم**» [رواه مسلم (١٧٧٩)].

وقوله: «**لتضربوه... وتتركوه**» هكذا وقع في النسخ بغير نون، وهي لغة سبق بيانها مرّات.

وتابعت الآية مخاطبة الصحابة ﷺ:

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي: تريدون حطام الدنيا العارض الزائل بأخذكم الفدية من الأسرى، والله سبحانه يريد لكم ثواب الآخرة.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يشرعُ لكل حال ما يناسبها ويصلحُ لها.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكمٌ من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقبَ المخطئ في اجتهاده، أو ألا يعذِّبَ أهلَ بدرٍ.

﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لنالكم وأصابكم بسبب ما أخذتم من الفدية عذاب عظيم.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنيمة.

﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ لاعتاب فيه ولا عقاب، لأنَّه حلالٌ لكم بشرع الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: «**لم تحلَّ الغنائمُ لأحدٍ سودِ الرؤوس قبلكم**» قال رسول الله ﷺ ذلك تواضعاً، فإنَّ إحلال الغنائم لهذه الأمة تكرمةٌ للنبيِّ ﷺ،




فهو من الخصائص التي خصَّه جلَّ وعلا بها كما مرَّ معنا في قوله: «**أعطيت خمساً. . .**» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وتتضمَّنُ هذه الآيات معاتبةً للصحابة ﷺ، ولهذا وجهت الخطاب إليهم، ولم توجهه إلى النبيِّ ﷺ، لأنه لم يأمر بأخذ الأسرى، وما أراد عليه الصلاة والسلام قط عرض الدنيا.

● **فداء ووفاء:**

وبأسلوب رفيع يُظهرُ سموَّ الدعوة الإسلامية وأخلاقها الكريمة وإنسانيتها الرفيعة، توجَّهت الآيات بالخطاب إلى النبيِّ ﷺ تأمره أن يدعو الأسرى إلى الإيمان بالله تعالى، والدخول في الإسلام؛ فالدعوة إلى الله تعالى لا ينبغي أن تتوقف في جميع الأحوال كما مر معنا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: نية طيبة صالحة وعزماً على الإيمان والإسلام.

﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من المال الذي فدوا به أنفسهم.

فبعد أن استشار النبيُّ ﷺ أصحابَه في شأن الأسرى كما مرَّ، قال لهم: «**أنتمُ عالةٌ، فلا ينفلتَنَّ منهم أحدٌ إلا بفداءٍ أو ضربةِ عُنقٍ**» [رواه أحمد (١/ ٣٨٣) والترمذي (٣٠٨٤) والحاكم (٣/ ٢١)].

وأصرّ عليه الصلاة والسلام أن يأخذَ الفديةَ من جميع الأسرى، حتى من عمِّه العباس وزوج ابنته السيدة زينب أبي العاص بن الربيع ﷺ جميعاً.

فعن **أنس بن مالك** ﷺ: أنَّ رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول اللهِ ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال: «**لا تدعونَ مِنْهُ دِرْهَماً**» [رواه البخاري (٢٥٣٧)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: لما بعثَ أهلُ مكةَ في فداءِ أسراهم بعثتْ زينبُ في فداءِ زوجها أبي العاص بن الربيع بمالٍ، وبعثت فيه بقلادةٍ لها كانت عندَ خديجة رضي الله عنها، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقةً شديدةً، ثم قال: «**إنْ رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرَها، وتردُّوا عليها الذي لها**» فقالوا: نعم. وكان ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلِّي سبيلَ زينبَ إليه. [رواه أبو داود (٢٦٩٢)].

وأقامت زينبُ عند رسول اللهِ ﷺ بالمدينة بعد أن فرَّقَ الإسلامُ بينها وبين زوجها، وقبيلَ الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأموالٍ لرجالٍ من قريش، فلمَّا أقبل قافلاً لقيَتْه سريةٌ لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً حتى دخل على زينبَ بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها فأجارته، وصرخت من صُفَّة النساءِ: أيها الناسُ إني قد أجرتُ أبا العاص بن الربيع، فلمَّا سلَّمَ رسولُ اللهِ ﷺ من الصلاةِ، قال: «**أيها الناسُ هل سمعتُم ما سمعتُ، والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ما علمتُ بشيءٍ من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتُ، إنَّه يجيرُ على المسلمين أدناهم**».

ثم دخل ﷺ على ابنته فقال: «**أي بُنيَّة، أكرمي مثواه، ولا يخلصَنَّ إليكِ، فإنكَ لا تحلِّينَ له**».

وأرسل ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: «**إنَّ هذا الرجلَ منَّا حيثُ قد علمتُم، أصبتُم له مالاً، فإنْ تُحْسِنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحبُّ ذلك، وإن أبيتُم فهو فيءُ اللهِ الذي أفاءَ عليكم، فأنتُم أحقُّ به**».

فردوه عليه، فاحتمله إلى مكة فأداه إلى أصحابه، ثم قال: يا معشرَ قريش هل بقيَ لأحدٍ منكم عندي مالٌ؟ قالوا: لا، فجزاكَ اللهُ خيراً. قال: فأنا أشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه. ثم خرجَ إلى المدينةِ مهاجراً، فردَّ عليه رسولُ اللهِ ﷺ زينبَ على النكاح الأول[1].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢١٩ باختصار.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلفَ من أعمالكم ومعاصيكم، فالإسلام يجُبُّ ما قبله، كما مرَّ معنا.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وبعد أن أطمعتهم الآياتُ بالإيمان ورغَّبتهم بالإسلام، حذَّرتهم من الخداع والخيانة بقوله تعالى:

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بدر بالكفر والصدِّ عن سبيل الله.

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ بأسرهم يوم بدر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

- **التحذير من موالاة الكافرين:**

وجاءت الآيات الأخيرة في سورة الأنفال تحذِّر المسلمينَ من موالاة الكافرين، وتبيِّن ما يترتب على ذلك من شرٍّ مستطير، وفسادٍ كبير.

ولمَّا كانت الهجرةُ إلى المدينة المنورة قبلَ فتح مكة المكرمة واجبةً على المسلمين، قسَّمت الآياتُ الكريمة المسلمين إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، والأنصار، والمسلمين الذين لم يهاجروا، وبينت على ضوء ذلك حكم الموالاة والنصرة بينهم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم المهاجرون.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ وهم الأنصار، آووا إخوانهم المهاجرين، ونصروا الله ورسوله ﷺ فجاهدوا بأنفسهم وأموالهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ بينهم موالاةٌ كاملةٌ ونصرةٌ تامة وتكافل وتضامن، حتى كانوا في أول الأمر يتوارثون فيما بينهم دون أقاربهم وذوي أرحامهم، بسبب الأخوَّة التي عقدها النبيُّ ﷺ بينهم بعد الهجرة، فقد آخى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قائلاً: «**تآخوْا في اللهِ أخوينِ أخوينِ**»[(١)].

ثم بينت الآيات حكمَ موالاة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنوَّرة بقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ وهذا لا يعني تركَ نصرتهم ومساعدتهم، بل يجبُ على المسلمين أن يقوموا بنصرتهم ومساعدتهم عندما يطلبون ذلك.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ أي: إن طلبوا نصرتكم ومساعدتكم في أمرٍ من أمور الدين فيجبُ عليكم أن تنصروهم.

﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ﴾ أي: إلا إذا استنصروكم على قومٍ من الكفار بينكم وبينهم عهد وميثاق، فلا تخفروا ذمَّتكم، ولا تنقضوا عهدكم، فالإسلامُ دينُ الوفاءِ، والالتزامُ بالوفاء بالعهد يقدَّمُ على الالتزام بنصرة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنوَّرة.

هذا إذا كان هؤلاء المسلمون يستطيعون الهجرة، أما إذا كانوا لا يستطيعون الهجرة بسبب ضعفهم وعدم تمكُّنهم منها، فالواجبُ نصرتهم واستنقاذهم في جميع الأحوال.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «إلا أن يكونوا مستضعفين، فإنَّ الولاية معهم قائمةٌ، والنصرةَ لهم واجبةٌ، حتى لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرجَ إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠٩.

لأحد درهم، كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون على ما حلَّ بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو، وبأيديهم خزائن الأموال وفضول الأحوال، والقدرة والعدد، والقوة والجلد»[1].

وقد بيَّن الله تعالى وجوب نصرة المستضعفين من المسلمين في قوله الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ثم ختم الله الآية بما يفيد تهديد ووعيد المتقاعسين عن نصرة إخوانهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

- **فتنة وفساد:**

ثم ذكَّر سبحانه المؤمنين بما يوجد بين الكفار من تعاضد وتناصر وخاصة عندما يواجهون المسلمين فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: ينصر بعضهم بعضاً عليكم، رغم تعدُّد نِحَلهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة، فالكفرُ ملةٌ واحدة باطلة في مواجهة الإيمان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وما أكثر الشواهد الدالة على ذلك في الماضي والحاضر.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إذا لم تقيموا هذه الموالاة والمناصرة فيما بينكم.

﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تحدث فتنة في الأرض بسبب رجحان كفَّة الكفر بتعاونهم وتناصرهم، وبسبب تخاذلكم وتفرُّقكم، مما يؤدي إلى أن يُفتنَ كثير من المسلمين عن دينهم.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ويقع في الأرض فساد كبير بسبب ابتعاد الناس عن

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/٥٧.

دين الله وشريعته، فاعرفوا أيها المسلمون حقيقة رسالتكم، وجوهر مهمَّتكم التي كُلِّفتم بها، وسيسألكم الله عنها، إنَّ صلاح العالم في جنبات الأرض منوطٌ بكم، ومتوقفٌ على تعاونكم وتعاضدكم في حمل رسالة دينكم وشريعة ربكم وسُنَّة نبيكم ﷺ.

- **فضيلة السابقين:**

ثم توَّجَ الله تعالى خاتمة السورة بهذا الثناء الطيِّب العطر على الصفوةِ الكريمةِ من المهاجرين والأنصار، الذين سبقوا إلى الإيمان والجهاد، وكوَّنوا نواة الأمة المسلمة:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

إنها شهادة ربانية رفيعة تظهر فضل السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وإنَّ المتأمل للآيات الأولى في سورة الأنفال وللآيات الأخيرة فيها يقف على مدى الانسجام والاتساق بين هذه الآيات:

ففي أول السورة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وفي ختام السورة بعد أن أثنى الله تعالى على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ويلاحظ أنه في أول السورة قال في معرض الحث على الاتصاف بصفات المؤمنين: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤]؛ وذلك لأن الآيات جاءت تحثُّ

على الاتصاف بصفات المؤمنين، وتشجعُ على الازدياد من هذه الأعمال الصالحة، وكلَّما ازداد الإنسان عملاً بها رفع الله منزلته ودرجته في الجنة.

وأما في خاتمة السورة فلم تُذكر الدرجات، لأنَّ الآياتِ جاءت في سياق الثناء على السابقين من المهاجرين والأنصار، فكأنهم ﷺ بلغوا الغاية في عُلوِّ الدرجات، وتسنَّموا أرفع المنازل، فلا حاجة إلى أن يقول فيهم: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ [الأنفال: ٤].

وبعد أن أثنى سبحانه على السابقين الأولين بهذا الثناء الكريم، ألحق بهم في الولاية والنصرة مَنْ سار على طريقهم بعدهم، فآمن وهاجر وجاهد في سبيل الله:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، وإن تأخرت رتبتهم عنكم، فالإيمانُ والجهادُ والهجرةُ هي العناصر الأساسية الجوهرية في الولاية والنصرة.

والهجرةُ المخصوصةُ التي كلَّف الله بها المؤمنين قبل الفتح توقَّفت وانتهى حكمها بفتح مكة، لكنَّ الهجرةَ من بلاد الكفر والشرك حيث لا يستطيعُ الإنسانُ المسلمُ أن يعبد الله تعالى العبادة الصحيحة إلى بلاد المسلمين، لا زالَ حكمُها قائماً، فعلى المسلم الذي يقيمُ بينَ الكفار أن يهاجرَ إلى بلدٍ مسلمٍ إنْ كان يستطيعُ ذلك.

قال عليه الصلاة والسلام: «**أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يقيمُ بينَ أظْهُرِ المشركينَ**» قالوا: يا رسول الله لِمَ؟ قال: «**لاتراءى ناراهما**» [رواه أبو داود (٢٦٤٥)].

والمعنى: يلزمُ المسلمُ ويجبُ عليه إن استطاعَ أن يباعِدَ منزله عن منزل المشرك بحيث إذا أُوقِدت في أحد المنزلينِ نارٌ لا يراها أهلُ المنزل الآخر.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء].

ويستثنى من ذلك أيضاً من يذهبُ إليهم ويقيمُ بينهم ليبلغهم دعوة الله تعالى وينشرَ الإسلام بينهم.

وتزداد الولاية والنصرة بين المسلمين إذا انضمَّ إلى رحم الإيمان رحم القرابة والنسب، فقد اهتمَّ الإسلام بتقوية أواصر الصلة بين الأقارب والأرحام من المسلمين، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث إذا كانوا مسلمين.

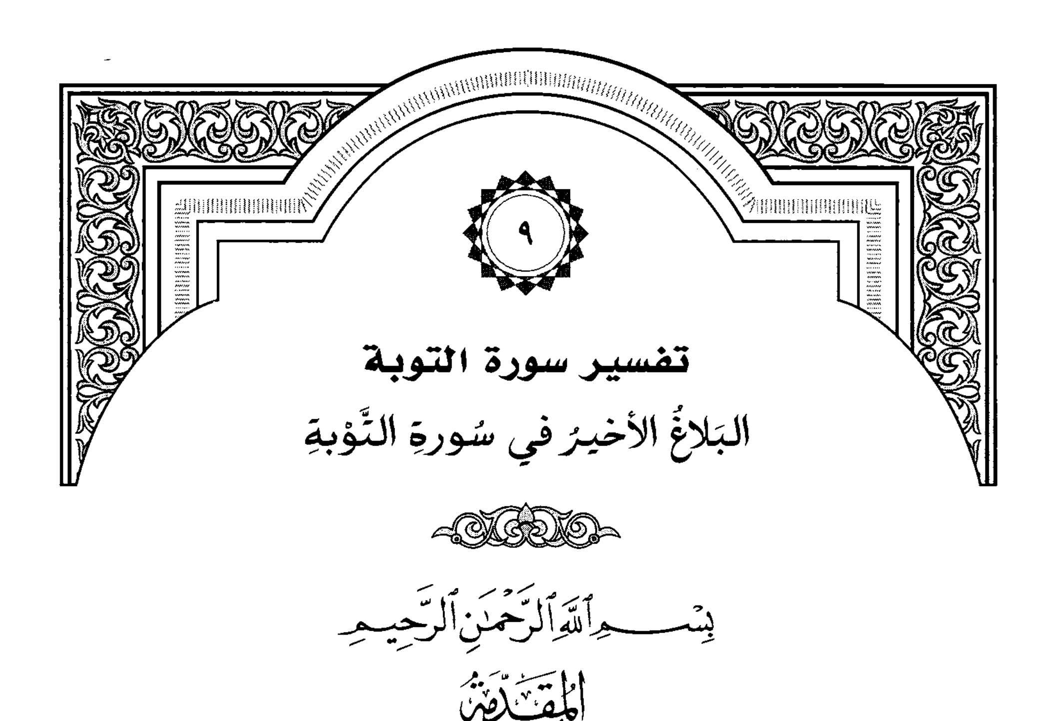
﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: كما هو مبيَّن في آيات المواريث التي أنزلها الله في كتابه الكريم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

أسأل الله تعالى أن يعيدَ للمسلمين أُلفتهم وتناصرهم وتعاونهم، وأن يردَّهم إلى دينهم ردّاً جميلاً.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.





٩

# تفسير سورة التوبة

## البَلاغُ الأخيرُ في سُورةِ التَّوْبةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

## المُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

**أما بعد:** فإنَّ القرآن الكريم أصدق سجلٍّ للحوادث التاريخية الكبيرة التي حدثت في أثناء نزوله على النبي ﷺ.

وإنّ المسلمَ في أشدِّ الحاجة إلى الوقوف على دروس هذه الحوادث وعِبَرِها وخاصةً ما يتصل منها بالدعوة والجهاد، لكي يتبيَّنَ له الأسلوب الأمثل الذي يجب عليه أن يسلكه في هذين المجالين في العصر الحاضر؛ العصر الذي أصبحت الدعوة أول وأهم واجبات المجتمعات الإسلامية؛ نظراً لشدة التقارب، وسهولة الاتصالات بينها وبين المجتمعات البشرية.

لقد نزلت سورة التوبة على الرسول ﷺ في آخر مراحل حياته، في وقتٍ كان المجتمع الإسلامي يستعدُّ للخروج برسالة الإسلام إلى شعوب العالم المختلفة في أطراف الأرض، فجاءت آياتُ السورةِ منسجمةً مع حاجات المجتمع في هذه المرحلة، وهي تُعِدُّه للمهمة الكبيرة التي تنتظره.

وما أحوجَ المسلمين إلى الوقوف على ما في هذه السورة من عِبَر ودروس

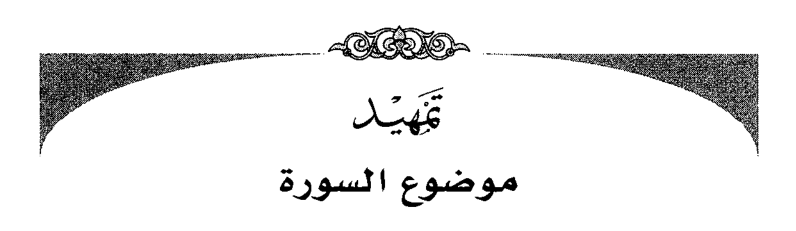
وهم يواجهون شعوب الأرض، بسبب كثرة وسائل الاتصال، التي قرَّبت بين المجتمعات البشرية، وجعلتها تقريباً مفتوحة على بعضها، حتى أصبحت الدعوة إلى الله أكبر التحديات، وأعظم المهمات الملقاة على كاهل المسلمين في العصر الحاضر.

هذا وإنَّ تفسير سورة التوبة يتناول الحديث عن موضوعها الأساس، وقد جاء هذا الموضوع في أربعة فصول:

- **الفصل الأول: البراءة من الكفار والمشركين**: وبيان معناها ومداها.
- **الفصل الثاني: أهل الكتاب**: عقائدهم، وفضائح أحبارهم ورهبانهم.
- **الفصل الثالث: المنافقون**: وكيفية تطهير المجتمع من مكرهم وكيدهم.
- **الفصل الرابع: مع المؤمنين بعد تبوك**: إرشادات وتحذيرات في مجالَي الدعوة والجهاد على ضوء ما تقدم.

فإن أصبتُ فمن الله تعالى وتوفيقه، وإن أخطأتُ فمن ضعفي وتقصيري وأستغفر الله العظيم.





# تمهيد

## موضوع السورة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

**أمَّا بعدُ**: فإنَّ سورةَ التوبةِ سجلٌّ صادق للأحداث الكبيرة التي شهدتها الدعوة الإسلامية في السنتين الثامنة والتاسعة من هجرة النبي ﷺ؛ وهي: فتح مكة المكرمة، غزوة حنين، غزوة تبوك، إعلان البراءة من المشركين، ونبذ عهودهم في موسم حج العام التاسع.

ولم تأتِ الآيات في السورة مرتَّبة مع زمان هذه الحوادث، وإنما أتت مرتَّبة ومنسجمة مع موضوع وأسلوب السورة التي دارت آياتها في فلكه، وهو:

الكلمة الأخيرة القطعية النهائية **بأسلوب البلاغ الأخير الموجَّه إلى المشركين والكافرين** عموماً بإعلان البراءة منهم.

ثم إلى **أهل الكتاب** ودعوتهم إلى الإسلام أو الاستسلام لأحكام الإسلام، وبيانِ فسادِ وضلال عقائدهم وفضائح أحبارهم ورهبانهم.

ثم إلى **المنافقين** بجميع شرائحهم، وكشفهم وفضحهم، وتتبعهم في الحواضر والبوادي لكي يتطهَّر المجتمعُ من شرِّهم، ويسلمَ من مكرهم.

ولقد طال نَفَسُ السورةِ مع **المنافقين** بسبب خطورتهم على بُنْية المجتمع وسلامته من الداخل وتماسكه ووحدته، ولقد كان المجتمعُ الإسلاميُّ يتهيَّأُ في ذلك الوقت للخروج برسالة الإسلام إلى شعوب الأرض في جميع أقطارها، فلا بدَّ أن يكونَ مجتمعاً قويّاً متماسكاً معافًى من بُؤر النفاق، حتى يستطيعَ النهوضَ بالمهمة الثقيلة الكبيرة الملقاة على عاتقه.

ثم تحدَّثت الآيات إلى المسلمين، وكان حديثُها معهم مزيجاً من الإرشادات والتوجيهات مع بعض التحذيرات، رسمت الآياتُ من خلال حديثها هذا كيفية تعامل المسلمين مع الناس، ونشر دعوة الله تعالى بينهم.

وبقيت السورةُ من خلال البلاغ الأخير حريصةً على إبقاء باب التوبةِ مفتوحاً لجميع الناس على أوسع مدًى له، فطبيعةُ الإسلام تأبى أن تجعل أحداً من الناس ييئسُ من رحمة الله تعالى، ومع أنَّ البسملةَ وما فيها من معاني الرحمة والإحسان لم تأتِ في أول السورة، فقد خُتمت السورةُ بذكر رحمة الله العظمى ومنَّته الكبرى ببعثة النبي ﷺ، أكْرِمْ بها من رحمة، وأعظِمْ بها من نعمة ومِنَّة!.

فكانت السورةُ بحق سورةَ البراءةِ والتوبةِ معاً، في وقتٍ واحدٍ، وكانت أيضاً سورةَ البلاغ الأخير.

ولا بدَّ أن يلاحظَ القارئُ عدَّة نقاطٍ هامةٍ:

**أولها**: أنَّ آيات السورة أتت منسجمة ومتسقة اتساقاً كاملاً فيما بينها، وحول موضوعها الأساس.

**ثانيها**: اتفاقُ آيات السورة مع الأحداث الكبيرة والوقائع الضخمة التي حدثت في السنتين الثامنة والتاسعة من الهجرة.

**ثالثها**: انسجامُ معاني آيات السورة مع كثير من المبادئ القتالية التي ذُكِرت في سورة الأنفال قبلها، إذ جاء كثير من آيات سورة التوبة كتطبيق عملي لآيات سورة الأنفال، فلا عجبَ أن نستشهد كثيراً بآيات سورة الأنفال في أثناء الحديث عن معاني الآيات في سورة التوبة.

❁ ❁ ❁

# الفصل الأول

## بَرَاءَةٌ وَجِهَادٌ

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ

غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾.

- **البراءة:**

بُدئت سورةُ التوبة بإعلان براءة الله ورسوله من المشركين، وما بُدئت بالبسملةِ كسائر السُّور القرآنية الأخرى، والسبب أنَّه سبحانه ما أنزل البسملة في أولها.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصحيحُ أنَّ التسميةَ لم تكتب لأنَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ما نزل بها في هذه السورة»[١].

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾.

أي: هذه براءة مِنَ اللهِ ورسوله واصلةٌ إلى الذين عاهدتم من المشركين.

وأصل معنى **البراءة** في اللغة: انقطاعُ العصمةِ، يقال: برئتُ من فلانٍ أبرأُ براءةً، أي: انقطعت بيننا العصمةُ، ولم يبقَ بيننا علقة[٢].

**والعصمةُ**: الرباطُ والعلاقةُ، ولهذا يقال عن رباط الزوجية: عصمةُ النكاحِ، والبراءةُ بهذا المعنى ضد الولاية، التي هي تواصلٌ وتناصرٌ وتعاونٌ.

وتأتي **البراءةُ** أيضاً في اللغة بمعنى الإعذار والإنذار[٣]، ولعلَّ هذا المعنى هو المراد في الآية، فهي إنذارٌ وإعذارٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله ﷺ بانقطاع أيِّ عصمةٍ وصلةٍ مع المشركين.

وشأنُ هذه البراءةِ خطيرٌ وكبيرٌ، فهي منَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ومن رسوله ﷺ، ومن نتائجها أن يرتفعَ الأمانُ عن المشركين، ولعلَّ ذلك سرُّ عدم افتتاح السورة بالبسملةِ، لأنَّها أمان، وبراءة نزلت بآية السيف، ليس فيها أمان[٤].

ونسبت الآيةُ البراءةَ إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، لبيان وقوعها وتحتمها من غير توقُّفٍ على رأي أحد، فهي منوطةٌ بالله سبحانه وبمشيئته وحكمته جلَّ وعلا، فضلاً عن تفخيم أمرها وتهويل شأنها، وجاء التعبيرُ عنها بالجملة الاسمية للدلالة على دوامها واستمرارها[٥].

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٦٣.

(٢) تفسير الخازن: ٣/ ٧٨.

(٣) انظر: المعجم الوسيط: ١/ ٤٦.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٨/ ٦٢.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود: ٤/ ٤٠.

ونسبت الآيةُ العهد إلى المسلمين ﴿عَٰهَدتُّم﴾ لأنهم هم الذين باشروا عقده مع المشركين.

• **السياحة:**

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢﴾.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ أي: سيروا فيها حيثُ شئتم مدة أربعة أشهر، والخطاب للمشركين، والمراد من الأمر الإباحة والإعلام بحصول الأمان مدة أربعة أشهر.

**والسياحةُ**: التنقل في الأرض، والتوسُّع فيها حيثُ يشاء الإنسان.

ففي كلمة ﴿فَسِيحُواْ﴾ من التوسعة والترفيه ما ليس في كلمة (سيروا)[1]، وهذا يدلُّ على قوة المسلمين وعزتهم، وتمكن الإسلام في أرض العرب عند نزول هذه الآيات، فقد أصبحَ المشركُ مطلوباً بعد أن كان طالباً، وصار ذليلاً بعد أن كان قويّاً منيعاً.

ويدلُّ أيضاً على سموِّ الشريعة الإسلامية ورفعتها، فهي شريعةٌ نبيلةٌ ساميةٌ، لا تغدر ولا تخون، ولا تأخذُ الناسَ على غرَّة وغفلة، بل تمنحهم الفرصة ليتأمَّلوا في واقع الأمور، ويفكروا قبل أن يختاروا، فكأنَّ ما في الآيات هنا تطبيق عملي للمبدأ الأخلاقي الكريم الذي شرعه سبحانه في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قال المفسِّرون: لما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى تبوك، أخذ المنافقون ينشرون الإشاعات والأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فلمَّا رجعَ عليه الصلاة والسلام من تبوك أنزل الله عليه هذه الآيات.

---

(١) روح المعاني: ١٠/٤٣.

ومهما قيل في سبب نزولها، فهي تدلُّ على مدى القوة والعزَّة والتمكين في الأرض التي كانت للإسلام والمسلمين في هذه المرحلة.

• **الشهور الأربعة:**

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، فقيل: هي شوَّال، وذو القعدة، وذو الحجَّة، والمحرم، لأنَّ الآية نزلت في شوَّال من السنة التاسعة.

وقيل: إنَّها وإن نزلت فيه، إلا أنَّ قراءتها على الكفار، وتبليغها إليهم، كان يوم الحجِّ الأكبر، فابتداءُ المدَّةِ من عاشرِ ذي الحجة، إلى انقضاء عشرٍ من شهر ربيع الآخر(١). وهو الأظهر، لأن الأجل لا يلزمُ إلا من يوم يُسْمَعُ.

وقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج في العام التاسع، وأرسل معه صدر (براءة) ليقرأها على الناس، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: بعث النبيُّ ﷺ (براءة) مع أبي بكر، ثم دعا علياً فأعطاها إياه وقال: «**لا ينبغي لأحدٍ أن يبلِّغَ هذا إلا رجلٌ من أهلي**» [رواه أحمد (٣/ ٢٨) والترمذي (٣٠٩٠) وحسنه].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: **بعثني أبو بكر** رضي الله عنه **في تلك الحَجَّة في المؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذِّنون بمنى، أن لا يحجَّ بعد العام مشركٌ، ولا يطوفَ بالبيتِ عريان.** [رواه البخاري (٤١٥٥ و٣٤٧٧) ومسلم (٦٦)].

ثم قال تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ وهو تهديد ووعيد للمشركين، فهم في قبضة قدرته سبحانه، وتحت قهر مشيئته في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

فإمهالكم أربعةَ أشهرٍ ليس لعجزٍ عنكم، ولكن لمصلحةٍ لكم، ولطفٍ بكم.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٠/ ٤٣.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **والخزيُ**: الذلّة مع الفضيحة والعار، فهو حكمٌ من الله تعالى بخزي الكافرين، إمّا في الدنيا بالأسر والقتل، وإما في الآخرة بالعذاب في جهنم، وقد يجمع الله تعالى لهم الذلّة والفضيحة والعار في الدنيا والآخرة.

• **الأذان يوم الحج الأكبر:**

ثم أمر سبحانه بإذاعة البراءة وإعلام الناس بها في أعظم المحافل وأكبرها، فقال:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أي: وإعلامٌ صادر من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام إلى جميع الناس في يوم الحج الأكبر، وهو يوم عرفة التاسع من ذي الحجة، أو يوم النحر العاشر من ذي الحجَّة، وهو الأظهر لأنَّ أكثر مناسك الحج تؤدَّى فيه، ويؤيده ما مرَّ معنا في حديث أبي هريرة السابق.

وعن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: «**يوم النحر**» [رواه الترمذي (٩٥٧)].

وعن **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ وقفَ يوم النحر بين الجمراتِ في الحجة التي حجَّ فيها، فقال: «**أيُّ يومٍ هذا؟**» قالوا: يوم النحر. فقال: «**هذا يومُ الحجِّ الأكبر**» [رواه أبو داود (١٩٤٥)].

ورأى بعضُهم أنَّه اليوم الذي حجَّ فيه رسول الله ﷺ حجَّة الوداع، فهو مخصوصٌ بتلك السنة.

وأما تسميةُ الحجِّ الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة، فلم يذكروها، وإن

كان زيادة ذلك الحج زيادة على غيره[١]؛ أي: في الثواب لاجتماع فضل يوم عرفة مع فضل يوم الجمعة.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ورسوله ﷺ أيضاً بريء منهم، وكررت البراءة لأهميتها وخطورتها، أو لكون الآية الأولى أخبرت بثبوتها، بينما الآيةُ الثانيةُ أعلمت الناس بها.

ولا شكَّ أنَّ في إعلان البراءة تهديداً شديداً وترهيباً كبيراً، فناسب أن يكونَ معها ترغيبٌ لهم بالتوبة عن الكفر والشرك، والدخول في الإسلام، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ عن الكفر والغدر.

﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ في الدنيا والآخرة، فالإسلام جاء للناس عموماً بسعادة الدنيا والآخرة، وجاء للعرب خصوصاً بالعز والشرف والسؤدد والمجد.

﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة، وأصررتم على الكفر.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ لأنكم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، كما مر معنا.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم بعذاب أليم ينتظرهم في الآخرة، وجاء الإخبار بلفظ التبشير على سبيل التهكُّم والاستهزاء بهم.

ولما كانت البراءةُ تقتضي نَبْذَ ونَقْضَ جميع عهود المشركين، استثنى سبحانه عهودَ الذين لم يعزموا على الخيانة والغدر ونقضِ العهد، فقال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ من عهودهم.

---

(١) روح المعاني: ١٠/٤٧.

﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من عدوكم.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: إلى تمام مدة العهد، ولو كانت بعد انقضاء الأشهر الأربعة، فالإسلامُ دينُ الوفاء والعدل، ولا يعامل أهل الوفاء كما يعامل أهل الغدر والخيانة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّ الوفاء بالعهد وإتمامه من التقوى.

- **آية السيف:**

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ أي: إذا انقضت ومضت أشهر الإمهال التي سبق ذكرها، والتي حرَّم الله تعالى فيها قتال المشركين.

﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهد.

﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في أي مكان.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر.

﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ بالتضييق عليهم، ومنعهم من التردد والتنقُّل بين البلاد بحرية.

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: على كل طريق يمكنهم أن يسلكوه، والمراد مراقبتهم ورصد تحركاتهم.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الكفر، ودخلوا في الإسلام.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم.

﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ أي: كفُّوا عن التعرُّض لهم، ودعوهم وشأنهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما سلف من كفرهم وفجورهم، ويثيبهم على إيمانهم وعبادتهم.

وتسمى هذه الآية **آيةَ السيف** عند بعض المفسرين، وهي في رأيهم قد

نَسَخَتِ[(١)] الآيات التي تحثُّ على الصبر واحتمال أذى الكفار والعفو والصفح عنهم، وتحثُّ أيضاً على مسالمتهم ومهادنتهم.

ولا أرى معارضةً بين هذه الآية وبين الآيات التي تأمر بالصبر والعفو والمسالمة، فكل آية تعالج حالةً مخصوصةً، وتبيِّن الحكمَ الذي ينبغي اتباعه فيها، فلا معارضة ولا نسخ.

والآيةُ هذه في المشركين الناكثين للعهود والمواثيق، كما يدلُّ عليه سباقها وسياقها، تبيِّن كيف يكون التعامل معهم، وأنه لا يُقبل منهم بعد نقضهم للعهد إلا الإسلام والاستسلام الكامل لأحكامه.

وجعلها بعضُ العلماء في العرب الوثنيين خاصة، فالعربي الوثني كالمرتد لا يُقبل منهما إلا الإسلام، وإن لم يُسلما قُتِلا بالسيف، لأنَّ المعجزة في حق العربي أظهر، فالقرآن نزل بلغة العرب، فكان كفرهم ـ والحالة هذه ـ أغلظ من كفر العجم[(٢)].

ويجري مجرى الآية الكريمة الحديث الشريف الذي قال فيه النبيُّ ﷺ: **«أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ، ويقيموا الصلاةَ، ويُؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا عصموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها، وحسابهم على الله»** [رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢١)].

- **تبليغ الدعوة:**

وهذه الحملةُ الكبيرةُ للآيات الأولى في سورة التوبة على المشركين، والمتمثلة بإعلان البراءة منهم، ونبذ عهودهم، والتضييق عليهم، وحصارهم ورصد تحرُّكاتهم، لا تعني اليأسَ من هدايتهم، والتوقف عن دعوتهم وتبليغهم،

---

(١) **قلت**: النسخ عند السلف أعم من معناه عند الأصوليين، فهو يشمل أيضاً تخصيص العام، وتقييد المطلق، فحمل عبارتهم على ما تواضع عليه الأصوليون يفسد المعنى (ن).

(٢) انظر: رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين): ٣/٢٦٨.

فالإسلامُ حريصٌ على هداية الناس مهما كانوا إلْباً عليه وعدوّاً له، وتبليغُ الدعوة هو السبيل للهداية، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمر الله تعالى بقتالهم بعد انقضاء الأشهر الأربعة.

﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب الدخول في جوارك، وأن تعامله معاملة الجار.

﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمنه.

﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: لكي يسمع كلام الله تعالى سماع فهم وتدبُّر، ويطَّلع على حقيقة الإسلام ودعوته، أو إلى أن يسمع كلام الله.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ثم بعد ذلك إذا لم يُسلم أبلغه إلى الموضع الذي يأمن فيه، وهو دار قومه، أو أي بلد يأمن فيه على نفسه.

وهذا يدلُّنا على شدَّة حرص الإسلام على الهداية وتبليغ الدعوة، كما يدلُّ على الأخلاق الإسلامية الكريمة.

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: «ولقد كانت قمةً عاليةً تلك الإجارةُ والأمانُ لهم في دار الإسلام، ولكن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمَّةً وراء قمَّةٍ، وهذه منها، هذه الحراسة للمشرك، عدوِّ الإسلام والمسلمين، ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين، هذه الحراسة له حتى يبلغَ مأمنه خارج حدود دار الإسلام»(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا كان رسولُ اللهِ ﷺ يعطي الأمانَ لمن جاءه مسترشداً، كما جاءه يوم الحديبية جماعةٌ من الرسل من قريش، فرأوا مِنْ إعظامِ

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٦٠٢.

المسلمين لرسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم»[١].

والخطابُ في الآية، وإن كان موجَّهاً للنبي ﷺ، فحكمها عام ينسحب على جميع المسلمين حكَّاماً كانوا أو محكومين، لقوله ﷺ: «**المسلمونَ تتكافأُ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم**» [رواه أبو داود (٢٧٥١) والنسائي (٨/ ٢٠) وابن ماجه (٢٦٨٣)].

إلا أنّ لولي أمر المسلمين أن ينقضَ أمان أي فردٍ من المسلمين، إذا كان فيه ضرر بهم، ويُعْلِمَ المستأمنين بنقضه[٢].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: شرع الله ذلك الحكم لأن المشركين لا يعلمون حقيقة الإسلام، فتعريف الناس بحقيقة الإسلام أمر ضروري، يجبُ على المسلمين القيام به، وخاصة في عصرنا الحاضر، إذ أصبحت نفوسُ كثير من الناس مستعدةً لقبول الإسلام بعد أن فشلت العقائد والنظم في إسعادهم وحلِّ مشكلاتهم.

وبعد تقرير هذه الأحكام القطعية النهائية، بيَّن سبحانه ضرورتها والحكمة منها بقوله:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧﴾.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهد، لأن البراءة إنما هي في شأنهم[٣].

﴿عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ أي: أمانٌ عند الله تعالى، وهم كافرون به

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٢٧.
(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ٣/ ٢٢٨.
(٣) تفسير أبي السعود: ٤/ ٤٤.

سبحانه، وعند رسوله عليه الصلاة والسلام، وهم معرضون عن دعوته، معاندون لرسالته، فلا عهدَ للمشركين عند الله تعالى، ولا عند رسوله عليه الصلاة والسلام بسبب كفرهم وغدرهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في الحديبية، عند أول أرض الحرم سنة ست من الهجرة، وفيها عقد النبي ﷺ مع مشركي قريش صلح الحديبية، ودخل مع قريش قبائلُ من بني بكر، وهم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل.

ولمَّا نقضت قريشٌ العهدَ مع بني الديل من بني بكر، أمر الله تعالى بإتمام العهد لمن لم ينقض[١] فقال:

﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ في الوفاء بعهدهم.

﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ على الوفاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهد فلا يخونون، ولا يغدرون.

وسبق مثله في قوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

- **مصالح ومبادئ:**

وتابعت الآياتُ تحذير المسلمين من مكر الكافرين وغدرهم، وهي تكشف لهم خبيئة نفوسهم، وما انطوت عليه صدورُهم من حقدٍ ولؤمٍ بقوله تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿كَيْفَ﴾ تثقون بهم وتركنون إليهم؟.

﴿وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾ وحالهم أنهم إن ظفروا بكم وتمكَّنوا منكم.

---

(١) نظم الدُّرر: ٨/ ٣٨٤.

﴿لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً، ولا حقّاً ولا ميثاقاً، فلا يلتزمون بمبدأ ولا بخلق ولا قيمة، مبدؤهم الوحيدُ مصالحهم وشهواتهم وأهواؤهم.

وكأنَّ هذه الآيات الكريمة نزلت في هذا العصر، لشدَّة انطباقها على كثير من الناس، وخاصة على دهاقنة السياسة، المتاجرين بمصالح الأمم والشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها.

﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يرضونكم بكلامهم المعسول المزوَّقِ الذي يتفوَّهون به، من خلال وسائل إعلامهم المقروءة والمرئية.

﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الإقرار بما ينطقون بألسنتهم، فقلوبُهم تخالِفُ ألسنتهم، وسرائرهم تغاير علانيتهم.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون على جميع المبادئ والقيم والأخلاق، فلا عقيدة تزعهم، ولا مروءة تردعهم.

وتخصيص الأكثر بوصف الفسق، بسبب ما يوجد عند بعضهم من تمسُّكٍ جزئي بالقيم، ومراعاة لبعض الأخلاق، فكلمات القرآن الكريم في غاية الموضوعية والصدق.

ثم كشف سبحانه الباعث الذي يجعلهم يخرجون على المبادئ والقيم والأخلاق فقال:

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩﴾.

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: استبدلوا بالمبادئ القرآنية الكريمة، عوضاً دنيويّاً قليلاً.

ومهما كان هذا العوض فهو في حقيقته عرض دنيوي زائل حقير قليل، وهو ما يسمَّى بلغة العصر الحاضر المصالح المادية، فإذا ما تعارضت مصالحهم المادية مع أي قيمة خلقية، ضربوا بها عُرضَ الحائط، وجعلوها حبيسة الأوراق

التي كتبوها عليها، وضحُّوا بكلِّ قِيَمهم الأخلاقية ومثلهم الإنسانية من أجل مصلحة من مصالحهم، وشهوة من شهواتهم.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ وأعرضوا عن دينه سبحانه وشرعه ومنهجه، لأنه يتعارض مع مصالحهم وشهواتهم.

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: بئسَ ما كانوا يعملون من أعمال، لا تصدر إلا عن أهوائهم وشهواتهم.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾ على وجه الخصوص، لشدَّة حقدهم على المؤمنين وبُغضهم لهم، فهم لا يراعونَ حقوقَ أحد على الإطلاق من أجل مصالحهم.

وكرَّره سبحانه إظهاراً لشدَّة حقدهم على المؤمنين، وما أكثر الشواهد على ذلك!.

إنَّ في المذابح الكبيرة، والنكبات الكثيرة، التي حدثت في المجتمعات الإسلامية، على مدى تاريخهم الطويل، من عهد التتار والمغول والصليبيين إلى عهود الاستعمار الحديث، وما يحدثُ كلَّ يوم من عمليات الإبادة الجماعية والتصفيات الجسدية في فلسطين والبوسنة وأفغانستان والعراق وغيرها، إنَّ في كلِّ ذلك ما يبيِّنُ عمقَ الدلالة في قوله تعالى:

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ قرابة ولا عهداً، ولا حقّاً ولا ميثاقاً.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ المتجاوزون لحدود كل القيم والمبادئ والأخلاق.

- **الباب المفتوح:**

ومع ذلك فبابُ التوبةِ مفتوحٌ لهم، فلا ينبغي التوقُّف عن دعوتهم، واليأسُ من هدايتهم وإيمانهم، فلعل رحمةَ الله تعالى تدرِكُهم:

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ عن الكفر والفجور واتباع الأهواء والشهوات.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كدليل على صدقهم وإخلاصهم وصحة إيمانهم.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ لهم ما لكم من الحقوق، وعليهم ما عليكم من الواجبات، **فالإسلام يجبُّ ما قبله.**

وكلمة الإيمان تزيلُ أمثالَ الجبال من الأحقاد والأضغان، ولحظة صدق وخشوع لله تعالى، يمحو بها سبحانه شقاءَ عُمُر كامل.

فما أعظمَ الإسلام! وما أكرمَ مبادئه! المبادئ التي تتعالى على كلِّ الضَّغائن والأحقاد، وتزيل من النفوس كلَّ رواسب الماضي، وتأسو جراحَ القلوب والنفوس مهما كانت عميقة.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الإسلام، وما فيه من مبادئ سامية، وأخلاق نبيلة كريمة.

إنَّ البشريةَ في أمسِّ الحاجة إلى معرفة حقيقة الإسلام وسماحته ونبله، لكي يزولَ عن قلوب الناس ما فيها من أحقادٍ وضغائنَ لا تزالُ تستعر في صدورهم، وتنطفئ في نفوسهم نيرانُ البغض والحسد والبغي على بعضهم، التي فجَّرتها فيهم الحضارة المادية الطاغية، تلك الحضارة التي قامت على مراعاة المصالح الذاتية، دون نظر إلى أي قيمة خلقية ومبدأ سماوي.

- **أئمة الكفر والضلال:**

وإذا ما ارتدَّ القومُ بعد إيمانهم، وعادوا إلى حمأة الضلالة، وغلبت عليهم نفوسُهم وشهواتُهم وأهواؤهم، فنقضوا عهد الإيمان وميثاق الإسلام، فقد شرع الله تعالى قتالهم وجهادهم حتى يُسْلِموا أو يستسلموا:

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ أي: نقضوا عهودهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم عندما دخلوا في الإسلام، فالدخول في الإسلام عهد وميثاق مع الله تعالى على توحيده وطاعته والانقياد لأحكام دينه وشرعه.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: عابوه وانتقصوه وانتقدوه، وفضَّلوا عليه نظاماً ابتدعوه، وقانوناً استحدثوه، يلائم أهواءهم وشهواتهم.

فأيُّ انتقاصٍ لأحكام الإسلام وانتقادِها يُعدُّ كفراً وردَّةً عن الإسلام، وكذلك إذا صدر عن أهل الذمة الذين يعيشونَ في بلاد المسلمين أي طعن في الإسلام، وانتقاصٍ لحكمٍ من أحكامه، يعدُّون ناقضين لعهد الذمة، فلا عهد لهم بعد ذلك ولا ذمة، ولا أمانَ لهم ولا سلام.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي: قاتلوا رؤوس الكفر والشر والضلال، ولا شك أن قتالهم قتال لأتباعهم وأنصارهم.

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي: لا عهدَ لهم ولا ميثاق، عهدهم وميثاقهم شهواتهم ومصالحهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ عمَّا هم فيه من الكفر والفساد والضلال.

وفي تخصيص أئمةِ الكفر بالقتال، إشارةٌ إلى حقيقة هامة، دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ فالطعن في الدين عادة لا يصدر عن عامة الناس، إنه لا يصدر إلا عن العريقين بالكفر والضلال، الذين يدَّعون لأنفسهم صفة الحاكمية، وهي استحداث القوانين وإصدار التشريعات، أو يدَّعون لأنفسهم صفة النبوَّة زوراً وكذباً، فيغيِّرون أحكام دين الله تعالى، ويعبثون بشريعته، ويدعون الناس إلى تصديقهم واتباعهم.

ولقد كان للمرتدين عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ رؤوس في الضلالة

والكفر، دعوهم إلى الردة وحسَّنوها لهم؛ مثل: الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وطليحة الأسدي، وسجاح بنت الحارث التميمية[1] وغيرهم.

وللمرتدين عن الإسلام في العصر الحاضر رؤوسٌ في الضلال أيضاً، من أصحاب النظريات الإلحادية؛ مثل: داروين، وفرويد، وماركس، وأنجلز، ولينين، وسارتر... وغيرهم، ومن الدجَّالين الكذابين مدعي النبوة؛ مثل: غلام أحمد القادياني، والبهاء حسين المازندراني... حتى يظهرَ آخرُهم المسيح الدجَّال قبيل قيام الساعة.

- **الحض على الجهاد:**

ثم أخذت الآيات تحثُّ المسلمين على الجهاد، وتشجِّعهم على التصدي للمشركين وقتالهم:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا﴾ وهم مشركو مكة، مما يدلُّ على أنَّ هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة.

﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ التي عقدوها مع النبي ﷺ في الحديبية، عندما دخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خُزاعةُ في عقد النبيِّ ﷺ وعهده، ثم إنَّ بعض قبائل بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بموضع يقال له: الوتير، قرب مكة، فغدروا بهم، وقتلوا عدداً منهم، وأعانتهم قريشٌ على ذلك، وأمدتهم بالسلاح، فأرسلت خزاعة عمرو بن سالم إلى المدينة المنوَّرة يستنصر رسول الله ﷺ، ويخبره بما حدث، فأمر النبي ﷺ بالتجهز للجهاد، وأخفى

---

(١) ادَّعت سجاح النبوة وكانت أحد رؤوس الردَّة، وتزوجت مسيلمة الكذاب، ويقول ابن حجر في كتابه «الإصابة»: عادت بعد قتل مسيلمة إلى الإسلام، فأسلمت وعاشت إلى خلافة معاوية (ن).

وجهته، كي يفاجئَ قريشاً ويبغتهم في مكة المكرمة، وسأل الله تعالى ذلك، وتمَّ له عليه الصلاة والسلام ما أراد، وفتح مكة.

﴿وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة عندما كان يدعوهم إلى الإسلام قبل الهجرة، ولم يتمكَّنوا من إخراجه عليه الصلاة والسلام، وما خرج مهاجراً إلى المدينة إلا بأمر ربه له بذلك[١]، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦][٢].

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بالعدوان والأذى والقتال.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أتخافونهم فتتركون قتالهم؟! وهو توبيخٌ على الخشية والخوف من الكفار، والتقاعس عن قتالهم.

﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمنُ لا يخشى إلا الله تعالى.

وبعد هذا الحض على الجهاد، وما فيه من توبيخ للمتقاعسين، أمرتهم الآياتُ أمراً صريحاً مُلْزِماً بجهاد المشركين وقتالهم، وبيَّنت لهم الحكمةَ من ذلك، بقوله تعالى:

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هكذا قدَّر الله تعالى أن يكلف المؤمنين بالجهاد، ليسلطهم على أعدائه، ويجعل عذابهم في الدنيا بأيدي أوليائه.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ وينزل بهم الذل والهوان.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ لأن النصر بيده سبحانه.

---

(١) انظر: تفسير ابن عطية: ٦/ ٤٢٨.

(٢) انظر: (تفسير سورة الإسراء) في هذا التفسير الموضوعي الكبير، وقد أسميناه: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ عانوا كثيراً من ظلم الكفار وأذاهم وعدوانهم.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فتمتلئ بالسرور والفرح بنصر الله تعالى بعد أن كانت ممتلئةً بالغم والحزن.

وقتالُ الكفَّار لا يعني حرمانهم بالضرورة من الهداية والتوبة، فبابُ التوبة والهداية مفتوحٌ، كما سبق، قبل القتال وبعده، والقتال لا يوقِفُ الدعوةَ، ولهذا قال تعالى على سبيل الإخبار:

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وحدث ما أخبر عنه سبحانه، إذ أسلم كثيرٌ من المشركين بعد ذلك.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا يفعلُ ولا يشرعُ إلا ما فيه حكمة ومصلحة، فامتثلوا لأمره، وانقادوا لشرعه.

- **الابتلاء بالجهاد والبراءة:**

وقد اقتضت حكمته تعالى أن تكونَ الحياة الدنيا ابتلاءً واختباراً، وأنَّ التكليفَ بالجهاد من أسباب الابتلاء والاختبار للمؤمنين، ولهذا قال سبحانه مخاطباً لهم:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ أي: لا تتركون دون ابتلاء، لا بدَّ أن يميز الله تعالى بين الصادقين والكاذبين، والمخلصين والمنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

ولا شك أنه سبحانه يعلم الصادق من الكاذب في الأزل، ولكنَّه سبحانه أراد وجوده وتحققه ليجازيهم عليه، فالجزاء على حسب العمل لا على حسب علمه سبحانه.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ أي: لم يتخذوا من الكفار بطانة، يوالونهم ويصاحبونهم. **والوليجة**: البطانة، والرجل يكون في القوم وليس منهم: وليجة، من الولوج وهو الدخول.

والمعنى: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدةٍ ولا براءةٍ من المشركين[1].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ من أموركم وأحوالكم فالشؤون كلّها منكشفة له سبحانه، لا تخفى عليه خافية.

والابتلاء كما يكونُ بمجاهدةِ الكفار وقتالهم، يكون أيضاً بالبراءةِ منهم كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى.

- **عمارة المسجد الحرام والأقصى:**

واتبعت الآيات أسلوباً جديداً في حثِّ المؤمنين على قتال المشركين، فذكَّرتهم بالمسجد الحرام ومسؤوليتهم عنه، وأنه لا ينبغي أن يبقى تحت سلطان المشركين وسيطرتهم.

وهذا يؤكِّد ما سبق معنا، أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة المكرمة.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٧﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي للمشركين أن يكونوا

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٩٢.

عُمَّاراً لمساجد الله، فضلاً عن المسجد الحرام، والعمارة إما البناء أو الدخول إلى المسجد والمكث فيه للعبادة، فالواجب يحتِّم على المسلمين ألا يتركوا المسجد الحرام بأيدي المشركين ليقوموا على عمارته، فهم ليسوا أولياءه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وبمثل هذا الأسلوب يمكن أن يقال للمسلمين في العصر الحاضر: ما كان لليهود أن يعمروا المسجد الأقصى، مع العلم أنَّ ثمة فرقاً كبيراً بين اليهود وبين مشركي قريش، إذ كان مشركو قريش حريصين على المسجد الحرام وصيانته رغم شركهم وكفرهم، بينما اليهود يسعون إلى تخريب المسجد الأقصى وإزالة معالمه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾ بإظهار الشرك وعبادة غير الله تعالى، فأحوالُهم شاهدةٌ عليهم، مع أنَّ المسجد بُني لعبادة الله تعالى وحده القائل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت أعمالهم بسبب كفرهم وشركهم، فعمارتهم المسجد الحرام لا تنفعهم ما داموا على كفرهم وشركهم.

﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ إذا ماتوا على الكفر.

ثم بيَّن سبحانه المستحقين لعمارة المساجد، فقال:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ﴾ فلا يتركون دين الله وشرعه خشية من الناس.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ و(عسى) في كلامه تعالى تفيدُ

الوجوبَ والتحقق، وذكرت في الآية لتقطع أطماع المشركين في الانتفاع بأعمالهم، فأعمالُ المؤمنين من صلاة وزكاة وخشية لله تعالى، دائرة بين (عسى) و(لعل)، فما ظنك بأعمال المشركين؟! وفي هذا تنبيه للمؤمنين أيضاً لكي لا يغتروا بأعمالهم وأحوالهم(١).

- **الجهاد والعبادة في المسجد الحرام:**

ومع أنَّ عمارة المسجد الحرام والعبادةَ فيه من العبادات ذات الثواب الكبير والفضل الجزيل، فإنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى أفضلُ عند الله تعالى منها، دل على ذلك قوله سبحانه:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ والخطاب للذين كانوا يرون لأنفسهم فضلاً بخدمة الحُجَّاج والعناية بالمسجد الحرام على المجاهدين، فالجهادُ في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى من سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام.

وقرن سبحانه بين الإيمان والجهاد ليُنبِّه المشركين إلى كفرهم، وفيه بيان للتلازم الكامل بينهما، فالإيمانُ والجهادُ متلازمان، ومن شأن المؤمن بالله تعالى وحده أن يجاهد في سبيله.

وتدلُّ الآيةُ على أفضلية الجهاد وتقدُّمه على العبادة في المسجد الحرام، وعلى العبادة في غيره من المساجد بالأَوْلى، فالمجاهدون في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى من العُبَّاد المعتكفين في المساجد والزوايا والخلوات.

كان عبدُ الله بن المبارك والفُضيل بن عياض صديقين، وكان ابن المبارك

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/ ٩٤.

يتقرَّبُ إلى الله تعالى بالجهاد والمرابطة في الثغور، بينما كان الفُضيل معتكفاً في المسجد الحرام، فأرسل إليه ابن المبارك في سنة سبعين ومئة هذه الأبيات من طرسوس، وهو ثغرٌ في شمال بلاد الشام في مواجهة بلاد الروم، قال فيها:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتَنا ... لعلمتَ أنَّكَ في العبادةِ تَلْعَبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ خَدَّهُ بدموعِهِ ... فنحورُنا بدمائنا تَتَخَضَّبُ
أو كانَ يُتْعِبُ خيلَه في باطلٍ ... فخيولُنا يومَ الصبيحةِ تَتْعَبُ
ريحُ العبيرِ لكمْ ونحنُ عبيرُنا ... رَهْجُ السنابكِ والغبارُ الأطيَبُ
ولقد أتانا مِنْ مقالِ نبيِّنا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكْذِبُ
لا يستوي غبارُ خَيْلِ اللهِ في ... أَنْفِ امرئٍ ودُخَانُ نارٍ تَلْهَبُ
هذا كتابُ اللهِ يَنْطِقُ بيننا ... ليسَ الشهيدُ بميِّتٍ لا يكذِبُ

ولما قرأ الفضيلُ الأبياتَ ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن[(١)].

قال سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وجاء في الحديث الشريف ما يؤكِّد هذا المعنى: عن **النعمان بن بشير** رضي الله عنهما قال: كنتُ عند منبر النبيِّ ﷺ، فقال رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلامِ إلا أن أَعْمُرَ المسجدَ الحرامَ. وقال آخرُ: الجهادُ في سبيلِ اللهِ أفضلُ مما قلتم. فزجرهم عمرُ رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبرِ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو يومُ جمعةٍ، ولكن إذا صلَّيتُ الجمعةَ، دخلتُ فأستفتيه فيما اختلفتم

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير: ١/٣٥٢. والقصة رواها ابن عساكر، وقد ضعَّفها بعض الكتاب المعاصرين لانقطاع في سندها، وهذا غير صحيح، فقد رواها بالسند المتصل الرافعي في (تاريخ قزوين). وحبذا لو التزم هذا الفاضل قواعد المحدثين في كل ما يرويه! انظر: نقض أوهام الاتهام، للأستاذ خالد السوسي، ص٣٣٨ ـ ٣٤٠.

فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية. [رواه مسلم (١٨٧٢)].

وختم سبحانه الآية بقوله:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يضعون الأمور في غير مواضعها.

ثم أثنى الله تعالى على الصحابة الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله، ليُظهر فضلهم على غيرهم تأكيداً لمعنى الآية السابقة، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعلى رتبة وأكثر كرامة ممَّن لم تجتمع فيهم هذه الصفات.

ولم تذكر الآية المفضَّل عليهم، لتفيدَ أنَّ فضيلة الصحابة على الإطلاق، ولا شك أن أهل السقاية والعمارة من جملة المفضل عليهم[1].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بنصر الله تعالى في الدنيا، وبالمنازل الرفيعة في الآخرة.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

دائم لا ينتهي ولا يزول.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تسبُّوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيدِهِ لو أنَّ أحداً أنفقَ مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه**»

(١) انظر: نظم الدُّرر: ٨/٤١٨.

[رواه مسلم (٢٥٤٠)]. رضي الله عنهم وأرضاهم، أولئك الذين رفعوا رايات الإسلام بجهادهم وإخلاصهم.

- **ولاء وحُبٌّ:**

وبراءةُ الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام من المشركين، التي جاءت في صدر السورة، تقتضي براءةَ المؤمنين أيضاً من المشركين مهما كانت الصِّلات القائمة بينهم، فلا ينبغي أن يتخذَ المؤمنون من الكافرين وليجةً أبداً، ولو كانوا أقرباءهم، أو كانت للمؤمنين مصالحُ مادية عندهم، ولتوضيح هذا المعنى وتأكيده، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي: اختاروا الكفر وأعرضوا عن الإيمان، أو فضلوا الكفر على الإيمان.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا ولاءهم؛ وهو النصرة والمحبة في غير موضعهما، فولاء المؤمن للمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ثم أمر الله سبحانه النبيَّ ﷺ أن يوضِّح هذا المبدأ الإسلامي للمسلمين، ويفصّله لهم أكملَ تفصيل، فقال:

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾.

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ الذين توقِّرونهم وتعتزون بالانتساب إليهم.

وكان العربُ في عصر التنزيل شديدي التمسك بأنسابهم، ولهذا قدَّمهم سبحانه بالذكر.

﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ وهم أقربُ الناس إلى الإنسان، وأحبُّهم إليه.

﴿وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ الذين تجمعكم بهم رابطة النسب وأرومته.

﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ اللاتي تجمعكم بهنَّ رابطة الزوجية.

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وهم أقاربكم الذين تعيشون بينهم وتعاشرونهم.

﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: بذلتم الجهدَ في تحصيلها واكتسابها، فالإسلامُ يقوم على المبادئ لا على المصالح، كما هو حال كثير من الناس في العصر الحاضر، كما مرَّ معنا.

﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بسبب انشغالكم عنها بما كَلَّفكم سبحانه به من الهجرة والجهاد، وهو كناية عن تعطل مصالحهم المادية.

﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: بيوت تحبُّون السكنى فيها لطيبها وحسنها، وللذكريات الجميلة التي تربطكم بها وتشدكم إليها.

فإذا كانت هذه الأشياء المحبوبة طبعاً وفطرة للإنسان:

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فمحبَّة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فوقَ كلِّ محبَّة في قلب المؤمن، ولما قال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه: واللهِ يا رسولَ اللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يؤمِنُ أَحدُكُم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسِهِ**» فقال عمر: فأنتَ الآنَ واللهِ أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**الآنَ يا عمرُ**» [رواه البخاري (٦٦٣٢)].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «**لا يؤمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليه من والدِهِ وولدِهِ والناسِ أجمعين**» [رواه مسلم (٤٤)].

﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ وحبُّ الجهاد في سبيل الله تعالى من محبَّته سبحانه، وقرن حبَّ الجهاد في الآية الكريمة مع حبِّ الله ﷻ وحب رسوله عليه الصلاة

والسلام، تنويهاً لشأنه، وتنبيهاً على أنه ممَّا يجب أن يُحبَّ فضلاً عن أن يُكره[(١)].

﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ فانتظروا حتى ينزل بكم العذاب.

ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٦]، إذ المراد كراهيته بمقتضى هوى النفس وطبعها، وليس المراد من الآية الحبّ الطبيعي التابع لهوى النفس، فهذا الحبُّ ليس داخلاً تحت اختيار الشخص، بل هو خارج عن حدِّ الاستطاعة، فلا مؤاخذة به، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، بل المراد الحبُّ العقلي الاختياري، الذي هو إيثارُ ما يقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف الطبع، ألا ترى أنَّ المريض يكره الدواء المُرَّ بطبعه، ومع ذلك يميل إليه باختياره، ويهوى تناوله بمقتضى عقله، لما علم أو ظنَّ أن صلاحه فيه[(٢)].

ولهذا قيَّد أكثر المفسرين الحُبَّ المطلوب في الآية بالحبِّ الاختياري دون الطبيعي[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يرشد الخارجين عن محبَّة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، ولا يوفِّقهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وفي الحديث الشريف: «**إذا تبايعتُم بالعِيْنَةِ، وأخذتُم بأذنابِ البَقَر، ورضيتُم بالزرع، وتركتُمُ الجهادَ، سلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا، لا ينزِعُه حتَّى ترجعوا إلى دينكم**» [رواه أحمد (٢/ ٤٢) وأبو داود (٣٤٦٢)].

فالآية تدلُّ على أنَّ الدين يجب أن يكون الأول في حياة الإنسان، فإذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا، وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا[(٤)].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٥٥.
(٢) انظر: شرح الشفا: ٣/ ٥٣٩.
(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/ ٩٧؛ وتفسير أبي السعود: ٤/ ٥٥.
(٤) تفسير الخازن: ٣/ ٩٨.

قال العلَّامة النسفي ﷺ: «والآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين»[(١)].

وماذا يقول النسفي الذي عاش في القرن السابع الهجري لو أدرك القرن الخامس عشر الهجري، الذي غلبت على الناس فيه قيم الحضارة المادية وأخلاقها المنحلَّة، وأصبحت المصالح المادية محور حياة أكثر الناس وهدفهم الأساس الأول، وجعلها كثير منهم وثناً يُعبد من دون الله تعالى.

نسأل الله العلي القدير أن يتداركنا بلطفه، فالآية كما قال الآلوسي: شديدةٌ على الناس، لأنّها أمرتهم أن يتخلَّصوا من شيء، لا يتخلَّص منه إلا مَنْ تداركه الله بلطفه[(٢)].

وهكذا كان حال سيدي الشيخ محمد الحامد ﷺ، فقد كان من الصفوة النادرة في هذا العصر الذين أخلصوا لله تعالى إخلاصاً قدَّموا فيه محبة الله تعالى ورسوله ﷺ على كلِّ المحبوبات.

ولا يعني تحريمُ موالاة الكفار ولو من ذوي القربى، قطع جميع الصِّلات بهم، والكف عن دعوتهم، وترك برهم ومساعدتهم، فالاستمرار بدعوتهم إلى الإسلام أمر مطلوب، كما أن برَّ الأقارب منهم ومساعدتهم غير ممنوع، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة].

- **يوم حنين:**

يجب أن يكون ولاء المسلم لله تعالى وحده، ثم لأوليائه سبحانه، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

والولاء لله تعالى يقتضي التوكلَ عليه سبحانه وحده، والاستعانةَ به وحده،

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٩٨.

(٢) روح المعاني: ١٠/ ٧١.

وعدم الاعتمادِ على غيره، ولهذا جاءت الآيات الكريمة تذكِّرهم بالدرس البليغ الذي لقَّنهم سبحانه إياه يوم حنين، بقوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ﴾ أي: في معارك كثيرةٍ كبدر والخندق وقريظة وخيبر، مع أنهم كانوا أقلَّ عَدداً وعُدداً من أعدائهم.

ونَصَرهم سبحانه أيضاً يوم حنين:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ﴾كانت بعدَ فتح مكة في شوَّال من سنة ثمانٍ من الهجرة، وهي آخر المعارك التي باشر النبيُّ ﷺ فيها القتال مع العرب المشركين في أرض العرب.

فبعد فتح مكة المكرمة عزَّ على الوثنيةِ العربيةِ أن ترى رايةَ التوحيد تخفق في رحاب مكة المكرمة، وأن تتحطم الأصنامُ والأوثانُ التي كانت فيها، فاجتمعَ رؤساء القبائل المشركة، ثقيف وهوازن والقبائل المجاورة لها في الطائف على مالك بن عوف النصري سيد هوازن، وحشدوا جموعهم بين مكة والطائف وراء عرفات إلى جهة الشمال في وادي حُنين.

ولمَّا علم رسول الله ﷺ بجموعهم هذه واستطلع أخبارهم، خرج بجيش الفتح، وكانوا عشرة آلاف، وانضمَّ إليهم من الطلقاء في مكة ألفان.

ويبدو أنَّ انتصارات المسلمين المتوالية، والتي توَّجها فتحُ مكة المكرمة، جعل بعضَهم يزهو ويعجبُ بكثرة عددهم، حتى قالوا: لن نُغلب اليوم من قلَّة.

وبدأ القتال قبل طلوع الشمس في غَلَسِ الصبحِ، روى ابن إسحاق بسند صحيح: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنه قال: انحدرنا في وادٍ من أوديةِ تهامةَ أجوفَ حَطوط ـ كثير الميل ـ إنَّما ننحدِرُ فيه انحداراً في عمايةِ الصُّبحِ، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا

وتهيؤوا وأعدوا، فواللهِ ما راعنا، ونحنُ منحطُّون، إلا الكتائب قد شدُّوا علينا شدَّةَ رجلٍ واحدٍ، وانشمرَ الناسُ راجعين، لا يلوي أحدٌ على أحدٍ، وانحاز رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: «**أيها الناسُ هلمُّوا إليَّ، أنا رسولُ اللهِ، أنا محمَّدُ بنُ عبدِ الله**» قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، وانطلقَ الناسُ، إلا أنه قد بقي مع رسولِ اللهِ ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد(١).

وعن **العباس** رضي الله عنه قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يومَ حنين، فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسولَ اللهِ ﷺ فلم نفارقه، ورسولُ اللهِ ﷺ على بغلةٍ له بيضاءَ، أهداها له فروة بن نُفاثة الجُذامي، فلمَّا التقوا: المسلمون والكفار، ولَّى المسلمون مدبرين، فطفِقَ رسولُ اللهِ ﷺ يركِضُ بغلته قِبَلَ الكفار، وأنا آخذٌ بلجامِ بغلته أكفُّها إرادةَ ألا تسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عباسُ نادِ أصحابَ السَّمُرة**(٢)» فقلتُ بأعلى صوتي: أينَ أصحابُ السَّمُرة؟ فواللهِ! لكأنْ عطفتُهم حين سمعوا صوتي عطفةَ البقرِ على أولادِها، فقالوا: يا لبيكَ، يا لبيكَ، فاقتتلوا والكفار... ثم أخذ رسولُ اللهِ ﷺ حُصيَّاتٍ، فرمى بهنَّ وجوهَ الكفار، ثم قال: «**انهزموا وربِّ محمَّدٍ**» فواللهِ ما هو إلا أنْ رماهم بحُصيَّاته، فما زلتُ أرى حدَّهم كليلاً، وأمرَهم مدبراً حتى هزمهم الله. [رواه مسلم (١٧٧٥)].

- **الإعجاب بالكثرة:**

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ عندما قال بعضهم: لن نغلبَ اليوم من قلَّةٍ، كما مرَّ معنا.

وذكر ابنُ الجوزيِّ روايةً عن سعيد بن المسيب: أنَّ القائل لذلك أبو بكر

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/٦٦.

(٢) الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.

الصديق، وحكى ابن جرير الطبري أنَّ القائل لذلك رسولُ اللهِ ﷺ، وفيه بُعْدٌ، لأنه ﷺ كان في جميع أحواله متوكلاً على الله ﷻ، بل نظره إلى ما يأتي من عند الله ﷻ من النصر والمعونة[١].

وتوجيه الخطاب في الآية ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى الصحابة يدلُّ دلالةً قاطعةً على أن النبيَّ ﷺ لم يقل هذه الكلمة، ولا يعقلُ أن يصدرَ مثلها عنه ﷺ أبداً.

ومن المستبعد أيضاً أن يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد قالها، وقد أثبتت الروايات الصحيحة أنَّه من القلَّة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا، والآية خاطبت الفارِّين عن رسول الله ﷺ في حنين، ولا شك أن الذين قالوا تلك الكلمة كانوا منهم، ولعلَّ الذين نسبوها إلى أبي بكر صحَّفوا رواية ابن إسحاق المذكورة في السيرة؛ وهي: وحدثني بعضُ أهل مكة أنَّ رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين، ورأى كثرة من معه من جنود الله: لن نغلب اليوم من قلَّة. قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها[٢].

وفرق كبير بين رجل من بني بكر وبين أبي بكر، وكلا الروايتين لابن إسحاق غير صحيحتين للمجاهيل في سنديهما.

ولعلَّ الذي نسب هذه الكلمة إلى النبي ﷺ، أخذها من قوله: «**خير الصحابة أربعة، وخيرُ السرايا أربعمئة، وخيرُ الجيوشِ أربعة آلاف، ولا تهزم اثنا عشر ألفاً من قلَّة**» [رواه أحمد (١/ ٢٢٤) وأبو داود (٢٦١١) والترمذي (١٥٥٥)].

والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الحديث في غير هذه المناسبة.

والكلمة في حدِّ ذاتها لا شيء فيها، إلا إذا صاحبها ما صحبها من الإعجاب[٣] الذي أنكرته عليهم الآية في قوله تعالى:

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٩٨.

(٢) السيرة النبوية: ٤/ ٦٦، **قلت**: ومعناه على هذا التقدير: أننا إن غلبنا فلن يكون سبب ذلك قلة العدد، بل السبب هو الغرور بالكثرة، وعدم أخذ الحيطة ونحو ذلك (ن).

(٣) روح المعاني: ١٠/ ٧٤.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم تنفعكم تلك الكثرة، ولم تدفع عنكم عدوَّكم.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: ضاقت مع سعتها عليكم من شدَّة ما اعتراكم من الرعب والخوف.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي: منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: أنزل رحمته التي تسكن بها القلوبُ وتثبت، فلا تتزلزل، ولا تضطرب: على رسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبتوا بجانبه، والذين رجعوا إليه بعد أن سمعوا نداء العباس رضي الله عنه.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ بأبصاركم، وهم الملائكة.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والهزيمة.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا.

ثم فتح سبحانه لهم باب التوبة، وأطمعهم برحمته ومغفرته فقال:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٧)﴾.

وجاء بعد ذلك وفدُ هوازن إلى رسول الله ﷺ تائبين مسلمين، وسألوه أن يردَّ إليهم أموالهم وسبيهم، فخيَّرهم ﷺ بين سبيهم وأموالهم، فاختاروا السبي، فرده عليهم. [رواه البخاري (٤٣١٨ و٤٣١٩)].

- **تعظيم بيت الله الحرام:**

وتستدعي البراءةُ من المشركين ـ المعلنة في صدر السورة ـ تطهيرَ بيت الله الحرام من المشركين، ومنعهم من الاقتراب منه، فبيتُ الله الحرام رمز توحيد

المسلمين ووحدتهم، يستقبلونه في صلاتهم، ويأتون إليه من كل فجٍّ عميق، حاجِّين ومعتمرين، يجب أن ينزَّه عن أي أثر للشرك والمشركين، صيانة لحرمته التي أوجبها الله تعالى له منذ خلق السماوات والأرض. ولهذا قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٢٨﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ أخبر عنهم بالمصدر ﴿نَجَسٞ﴾ للمبالغة في ذمِّهم، فكأنهم عين النجاسة، أو لأنهم ذوو نجاسة، لخبث بواطنهم، وفساد عقائدهم، ولأنهم أيضاً لا يتطهَّرون، ولا يجتنبون النجاسات.

والجدير بالذكر أنَّ جمهور الفقهاء لا يرون نجاسة أبدانهم، وأنَّ المراد من الآية خُبْثُ بواطنهم وعقائدهم.

﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ أي: لا تمكِّنوهم من الاقتراب من المسجد الحرام؛ والمراد أرض الحرم، والآيةُ دليلٌ لمن يقول: الحرم كلُّه مسجد.

﴿بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ وهو العام التاسع من الهجرة، ولم يحجَّ فيه النبي ﷺ لكي لا يتأذَّى برؤية المشركين يحجُّون ويطوفون بالبيت عراةً، ولهذا أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لينادي في المشركين: «**أَلَّا يحجَّ بعدَ العام مُشْرِكٌ، ولا يطوفَ بالبيت عريانٌ**» [رواه البخاري (٤١٥٥) ومسلم (٦٦)]، ويعلمهم بالبراءة ونبذِ العهود، كما مرَّ معنا في أول السورة.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ﴾ أي: فقراً، بسبب منع المشركين من الحرم، وانقطاع ما كان أهل مكة يستفيدونه من قدومهم عليهم من المكاسب والأرزاق.

﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ فالرزق متعلِّق بمشيئته تعالى وتقديره، وقد أغناهم سبحانه فعلاً، إذ انتشر الإِسلام في أرض العرب، ودخل

الناس في دين الله أفواجاً، كما أغناهم سبحانه أيضاً بما فتح عليهم من الفتوح حتى غنموا كنوز كسرى وقيصر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع، ويحرِّم ويشرِّع.



## الفصل الثاني

# أهلُ الكتَاب

## عَقائدُهُم وفضائحُ أحبَارِهِم وَرُهبَانِهِم

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ۝٣٥ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٣٦ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ

ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

- **تمهيد:**

كانت الآياتُ السابقةُ من أول السورة تركِّز على انتشار الإسلام في أرض العرب، وتهتمُّ باجتثاث الشرك، وتخليص المجتمع العربي منه، ويلاحظ أنَّ أحكام الآيات الكريمة قطعيةٌ نهائيةٌ، لأنها جاءت كبلاغ أخير، وإنذار نهائي، فغلب عليها الإنذار والوعيد والتهديد، مع شيء من الترغيب، فالدعوة الإسلامية قائمة ومستمرَّة، ولا تتوقف في أي ظرف من الظروف، والإسلام لا يوصل الناس - مهما كانت جرائمهم وذنوبهم - إلى اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

وقد نجحَ أسلوبُ البلاغ الأخير والإنذار القطعي النهائي المتبع في هذه السورة الكريمة نجاحاً كبيراً، إذ انقادَ العربُ المشركون للدين الجديد، فدخلوا فيه أفواجاً، ولم ينته العام التاسع الهجري حتى جاءت إلى المدينة المنوَّرة وفودُ العربِ من أطراف شبه الجزيرة العربية تبايعُ النبيَّ ﷺ، وتعلن دخولها في الإسلام، ورضاها بأحكام شريعته.

- **مشروعية الجزية وحقيقتها:**

وبعد أن انتشر الإسلام في أرض العرب وتمكَّن فيها، أمر الله تعالى

المسلمين أن يمدُّوا رواق الدعوة والجهاد إلى البلاد المحيطة بهم؛ فرسالة الإسلام عامة، وهي للناس كافة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وبدأت الآياتُ بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، لكثرة مخالطتهم للعرب، وقرب البلاد التي يغلبون عليها من شبه الجزيرة العربية؛ قال تعالى:

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان الصحيح.

﴿بِٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: ولا يؤمنون باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، كما بينه تعالى في كتبه وعلى لسان أنبيائه ورسله.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بالقرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، أو لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل انصرفوا عنهما، وابتدعوا أحكاماً تخالفُ ما شرع الله تعالى فيهما.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ الذي هو دين الإسلام، القائم على الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ الآية [آل عمران: ١٩].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى.

﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: حتى يعطوا الجزية عن قهر وغلبة وهم ذليلون.

**والجزية**: من الجزاء، مقدار من المال يؤديه المستطيعون منهم إلى بيت مال المسلمين، كدليل مادي يدلُّ على انقيادهم لحكم الإسلام، ورضاهم بالعيش تحت سلطانه وفي كنفه، وفي مقابل ذلك يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يُكرهون على الدخول في الإسلام، ولا يُمنعون من ممارسة طقوسهم وعباداتهم، كما لا يُمنعون عن شيء يعتقدون أنه حلال في ملَّتهم كأكل الخنزير وشرب الخمر.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من ظُلمهم والاعتداء عليهم، فقال: «**ألا مَنْ ظلَمَ معاهَداً، أو انتقصَهُ، أو كلَّفَه فوقَ طاقتِهِ، أو أخذَ منه شيئاً بغيرِ طيبِ نفسِهِ؛ فأنا حَجِيْجُهُ يومَ القيامةِ**» [رواه أبو داود (٣٠٥٢)].

وفي الآية الكريمة دلالةٌ واضحة على مدى القوَّة والعزَّة التي بلغتها الدعوة الإسلامية عند نزولها، والتي يجب أن تكون كذلك دائماً، وفيها أيضاً بيان للأسلوب الذي يجب على المسلمين اتباعه في مجال التعامل مع أهل الكتاب.

- **شرك أهل الكتاب:**

ثم جاء قوله تعالى التالي على وجه التقرير والتأكيد لما وصف به أهل الكتاب في الآية السابقة، وكذلك على سبيل الإغراء للمؤمنين على قتالهم:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ الذين كانوا في المدينة المنوَّرة.

﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ واليهود يقدسون عزيراً، فهو الذي أعاد كتابةَ التوراةِ بعد أن أُحرقت في أثناء هجوم البابليِّين عليهم في عهد نبوخذنصَّر الملك البابلي.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فهو الواحد الأحد، المنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء].

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يجري على ألسنتهم فقط، من غير فهم، أو تعقُّل، أو تفكُّر فيه، فهو قول بعيد عن الحق، لم يستحيوا عن التلفظ به مع سخافته وظهور بطلانه، ولهذا ترى أكثر النصارى يعدُّون عقيدة التثليث أمراً غيبيّاً وراء عقولهم، ولا مستندَ لهم في ترديد هذا القول الباطل سوى تقليد سلفهم من آبائهم وأجدادهم، ولهذا قال تعالى:

﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: يشبه قولهم هذا قول الذين كفروا من قبلهم[1]، فالكفر قديم فيهم، يتوارثه الخلف عن السلف.

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وهو دعاء عليهم، وتعجيب من بشاعة قولهم.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل، ومع سخافته وبطلانه فهو كبير وشديد القبح في حق الله تعالى القائل: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم].

**• عبادة أهل الكتاب للأحبار والرهبان:**

ثم فصَّلتِ الآياتُ كيف أنَّ أهل الكتاب لا يحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله ﷺ، وأنهم لا يدينون دين الحق، باتخاذهم ما يسمونهم رجال الدين أرباباً

---

(١) انظر كتاب: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، للأستاذ محمد طاهر التنّير، فقد بين أن التثليث كان معروفاً عند الفراعنة والبوذيين والهنادك (ن).

يقدِّسونهم، ويطيعونهم طاعة عمياء، حتى لو شرعوا لهم أحكاماً تخالف دين الله تعالى وشرعه؛ قال تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأطاعوهم في تحليل ما حرَّم الله، وفي تحريم ما أحلَّ الله تعالى.

ولما دخل **عَدِيُّ بن حاتم الطائي** ـ وهو على نصرانيته، والصليبُ في عنقه ـ على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ اعترض عدي فقال: إنَّهم لم يعبدوهم، فقال ﷺ: «**بلى إنَّهم حرَّموا عليهم الحلالَ، وأحلُّوا لهم الحرامَ، فاتبعوهم، فذلك عبادتُهم إيَّاهم**» [رواه الترمذي (٣٠٩٥)].

فطاعة الذين يبتدعون شرائع وقوانين تخالفُ شريعة الله تعالى عبادة لهم من دونه سبحانه، إذ حَقُّ التشريع لله تعالى وحده، فهو الخالق وحده، وهو الآمر والمُشَرِّع وحده سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

فالحكم له وحده، والطاعة يجب أن تكون لدينه وشرعه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: واتخذوا المسيح ابن مريم إلٰهاً، وجعلوه بزعمهم ابناً لله ﷻ، ورفعوه عن مقام عبوديته لله تعالى ﷻ، ولهذا حكم سبحانه بكفرهم فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه هنا أيضاً:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى وتنزه وتقدس عن الشريك والصاحبة والولد.

- **معارضة الأحبار والرهبان لدعوة الإسلام:**

ولا شكَّ أنَّ **الإسلام** بعقيدته الواضحة النقية عن أي شائبة من شوائب الشرك، وبشريعته التي لا يستطيع أحد أن يعبثَ فيها، **خطرٌ** يهدِّدُ باطلهم وكفرهم، ولهذا أعرضَ أكثرُ أهل الكتاب عنه، وقاوموا انتشاره بتحريض من أحبارهم ورهبانهم، ووصف سبحانه ذلك بقوله:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام الذي جعله سبحانه نوراً يهتدون به ويسترشدون، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: بما يصدر عن ألسنتهم من كفر وكذب وافتراء.

وما أكثر حملات التشويه للإسلام والافتراء عليه التي شنَّها اليهود والنصارى ـ ولا يزالون ـ لطمس حقيقة الإسلام الناصعة، وتشويه صورته الجميلة، لصدِّ الناس عنه، وتنفيرهم منه، ويقف على رأس هذه الحملات، ويتولى كِبْرها المستشرقون وزعماء التنصير، وأكثرهم من كبار الأحبار والرهبان، ويسخِّرون لهذه الغاية كلَّ ما لديهم من وسائل الإعلام، ويوجهونها إلى بلاد المسلمين آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد نقية صافية، وحفظ شريعته تامة كاملة، فالإسلام لا يزال بحمد الله تعالى قائماً في الساحة ثابتاً

قويّاً، يضيءُ الدربَ للحائرين بنوره وسنائه وجماله وبهائه، والدعوة الإسلامية مستمرةٌ بحمد الله تعالى، حتى في عُقر دورهم وقلب بلادهم.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ظهوره وانتشاره.

فالإسلام دين الله تعالى الذي رضيه للناس إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وسيأتي الوقت إن شاء الله تعالى الذي لا يُعْبَدُ فيه غيرُه تعالى في الأرض كلِّها، فلا يبقى فيها غير دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان.

فليطمئنَّ الدعاةُ إلى هذا الوعد الكريم من الله تعالى، الذي لا خُلْفَ في وعده، ولتقرَّ أعينهم، وليستمرُّوا على طريق الدعوة بأقدام راسخة، وكلُّهم أمل ورجاء في رحمة الله تعالى ونصره وتأييده، فأعلامُ الحقِّ ستبقى بإذن الله تعالى عالية خفاقة.

عن **تميم الداري** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخلَه هذا الدينَ، بعزِّ عزيزٍ، أو بذلِّ ذليلٍ، عزّاً يعزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذلّاً يذلُّ اللهُ بِهِ الكفرَ**» [رواه أحمد (٤/ ١٠٣)].

ويلاحظ أنَّ الله تعالى وصفَ اليهود والنصارى في ذيل الآيتين السابقتين بصفتي الكفر والشرك.

- **من فضائح الأحبار والرهبان:**

وكشفتِ الآياتُ للمسلمين بعضَ فضائح أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين اتخذهم اليهود والنصارى أرباباً من دون الله تعالى، وبيَّنت كيف استغلوا

مناصبهم الدينية لمصالحهم الدنيوية، وجاء الخطابُ للمسلمين على سبيل التحذير لهم من تقليدهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: بالاحتيال والخداع والغش، وقد تمثَّل أكلهم لأموال الناس بالباطل في صور شتى:

منها: **ما يأخذونه على تحليل الحرام، وتحريم الحلال**، لصالح أصحاب المال والسلطان.

ومنها: **ما يأخذُه القِسِّيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا، وغفرانه لها في زعمهم.**

ومنها: **ما يجمعونه من أموال الناس لما يسمُّونه التنصيرَ** ومقاومة انتشار الإسلام، وقد جمع الكرادلةُ والبابوات والأساقفة والرهبان أموالاً كثيرة طائلة في الحروب الصليبية، ولا يزالون يجمعون الأموال للتنصير والاستشراق للصدِّ عن سبيل الله[1].

ومن فضائحهم في العصر الحاضر ما تناقلته الصحفُ ووسائلُ الإعلام في أمريكا عن القس «جيمي سويجارت» وما جمعَ من أموال طائلة بلغت سنويّاً مئة وأربعين مليون دولار، وأنه يعيشُ في قصر كلَّف بناؤه مليون دولار، ويتنقَّل بطائرة خاصة له خارج ولايته، وأنَّه منغمس في الرذائل، ومثله أيضاً القس «جيمي بيكسر» الذي قُدِّرَ دخلُه السنوي بمئة وتسعة وعشرين مليون دولار، وقد

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٦٤٥.

اعترفَ بأنَّه كان يمارس الزنَى مع إحدى موظفاته، كما اعترفت زوجتُهُ بالإدمانِ على المخدرات[١].

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: ويمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام، فهم إلى جانب أكلهم للمال الحرام، يصدُّون الناس عن اتباع الحق بكل ما لديهم من وسائل المكر والكيد والاحتيال.

ثم توعَّد سبحانه كل من يتشبَّه بهم، وذلك بجمع المال، ومنع حقوق الله تعالى الواجبة فيه، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذين يجعلهم حبُّ المال والحرص على جمعه يمتنعون عن إنفاق شيء منه في الوجوه التي شرعها الله تعالى.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

**والكنز**: هو المال الذي لا تؤدَّى منه النفقاتُ الواجبة على أصحابه، كالزكاة، قال **ابن عمر** رضي الله عنهما: هو المال الذي لا تؤدَّى زكاته، فما أُدِّيت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدَّى زكاته فهو كنز[٢]، لأنَّ الزكاةَ والنفقاتِ الأخرى الواجبة تنقصه، وقد تأتي عليه كلّه مع مرور السنين إذا لم يثمِّره صاحبه.

ويؤيد هذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ: «**من آتاهُ اللهُ مالاً، فلمْ يؤدِّ زكاتَه، مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شجاعاً أقرعَ** ـ أي: ثعبان سقط شعره لشدة حرارة سُمِّه ـ **له زبيبتان، يطوِّقه يومَ القيامةِ، ثم يأخذُ بلهزِمَتَيْهِ** ـ يعني بشدقيه ـ **ثم يقولُ: أنا مالُكَ، أنا كنزُكَ**» ثم تلا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. [رواه البخاري (١٤٠٣)].

---

(١) أخبار العالم الإسلامي، عدد: ١١٠٧، ٢٣/٦/١٤٠٩هـ = ٣٠/١/١٩٨٩م.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/١٣٩.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

كما قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ، لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كانَ يومُ القيامةِ، صُفِّحَتْ له صفائحَ من نارٍ، فأُحْمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُهُ وجَبِيْنُه وظَهْرُهُ، كلَّما بردتْ أُعيدَتْ له، في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقضَى بينَ العبادِ، فيرى سبيلَه، إمَّا إلى الجنَّةِ، وإما إلى النَّارِ**» [رواه مسلم (٩٨٧)].

- **العابثون بالأشهر الحُرُم:**

ثم تطرَّقت الآياتُ إلى ذكر حالاتٍ كانت عند العرب في الجاهلية تشبِهُ ما عليه الأحبار والرهبان عند أهل الكتاب، إذ كان بعض أصحاب المناصب الدينية في الجاهلية يستغلُّون مكانتهم ومناصبهم، فيعبثون في أوقات العبادات، ويغيِّرون مواضع الشهور عن مواقعها الأصلية في السَّنَة، اتباعاً لأهوائهم، ومراعاة لمصالحهم.

ذكرت الآياتُ أولاً عدد الشهور القمرية في السَّنَة، وأنه سبحانه جعل أربعة منها حُرُماً:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: أي في كتاب

القدر الذي قدره العليم الحكيم.

﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: ذو القعدة، وذو الحجَّة، والمحرم، وشهر رجب.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم، الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان العرب متمسكين به، فكانوا يعظِّمون الأشهر الحرم، ويتركون القتال والغزو فيها.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا تظلموا في الشهور المحرمة أنفسكم بارتكاب المعاصي ومقارفة الآثام، فالمعاصي والآثام أكثر إثماً وأشد قبحاً منها في غيرها من الشهور لحرمتها.

وحتى لا يظنَّ أحدٌ أنَّ الجهاد يتوقف في الأشهر الحُرُم، لأنَّ العربَ كانوا يمتنعون عن الغزو والقتال فيها، قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ مجتمعين متناصرين.

﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم، فهو أمرٌ عام بقتال المشركين في جميع الأوقات، يبين أهميةَ التقوى ودورَها في استنزال نصر الله تعالى ومعونته.

ثم بعد هذه المقدمة عن الشهور وعددها والحُرُمِ منها، بيَّنت الآيات حكمَ العبث فيها، وتغييرها عن مواضعها، بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: إنَّما النسيءُ كفرٌ على كفرٍ، لأنَّه تحليلُ ما حرَّمه الله، وتحريم ما أحلَّه سبحانه.

**والنسيءُ**: تأخيرُ شهر حرام إلى شهر آخر، يفعله رجل من كنانة، وكان

يقومُ في موسم الحج، فيعلِنُ تأخير المحرَّم إلى صفر، فإذا فعل ذلك عقدوا أوتار القسي، وركَّبوا الأسنَّة في الرماح، وأغاروا[١].

﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ضلالاً زائداً إلى ضلالهم، أو يُضِلُّ به زعماءُ الكفر أتباعَهم، كما كان الأحبار والرهبان يضلُّون أتباعهم.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ أي: يحلُّون الشهر الحرام في عامٍ بتأخيره عن موضعه، ويتركونه على حرمته في عام آخر، بحسب أهوائهم ونزواتهم.

﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ ليوافقوا عدَّة الشهور المحرمة الأربعة.

﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ اتباعاً لأهوائهم، مما يؤدي إلى اختلال القيم والموازين، وتضارب المصالح، والفوضى في المعاملات، ولهذا قال سبحانه:

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ أي: حُبِّبت لهم أعمالهم السيئة إما من قِبَل الشيطان أو من قِبَل نفوسهم الخبيثة.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

ومن رحمة الله وفضله على الأمة المسلمة أنه قدَّر أن تعودَ الشهورُ إلى مواقعها الأصلية في السنة العاشرة من الهجرة، التي حجَّ فيها النبيُّ ﷺ، وأعلن ذلك في خطبته، فقال: «**إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئته يومَ خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعةٌ حرمٌ، ثلاثٌ متوالياتٌ: ذو القعدةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورجبُ مضر الذي بين جُمادى وشعبانَ**» [رواه البخاري (٥٥٥٠)].

**● غزوة تبوك:**

وانتقلت الآياتُ بعد الحديث عن أهل الكتاب، وضلال عقائدهم، وفساد

(١) انظر: تفسير الخازن: ٣/ ١٢٠.

أحبارهم ورهبانهم، إلى الحديث عن محاولتهم العدوانَ على الدولة المسلمة الفتية، ومحاولتهم القضاء عليها، وما فعله النبي ﷺ لرد عدوانهم.

ويظهر لنا بهذا الاتساق والارتباط بين آيات السورة الكريمة، ولا شكَّ أنَّ الأمر بقتال أهل الكتاب، وبيان ضلالهم وفساد أحبارهم ورهبانهم، له صلة بالبراءة العامة المعلنة في صدر السورة، وهو توطِئةٌ وتمهيدٌ للحديث عن أعظم الأعمال العسكرية التي ختمَ بها النبيُّ ﷺ سجلَّ مفاخره العسكرية في حياته المليئة بجلائل الأعمال، وهي **غزوة تبوك**، التي كانت مفتاحَ الفتوح الكبيرة التي تمَّت بعدَه عليه الصلاة والسلام بأيدي خلفائه وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم[١].

تحدَّى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أقوى دول الأرض قاطبةً في ذلك الزمن، وهي الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تعدُّ نفسها حاميةَ أهل الكتاب، ورافعةَ لواء النصرانية، والتي امتدَّ سلطانُها إلى القارات الثلاث المعروفة في ذلك الوقت: أوروبة، وجنوب غربي آسية، وشمال إفريقية، وكانت قد انتصرت على الدولة الفارسية التي كانت تنازعها السيادة في العالم، وطردتها من جنوب بلاد الشام، وكان قد سجَّل سبحانه ذلك في القرآن الكريم، قبل حدوثه ببضع سنوات، فكان كما أخبر جلّ وعلا، قال سبحانه في **سورة الروم**: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وعندما كان هرقل ملك الروم يحتفل في بيت المقدس بانتصاره على الفرس في السنة السادسة من الهجرة، جاءه كتابُ النبيِّ ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، قال له فيه:

**«من محمَّدٍ رسولِ اللهِ إلى هِرَقْلَ عظيمِ الرومِ، سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى.**

---

(١) انظر تفاصيل الغزوة في كتابنا: سيرة النبي ﷺ، ص٤٦٥، دار القلم ـ دمشق.

**أما بعدُ: فإنِّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلام، أَسلمْ تَسلَمْ، وأسلمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَكَ مرَّتين، وإنْ توليتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيين**[1] و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]» [رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له].

وكان هذا الكتابُ أولَ احتكاكٍ للنبيِّ ﷺ بأكبر قوة نصرانية في العالم.

وبعثَ النبيُّ ﷺ أيضاً رسالةً إلى ملك غسَّان الموالي للروم، والذي كان نصرانيّاً أيضاً، يدعوه فيها إلى الإسلام، فغدَرَ برسولِ رسولِ اللهِ ﷺ وقتلَه، فأرسل عليه الصلاة والسلام جيشاً بقيادة الأمراءِ الثلاثةِ الشهداءِ: زيدِ بنِ حارثة، وجعفرِ بنِ أبي طالب، وعبدِ اللهِ بنِ رواحة، وحدثت **معركةُ مؤتة** في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وكانت أوّلَ قتالٍ بين المسلمين وبين نصارى الروم والعرب في بلاد الشام.

عرف الرومُ خطرَ الإسلامِ عليهم، فعزموا على القضاء عليه، وأخذوا يحشدون جيوشهم في المشارف الجنوبية للبلقاء من أرض بلاد الشام، واستنفروا القبائل العربية الموالية لهم: غسَّان ومَنْ معها، ليكونوا طليعة لجيوشهم.

وجاءت أخبارُ الحشود الرومية والقبائل المتنصِّرة إلى المدينة المنوَّرة وانتشرت بين الصحابة، حتى قال عمر رضي الله عنه: كُنَّا نتحدَّثُ أنَّ غسَّان تنعل الخيل لتغزونا. [رواه البخاري (٤٩١٣)].

وقوله: **(تنعل)** أي: تضع صفائح الحديد في حوافر الخيل.

- **النفير العام:**

ورأى رسول الله ﷺ أنَّ الهجومَ خيرُ وسيلةٍ للدفاع، وأنَّ الخروجَ إليهم أفضلُ من انتظارِ هجومهم على المدينة المنوَّرة، فعزمَ على الخروج والتوجه إلى

---

(١) عامة الناس من رعايا الدولة. وللأريسيين معنى آخر فصَّله السيد أبو الحسن الندوي في كتابه: السيرة النبوية، ص٣٠٦، فانظره ثَمَّ.

تبوك في الشمال من أرض العرب، وحشد رسول الله ﷺ في جيش تبوك جنودَ اللهِ من جميع القبائل العربية المسلمة، وسخَّر كلَّ ما كان عنده وعند أصحابه من الإمكانات لهذا الجيش، وأمر الناسَ بالاستعداد، وجلا لهم أمرَهم، ليتأهَّبوا ويستعدُّوا، على خلافِ عادته، فما غزى غزوةً إلا ورَّى عنها، إلا في غزوةِ تبوك.

وأنزل الله تعالى الآيات الكريمة التالية تستنفر المؤمنين وتحضهم على تلبية الدعوة إلى الجهاد، وتعاتب المتخلفين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: قيل لكم: اخرجوا مسرعين بجد ونشاط.

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: تثاقلتم وتباطأتم عن الخروج إلى الجهاد، وملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاقَّ السفر.

والجديرُ بالذكر أنَّهم استُنفروا في وقتِ عسرةٍ وقحطٍ وقيظٍ، مع بُعدِ الشُّقَّةِ، وكثرةِ العدو وقوَّته، فشقَّ عليهم ذلك.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ أي: أرضيتم بالدنيا الزائلة الحقيرة بدل الآخرة ونعيمها الدائم.

﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: فما التمتع بالحياة الدنيا في جنب الآخرة إلا شيءٌ قليل حقير.

قال رسول الله ﷺ: «**ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بِمَ يرجع**» [رواه مسلم (٢٨٥٨) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨)].

ثم انتقلت الآياتُ من العتاب إلى التهديد والوعيد:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالذلة والهوان، وفي الآخرة بالاحتراق في النيران.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يحملون رسالة الإسلام، ويتحمَّلون تبعاته الجسام، فدين الله تعالى باقٍ في الأرض إلى قيام الساعة، فإذا ضعفتم وتوانيتم عن تحمُّل أمانته، نزع الله تعالى هذا الشرفَ الكبيرَ منكم، وجعله في غيركم.

وقد ذكر سبحانه مثل هذا المعنى في عدَّة آيات، منها: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

ومنها أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ﴾ لأنَّه تعالى غني عنكم وعن جهادكم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينصر دينه ويعزُّ نبيه من دون جهادكم وقتالكم.

- **في الغار:**

والدليل على ذلك أنَّه تعالى نصرَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام، ونجاه من كيد أعدائه المشركين، عندما هاجر إلى المدينة المنوَّرة، وما كان معه عليه الصلاة والسلام أحدٌ من الناس سوى صاحبه أبي بكر الصديق ﵁:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إذا لم تنصروا النبيَّ ﷺ وتلبُّوا دعوته

إلى الجهادِ، فاذكروا كيف نصره الله تعالى.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عندما اضطره المشركونَ في مكة إلى الهجرة، بعد أن أذنَ الله تعالى له فيها.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ وهو عليه الصلاة والسلام واحدٌ من اثنين.

﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ غار ثور، وهو جبل قرب مكة المكرمة، على بعد عدة أميال إلى الجنوب منها، مكثَ فيه النبيُّ ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر الصديق، بعد أن خرج مهاجراً، ثلاثةَ أيامٍ، حتَّى هدأ بحثُ المشركين عنه، وطَلَبُهم له، قالت **عائشة** رضي الله عنها **في حديث الهجرة**: لحقَ رسولُ الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبلِ ثَوْرٍ، فكَمَنا فيه ثلاث ليالٍ... [رواه البخاري (٣٩٠٥)].

ولـمَّا اقتربَ طلبُ المشركينَ من الغارِ، وأحاطوا بهِ مِنْ كلِّ جانبٍ، وصعدوا فوقَه، خافَ أبو بكر رضي الله عنه على رسولِ اللهِ ﷺ:

فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: حدَّثني أبو بكر رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في الغارِ، فرأيتُ آثارَ المشركين، قلتُ: يا رسولَ اللهِ لو أنَّ أحدَهُم رفعَ قدمه رآنا، قال: «**ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟!**».

وفي روايةٍ ثانيةٍ بلفظ: لو أنَّ أحدَهُم نظرَ تحتَ قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: «**ما ظنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟!**» [رواه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) واللفظ للبخاري].

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والمعونة والحفظ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فأبو بكرٍ صاحبُ رسول الله ﷺ، ومن أنكرَ صحبته كفرَ، لإنكارِهِ نصَّ القرآنِ الكريم[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: مع رسولِ اللهِ ﷺ ومع أبي بكر رضي الله عنه، ففي الآية فضيلةٌ كبيرةٌ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٢٤.

وقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ يدلُّ على أنَّه أحقُّ الناس بخلافة النبي ﷺ[1].

وسبق أن مرَّ معنا دليلٌ آخر لذلك، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ **استخلفه على الحجِّ** في العام التاسع من الهجرة، وصحَّ أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام **استخلفه ليؤمَّ الناسَ في الصلاةِ**، عندما مرض ﷺ قبيل وفاته.

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي تسكن بها القلوب.

﴿عَلَيْهِ﴾ على أبي بكر رضي الله عنه، أو على النبيِّ ﷺ، والأظهر الأول، لأنه عليه الصلاة والسلام لم ينزعجْ حتَّى يسكن، فالسكينة لم تفارقه عليه الصلاة والسلام، كما قال **ابن عباس** رضي الله عنهما[2].

قال في «الفتح»: قال رسول الله ﷺ: «**أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار...**» [رواه الحاكم من طريق سعيد بن جبير عنه][3].

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ فاشلة خاسرة، وهي كلمة المشركين التي اتفقوا عليها عندما اجتمعوا بدار الندوة، واتفقوا على قتل النبيِّ ﷺ، فنجَّاه الله تعالى من كيدهم، وحفظه من مكرهم.

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ دائماً وأبداً، لأن إرادته سبحانه هي التامة النافذة، ومشيئته هي الغالبة.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلَب.

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وأمره جلَّ وعلا.

- **تلبية الدعوة:**

وبعد أن استنهضت الآياتُ هممَ المؤمنين بهذا العتاب والتهديد، وهيأت

---

(١) روح المعاني: ١٠/ ٩٩.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) فتح الباري: ٧/ ١٠.

قلوبَهم لقبولِ الأمر بالنفير والاستجابة له، توجَّهت إليهم بالأمر الموجب الملزم:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا للجهاد، سواءٌ كان خفيفاً عليكم أم ثقيلاً، ركباناً ومشاةً، شباباً وشيوخاً، أقوياء وضعفاء.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتَّم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر»[١].

﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فالجهادُ في النفير العام واجب بالنفس والمال، ومن كان قويّاً وذا مال عليه أن يقدِّمَ نفسه ويبذل ماله في سبيل الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد وثوابه العظيم عند الله تعالى، فبادروا إلى الجهاد، ولبوا دعوة النفير.

وقد لبَّى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ دعوةَ النبيِّ ﷺ إلى جهاد الروم، وبذلوا أموالهم، وخرجوا بأنفسهم، فلم يتخلَّفْ منهم سوى ثلاثة فقط من دون عذر كما سيأتي معنا.

وخرج رسول الله ﷺ بأكبر قوة عسكرية حشدها في حياته، بلغت ثلاثين ألف مجاهد، في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة، وما إنْ سمعَ الرومُ ومَنْ معهم بخروجه عليه الصلاة والسلام حتى امتلأت قلوبُهم خوفاً ورعباً، فانسحبوا من مواقعهم في تبوك، ووصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، ونصب فيها

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٤٤.

راياته، متحدياً أكبر دولة في الأرض حينئذٍ، وبثَّ سراياه في البلاد المحيطة بها، حتى وصلت إلى أيلة (العقبة) ودومة الجندل، فأخضعها لسلطانه، وأخذ من أهلها الجزية، ثم عاد ﷺ إلى المدينة المنوَّرة مظفراً منتصراً.



## الفصل الثالث

# المنافقون
# وكيفية تطهير المجتمع من مكرهم وكيدهم

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

**• توبيخ المتثاقلين:**

اتخذت الآياتُ غزوةَ تبوكٍ مناسبةً للحديث عن المنافقين وكشفهم، وتنظيف المجتمع المسلم منهم، ولمَّا كانت آياتُ السورةِ قطعيةً ونهائيةً جاءت كبلاغ أخير وإنذار نهائي لهم، وفضحت آيات السورة جميع شرائح النفاق، فلم تغادر من المنافقين أحداً إلا فضحته وكشفت أمره، حتى سُميت السورةُ **الفاضحة**، وسميت أيضاً **المبعثِرة**، لأنَّها أخرجت ما في قلوبهم ونفوسهم.

وكانت غزوة تبوك اختباراً كبيراً، محَّصت المؤمنين، وميَّزتهم عن المنافقين، وكشفت كذب الكاذبين، وأظهرت صدق الصادقين.

ولما أعلنت الآياتُ النفير العام، استجابَ المؤمنون الصادقون لدعوة الجهاد كما مر معنا، وتثاقل المنافقون وتخلَّفوا، فاتجهت الآيات إليهم توبِّخهم، وتظهِرُ عجزهم وضعفهم أمام نفوسهم وأهوائهم، قال تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دُعوا إليه.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ منفعة دنيوية سهلة المأخذ.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ سهلاً قريباً.

﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لخرجوا معك، ولبوا دعوتك.

﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ مسافة السفر، فلا تُقْطَعُ إلا بمشقة وتعب وعناء، ففي نظرهم لا يعادل ما يحصل لهم من التعب ما يرجونه من المنفعة.

فهم ذوو همم ضعيفة عاجزة قاصرة، ونفوس دنيئة مادية جشعة، لا تتحرَّكُ إلا لما يلوح لها من المنافع الأرضية الفانية، والإسلام رسالة كبيرة رفيعة، لا يقوم بأعبائها إلا أصحابُ الهمم العالية، والنفوس الكريمة الأبية.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يربِّي أصحابه على علوِّ الهمة، والتطلُّع إلى معالي الأمور، والإعراض عن سفسافها، ومن أقواله عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى: «**إنَّ اللهَ يحبُّ معاليَ الأمورِ وأشرافَها، ويكرهُ سَفْسَافَها**» [رواه الطبراني في المعجم الكبير].

وقبل أن تشرع الآياتُ الكريمةُ باستعراض شرائح المنافقين وبيان الخصال المذمومة في كلِّ شريحةٍ، بينتْ موقفَ المنافقين إجمالاً من غزوة تبوك، وأخبرت النبيَّ ﷺ بتخلُّفهم عن الخروج إليها، وأنَّهم بعد رجوع النبيِّ ﷺ منها، سيأتون إليه معتذرين عن تخلُّفهم، وهم يحلفون الأيمان الكاذبة على صحَّة اعتذارهم:

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أي: لو استطعنا الخروج إلى غزوة تبوك لخرجنا، فكأنهم تمارضوا، وادَّعوا الضعفَ والعجز عن الخروج إلى الجهاد، وحلفوا الأيمان الكاذبة على ذلك، وبهذا:

﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ لأن الأيْمان الكاذبة تهلك أصحابها، وتُعَرِّضهم لسخط الله تعالى وانتقامه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في أعذارهم وأيْمانهم.

- **شهادة ربانية:**

وسبق للمتخلفين من المنافقين أنهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يستأذنونه في

القعود وعدم الخروج، عندما كان الرسول ﷺ يستعدُّ مع أصحابه للخروج إلى تبوك، فأذن لهم ﷺ لعلمه أنَّ خروجهم معه لا نفعَ فيه، وأنه لا يُعتمد عليهم في القتال، ولهذا توجهت الآياتُ تخاطب النبيَّ ﷺ بهذا الأسلوب اللطيف:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظِّماً له: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري؟ رضي الله عنك، ما جوابك عن كلامي؟ وعافاك الله، وغفر لك، وكلُّ هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدلُّ على تعظيم المخاطب به[١].

﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في اعتذارهم.

﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فالتكليف بالجهاد ابتلاءٌ واختبارٌ يميِّزُ بين المؤمنين والمنافقين، ويظهر الصادقين من الكاذبين.

فالمؤمنون الصادقون لا يتخلَّفون عن الجهاد، ولا يأتون إلى النبي ﷺ لكي يستأذنوه في التخلُّف:

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

وفي الآية الكريمة شهادة ربانية رفيعة، أكرمهم الله تعالى بها بسبب صدقهم وإخلاصهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ في التخلُّف عن الجهاد.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٣٢.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ بسبب الشك والاضطراب الذي يملأ قلوبهم.

﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ فهم في شكِّهم واضطرابهم يتحيَّرون، فاستئذانهم يدلُّ على حالهم، ويكشفُ حقيقتهم، فالشك والقلق والحيرة والاضطراب أبرزُ الصفاتِ التي يتَّصف بها المنافقون.

ولو كانوا يريدون الخروج إلى الجهاد لأعدوا عدَّته، وأخذوا للأمر أهبته:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ للسفر والجهاد.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ خروجهم إلى الجهاد مع النبي ﷺ.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فصرفهم عن الخروج، وزهَّدهم فيه، ونتيجة ذلك:

﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عن الجهاد، كالعجزةِ والمرضى والنساءِ والصبيان، فللمكارم أهلُها وأصحابُها، كما قال الشاعر أبو الطيب المتنبي:

**على قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العَزائمُ وتأتي على قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ**

وأما شأن المتخلِّفين فكقول الحُطيئة:

**دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيتِهَا واقعدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسِي**

- **المسارعون إلى الفتن:**

ثم بيّن سبحانه حكمته في تثبيطهم عن الجهادِ، فقال:

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشرّاً، والمعنى: لو خرجوا

معكم ما زادوكم قوة، لكنْ فساداً وشرّاً، بإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين، بتهويل الأمرِ، وشدَّة السفر، وكثرة العدو وقوَّتهم[١].

﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ ولأسرعوا بنشر الخلاف والفتن، وإشاعة الأخبار الكاذبة بينكم.

﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ يطلبون إحداث الخلاف والخلل والاضطراب في صفوفكم، فلا تأسفوا على تخلُّفهم عنكم.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: وفيكم من يسمع أكاذيبَ المنافقين، ويصدِّقها، بسبب سذاجتهم، وبساطتهم، وسلامة صدورهم.

ولا يخلو مجتمعٌ عن أمثال هؤلاء السُّذَّج البسطاء من الناس، وهم نقطةُ ضعف في وحدة الأمة، كثيراً ما استغلَّها الأعداءُ، وتسللوا عن طريقها إلى جسم الأمة، ففرقوها ومزقوها، بواسطة ما أشاعوا من أراجيف وأكاذيب.

فالواجبُ يقتضي توعيةَ أمثال هؤلاء الناس وتحذيرَهم من الوقوع في شباك المنافقين والمداهنين، وخاصة في أوقات الحروب والأزمات.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ علماً تامّاً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، ولا يخفى ما في الآية من وعيد لهم.

ثم ذكَّرتِ الآياتُ النبيَّ ﷺ بماضي المنافقين الأسود، وصحيفة سوابقهم المشينة:

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ في غزوة أحد عندما خذلوا المسلمين، وعادوا مع زعيمهم عبد الله بن أُبيّ، إلى المدينة المنوَّرة، وكذلك في غزوة بني المصطلق، عندما استغلَّ ابنُ أُبَيّ خلافاً حدث بين مهاجريٍّ وأنصاريٍّ، فقال

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٣٥.

ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ الآية [المنافقون: ٨].

عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: كُنَّا في غَزاةٍ فكسعَ (أي: ضربه على دبره) رجلٌ من المهاجرينَ رجلاً من الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار، وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين، فسمعها رسولُ الله ﷺ فقال: «**ما بالُ دعوى الجاهليةِ؟!**» وزاد في رواية ثانية: «**دعوها فإنَّها مُنتنةٌ**» فقال عبد الله بن أُبيّ: فعلوها؟! واللهِ لئنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل. فبلغَ ذلك النبي ﷺ، فقام عمرُ فقال: يا رسولَ اللهِ دعني أضرب عنقَ هذا المنافق، فقال النبيُّ ﷺ: «**دَعْهُ، لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابَه**» [رواه البخاري (٤٩٠٧)].

وفي غير ذلك من مواقفهم المخزية.

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي: اجتهدوا ودبَّروا لك الحيل والمكايد.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بنصر الله وتأييده، وعصمة النبيِّ ﷺ من مكرهم وكيدهم.

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بعلوِّ دينه وظهوره وانتشاره.

﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لذلك، فكلَّما أعزَّ الله الإسلام وأهله ازدادت قلوبُهم غيظاً، ونفوسُهم حقداً، فحالهم في هذا كحال أهل الكتاب الذين سبق معنا قوله تعالى فيهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

- **أعذار واهية:**

ثم عرضت الآياتُ نماذج من الأعذار الواهية التي اعتذر بها بعض المنافقين عن الخروج إلى غزوة تبوك، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي﴾ في التخلُّف والقعود.

﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ أي: لا توقعني في فتنة العصيان والمخالفة؛ فهو متخلِّفٌ في حال الإِذن وعدمه. أو: لا تعرِّضني لأسباب الافتتان، برؤية نساء الروم، الشقراوات الجميلات.

وقد روي عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنَّ الذي اعتذر بهذا العذر: الجَدُّ بن قيس، إذ قال له النبيُّ ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه: «**هلْ لكَ يا جَدُّ العامَ في جلادِ بني الأصفر؟**» فقال: يا رسولَ اللهِ أوَ تأذن لي ولا تفتنِّي؟ فواللهِ لقد عرفَ قومي، ما رجلٌ أشدُّ عجباً بالنساءِ منِّي، وإني أخشى إنْ رأيتُ نساءَ بني الأصفر ألا أصبرَ عنهنَّ. فأعرضَ عنه رسولُ اللهِ ﷺ وقال: «**قد أذنتُ لكَ**»، ففي الجَدِّ بن قيس نزلت هذه الآية. [أخرجه ابن المنذر والطبري (١٠/ ١٤٧) وابن مردويه][١].

هكذا تظاهر المعتذرون بهذا العُذر بالورع والحرص على الدين، فما كان اعتذارهم عن الخروج إلى الجهاد إلا خوفاً من مقارفة المعاصي، وتورُّعاً عن رؤية أسبابها!.. وهو ورع كاذب، ردَّه الحق جلّ وعلا، فقال:

﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ ففي الفتنة نفسها سقطوا لا في غيرها، فتخلُّفهم عن رسول الله ﷺ هو الفتنة بعينها، تلبَّسوا بها، وأحاطت بهم من كل جانب.

وفي التعبير **بالسقوط** ما يشعر أنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشدُّ من مجرَّد الدخول في الفتنة[٢].

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كما أحاطت بهم الفتنةُ من كل جانب.

- **حسد وشماتة:**

وكيف يتظاهرون بهذا الورع الكاذب، وقلوبهم ممتلئةٌ بالحقد والحسد للمسلمين عموماً، وللنبيِّ ﷺ على وجه الخصوص؟! يظهر ذلك من قوله تعالى:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٤٧؛ والسيرة النبوية، لابن هشام: ٤/ ١١٨.

(٢) فتح القدير: ٢/ ٣٩٧.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: إذا أصابك في مغازيك وجهادك نصر وظفر وغنيمة يحزنون ويستاؤون، لشدَّة عداوتهم وبغضهم لك، فلا يريدون وصول أي خير إليك.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ شدَّة من شدائد القتال كجرح وقتْل.

﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ بالحيطة والحذر في تخلُّفنا عن الجهاد، وقعودنا عن الخروج.

فهم معجبون برأيهم، ويرون أنهم متصفون باليقظة والحذر والحيطة، كأنَّ الخروجَ مع النبيِّ ﷺ نوع من المغامرة والتهوُّر والتسرُّع في زعمهم.

﴿وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ وينصرفوا عن النبيِّ ﷺ وهم شامتون مسرورون، لما ناله من المصيبة، ولسلامتهم منها.

وبعد أن فضحتهم الآياتُ، وكشفت خبيئةَ نفوسهم، أمرت النبيَّ ﷺ أن يردَّ عليهم بقوله تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ أي: إلا ما قدره سبحانه واختاره لنا بإرادته ومشيئته.

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ هو ناصرنا ومتولي أمورنا، ولا يختار لنا سبحانه إلا الخير، فنحن في جميع الأحوال نفوِّض أمورنا إليه تعالى، ونرضى بما كتب لنا جلَّ وعلا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ذلك هو شأن المؤمنين بالله تعالى، يفوِّضون أمورهم إليه، ويتوكَّلون عليه وحده، ويرضون بما كتبه لهم، وقدَّره عليهم.

وتهون المصائب على الإنسان إذا علم أنَّ ما قدر الله كائن لا محالة، وأنَّ

كلَّ ما ناله من خير أو شر، إنَّما هو بقدره وقضائه، ولا يجد الإنسان المسلم مرارة شماتة الأعداء وتشفِّي الحسدة.

وغاب عن الحسدة الشامتين أمرٌ آخر، أمرَ اللهُ سبحانه النبيَّ ﷺ أيضاً أن يبيِّنه لهم بأسلوب التوبيخ لهم والتقريع:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ أي: هل تنتظرون أن ينزل بنا.

﴿إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أي: إلا إحدى العاقبتين اللتين كلُّ واحدة منهما هي حسنى العواقب، وهما: النصر والشهادة، فما يزعمونه مضرَّة للمسلمين من القتل والشهادة، أنفع مما يعدُّونه منفعة من النصر والغنيمة(١).

وجاء في الحديث النبوي الشريف: أنَّه ﷺ قال: «**تضمَّن اللهُ لِمَنْ خرجَ في سبيلِه، لا يخرجُهُ إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليَّ ضامنٌ أن أدخلَهُ الجنَّة، أو أرجعَهُ إلى مَسْكَنِهِ الذي خرجَ منه نائلاً ما نالَ من أجرٍ أو غنيمةٍ**» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: وبالمقابل فنحن ننتظر بكم إحدى السوءَتين:

﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ كما أصاب من كان قبلكم من المكذبين.

﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بالظفر بكم والنصر عليكم.

﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ولا يخفى ما في الأمر بالتربُّص من التحدِّي والتهديد لهم.

• **نفقة مردودة:**

ويبدو أنَّ بعض المنافقين بذل بعضَ المال للجهادِ رياءً وسمعةً، وستراً

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٧٣.

لتخلفه عن الخروج بنفسه إلى الجهاد، فأمرَ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بردِّ هذا المال، وعدمِ قبوله، قال سبحانه:

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾.

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ﴾ وهو خبرٌ جاء بصيغة الأمر، أي: لن تقبل منكم نفقاتكم، سواء أنفقتم طائعين أو مكرهين.

ومعنى عدم القبول أنه عليه الصلاة والسلام يردُّها عليهم، أو أنه تعالى لا يثيبُهم عليها، والسببُ بيَّنه تعالى بقوله:

﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن الإيمان، كافرين، فلا يقبل الله تعالى أيَّ عمل صالح من كافر، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ابنُ جُدعانَ كان في الجاهليةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويطعمُ المسكينَ، فهل ذلك نافعُهُ؟ قال: «**لا ينفعُهُ، إنَّه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يومَ الدِّينِ**» [رواه مسلم (٢١٤)].

فالكفر يمنع قبولَ أي عمل، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، ومن الأدلة الدالة على كفرهم:

﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ

ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

فلا رغبة لهم في الصلاة بسبب كفرهم، فلا يرجون على فعلها ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً.

ومن علامات كفرهم أيضاً:

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ للإنفاق، وإذا ما أنفقوا فللرياء والسمعة، ودفع التهمة.

- **المعذَّبون في الدنيا وللآخرة:**

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ هذا أدب رباني رفيع، وجَّهه سبحانه إلى نبيِّه ﷺ، لأنه القدوة الطيبة للمؤمنين، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ومن المعلوم أنَّ الإعجاب بالشيء يستدعي تعلُّق النفس به، ونفس النبيِّ ﷺ مُعْرِضَةٌ عن الدنيا إعراضاً كاملاً، ومتعلِّقة بالله تعالى، حتى كان ﷺ يقول: «**اللهمَّ اجعلْ رزقَ آلِ محمَّدٍ قوتاً**» وفي رواية: «**كفافاً**» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (٧٤٤٠)].

وكان في معيشته عليه الصلاة والسلام زاهداً في الدنيا، مُعرضاً عنها، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: **ما شبعَ آلُ محمَّدٍ من خبزِ الشعيرِ يومينِ متتاليينِ حتَّى قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ**. [رواه البخاري (٥٤٢٤) ومسلم (٢٩٧٠)].

وكان المنافقون ذوي أموال وأولاد، ومن أجلها فُتنوا ونافقوا، فجعلها سبحانه سبب شقائهم وعنائهم في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لهذا تراهم يكابدون في جمعها

وحفظها من الهموم الكبيرة والشدائد الكثيرة، ويكابدون أيضاً لما يصيبهم فيها من المصائب، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون التقرب بها إلى الله تعالى بسبب نفاقهم وكفرهم، فنفقاتهم ـ كما مرَّ معنا ـ مردودة غير مقبولة.

ولا يزالون هكذا حالهم حتى يختم لهم بالخاتمة السيئة فيموتوا على الكفر والنفاق:

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وما أكثر ما نرى في حياتنا المعاصرة من أمثال هؤلاء المنافقين، يكدُّون ويكدحون طول أعمارهم في جمع الأموال وتكديس الثروات، ثم يسقطون على طريق الكدح والكدِّ عندما توافيهم منيتهم، وما جنوا من حياتهم إلا التعب والشقاء والهم والعناء، كما قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أولئك تجّارُ الآمالِ الخادعةِ والأمانيِّ الكاذبةِ، المعذَّبون في الدنيا والآخرة.

- **الانتماء والغرباء:**

وثمَّةَ شقاءٌ آخرُ يعاني منه المنافقون إلى جانب شقائهم بأموالهم وأولادهم، وهو الخوف والقلق، وعدم الشعور بالأمن، وهو نتيجة طبيعية لما يخفون في قلوبهم من كفر ونفاق، فشأنهم شأن المجرم الذي أخفى جريمته، وهو يخشى أن تظهرَ الأدلةُ التي تدلُّ عليها.

كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ يخافون أن ينكشفَ أمرُهم، ويُفتضح نفاقهم، بواسطة وحي ينزله الله تعالى على النبيِّ ﷺ، ولهذا كانوا في همٍّ دائم وقلق مستمر، إنَّهم في أشدِّ الحاجة إلى الإحساس بالأمن وتذوُّق الطمأنينة النفسية والسكينة القلبية، ولا يتأتَّى لهم هذا الإحساس إلا إذا طهَّروا

قلوبهم من النفاق، وأكَّدوا بذلك انتماءهم إلى المجتمع المسلم، عندئذٍ يشعرون أنهم جزء منه، ويتذوقون الأمن والطمأنينة في ظلاله.

ولهذا كانوا يحاولون التأكيد على صلتهم بالجماعة المسلمة والمجتمع المسلم، وأنهم جزء منه، بالأيمان الكاذبة:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ في الدين والإيمان والإسلام، والحقيقة تكذِّبهم، فالإيمان ليس مجرَّد دعوى يدَّعيها الإنسان بلسانه، الإيمانُ تصديقٌ وانقيادٌ واستسلامٌ لدين الله تعالى وشريعته.

﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ بسبب الكفر والنفاق في قلوبهم، إنه الذي يقطعهم عنكم، فإذا ما انقطع حبل الإيمان والعقيدة انقطعت معه كل الحبال، وجميعُ الصلات الأخرى، كصلة النسب والأرض والمصلحة، وما حدث لنبيِّ الله نوح مع ولده الكافر أكبرُ شاهدٍ على صحة ذلك: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود].

إنَّ المنافقين غرباء عن المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه، وإن الشعور بالاغتراب نابعٌ من قلوبهم، وهو الذي يقلقهم ويزعجهم، ويجعلهم في همٍّ دائم، واضطراب نفسي مستمر.

﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ يخافون أن يُفْتَضَحَ حالُهم، وتنكشفَ حقيقتُهم.

إن الشعور بالانتماء أمن وسكينة، بينما الشعور بالاغتراب خوف وضعف وقلق واضطراب، وقد صوَّرتِ الآياتُ الكريمةُ شدَّةَ خوف المنافقين وقلقهم بقوله تعالى:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ يلجؤون إليه.

﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ﴾ في بطون الجبال وأعماق الشعاب.

﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ أي: مكان يدخلون فيه، يحسون داخله بالأمان والطمأنينة.

﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا إليه.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ وهم مسرعون إسراعاً لا يردُّهم عنه شيء، كالفرس الجموحِ المسرعِ الذي لا يُثنيه اللجام.

النفاقُ قطعهم عن المجتمع المسلم، وجعلهم يشعرون بالخوف والاغتراب، وهذا يدلُّ على قوة المجتمع المسلم، وسلامة بنيته الداخلية في عهد النبيِّ ﷺ وعهود أصحابه والتابعين بعده، وما دام المنافقون يشعرون بالخوف والاغتراب، فالمجتمعُ المسلمُ بخير وعافية، وأما عندما تنعكس الأحوال، وتتغيَّر المواقف، وتضطربُ القيم، ويستشعر المؤمنون الصادقون أنهم غرباء عن مجتمعهم بسبب صدقهم وصلاحهم وتمسُّكهم بدينهم واستقامتهم عليه، بينما يطمئنُّ المنافقون، فالمجتمع عندئذٍ مجتمعٌ مريض، غلب عليه الفسادُ والنفاقُ. ومن أعلام نبوَّته ﷺ قوله: «**بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعودُ غريباً كما بدأَ، فطوبى للغرباءِ**» [رواه مسلم (١٤٥)].

- **أهم أسباب النفاق:**

الحرص على المصالح المادية، وشدَّة التأثر بها، هو أهم أسباب النفاق، وكلَّما غلبت المادية على نفوس الناس، ازداد النفاق، واستشرت جذوره في أعماق المجتمعات الإسلامية، وهذا ما أكَّدته الآيات القرآنية الكريمة، وهي تتحدَّث عن شريحة من شرائح المنافقين:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾ أي: ومن المنافقين مَن كان ينتقد النبي ﷺ، ويعيبه سرّاً في قسمة الصدقات، وهي أموال الزكاة، فحبُّ المال والحرص عليه

أعمى بصائرهم عن رؤية مقام النبوة، وإجلاله واحترامه، ومعرفة قدره عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يفعل إلا ما يأمره به ربه جلَّ وعلا.

﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا﴾ قدر ما يريدون.

﴿رَضُوا۟﴾ بالقسمة واستحسنوها.

﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون على النبي ﷺ، فرضاهم وغضبهم لأنفسهم ومصالحهم، لا لدينهم.

وهذه الآيات جاءت في سياق الآية التي وصفتهم بكثرة الأموال والأولاد: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] مما يدلُّ على شدَّة طمعهم وجشعهم، كما يدلُّ أيضاً على قوة الاتساق والاحتباك بين الآيات الكريمة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وإن قلَّ. وذكر الله ﷻ للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره سبحانه.

﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كفانا فضله وقَسْمُه لنا.

﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ الذي لا يخالف أمره سبحانه.

﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لا إلى غيره سبحانه، فلو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم من اعتراضهم على قسمة النبي ﷺ.

- **مصارف الزكاة:**

ثم بيَّن سبحانه مصارفَ أموال الزكاة والمستحقين لها، فلا يجوزُ صرفها لغيرهم، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ المحتاجين حقيقةً وفعلاً، لا عجزاً وكسلاً، قال رسول الله ﷺ: «**لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ**» وهو الذي يقدر على العمل والكسب، غير عاجز ولا ضعيف. [والحديث رواه أحمد (٢/ ١٦٤) وأبو داود (١٦٣٤) والترمذي (٦٥٢)].

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين يعملون ويدأبون في طلب الرزق والاكتساب، فلا يحصلون على ما يكفيهم لسدِّ حاجاتهم، وتمنَعُهُمْ عفَّتُهم وكرامتُهم عن ذُلِّ السؤال والتكفُّف.

قال رسول الله ﷺ: «**ليسَ المسكينُ الذي يطوفُ على الناس، تردُّهُ اللقمةُ واللقمتانِ، والتمرةُ والتمرتانِ، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يجدُ غنًى يغنيه، ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يقومُ فَيَسألُ الناسَ**» [رواه البخاري (١٤٧٩) ومسلم (١٠٣٩)].

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في جمع أموال الزكاة وتحصيلها، فهؤلاء يُعطَوْنَ أجورهم منها، ولو كانوا أغنياء.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ على الإسلام، كان رسولُ اللهِ ﷺ يتألَّفُهم على أن يسلموا، ويعطي آخرينَ أسلموا تقريراً لهم على الإسلام(١).

وهذا يدلُّ على أنَّ لوليِّ الأمر أن يصرفَ جزءاً من أموال الزكاة لنشر الدعوة الإسلامية بين الناس، فيعطي منها من يُرجَى إذا دخلوا في الإسلام أن يقتدي بهم غيرُهم.

﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ أي: وفي فكِّ الرقاب، وتخليص العبيد من الرقِّ وذلِّ العبودية.

فالإسلامُ دينُ الحريةِ، وقد شرعَ كثيراً من الشرائع لتحرير الأرقاء، ومنها

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٤٤.

تخصيصُ جزءٍ من مال الزكاة لمساعدة العبيد المكاتبين، وهم الذين يتفقون مع سادتهم على أن يؤدُّوا لهم مبلغاً معيناً من المال في مقابل إعتاقهم وتحريرهم، وقد ندب الإسلامُ إلى ذلك وحثَّ عليه في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣] وشرع مساعدتهم من أموال الزكاة.

﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ الذين ركِبتهم الديونُ وأثقلتهم، ولا يملكون وفاءً لها، وخاصة الذين استدانوا لكي يصلحوا بين المتخاصمين، فهؤلاء يعطون من الزكاةِ لسدِّ التزاماتهم ووفاء ديونهم.

﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: للمجاهدين في سبيل الله تعالى، يعطون من الزكاة ليستعينوا بها على أمر الجهاد.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله في الطريق.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فرض الله تعالى الزكاة في أموال الأغنياء، وجعلها في هذه المصارف، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يغيِّرها ويبدِّلها، لأنها فريضة الله العليم الحكيم:

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ للزكاةِ دوراً كبيراً في نظام التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع المسلم، وأن لها صلة أيضاً بالدعوة الإِسلامية ونشرها وحمايتها.

● **أُذُن الخير:**

أنزلَ القرآنُ الكريمُ النبيَّ ﷺ في قلوب المؤمنين أعلى المنازلَ وأرفعها، فهو الأول في قلوبهم ونفوسهم، ووجدانهم وسلوكهم، قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٦][(١)].

وحبُّه عليه الصلاة والسلام وطاعتُه والتمسكُ بسنَّته أولُ كل شيء، ومقدَّمٌ

(١) انظر ما كتبه المؤلف في معنى هذه الآية في: تفسير سورة الأحزاب، وقد أصبح عنوان هذه السورة في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

على كل شيء في حياة المؤمنين، وقد مرَّ معنا التأكيد على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

والقلوبُ التي ملأها مرضُ النفاق لا تعرِفُ للنبيِّ ﷺ هذه المنزلة، التي له في قلوب المؤمنين، وقد مرَّ معنا من قريب جرأة المنافقين على النبي ﷺ، وسوء أدبهم معه، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقد مهَّد سبحانه في هذه الآية لبيان شدة بغض المنافقين للنبي ﷺ، وسعيهم في إيذائه، فقال جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ أي: ومن المنافقين، وهم شريحةٌ جديدةٌ من شرائح النفاق، ظهرت فيهم خصلة من خصاله، وهي بُغض النبي ﷺ، والسعي في أذاه.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ يسمع كلَّ ما يقال له ويصدِّقه.

وقصدوا بذلك ذم النبي ﷺ، وأنه في زعمهم سليمُ القلبِ، سريعُ الاغترار، يسهلُ خداعه والاحتيال عليه، فمهما فعلوا أو تكلَّموا، فإن جاؤوا إليه، وكلَّموه؛ واعتذروا له؛ صدَّقهم، وتجاوزَ عنهم، وقَبِلَ اعتذارهم، وهذا ما شجَّعهم على التخلُّف عن الخروج إلى غزوة تبوك.

وغفلوا عن حقيقةٍ هامة، هي أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يعاملهم بحسب علانيتهم، مع علمه عليه الصلاة والسلام بحقيقتهم، وَيَكِلُ سرائرَهم إلى الله تعالى، لأنه رسول في مقام الأسوة والقدوة، ولا يريد عليه الصلاة والسلام أن يسنَّ لمَنْ بعدَه سنّة التفتيش عن أسرار الناس، فيعاملوهم بالظن والحدس والتخمين، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى الظلم.

وعندما فعل ذلك بعض أصحابه أنكر عليهم إنكاراً شديداً:

ففي الحديث الشريف: أنَّ رجلاً من بني سُليم، مرَّ على نفر من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومعه غنمٌ، فسلّمَ عليهم، فقالوا: ما سلَّمَ عليكم إلا ليعوذَ منكم، فقاموا فقتلوه، وأخذوا غنمه وأتوا بها رسولَ اللهِ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]. [رواه البخاري (٤٥٩١) ومسلم (٣٠٢٥) وأبو داود (٣٩٧٤)].

وعن **أسامة بن زيد** رضي الله عنهما قال: بعَثَنا رسولُ اللهِ ﷺ إلى الحُرُقَةِ (اسم قبيلة) فصبَّحنا القومَ، فهزمناهم، فلحقتُ أنا ورجل من الأنصارِ رجلاً منهم، فلمَّا غشيناه، قال: لا إلٰه إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاريُّ، وطعنتُه برمحي فقتلتُه، فلمَّا قدمنا بلغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ، فقال: «**يا أسامةُ! أقتلتَهُ بعدما قال: لا إلٰهَ إلا الله؟!**» قلتُ: إنَّما قال متعوِّذاً، قال: «**أقتلتَهُ بعدَ أنْ قالَ: لا إلٰه إلا الله؟!**» فما زال يكرِّرُها حتّى تمنيتُ أني لم أكنْ أسلمتُ قبلَ ذلك اليوم. [رواه البخاري (٦٨٧٢) ومسلم (٩٦)].

وبعد أن حكى الله تعالى قول المنافقين في النبي ﷺ، ردَّ عليهم بقوله:

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن هو، يسمع الخير ويقبله، لا كما ظنَّه المنافقون بسبب غبائهم وضعف إدراكهم.

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ يصدِّق بالله تعالى.

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدِّق المؤمنين، ويقبل منهم، لما علم من إيمانهم وإخلاصهم.

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ وهو عليه الصلاة والسلام رحمة للذين أظهروا الإيمان من المنافقين، حيث قبل علانيتهم، ولم يكشف حقيقتهم ويفضحهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فالويل كل الويل لمن يؤذي رسولَ اللهِ ﷺ، ولا يعرفُ حقَّه وفضلَه، وينزله المنزلة الرفيعة التي أنزله الله تعالى بها.

• **مطايا المنافقين:**

الأيْمانُ الكاذبة مطايا المنافقين، يحاولون أن يستروا بها نفاقهم، ويسخِّروها لمآربهم الفاسدة، وأغراضهم الخبيثة، إلا أنَّ آيات التنزيل الحكيم كانت لهم بالمرصاد، تفضَحُهم، وتبيِّنُ كذبهم:

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي: لترضوا عنهم أيها المؤمنون، فالمنافقون يسعَوْن من أجل تأمين مصالحهم أن يكسبوا رضا المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ والرسول ﷺ أحقُّ بالإرضاء من غيره، وذلك بطاعته، وموافقة أمره، واتباع سنَّته، وإيتاء حقوقه، وإعظامه وإجلاله عليه الصلاة والسلام في حضوره وغيبته.

ودلَّ توحيد الضمير في ﴿يُرْضُوهُ﴾ على أن رضا الرسول ﷺ من رضا الله تعالى، كما أنَّ طاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فتلازم رضا الله والرسول ﷺ جعلهما كشيءٍ واحد، فعاد إليهما الضمير المفرد. أو نقول: الضمير للرسول ﷺ، والخبرُ له لا غير، لأنَّ الكلام في إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام وإرضائه، فيكون ذكر الله تعالى تعظيماً له عليه الصلاة والسلام[١].

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ المؤمن الحقَّ يسعى للحصول على رضوان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام دون نظر منه للناس، فلا ينافقُ، ولا يجاملُ، ولا يداهنُ، ولا يخافُ في الله لومة لائم،

(١) انظر: روح المعاني: ١٠/١٢٨.

وكل شيء عنده يهونُ من أجل الوصول إلى رضوان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وكلمة المصلحة، ومراعاة المصالح وتأمينها، السائدة بين الناس في هذا العصر، والتي من أجلها تجاوزوا كثيراً من أحكام الدين، وخرقوا قواعد شريعته، لا مكان لها في حياة المسلم الحريص على الوصول إلى رضوان ربه سبحانه ورضا الرسول ﷺ.

وفي الحديث الشريف: عن السيدة **عائشة** رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ التمسَ رضا اللهِ بسخطِ الناسِ، كفاه اللهُ مؤونةَ الناسِ، ومن التمسَ رضا الناسِ بسخطِ اللهِ، وَكَلَهُ اللهُ إلى الناسِ**» [رواه الترمذي (٢٤١٤)].

- **الفاضحة:**

فعلى أولئك المنافقين الحريصين على إرضاء الناس من أجل مصالحهم، أن يعلموا هذه الحقيقة المُخيفة المرعبة:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يخالف الله ورسوله.

**فالمحادَّة**: المخالفة والمعاداة، يقال: حادَّ فلان فلاناً، إذا صار في غير حَدِّه، وخالفَه في أمره.

﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك العذاب في جهنم هو الذل والهوان والفضيحة.

والخوف من الفضيحة وانكشاف أمرهم، يلازم المنافقين ـ كما مرَّ معنا ـ في كل أحوالهم وتصرفاتهم، حتى وَهُمْ في مجالسهم الخاصَّة مع بعضهم، قال تعالى يخبرهم عن خوفهم وحذرهم من الفضيحة:

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ وقد أنزل الله سبحانه هذه السورة فعلاً، إنها هذه السورة التي بين أيدينا، قال قتادة: كانت تسمَّى هذه السورة **الفاضحة**، فضحت المنافقين(١).

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ فمهما استهزأتم وأخفيتم فإن الله تعالى سيكشفكم ويفضحكم، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ بعد أن فضحهم الله سبحانه عما تكلموا به.

﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الحديث على غير قصد ونظام.

﴿وَنَلْعَبُ ۚ﴾ بما لا حرج علينا فيه.

﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: قل لهم ذلك موبِّخاً ومقرِّعاً غير ملتفت إلى اعتذارهم.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ أي: لا تشتغلوا بالاعتذار، وتستمروا عليه، فالكذب ظاهر واضح، والجريمة كبيرة وعظيمة.

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾ الذي تَدَّعونه وتظهرونه.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٥٢.

وتدلُّ الآية على أنَّ الجِدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلافَ بين الأئمة في ذلك[١]؛ فأمرُ العقيدةِ خطيرٌ، وشأنُ الدينِ كبيرٌ، وعلى المؤمن أن يحذر من فلتات لسانه وزلاته.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ علم الله تعالى أنهم سيتوبون عن نفاقهم، ويُخْلصون في إيمانهم.

﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي: بسبب أنهم مصرون على النفاق متمسكون بالإجرام.

قال ابن إسحاق: كان جماعةٌ من المنافقين منهم وديعة بن ثابت، ورجلٌ من أشجع يقال له: مخشيّ بن حِمْيَر، يسيرون مع رسول الله ﷺ، وهو منطلقٌ إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: «أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العربِ بعضهم بعضاً؟! واللهِ لكأنَّا بكم غداً مقرَّنين في الحبال» إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «**أدركِ القومَ فإنَّهم قد احترقوا، فاسألهم عمَّا قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتُم كذا وكذا**» فانطلق إليهم عمار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعةُ بن ثابت: يا رسولَ اللهِ إنَّما كنا نخوضُ ونلعبُ. وقال مخشيّ بن حمير: يا رسولَ اللهِ قعدَ بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عُفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير، فتسمَّى عبد الرحمن، وسأل الله أن يُقتلَ شهيداً لا يُعْلَمُ بمكانه، فقتل يوم اليمامة[٢].

- **اختلال الموازين وانعكاس القيم:**

وللمنافقين صفات خاصة يتميزون بها عن المؤمنين، بيَّنها سبحانه بقوله:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي: يشبه بعضهم بعضاً، فهم من

---

(١) روح المعاني: ١٠/ ١٣١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٥٣.

طينة واحدة، وطبيعة واحدة، ولو اختلفت أفعالهم وأقوالهم، لأنَّها ترجعُ إلى أصل واحد، وتنبع من معين واحد، وهو سوءُ الطويَّة، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عند المواجهة، والجبن عن المصارحة[١].

تلك هي الصفات العامة لهم، وأما سلوكهم:

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ مما يدلُّ على مدى الخلل والاضطراب في نفوسهم، حتى انعكست القيم في نظرهم، فأصبح المنكر معروفاً، يأمرون به، ويدعون إليه، وأصبح المعروف عندهم منكراً، يمقتونه ويمنعونه، وهو ما نراه في عصرنا الحاضر فاشياً في كثير من المجتمعات، حتى الإسلامية منها، مما يدلُّ على ذيوع النفاق وانتشاره الكبير بين الناس.

وفي الحديث الشريف: عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيفَ بكم إذا فسقَ فتيانُكم، وطغى نساؤكم؟**» قالوا: يا رسول الله وإنَّ ذلك لكائنٌ؟! قال: «**نعم وأشدُّ، كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروفِ، ولم تنهَوْا عن المنكر؟**» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائنٌ؟! قال: «**نعم وأشدُّ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكرِ، ونهيتُم عن المعروفِ؟**» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائنٌ؟! قال: «**نعم وأشدُّ، كيف بكم إذا رأيتُم المعروفَ منكراً، والمنكرَ معروفاً؟**» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «**نعم**» [رواه رزين].

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله، وإذا ما أنفقوا شيئاً، أنفقوه كارهين أو مرائين.

﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا طاعة الله، وغفلوا عن ذكره، فحرمهم من رحمته وعفوه يوم القيامة، والجزاء من جنس العمل، كما جاء في قوله تعالى في **سورة طه**: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٦٧٣.

أي: تعامل معاملة المنسي، والله سبحانه منزه عن النسيان ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمرِّدون على ربهم، والخارجون عن طاعته.

- **المنافقون والمستغربون:**

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ﴾ أي: هي كافيتهم، فعذاب جهنم عذاب عظيم بلغ الغاية، فلا زيادة عليه.

﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، وطردهم من ساحة فضله وإحسانه.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ معهم في الدنيا لا ينفك عنهم، وهو ما مرَّ معنا من الخوف والقلق والاضطراب.

ومع هذا الوعد القطعي دعتهم الآيات إلى التوبة والإنابة، فباب التوبة ـ كما سبق معنا ـ مفتوح، فلا يأس من رحمة الله، وطلبت منهم أن يعتبروا بمصير المعاندين المكذبين من قبلهم:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: تمتعوا بنصيبهم المقدَّر لهم من شهوات الدنيا وحظوظها.

﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ مقتفين آثارهم دون أن تنظروا في مصيرهم.

﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ في التمتُّع بشهوات الدنيا،

فمتاع الدنيا مقدر، ولا يستطيع طلَّاب الدنيا وعبيد متاعها أن يأخذوا منه إلا ما قُدِّر لهم.

﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل.

﴿كَالَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ أي: كخوضهم في الباطل، فأنتم تقلِّدونهم في باطلهم وشهواتهم فقط، تماماً كما هو حال المستغربين من أبناء المسلمين، يقلِّدون الكفار في باطلهم وشهواتهم فقط.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فلا هم من أبناء الدنيا ولا من أبناء الآخرة.

والآية تذكِّرُ المنافقين في قولهم الذي مرَّ معنا من قريب: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

ثم صرحت لهم الآيات ببعض أولئك الذين استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم من الدنيا، وكيف أعرضوا عن دعوة المرسلين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ﴾ مدائن لوط.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باتباعهم للشهوات، وإعراضهم عن البيِّنات.

- **مقارنة:**

ثم عقدت الآيات الكريمة مقارنةً بين ما سبق من صفات المنافقين وسلوكهم ومصيرهم، وبين صفات المؤمنين وسلوكهم ومصيرهم، قال تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في التناصر والتكافل والتعاون.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ خلافاً للمنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ بينما المنافقون لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، كما مرَّ معنا.

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، بينما المنافقون: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

ولهذا كان مصير المؤمنين متميزاً عن مصير المنافقين:

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون.

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ومن رحمته تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ حيث الإقامة الدائمة.

ولمَّا سُئل ﷺ عن بناء الجنَّة قال: «**لبنةٌ من ذهبٍ، ولبنةٌ من فضَّةٍ، وملاطُها المسكُ، وحصباؤها اللؤلؤُ والياقوتُ، وترابُها الزعفرانُ، مَنْ يدخلُها ينعمُ لا يَبْأسُ، ويخلدُ لا يموتُ، لا تبلى ثيابُه، ولا يفنى شبابُه**» [رواه أحمد (٢/ ٣٠٥)].

وعن **علي** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ في الجنَّةِ لغرفاً يُرى ظاهِرُها مِنْ باطِنها، وباطنُها مِنْ ظاهِرها**» فقام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله لِمنْ

هي؟ فقال: «**لِمَنْ طَيَّبَ الكلامَ، وأطعمَ الطعامَ، وأدامَ الصيامَ، وصلّى بالليلِ والناسُ نيامٌ**» [رواه الترمذي (١٩٨٤)].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ أي: أكبر وأعظم وأجلُّ مما في الجنة من النعيم، فلا يكتمل تلذذ أهل الجنة بنعيمها إلا برضا الله تعالى عنهم، فمهما قدَّمَ السيدُ لعبده من أنواع المآكل الفاخرة والأشربة الرفيعة، لا يلتذُّ العبدُ بها ما دام يشعر أنَّ سيده غيرُ راضٍ عنه، فإذا ما أحسَّ برضاه، وعلم ذلك، كملت لذَّته، وتمَّت سعادته.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الله ﷻ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبيكَ ربَّنا وسعديكَ، والخيرُ في يديك، فيقول: هل رضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربِّ، وقد أعطيتَنا ما لَمْ تعطِ أحداً من خلقِكَ؟! فيقول: ألا أعطيكُم أفضلَ مِنْ ذلكَ؟ فيقولون: يا ربِّ وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلكَ؟! فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكُم بعدَه أبداً**» [رواه البخاري (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩)]. اللهمَّ إنا نسألك رضاك والجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده. فأين هذا المصير مما مرَّ معنا في مصير المنافقين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وفي الآيةِ الكريمةِ دليلٌ قاطعٌ على أنَّ اللذة المعنوية الروحية أعلى وأعظم من اللذة الجسدية المادية.

والنتيجة العملية لهذه المقارنة بين المؤمنين والمنافقين أنه سبحانه أمر النبيَّ ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، وتطهير المجتمع من شرِّهم ومكرهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الجهاد الذي يتناسب مع كل فريق.

﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وشدِّد عليهم، ولا ترفق بهم.

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إنّها البلاغ الأخير والإنذار النهائي.

• **المنافقون كذّابون:**

يحاولون ـ كما مرَّ معنا ـ ستر كذبهم بالأيْمان:

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ أي: بعد أن أعلنوا الإسلام بألسنتهم.

عن **زيد بن أرقم** رضي الله عنه قال: كنتُ مع عمِّي، فسمعتُ عبدَ اللهِ بنَ أُبي ابن سلول يقولُ: «لا تُنْفِقُوا على مَنْ عندَ رسولِ اللهِ حتّى يَنْفَضُّوا».

وقال أيضاً: «لَئِنْ رجعنا إلى المدينةِ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلُّ» فذكرتُ ذلك لعمِّي، فذكره عمي لرسولِ اللهِ ﷺ، فأرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى عبدِ اللهِ بن أبيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسولُ اللهِ ﷺ وكذَّبني، فأصابني همٌّ لم يصبْني مثله، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٨] فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ، فقرأها عليَّ ثم قال: «**إنَّ اللهَ قد صدَّقك**» [رواه البخاري (**٤٩٠١**) ومسلم (**٢٧٧٢**) واللفظ للبخاري].

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ أي: همُّوا بقتل رسول الله ﷺ، ولكنَّ الله عصمه من كيدِهم، فلم يتمكنوا من ذلك.

ففي طريق العودةِ من تبوكٍ اختار ﷺ **أن** يمرَّ بممرٍّ جبلي ضيقٍ مشرفٍ على وادٍ عميق، فأرسل مَنْ ينادي في الجيش أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يريدُ أن يسلكَ العقبةَ، فلا يسلكها أحدٌ، واسلكوا بطنَ الوادي، فأسرعَ بعضُ المنافقين بعد أن ائتمروا

فيما بينهم على رسولِ اللهِ ﷺ، فتلثَّموا، وحبسوا أنفسَهم على رواحلهم قربَ أول الممر، فلمّا بدأَ رسولُ اللهِ ﷺ في سلوكِ العقبةِ، غشيه المنافقون بإبلهم، فزحموا ناقته حتى سقط بعض متاعه، ولكنَّ الله تعالى عصم نبيَّه عليه الصلاة والسلام، فقام حذيفةُ بنُ اليمان وعمَّارُ بنُ ياسر بردِّهم، وضرب وجوه رواحلهم، فانحطوا إلى الوادي مسرعين، واختلطوا بالناس مستترين بظلام الليل.

﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويُمْن سعادته، لِمَا جاء به.

وهذه الصيغةُ تقال حيث لا ذنب[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

ورغم جريمتهم الكبيرة هذه رغَّبهم سبحانه بالتوبة، فقال:

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم هددهم وتوعدهم في حال الإعراض عن التوبة والإصرار على النفاق:

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

**• المنافقون انتهازيون وصوليون:**

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

هذه شريحة أخرى من شرائح المنافقين، تبرز الانتهازية والوصولية في سلوكهم، أعلنوا الإسلامَ بألسنتهم، وقطعوا على أنفسهم العهودَ والمواثيق حتى يصلوا إلى مآربهم، ويحقِّقوا مصالحهم.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ أي: لمَّا حقق الله تعالى لهم مرادهم،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٥٧.

ووسع عليهم أرزاقهم، منعوا الحقوق التي أوجبها سبحانه في أموالهم كالزكاة والنفقات الواجبة عليهم.

﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ورفضوا الانقياد لأمره تعالى، وهم مصرُّون على ذلك. فماذا كانت النتيجة؟:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أي: جعل تعالى عاقبة انتهازيتهم ووصوليتهم.

﴿نِفَاقًا﴾ ملازماً لهم راسخاً.

﴿فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ في آخر حياتهم، حين تحينُ آجالهم، وتنتهي أعمارهم.

﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم.

فما أجرأهم على الله تعالى! وما أجهلهم بصفات كماله وجلاله!.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ أي: يعلم ما أضمروه في أنفسهم، وما تحدَّثوا به سرّاً فيما بينهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه غائبة سبحانه.

- **اللمَّازون:**

ومع اجتماع كلِّ هذه العيوب والقبائح في المنافقين، فألسنتُهم طويلة وحادَّة، فلم يسلم أحدٌ من عيبهم وطعنهم، فعندما رغَّب النبي ﷺ المسلمين في الإنفاق في سبيل الله لتجهيز جيش تبوك، استجابَ المؤمنون لأمر رسول الله ﷺ، فأنفق الأغنياءُ أموالاً كثيرة، وقدَّمَ الفقراء كلَّ ما يستطيعون، حتى إنَّ

بعضَهم آجرَ نفسه في أعمال شاقة لكي يتصدَّق بأجرته، ويكون له سهمٌ في نفقة جيش تبوك، فطعن المنافقون على الأغنياء والفقراء، ولم يسلم أحد منهم.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لمَّا أُمرنا بالصدقةِ كنَّا نتحامَلُ ـ وفي رواية: نحامِلُ، أي: نؤاجِرُ أنفسنا في الحَمْلِ ـ فجاء أبو عقيلٍ بنصف صاعٍ، وجاءَ إنسانٌ بأكثر منه، فقال المنافقون: إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن صدقةِ هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاءً، فنزلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ الآية. [رواه البخاري (١٤١٥) ومسلم (١٠١٨) واللفظ للبخاري].

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يُعيبون المتطوعين.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ أي: ويعيبون أيضاً المقلِّين الفقراء الذين لا يجدون شيئاً ينفقونه إلا ما حصَّلوه بمشقة وعناء، والله سبحانه يقبل القليل والكثير، ما دام صاحبه يبتغي به وجه الله تعالى، ورُبَّ درهمٍ سبقَ ألفَ درهمٍ بسبب إخلاص صاحبه.

﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: ومع ذلك فإن المنافقين يسخرون منهم ويستهزئون بهم.

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ أي: جازاهم سبحانه على سخريتهم، والجزاء من جنس العمل، أو هو دعاء عليهم.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مقدَّر ومقرَّر، لا يدفعه عنهم استغفار أحد أبداً.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ أي:

مهما بالغتَ في الاستغفار لهم، فلن يغفر الله تعالى لهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والله سبحانه لا يغفر لكافر أصرَّ على الكفر حتى مات عليه، فهو حكم قطعي حاسم نهائي جاء في سورة البلاغ الأخير.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: لا يوفِّقهم للإيمان بسبب إصرارهم على نفاقهم وفسقهم، كما في قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة].

- **الضاحكون قليلاً والباكون كثيراً:**

وكيف يهديهم الله تعالى، وهم يكرهون كل ما يقربهم إليه تعالى، ويفرحون بما يسخطه سبحانه عليهم، يكرهون الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد، ويفرحون بالتخلُّف عنه:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقعودهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد.

ودلَّ فرحهم على كراهيتهم للجهاد في سبيل الله تعالى:

﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فبين فرحهم بالتخلُّف وكراهتهم للجهاد ارتباط وثيق، يدلُّ على رسوخ الكفر والنفاق في أعماق قلوبهم، فقد يضعف الإنسان المؤمن أحياناً أمام نفسه، فيتخلَّف، ولكنه لا يفرح بتخلُّفه، بل يأسف بعد ذلك على تخلُّفه ويتألم، ويُقبل على نفسه يلومها، كما فعل الثلاثة من المؤمنين الذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ، وسيأتي معنا إن شاء الله تفصيل خبرهم عند الآية [١٠٦].

وجعلتهم كراهيتهم للجهاد يثبِّطون غيرهم عنه:

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ حَرُّ الصيف الذي خرج فيه النبي ﷺ إلى تبوك، وكان صيفاً حارّاً.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ فلو أن لديهم فهمٌ ما فرُّوا من حرِّ الصيف إلى حرِّ جهنم، التي يزيد حرُّها على حرِّ الدنيا أضعافاً كثيرة.

قال رسول الله ﷺ: «**نارُكم هذه التي يوقِدُ ابنُ آدمَ، جزءٌ من سبعين جزءاً من حَرِّ جهنَّم**» قالوا: واللهِ إنْ كانتْ لكافيةً يا رسول الله، قال: «**فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستينَ جزءاً كلُّها مثلُ حَرِّها**» [رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)].

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا.

ومهما ضحك الإنسان في الدنيا فضحكه قليل، لأنَّ أيام الفرح والسرور في الدنيا قليلة مهما طالت، فالدنيا زائلة، والحياة فيها قصيرة، ومن كثر ضحكه في الدنيا زاد بكاؤه يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «**لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً**» [رواه البخاري (٤٦٢١)].

﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ في الآخرة.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وجاء الخبر بلفظ الأمر لتحدِّيهم وإظهار ضعفهم وعجزهم عن الإفلات من المصير الأليم الذي ينتظرهم.

- **إسقاط وحرمان:**

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إن ردَّك الله إلى المتخلِّفين من

المنافقين، أو إلى من بقي منهم، إذ مات بعضهم في أثناء سفره عليه الصلاة والسلام إلى تبوك.

﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى.

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وبهذا حرَم الله المنافقين المتخلِّفين عن رسول الله ﷺ من شرف الجهاد معه، وأسقطهم من مقام صحبته عليه الصلاة والسلام سقوطاً قطعيّاً مؤبداً.

وسببُ هذا الحرمان القطعي المؤبد، بيَّنه سبحانه بمواجهتهم بتقاعسهم وتخلُّفهم:

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عندما استُنفِرتم للخروج إلى تبوك، فسببُ الحرمان نابعٌ منكم، من كسبكم واختياركم.

﴿فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ المتخلِّفين من أصحاب الأعذار كالمرضى والنساء والصبيان، فلا تصلحون لجهاد، ولا خير يُرجى منكم.

وكما حرمهم سبحانه في الدنيا من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ، حرمهم أيضاً من استحقاق التكريم بعد الموت، قال تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾.

فمن المعلوم المشروع أنَّ المسلم يكرَّم بعد موته، بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه والاستغفار له، ويجبُ على المسلمين أن يقوموا بذلك، ومن السُّنَّة بعد دفنه أن يقوموا عند قبره، يسألون الله تعالى له التثبيت والمغفرة وهو يُسأل في قبره.

والمنافق محرومٌ من كل هذا، لأنّ نفاقه قطعه عن المؤمنين، وعندما مات رأسُ المنافقين عبد الله بن أبيّ ابن سلول، جاء ابنُه عبد الله رضي الله عنه ـ وكان من

خيار شباب الأنصار ـ إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلِّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر رضي الله عنه فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أتصلِّي عليه وقد نهاك ربُّك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّما خيَّرني اللهُ فقال:** ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] **وسأزيده على السبعين**» قال: إنّه منافق. قال: فصلَّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾. [رواه البخاري (٤٦٧٢) ومسلم (٢٧٧٤) واللفظ للبخاري].

ثم بيَّن سبحانه سبب النهي عن الصلاة عليهم، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألَّا يصلِّي على أحد منهم إذا مات، وألَّا يقوم على قبره ليستغفرَ له، أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ، وماتوا عليه، وهذا حكمٌ عامٌّ في كلِّ مَنْ عُرِفَ نفاقه»[1].

وهذا يبيِّن لنا أنَّ البراءةَ المعلنةَ في أول السورة براءةٌ من جميع أصناف المشركين والكفار، وأنها شاملة للحياة وبعد الممات، وأنها أيضاً براءة قطعية نهائية.

وعادت الآياتُ مرَّةً ثانيةً تربِّي المؤمنين، وتنهاهم عن الإعجاب بما في أيدي الكافرين والمنافقين من الأموال والأولاد، ووجهت الخطاب للنبي ﷺ لأنه القدوة الحسنة للمؤمنين والمثل الأعلى لهم:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بجمعها وتثميرها وحفظها. ثم بعد ذلك:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٦١.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فهم الأشقياء المعذَّبون في الحياة والممات.

ويدلُّ تكرار النهي عن الإعجاب بما لدى المنافقين من متاع الدنيا وزينتها، على خطورته على المؤمنين، وقد فُتِنَ كثير من المسلمين بسبب ما يرون من متاع الدنيا وزخارفها عند الكافرين والمنافقين، وخاصة في عصرنا الحاضر، إنهم يظنون أنَّهم سعداء بما في أيديهم، ولو أمعنوا النظر في حياتهم لعرفوا مدى شقائهم وعنائهم، فالقلق والاضطراب وتعب القلوب والأعصاب وكثرة المشكلات، سُحُبٌ كثيفة ذاتُ ظلال سود قاتمة تغطي حياتهم، وتعكِّر عيشتهم.

ومما يدلُّ على شدّة إصرار المنافقين على تخلُّفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ أنَّهم كلَّما أنزل الله تعالى سورة تأمر بالجهاد مع رسول الله ﷺ تقاعسوا وتخلَّفوا:

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: أصحاب القوة والغنى من المنافقين.

﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ من الضعفاء والعاجزين.

وكأنَّه سبحانه أراد بهذا أن يبين كلمته فيما شرع من حرمانهم الدائم من شرف الخروج إلى الجهاد:

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ مع أنهم أقوياء أغنياء.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: وختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم حتى أصبحوا لا يميِّزون بين ما ينفعهم وما يضرهم.

فأينَ حالُ هؤلاء المتقاعسين المتخلِّفين من حال المؤمنين الملبِّين للدعوة والمسارعين إلى الجهاد؟!.

وقد عوَّدنا سبحانه في هذه السورة على مقارنة أحوال المنافقين بأحوال المؤمنين، ولهذا قال تعالى:

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ ولم يتخلَّفوا كما فعل المنافقون.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب الرفيعة في الدنيا والآخرة:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

● **البَحوث والمنقِّرة:**

وامتدَّ حديثُ الآيات الكريمة في سورة التوبة عن المنافقين وتشعَّب، مما يدلُّ على خطورة النفاق على سلامة المجتمع، وكانت الآياتُ ترصد أعمال المنافقين وتحركاتهم في كل مكان، ولهذا أطلق العلماء على هذه السورة اسم **البَحوث والمنقِّرة**، لأنها بحثت عن أحوالهم، ونقَّرت وفتَّشت عنهم في كل مكان، وهاهي الآياتُ الكريمة تنتقل من المدينة إلى البادية لتتحدَّث عن المنافقين من الأعراب في باديتهم؛ قال تعالى:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي: جاء المعتذرون من أعراب البادية إلى رسول الله ﷺ ليأذن لهم في التخلف عن الخروج إلى تبوك.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ﴾ وهم المنافقون من الأعراب الذين لم يجيئوا

ولم يعتذروا، فظهر بذلك نفاقهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله ﷺ في ادعائهم الإيمان.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: سيصيب الذين يصرون على الكفر حتى يموتوا عليه:

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

- **الأعذار المشروعة للتخلُّف عن الجهاد:**

وبمناسبة الحديث عن المعتذرين من الأعراب، بيَّن الله سبحانه الأعذار المشروعة التي يجوز لأصحابها أن يتخلَّفوا بسببها عن الخروج إلى الجهاد في حال النفير العام، عندما يكون الجهاد فرض عين على كل مستطيع له؛ فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ بسبب صِغَر أو كِبَر.

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الذين يمنعهم المرض عن الجهاد.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ ليؤمِّنوا لأنفسهم مؤونة السفر والسلاح، إذ كان المجاهدون في عهد النبي ﷺ مكلَّفين أن يؤمِّنوا لأنفسهم كل ما يحتاجون إليه من عتاد وسلاح، وأما إذا تكفَّلت الدولة لهم بنفقات الجهاد، كما هو الحال في العصر الحاضر، فلا عذر لهم في التخلُّف.

﴿حَرَجٌ﴾ إثم في التخلُّف عن الخروج إلى الجهاد.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة معذورون شرعاً في التخلُّف:

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إذا أخلصوا في إيمانهم بالله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن النصح لله ورسوله ﷺ أن يحافظوا على مصالح الأمة في غياب المجاهدين، وأن يحترزوا عن إشاعة الأراجيف

والأكاذيب، وإثارة القلاقل والفتن، وأن يقدِّموا مشورتهم ونُصحهم إلى المجاهدين، إن كانوا من أهل الدراية والخبرة في شؤون القتال.

فعن **تميم الداري** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**الدِّينُ النصيحةُ**» قلنا: لمن؟ قال: «**للهِ ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتِهِم**» [رواه مسلم (٥٥)].

فليس على مَنْ أحسنَ ونصحَ في تخلُّفه عن الجهاد بعذر مشروع لوم يلام عليه أو عقاب يعاقب بسببه، فقد سدَّ بإخلاصه ونصحه كل سبيل إلى لومه وعقابه.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم ويثيبهم على نصحهم وإخلاصهم.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ بالمدينةِ رجالاً، ما سِرْتُم مسيراً، ولا قطعتُم وادياً، إلَّا كانوا معكم، حَبَسَهم المرضُ**» وفي رواية: «**إلا شركوكم في الأجرِ**» [رواه مسلم (١٩١١)].

ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، ودنا من المدينة المنوَّرة قال: «**إنَّ بالمدينةِ أقواماً ما سِرْتُم مِنْ مسيرٍ، ولا قطعتُم وادياً، إلا كانوا معكم فيه**» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينةِ؛ حَبَسَهُم العذرُ**» [رواه البخاري (٤٤٢٣)].

- **دموع خالدة:**

ومن هؤلاء الذين أثنى عليهم رسول الله ﷺ فريقُ البكَّائين، الذين بلغ بهم حُبُّ الجهادِ والخروج مع رسول الله ﷺ حدّاً جعلهم يبكون ويذرفون الدمع أسفاً، لأنَّهم لم ينالوا شرف الجهاد مع النبي ﷺ، ولم يستطيعوا الخروج معه إلى تبوك، وقد خلَّد الله تعالى دموعهم في التنزيل الحكيم، فقال:

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم على الذين إذا

ما أتوك يطلبون منك أن تعطيهم ظهْراً يحملهم معك إلى تبوك، إذ كانوا فقراء لا يملكون ثمن رواحلَ يرتحلون عليها.

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بسبب أنه ﷺ أنفق كل ما كان عنده، وما جمعه، فلم يبقَ عنده شيء يقدمه لمن بقي من فقراء المجاهدين من حمولة وظهْر.

﴿تَوَلَّوا﴾ أي: تركوا رسول الله ﷺ، وابتعدوا عنه، كأنَّهم يريدون أن يخفوا شدة وَجْدهم وانكسارهم ودموعهم عن رسول الله ﷺ.

﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي: تسيل من الدمع، فكأنّ أعينهم صارت كلها دمعاً فياضاً، وهو أبلغ من القول: أعينهم يفيض دمعها.

﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ على أنفسهم لكي يخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك.

وما كان الخروجُ إلى تبوك أمراً سهلاً كالخروج إلى نزهة، لقد كان كما مرَّ معنا في صيف حارٍّ لاهب، في وقتٍ طابت فيه الظلال، ونضجتِ الثمار، والمسافة بعيدةٌ، تحتاج إلى السير مدَّة شهر كامل في صحراء جرداء محرقة جافة، ولهذا سمى سبحانه زمن غزوة تبوك: ساعة العسرة، كما سيأتي معنا، وسُمِّيَ الجيش الذي خرج معه: جيشَ العسرة، لكثرة ما عانوا من عسرة الطريق ومشاقِّه، وزاد في معاناتهم قلَّة الظهر والزاد والماء.

ورغم كلِّ هذا بكى فقراءُ المؤمنين الذين لم يجدوا ما ينفقون أسفاً وحزناً لما فاتهم من شرف الخروج مع النبيِّ ﷺ إلى تبوك، بينما فرح المنافقون أولو الطول والغنى والسعة، بسبب قعودهم وتخلُّفهم؛ فما أعظم الفرق بين الفريقين! فريق البكائين، وفريق الفرحين الضاحكين، الفريق الذين فاضت عيونهم دمعاً، والفريق الذين اهتزَّت أشداقُهم وبطونهم ضحكاً، والذين توجهت الآيات باللوم والتقريع إليهم:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا بالدناءة والضعة والانتظامِ في جملة الخوالفِ من العجزة والمرضى والصغار والنساء[١].

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الجهاد وثوابه وشرف الخروج مع رسول الله ﷺ.

والجديرُ بالذكر هنا أنَّ رسول الله ﷺ كان يقدِّر مشاعر الفقراء من أصحابه، وكان يشاركهم مشاعرهم وأحاسيسهم، حتى إنه أحياناً كان يترك الخروج إلى الجهاد مواساةً لهم، مع حبِّه الشديد للجهاد، وقد صرَّح ﷺ بذلك فقال: «**والذي نفسُ محمَّدٍ بيده لولا أن يشقَّ على المسلمين، ما قعدتُ خلافَ سريةٍ تغزو في سبيلِ اللهِ أبداً، ولكنْ لا أجدُ سَعةً فأحملهم، ولا يجدونَ سعةً، ويشقُّ عليهم أن يتخلَّفوا عني**» [رواه البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦)].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفسير الخازن: ٣/ ١٧٨.

# الفصل الرابع

# مَعَ المُؤمِنينَ بَعْدَ تَبُوك
# تَحْذِيراتٌ وإِرشَادَاتٌ

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا

يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ
فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ
تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ
لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ
وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ
إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى
النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ
إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا
مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ
وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم

بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةًۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٍ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

- **تحذير المؤمنين من خداع المنافقين:**

بعد أن انتهت الآياتُ من بيان مواقف المنافقين من غزوة تبوك، وتفصيل شرائحهم، اتجهت بالخطاب إلى المؤمنين تحذِّرهم من كيد المنافقين وخداعهم، وترسمُ لهم أسلوبَ التعامل معهم؛ قال تعالى:

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: يعتذر المنافقون إليكم أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك.

﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدِّقكم، لأن الله سبحانه قد كشف لنا أمركم:

﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وأظهر أسراركم، وفضح نفاقكم.

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ في المستقبل، أتتوبون وتتعظون بما مضى، أم تصرُّون على نفاقكم؟.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بعد الموت.

﴿إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويجازيكم عليه.

ويقدِّم المنافقون مع أعذارهم الواهية أيمانهم الكاذبة، كما مرَّ معنا:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوة تبوك.

﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ لتعرضوا عن لومهم وتوبيخهم على تخلُّفهم، وتصفحوا عنهم.

﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ لا إعراضَ صفحٍ ورضا، كما أرادوا، بل إعراضَ اجتناب وكُره واحتقار. والسبب:

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ قَذَرٌ وخَبَثٌ، ومن شأن الرجس أن يُجتَنَبَ ويكرهَ ويُنبذَ، فبواطنهم خبيثة نجسةٌ، وأعمالُهم قبيحةٌ قذرةٌ، ولهذا أعطوا إعراضَ المقت والغضب، بدل إعراض العفو والصفح.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم وإرادتهم من النفاق.

وقد ينجح المنافقون بكلامهم المعسول وأيمانهم الكاذبة بخداع بعض المؤمنين، وكسب رضاهم، ولكنَّهم لا يستطيعون خداع الله تعالى عالم الغيب

والشهادة، الذي يعلم حقيقة ما يُخفون في صدورهم من خُبث ولؤم ونفاق، ولهذا قال سبحانه محذِّراً المؤمنين من التأثر بأقوال المنافقين وأَيمانهم:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

فلا قيمةَ لرضاكم بجانب رضا الله تعالى، ومن شأن المؤمن أن يكونَ رضاه تبعاً لرضا ربِّه، فلا يرضى إلَّا عمَّن يرضى الله تعالى عنه.

- **جهل وجفاء:**

وكذلك حذَّرتِ الآياتُ المؤمنين من منافقي الأعراب في البادية أيضاً، وجاء التحذير بأسلوب تنبيه المؤمنين إلى الصفات المذمومة في منافقي البادية:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أي: البدو الرحَّل أشد في الكفر والنفاق من أهل الحواضر والمدن، لما فيهم من جفوة البادية وخشونة الحياة فيها.

ولا شك أنَّ للبيئة تأثيراً كبيراً على طباع الإنسان وأخلاقه؛ قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سكنَ الباديةَ جفا، ومن اتبعَ الصيدَ غفلَ، ومن أتى السلطانَ افتُتِنَ**» [رواه أبو داود (٢٨٥٩) والنسائي (٧/ ١٩٥) والترمذي (٢٢٥٦)].

وعن **عائشة** ﵂ قالت: قدمَ ناسٌ من الأعرابِ على رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: أتقبِّلونَ صبيانَكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنَّا واللهِ ما نقبِّلُ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**وَأملكُ إنْ كانَ اللهُ نزعَ منكم الرحمةَ**» [رواه مسلم (٢٣١٧)].

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: وهم أحرى أن يغلب الجهل عليهم بسبب قلَّة مخالطتهم للعلماء والوعاظ، وبُعدهم عن منابع العلم ومصادره.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما قدَّره وشرعه.

فالواجب يقتضي من الدعاة والعلماء أن يأتوا الأعراب في منازلهم لنشر الدعوة بينهم، وتعليمهم أحكام دينهم، وكان رسول الله ﷺ يرسل أصحابه إلى القبائل لنشر الدعوة والعلم، وقد انتشر الإسلام نتيجة لذلك بينهم، وبقي بعضهم على الشرك، ونافق بعضهم أيضاً.

وقد بيَّن تعالى أصناف الأعراب هذه فقال:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ وهم المنافقون، فقد كانوا يرون أموال الزكاة التي كانوا يدفعونها كارهين غرامة وخسارة، ولا يرونها صدقة وعبادة تقربهم إلى الله تعالى.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي: ينتظر هذا الصنف من الأعراب أن تنزل بكم أيها المسلمون تقلبات الزمان وصروفه ومصائبه، ليتملص من دفع الزكاة ويمنعها. وقد حدث هذا فعلاً كما أخبر سبحانه، فعندما توفي رسول الله ﷺ امتنعَ كثيرٌ من الأعراب عن دفع الزكاة.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ وهذا دعاء عليهم بنحو ما كانوا يرجون حصوله للمؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

- **شهادة وبشارة:**

وأما المؤمنون من الأعراب، فقال الله تعالى فيهم:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: يجعل نفقاته التي ينفقها عبادةً يتقرَّبُ بها إلى الله تعالى.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ويطلب أيضاً بنفقاته الفوزَ بدعوات الرسول ﷺ له، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كما سيأتي معنا.

﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: إنَّ نفقتهم قربةٌ، أو إنَّ دعواتِ الرسول ﷺ عبادةٌ تقرِّبهم إلى الله تعالى. وهي شهادة طيبة رفيعة من الله تعالى بصحة إيمانهم وإخلاصهم في عباداتهم.

وبعد هذه الشهادة الربانية، أتبع الله تعالى بها البشارة الكريمة:

﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وهي أقصى ما يؤمِّله المؤمنون ويرجونه من رب العالمين، اللهم أدخلنا برحمتك يا أرحم الراحمين:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والجدير بالذكر أنَّ النبي ﷺ أثنى على بعض القبائل العربية من سكان البوادي؛ فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أسلمُ سالمَها اللهُ، وغِفارُ غفرَ اللهُ لها، أما إنِّي لم أقلها، ولكنْ قالها اللهُ** عز وجل» [رواه مسلم (٢٥١٦)].

ولعلَّ النبيَّ ﷺ أشار إلى ما في هذه الآية الكريمة.

**وعنه** أيضاً: أنه ﷺ قال: «**قريشٌ والأنصارُ ومُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وأسلمُ وغِفارُ وأشجعُ، مواليَّ، ليس لهم مولًى دونَ اللهِ ورسولِه**» [رواه مسلم (٢٥٢٠)].

- **فضيلة السابقين:**

ثم عمَّم الله تعالى الثناءَ على جميع أبناء الأمة المسلمة، وخصَّ بالذكر

روادها الأوائل، السابقين على درب الإيمان والجهاد من المهاجرين والأنصار، فقال جلَّ وعلا:

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ الذين سبقوا إلى الإيمان والهجرة والنصرة، وللسابق فضل التقدم والسبق، ولهذا فضَّل الله تعالى الذين سبقوا إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

فلقد كان الحال في المراحل الأولى للدعوة الإسلامية شديداً، فما آمَنَ في أثنائه إلا الصدِّيقون، وأما بعد ذلك، وخاصةً بعد فتح مكة، فقد ظهر الإسلام وعزَّ أهلُه، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً.

وظهر بهذا فضلُ السيدة **خديجة** أم المؤمنين رضي الله عنها، فهي سبَّاقة الخَلقِ إلى تصديق الرسول ﷺ والدخولِ في الإسلام، فهي أول الناس إسلاماً باتفاق العلماء، وأول من صلَّى مع رسول الله ﷺ[(١)].

كما ظهر **فَضْلُ أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة،** رضي الله عنهم، وفضل الذين سبقوا إلى الإسلام بعدهم من المهاجرين والأنصار.

قال ابن كثير رحمه الله: «أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٨٤؛ وانظر كتابنا: السيدة الأولى خديجة أم المؤمنين سباقة الخلق إلى الإسلام، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

وأفضلهم؛ أعني: الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر ﵁! فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياذاً بالله من ذلك[١].

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من سبِّهم فقال: «**لا تسبُّوا أصحابي، لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقَ أحدُكم مثلَ أُحُدٍ ذهباً، ما أدركَ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه**» [رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١)].

- **شرط الإِحسان:**

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ من بقية الصحابة، ومن جاء بعدَهم، وسار على طريقهم إلى يوم الدين، وقد ذكر الله تعالى في التابعين شرطاً، وهو شرط الإِحسان، ومعناه أن يقتدوا بالأعمال الحسنة التي كان عليها الصحابة ﵃، وبهذا يُحْسِنون اتباعهم واقتفاء آثارهم.

ويدخل أيضاً في شرط الإِحسان أن يذكروهم ذكراً حسناً، فلا يقولوا فيهم إلا قولاً حسناً، ولا يذكروهم إلا بخير، وهو أمر مطلوب في حق كل من توفاه الله تعالى من المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «**اذكروا محاسنَ موتاكم، وكفُّوا عن مساويهم**» [رواه أبو داود (٤٩٠٠) والترمذي (١٠١٩) وابن حبان (٣٠٠٩)].

وقال أيضاً: «**لا تسبُّوا الأمواتَ فإنَّهم أفضَوْا إلى ما قدَّموا**» [رواه البخاري (١٣٩٣) وابن حبان (٣٠١٠)].

ويتأكد هذا الأمرُ في حقِّ الصحابة ﵃، لقوله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ولمَّا قيلَ للسيدة **عائشة أم المؤمنين** ﵂: إنَّ قوماً يشتمون أصحابَ محمَّدٍ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/١٦٦.

ﷺ! قالت: قطعَ اللهُ عنهم العملَ، فأحبَّ ألا يقطعَ عنهم الأجرَ. وقالت أيضاً: أُمروا أن يستغفروا لأصحابِ النبيِّ ﷺ فسبوهم[١].

ثم أخبر سبحانه برضاه عن الصحابة وعن كل من اتبعهم بشرط الإِحسان في اتباعهم فقال:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بقبول طاعاتهم وعباداتهم وجهادهم، فلتقرَّ أعينهم، ولتطمئن قلوبهم، فإنَّ أشدَّ ما يقلق الصالحين ألا يتقبل الله أعمالهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بما أفاض عليهم من فضله وإحسانه ونعمه، ورضوا أيضاً بما شرع لهم وكلَّفهم، ورضوا أيضاً بما قدَّر عليهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده، فهو الفوز الحقيقي.

وتبيِّن الآيةُ وحدةَ الطريق الذي جمع بين المسلمين: السابقين والتابعين، فالإِسلامُ طريقٌ واحد، والقصدُ واحد، وهو الوصول إلى رضوان الله تعالى.

فيا فوزَ الثابتين على الطريق، حتى يكرمهم الله تعالى باللحاق بقافلة الصالحين: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

- **فن النفاق:**

ولا تظننَّ أخي القارئ الكريم أنَّ الحديث عن المنافقين قد انتهى، فالنفاق أمره خطير وشأنه كبير، وشرائح المنافقين كثيرة، ومشكلاتهم كبيرة، وما كان حديث الآيات عن فضل السابقين من هذه الأمة وفضل التابعين لهم بإحسان إلا استراحة على طريق البراءة الذي جعلتنا آيات السورة نسلكه من أول آية فيها، وهاهي الآيات الكريمة تعود بنا إلى الحديث عن المنافقين على سبيل تحذيرنا من شر مكرهم وكيدهم:

---

(١) انظر كتابنا: عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ والخطاب في الآية للصحابة في المدينة المنورة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ منافقون أيضاً.

﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، أي: أتقنوا فنَّ النفاق ومهروا فيه، فالنفاق فنٌّ لا يتقنه أي إنسان، لقد أصبحَ لهؤلاء المقيمين حول المدينة وبداخلها من المنافقين خبرة ودراية كبيرة في النفاق حتى إنك:

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يا نبيَّ الله ﷺ مع قوة فطنتك، وصدق فراستك إلا إذا أعلمك الله تعالى بهم، لأنه سبحانه يعلمهم:

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فمهما احتاطوا في ستر نفاقهم، وتفننوا في مكرهم واحتيالهم، فلا تخفى علينا حقيقتهم.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ المرَّة الأولى عندما تتولَّى الملائكةُ قبض أرواحهم عند موتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال].

ويمكن أن تكون **المرة الأولى** في الحياة الدنيا قبل الموت، بما يصيبهم من همٍّ وقلق خشية أن يُفتضح أمرُهم، وتظهر حقيقتهم، وبما يعانون أيضاً من التعب والشقاء في أموالهم وأولادهم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

**والمرَّة الثانية** تعذيبهم في قبورهم، وبعد المرَّتين:

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في جهنم، حيث يعذَّبون فيها أشدَّ أنواع العذاب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

• **التوبة عن النفاق:**

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

ولقد نجح أسلوب البلاغ الأخير الذي اتبعته الآيات الكريمة في سورة التوبة، الأسلوب الذي تضمَّن فضح المنافقين بكشف حقيقتهم، وبيان صفاتهم التي تميزهم عن المؤمنين، وعزلهم ومقاطعتهم وردِّ صدقاتهم، ومنعهم من الخروج إلى الجهاد مرة ثانية بعد تبوك، وتهديدهم بأشد أنواع العذاب، وترغيبهم بقبول توبتهم إن تابوا وأقلعوا عن النفاق.

وأثمر ثماراً طيبة، إذ صلح إيمان كثير منهم، وتابوا عن النفاق.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: (باب: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]) ظاهر الآية نزلت في جميع المنافقين، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم، قال الواقدي: أنبأنا معمر، عن الزهري قال: قال حذيفة: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنِّي مُسِرٌّ إليكَ سِرّاً فلا تذكرْه لأحدٍ، إنِّي نُهِيْتُ أن أصلِّي على فلانٍ وفلانٍ**» رهط ذوي عدد من المنافقين.

قال: فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلِّي على أحد استتبع حذيفةَ، فإن مشى معه وإلا لم يصلِّ عليه.

ومن طريق أخرى عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً... ولعلَّ الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك أن الله علم أنهم يموتون على الكفر، بخلاف من سواهم فإنهم تابوا[١].

وفي «**صحيح مسلم**» [٢٧٧٩]: عن **حُذيفة** قال: **أشهدُ باللهِ أنَّ اثني عشر منهم حربٌ للهِ ولرسولِه في الحياةِ الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ.**

---

(١) فتح الباري: ٨/٣٣٨ مع اختصار قليل.

فبعد أن كان ثلثُ المدينة المنوَّرة تقريباً من المنافقين، تابَ أكثرهم عن النفاق، وحَسُنَ إيمانهم، فلم يبقَ فيها سوى اثني عشر منافقاً[1]، وفي هؤلاء التائبين عن النفاق قال سبحانه:

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: وفريق آخر من المنافقين.

﴿ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بنفاقهم وتخلفهم عن رسول الله ﷺ وغير ذلك.

﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: خلطوا بين أعمال المؤمنين الصالحة، وأعمال المنافقين السيئة، فتارة يفعلون فعلَ المؤمنين، وتارةً يفعلون فعلَ المنافقين، ثم وفقهم الله تعالى للتوبة فتابوا، وأخلصوا لله تعالى أعمالهم. ولهذا قال سبحانه:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عسى الله أن يقبل توبتهم، و(**عسى**) في كلامه تعالى تفيد الوجوب والتحقق، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

فمن أخلص لله تعالى في توبته، تاب عليه وقبل توبته، وهو سبحانه القائل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وتأكيداً لهذا المعنى ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والآيةُ وإن كانت في التائبين عن النفاق إلا أنَّ حكمها عام ينسحب على جميع التائبين.

هذا المعنى الذي ذكرتُه في تفسير الآية أولى ممَّا ذهب إليه جمهور المفسرين، ويتفق مع سياقها من آيات السورة أكثر، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ الآيةَ نزلت في بعض المتخلِّفين من المؤمنين، وهم أبو لبابة الأنصاري

---

(١) وكان للمعاملة الطيبة والموقف الكريم الذي وقفه رسول الله ﷺ من زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ عند موته، أثر أيضاً في توبة كثير منهم عن النفاق.

وجماعة معه، تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ، ثم ندموا وتابوا وربطوا أنفسهم في سواري المسجد، وحلفوا ألا يحلُّوا أنفسهم حتى يتوبَ الله عليهم.

وهذا الذي ذهبوا إليه رواية عن **ابن عباس** أخرجها البيهقيُّ في «**الدلائل**»، وهي تخالِفُ الرواية الصحيحة الثابتة عن **كعب بن مالك** رضي الله عنه في قصة تخلُّفه، وستأتي معنا، ففيها ما يدلُّ على أنَّ المتخلِّفين من المؤمنين عن تبوك ثلاثة فقط، تخلَّفوا من دون عذر مشروع، وليس أبو لبابة منهم، والمعروفُ أنَّ أبا لبابة ربَط نفسَه في ساريةِ المسجدِ في غزوة بني قُريظة عندما أرسله النبيُّ ﷺ إلى يهود بني قريظة ليطلبَ منهم أن ينزلوا من حصونهم على حكم الله ورسوله ﷺ فيهم، فلمَّا كلَّمهم أشار إليهم إشارة إلى عنقه، فهموا منها أنَّ الحكمَ هو قتلُهم، وندمَ في الحال، وعَلِمَ أنَّه بهذه الإشارة قد خان الله ورسوله ﷺ، وذهب إلى المسجد وربط نفسه في سارية من سواريه، حتى حلَّه رسول الله ﷺ بيده[1].

**• الزكاة طهارة ونماء:**

ثم أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ بقبض صدقات التائبين من المنافقين، وقبولها منهم، بعد أن كانت غيرَ مقبولة منهم، كما مرَّ معنا؛ فقال:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب والآثام، فالحسنة تمحو السيئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «**اتقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ الناسَ بخلقٍ حَسَنٍ**» [رواه الترمذي (١٩٨٧)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ٣/ ١٤٣.

﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: وتنمِّي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين[1].

ففي التزكيةِ معنى النماءِ والبركةِ، وقد يجعل الله البركة والزيادة في أموالهم، ويكون المعنى: تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم، والله سبحانه يبارك في المال المزكى، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وتدلُّ الآيةُ على أنَّ لولي أمر المسلمين أن يأخذَ الزكاة من المكلَّفين، ويجبرهم على دفعها له، كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما قاتل مانعي الزكاة، وقال: واللهِ لأقاتلنَّ مَنْ فرَّقَ بين الصلاة والزكاة، فإنَّ الزكاةَ حق المال، واللهِ لو منعوني عقالاً كانوا يؤدُّونه لرسولِ اللهِ ﷺ لقاتلتُهم على منعه. [رواه البخاري (١٤٠٠) ومسلم (٢٠)].

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادعُ الله لهم، واستغفر لهم، فإنَّ أصلَ معنى الصلاة في اللغة الدعاء، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ [التوبة: ٩٩].

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن أبي أوفى** رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أُتي بصدقةِ قومٍ صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقتِهِ، فقال: «**اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى**» [رواه البخاري (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨)].

﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: إن دعاءك رحمةٌ لهم، وطمأنينة لقلوبهم ونفوسهم، لأنَّهم يستدلون بها على قبول الله تعالى لصدقاتهم.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/ ١٨٩.

• **الحث على التوبة والصدقة:**

ثم أخبرهم سبحانه بأسلوب الاستفهام التقريري بقبول صدقاتهم، فقال:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهي بشارة عظيمة للتائبين بقبول توبتهم، تُرغِّب بالتوبة وتحض عليها.

﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يقبلها سبحانه ويثيب عليها، وقد أسند تعالى أخذ الصدقات إلى نفسه، مع أنَّ الذي يأخذها هو الإنسان الذي أوتيها، لأنه سبحانه هو الذي شرع الزكاة وأوجبها، وهو أيضاً الذي يثيبُ عليها.

وفي هذا تعظيم لشأن الزكاة والصدقات، وبيان لأهميتها وشرفها ومكانتها الرفيعة عند الله تعالى، ألا ترى أنه سبحانه عندما أراد أن يعظم شأن بيعة الرضوان قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

ومن هذا القبيل الحديث القدسي الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ ﷻ يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ! مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ كيفَ أعودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مرضَ فلم تعُدْه، أما علمتَ أنَّكَ لوْ عُدْتَهُ لوجدتني عنده. يا ابن آدم! استطعمتُك فلم تُطْعِمْني، قال: يا ربِّ وكيفَ أطعِمُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟! قال: أما علمتَ أنَّه استطعمَكَ عبدي فلانٌ فلم تطعِمْه، أما علمتَ أنَّكَ لو أطعمتَه لوجدتَ ذلكَ عندي. يا ابنَ آدمَ! استسقيتُكَ فلم تَسْقِني، قال: يا ربِّ كيفَ أسقيكَ وأنتَ ربُّ العالمينَ؟! قال: استسقاكَ عبدي فلانٌ فلم تَسْقِهِ، أما إنَّكَ لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندي**» [رواه مسلم (٢٥٦٩)].

وجاء أيضاً في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيِّبٍ ـ ولا يقبلُ اللهُ إلا الطيِّبَ ـ إلا أخذَها**

**الرحمنُ بيمينِهِ، وإنْ كانتْ تمرةً، فتربو في كفِّ الرحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجَبَلِ، كما يربِّي أحدُكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَهُ»** [رواه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤) واللفظ له]. **والفلو**: المهر. **والفصيل**: ولد الناقة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يقبل توبة التائبين ويرحمهم.

**• الحرص على السمعة الحسنة:**

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء التائبين:

﴿ٱعْمَلُواْ﴾ بطاعة الله تعالى، وأخلصوا له في عملكم.

﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنَّ عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ﷺ ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله ﷻ[1].

ففي الآية تهديد بأنَّ عملهم لا يخفى على الله ورسوله ﷺ والمؤمنين. وفيها أيضاً ترغيبٌ بفعل الخير والإخلاص، فإنَّ مَنْ علم أنَّ عمله لا يخفى، سواء كان خيراً أو شرّاً، رغب في الخير، وتجنَّب الشر.

وكذلك فيها ترغيب من جانب آخر، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام إذا رأى عملكم الصالحَ سُرَّ بذلك، ودعا لكم، وإذا رآها المؤمنون أثنوا عليكم، وذكروكم ذكراً طيباً حسناً، وكان لكم بينهم سُمعة حسنة، وهو أمر مشروع يباين الرياء المذموم، لأنَّ الرياء أن تعملَ العملَ لأجل الشهرة والسمعة بين الناس، لا تقرباً إلى الله تعالى، وأمَّا الحرصُ على حُسْنِ السمعة بين الناس بأن تنأى بنفسك عن مواضع التهمة والريبة، وأن تكون قدوةً حسنةً في فعل الخير، فهو

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٤٠٠.

أمر مشروع، سأله إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

ويسأله المؤمنون أيضاً في دعائهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وهذا فضلاً عن الثواب يوم القيامة:

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

- **المتخلِّفون الثلاثة من المؤمنين:**

كان بين المتخلفين عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ثلاثة من المؤمنين، تخلَّفوا من غير عذر، ولم يعتذروا للنبيِّ ﷺ بأعذار واهية كالمنافقين، بل أقروا له بذنبهم في التخلُّف، وهم كعب بن مالك الشاعر المعروف، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، قال تعالى فيهم:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: ومن المتخلِّفين آخرون.

﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مؤخَّرون حتى يحكم الله تعالى فيهم، **فالإرجاء** التأخير، وفي قراءة: **(مُرْجَؤون)**.

وأخَّر سبحانه أمرهم خمسين ليلة، كما سيأتي معنا في قصَّتهم، ولهذا قال:

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فأمرهم موقوف بين هذين الأمرين.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ولنستمع إلى قصتهم من كعب بن مالك رضي الله عنه وهو يتحدَّث عن تخلُّفه:

«لم أتخلَّف عن رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا في غزوةِ تبوك، غير أنِّي كنتُ تخلَّفت في غزوةِ بدرٍ، ولم يعاتبْ أحداً تخلَّفَ عنها.

كان من خبري أني لم أكنْ قطُّ أقوى ولا أيسرَ حين تخلفتُ في تلك

الغزاةِ، واللهِ ما اجتمعتْ عندي قبله راحلتانِ قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسولُ اللهِ ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوةُ، غزاها رسولُ اللهِ ﷺ في حَرٍّ شديدٍ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدوّاً كثيراً، فجلَى للمسلمين أمرَهم، ليتأهبوا أهبةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسولِ اللهِ ﷺ كثير، ولا يجمعُهم كتابٌ حافِظٌ، فما رجلٌ يريد أن يتغيَّبَ إلا ظنَّ أن سيخفى له، ما لم ينزِلْ فيه وحيُ اللهِ.

وغزا رسولُ اللهِ ﷺ تلك الغزوة حين طابتِ الثمارُ والظلالُ، وتجهَّزَ رسولُ اللهِ ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجعَ ولم أقضِ شيئاً، فأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدَّ بالناس الجِدُّ، فأصبحَ رسولُ اللهِ ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئاً، فقلتُ: أتجهَّزُ بعدَه بيومٍ أو يومين، ثم ألحقهم.

فغدوتُ بعد أن فَصَلوا لأتجهَّزَ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوتُ، ثُم رجعتُ ولم أقضِ شيئاً، فلم يزلْ بي حتَّى أسرعوا وتفارطَ الغزو(١).

وهممتُ أن أرتحلَ فأدركَهم، وليتني فعلتُ، فلم يقدَّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناسِ بعدَ خروجِ رسولِ اللهِ ﷺ، فطُفتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاقُ(٢)، أو رجلاً ممَّن عذَر اللهُ من الضعفاءِ.

ولم يذكرني رسولُ اللهِ ﷺ حتَّى بلغَ تبوكَ، فقالَ وهو جالِسٌ في القومِ بتبوك: «**ما فعلَ كعبٌ؟**» فقال رجل من بني سَلِمة: يا رسولَ اللهِ حبَسه بُرداه، ونظرُه في عِطْفِهِ(٣). فقال معاذُ بنُ جبلٍ: بئسَ ما قلتَ، واللهِ يا رسولَ اللهِ ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكتَ رسولُ اللهِ ﷺ.

---

(١) أي: فات وسبَق.

(٢) أي: متهماً بالنفاق.

(٣) أي: منعه جمالُ ثوبيه ونظره إلى نفسه نظرة التكبُّر.

فلمَّا بلغني أنَّه توجَّه قافلاً حضرني همي، وطفقتُ أتذكَّرُ الكذبَ، وأقول: بماذا أخرجُ من سخطِهِ غداً؟ واستعنتُ على ذلك بكلِّ ذي رأيٍ من أهلي.

فلمَّا قيل: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أظلَّ قادماً زاحَ عني الباطِلُ، وعرفتُ أني لنْ أخرجَ منه أبداً بشيءٍ فيه كذب، فأجمعتُ صدقَهُ.

وأصبحَ رسولُ اللهِ ﷺ قادماً، وكان إذا قدمَ مِنْ سفرٍ بدأ بالمسجدِ، فيركعُ فيه ركعتين، ثم جلسَ للناسِ، فلمَّا فعلَ ذلك جاءه المخلَّفون، فطفِقُوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسولُ اللهِ ﷺ علانيتَهم، وبايعهم، واستغفرَ لهم، ووكلَ سرائرهم إلى الله.

فجئتُه، فلمَّا سلمتُ عليه تَبَسَّمَ تبسُّمَ المغضَبِ، ثم قال: «**تعال**» فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «**ما خلَّفكَ؟ ألم تكنْ قد ابتعتَ ظهرَكَ؟**».

فقلتُ: بلى إنِّي واللهِ لو جلستُ عند غيركَ من أهل الدنيا لرأيتُ أنْ سأخرجُ من سَخَطِهِ بعذرٍ، ولقد أُعطيتُ جَدَلاً، ولكنْ واللهِ لقد علمتُ لئن حدثْتُكَ اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عنِّي، ليوشكنَّ اللهُ أن يُسخِطَكَ عليَّ، ولئن حدثْتُكَ حديثَ صدقٍ تجِدُ عليَّ فيه، إنِّي لأرجو عفوَ اللهِ، لا واللهِ ما كانَ لي مِنْ عذرٍ، واللهِ ما كنتُ قط أقوى ولا أيسرَ منِّي حين تخلَّفتُ عنك.

فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَّا هذا فقد صدقَ، فقم حتَّى يقضيَ الله فيك**».

فقمتُ، وثار رجالٌ من بني سَلِمة فاتبعوني فقالوا لي: واللهِ ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بما اعتذرَ إليه المتخلِّفون، قد كان كافيك ذنبَكَ استغفارُ رسولِ اللهِ ﷺ لكَ.. فواللهِ ما زالوا يؤنِّبوني حتى أردتُ أن أرجعَ فأكذِّبَ نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لقيَ هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثلَ ما قيلَ لكَ، فقلتُ: مَنْ هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ الربيع العَمْريُّ، وهلال بن أُمية الواقفي. فذكروا لي رجلين قد شهدا بدراً فيهما أُسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي.

ونهى رسولُ اللهِ ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثةُ مِنْ بينِ من تخلَّف عنه؛ فاجتنبَنا الناسُ، وتغيَّروا لنا، حتى تنكرتْ في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرفُ، فلبثنا على ذلك خمسينَ ليلةً.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيانِ، وأما أنا فكنتُ أَشَبَّ القومِ وأجلدَهم، فكنتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواق، ولا يكلِّمني أحدٌ، وآتي رسولَ اللهِ ﷺ فأسلِّمَ عليه، وهو في مجلسِهِ بعدَ الصلاةِ، فأقول في نفسي: هل حرَّكَ شفتيه بردِّ السَّلامِ عليَّ أم لا؟ ثم أُصلِّي قريباً منه، فأسارِقُه النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوَهُ أعرضَ عني.

حتى إذا طالَ عليَّ ذلك من جَفوةِ الناسِ، مشيتُ حتّى تسَوَّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادةَ، وهو ابنُ عمِّي، وأحبُّ الناس إليَّ، فسلمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ السلام، فقلتُ: يا أبا قتادةَ أنشِدُك باللهِ هل تعلمني أحبُّ اللهَ ورسولَه؟ فسكت، فعدتُ له فنشدتُه، فَسَكَتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، ففاضت عيناي، وتولَّيتُ حتَّى تسوَّرتُ الجدارَ.

فبينما أنا أمشي بسوقِ المدينةِ إذا نبطيٌّ من أنباطِ الشامِ ممَّن قَدِمَ بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: مَنْ يدلُّ على كعبِ بنِ مالكٍ؟ فطفقَ الناسُ يشيرونَ له، حتى إذا جاءني دفعَ إليَّ كتاباً من ملكِ غسَّان، فإذا فيه: أمَّا بعدُ، فإنَّه قد بلغني أنَّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلْكَ اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضْيعةٍ، فالحقْ بنا نواسِكَ. فقلتُ لمَّا قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاءِ. فتيمَّمتُ بها التنُّورَ فسجَّرْتُه بها.

حتى إذا مضتْ أربعونَ ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ اللهِ ﷺ يأتيني فقال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يأمرك أن تعتزلَ امرأتَكَ. فقلتُ: أطلِّقُها أم ماذا أفعلُ؟ قال: لا بل اعتزِلْها، ولا تَقْرَبْهَا. وأرسل إلى صاحِبَيَّ مثلَ ذلكَ، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلكِ فتكوني عندَهم حتى يقضيَ اللهُ في هذا الأمر.

فجاءتِ امرأةُ هلال بنِ أميةَ رسولَ اللهِ ﷺ، فقالتْ: يا رسولَ اللهِ إنَّ هلالَ بنَ أميةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدِمَه؟ قال: «لا،

**ولكن لا يقربك»** قالت: إنَّه واللهِ ما به حركةٌ إلى شيءٍ، واللهِ ما زالَ يبكي منذُ كان من أمرِهِ ما كانَ إلى يومه هذا.

فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ اللهِ ﷺ في امرأتِكَ كما أذنَ لامرأةِ هلال بن أمية أن تخدمَه. فقلتُ: واللهِ لا أستأذنُ فيها رسولَ اللهِ ﷺ، وما يُدريني ما يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ إذا استأذنتُه فيها وأنا رجلٌ شابٌّ.

فلبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كملتْ لنا خمسونَ ليلةً من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. [رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ للبخاري] وستأتي بقية الحديث عند تفسير الآية [١١٨] من السورة.

• **مسجد الضرار:**

وأرجأتِ الآياتُ أمرَ هؤلاء الثلاثة كما أرجأ الله تعالى أمرهم، وشرعت تتحدَّث عن شريحة أخرى من شرائح المنافقين، بنوا مسجداً عُرِفَ فيما بعدُ بمسجد الضرار، أنزل الله تعالى فيه قوله:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: بنوا مسجداً لأجل الضرر، إذ قصدوا الإضرار بالمسلمين من أهل مسجد قُباء.

﴿وَكُفْرًا﴾ أي: ولأجلِ تقوية الكفر والنفاق.

﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولأجل التفريق بين المؤمنين، الذين كانوا يصلُّون جميعاً في مسجد قُباء، فبنوا مسجد الضرار قريباً منه، ليصلِّي فيه بعضهم، مما يؤدي إلى الاختلاف وتفرُّق الكلمة.

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي: وبنوه أيضاً ترقُّباً وانتظاراً لمن عادى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وهو أبو عامر الفاسق، والد حنظلة، الذي استشهد في أُحُد وغسلته الملائكة.

وكان أبو عامر قد تنصَّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكانت له مكانةٌ كبيرةٌ بين قومه الخزرج، ولمَّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأصبحت كلمة الإسلام عالية فيها، وأعزَّ الله المسلمين في غزوة بدر، فاض الحِقْدُ والحسدُ في قلب أبي عامر، فخرجَ إلى المشركين في مكة ممالئاً لهم على حرب رسول الله ﷺ، وقدم معهم إلى أحد، وحفر في أرض المعركة حفراً، وقع في إحداها رسولُ اللهِ ﷺ.

وحاول أبو عامر قبل القتال أن يجعل قومه من الأنصار يخذِلون رسول الله ﷺ، فردوا عليه ردّاً قبيحاً، ونالوا منه وسبُّوه، ودعا عليه رسول الله ﷺ قبل أن يخرجَ من المدينة إلى المشركين أن يموتَ بعيداً طريداً، فأصابته دعوة النبيِّ عليه الصلاة والسلام، إذ خرج أبو عامر بعد أحد من أرض العرب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده هرقل ومنَّاه، فكتبَ أبو عامر إلى جماعة من المنافقين يخبرهم أنه سيقدم بجيش كبير يغلِبُ بهِ رسولَ الله ﷺ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يستقبلون فيه من يأتيهم من عنده برسائله، ويكون له مرصداً إذا قدم عليهم بنفسه.

فبنوا مسجد الضرار مجاوراً لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج النبيِّ ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا إليه ﷺ، وسألوه أن يأتي إليهم، فيصلي في مسجدهم، لكي يستروا أمرهم، ويحتجُّوا بصلاته عليه الصلاة والسلام، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء، فعصمه الله تعالى من الصلاة فيه، وقال: «**إنَّا على سفرٍ، ولكنْ إذا رجِعنا إنْ شاء الله**».

ولمَّا رجع عليه الصلاة والسلام من تبوك، وقبل أن يصل المدينةَ بيوم، أنزل الله تعالى عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، فبعث ﷺ إلى ذلك المسجد من حرَّقه وهدَّمه قبل وصوله إلى المدينة. [رواه الطبري (١١/ ٢٣)].

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي: المنافقون الذين بَنَوْهُ.

﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ما أردنا ببنائه إلا الخير.

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حلفهم.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾.

﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ أي: لا تصلِّ فيه أبداً، وهو يدلُّ على تحريم الصلاة فيه تحريماً قطعيّاً دائماً.

• **المسجد المؤسس على التقوى:**

﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ من أيام بنائه، أسسه النبيُّ ﷺ يومَ وصل إلى قُباء، وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة المنوَّرة.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ أي: أن تصلي فيه، وهذا يدلُّ على فضل الصلاة في مسجد قباء، ولهذا **كان رسولُ اللهِ ﷺ يزورُ مسجدَ قُباء كلَّ سبتٍ راكباً وماشياً ويصلِّي فيه ركعتين.** [رواه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩)].

وحضَّ النبي ﷺ على الصلاةِ فيه، فعن سهل بن حُنيفٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ تطهَّرَ في بيتِهِ، ثم أتى مَسْجِدَ قُباء، فصلَّى فيه صلاةً، كان له كأجْرِ عُمْرَةٍ**» [رواه أحمد (٣/ ٤٨٧) والنسائي (٢/ ٣٧) وابن ماجه (١٤١٢)].

وهذا لا يتعارض مع ما جاء في الحديث النبوي الصحيح: أنَّ مسجد رسولِ اللهِ ﷺ في المدينة المنوَّرة، هو المسجدُ الذي أُسِّسَ على التقوى.

قال ابنُ كثير رحمه الله: «إذا كانَ مسجدُ قباء قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجدُ رسولِ اللهِ ﷺ بطريق الأولى والأحرى، ولهذا روى **الإمام أحمد بن حنبل عن سهل بن سعد الساعدي** قال: اختلفَ رجلانِ على عهد رسولِ اللهِ ﷺ في المسجدِ الذي أُسِّسَ على التقوى، أحدُهما قال: هو مَسْجِدُ رسولِ اللهِ ﷺ، وقال الآخر: هو مسْجِدُ قُباء، فأتيا النبيَّ ﷺ فسألاه، فقال: «**هو مسجدي هذا**» [مسند أحمد (٥/ ١٦٦)]»[1].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٧٠.

وبعد أن أثنى سبحانه على المكان، أثنى أيضاً على الرجال الذين يعْمُرُونه بطاعته تعالى، فقال:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ من المعاصي والآثام، ومن الأقذار والنجاسات، فهم يحبُّون الطهارة المعنوية والحسية.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ الحريصين على طهارة نفوسهم وأجسامهم.

ففي الحديث الشريف: عن **عُوَيمر بن ساعدةَ** قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ لأهل قُباء: «**إنِّي أسمعُ اللهَ ﷻ قد أحسنَ عليكم الثناءَ في الطهورِ، فما هذا الطهورُ؟**» قالوا: يا رسولَ اللهِ ما نفعلُ شيئاً، إلا أنَّ جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارَهم من الغائطِ، فغسلنا كما غَسَلُوا. [رواه أحمد (٣/ ٤٢٢) وابن خزيمة (٨٣)].

- **الأساس المحكم:**

ثم بيَّن تعالى أنَّ بناء الأعمال يجب أن يكونَ على أساس الإخلاص لله تعالى وحده، وخشيته وتقواه وطلب رضاه، عندئذٍ يكونُ الأساس محكماً قويّاً، وأما إذا كان أساسُ الأعمالِ الغشَّ والكذبَ والنفاقَ، فإنه أساس ساقط منهار، قال سبحانه:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: على طرف جرف وشيك السقوط.

**فالشفا**: الشفير والحرف، ومنه يقال: أشفى على السقوط، إذا دنا من الحرف والشفير وقرب من السقوط.

**والجُرُفُ**: المكان الذي جَرَفَ الماءُ ما تحته فأصبح هارياً ضعيفاً وشيك السقوط.

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: سقط البناء ببانيه في نار جهنم، وهكذا أوقعه عمله الفاسد في جهنم.

وجاء المثال بأسلوب الاستفهام التقريري، تعقيباً على بناء مسجد الضرار، رائعاً واضحَ الدلالة والمعنى، غيرَ محتاج إلى جواب، فجوابه قد سبق فيما آل إليه مسجد الضرار، ولهذا سكتت الآيةُ عن جوابه، وخُتمت بقوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للخير والصلاح بسبب ظلمهم وفسادهم ونفاقهم.

أغاظ هَدْمُ مسجد الضرار وتحريقُه المنافقين، وملأ قلوبهم حسرةً وألماً، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: سيبقى البناء الذي بنوه سبب غضب وحسرة في قلوبهم بسبب هدمه وتحريقه، وسيظلُّ ذلك ملازماً لهم، ينغِّص عيْشهم، ويكدِّر حياتهم حتى الموت.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إلا أن يموتوا، فلا يرتاحون من حسراتهم وآلام نفوسهم وقلوبهم إلا بالموت، وما بعده أشد وأعظم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بهدم بنائهم.

فما يُبنى باسم الإسلام، ويُرادُ به الكيد بالإسلام وأهله، تجب إزالته كليّاً، كما فعل رسول الله ﷺ بمسجد الضرار، كي لا يغترَّ به السذَّجُ والبسطاء، وحتى لا يتمكن أعداءُ الإسلامِ من الوصول إلى مآربهم من بنائه.

والسعي في إزالة الضرر، واستئصال مسبباته، قاعدةٌ من قواعد الشريعة الإسلامية، ولهذا قال الفقهاءُ: «**الضرر يُزال**» أي: تجب إزالته، ولا يجوز إقراره والسكوت عنه.

**• تجارة رابحة:**

وانتقلت الآياتُ مباشرةً من ركام مسجد الضرار المحترق، وقلوب المنافقين المحترقة أيضاً بالأسى والحسرة، إلى الترغيب بالجهاد الذي تثاقل عنه المنافقون، وتخلَّفوا عن الخروج إليه، وكأن الله تعالى أراد أن يبين للمنافقين حقيقةَ الجهادِ الذي تثاقلوا عنه، والخسارة الفادحة التي نزلت بهم عندما حرموا أنفسهم من المشاركة فيه.

إنَّ الجهاد عقدُ تجارةٍ رابحةٍ، ربحها لا حدَّ له، نصر وظفر وعزة في الدنيا، وجنة في الآخرة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إنَّه عقدٌ مع رب العزة ﷻ، ومكان التسليم والاستلام فيه ميدان المعركة، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ فالجنةُ هي المقصودةُ في العقد، وما يبذله المؤمنون المجاهدون من نفس ومال وسيلة إليها. ويدل قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ على تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، كأنَّه قيل: الجنة الثابتة لهم المختصة بهم[(١)].

ووصف سبحانه كيف يتمُّ عقدُ البيع فقال:

﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يقاتل المؤمنون أعداء الله تعالى لإعلاء كلمته.

﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قَتلوا أو قُتلوا، فهم مجاهدون، باذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، الجنة واجبة لهم بفضله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ

(١) روح المعاني: ١١/ ٢٧.

فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف].

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ أي: وعداً ثابتاً قطعه الله على نفسه بفضله وإحسانه، وذكره في التوراة والإنجيل والقرآن، مما يدلُّ على أنَّ التكليفَ بالجهاد موجودٌ في جميع الكتب المنزلة.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ﴾ أي: استبشروا أيها المجاهدون وافرحوا بما تفضَّل الله تعالى به عليكم في هذا البيع:

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

● **رَبِح البيعُ:**

إنها لدعوة كريمة من الله تعالى إلى الجهاد، أكرمْ بها من دعوة! تلطَّفَ سبحانه بالمؤمنين كل هذا اللطف، حتى سأل عباده المؤمنين أن يبيعوه مُلْكَه، فهم وأموالهم وأنفسهم ملك لله تعالى، وهو سبحانه الغني عنهم وعن جهادهم ﴿وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

قال بعض العلماء: لا ترى ترغيباً في الجهاد أحسنَ ولا أبلغَ مما في هذه الآية[١].

وذكرت بعضُ الروايات أنها نزلت بمناسبة بيعة العقبة الثانية، وهي من أعظم المناسبات التي مهَّدت للهجرة إلى المدينة، قال فيها **عبد الله بن رواحة** رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ: اشترط لربِّكَ ولنفسِكَ ما شئتَ، قال: «**أشترطُ لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأشترطُ لنفسي أن تمنعوني ممَّا تمنعونَ منه أنفسَكم وأموالَكم**» قالوا: فما لنا إنْ فعلنا ذلك؟ قال: «**الجَنَّةُ**» قالوا: ربحَ البيعُ، لا نقيلُ ولا نستقيلُ. فنزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية. [رواه الطبري (١١/ ٣٥)].

---

(١) روح المعاني: ١١/٢٦.

لكن يعترض على هذه الرواية ما عرفَ من تأخُّر آيات سورة التوبة في النزول، إلا إذا استثنينا هذه الآية، وما عرف أيضاً من أنَّ آيات الجهاد ما نزلت إلا بعد الهجرة. والله سبحانه أعلم.

• **صفات المؤمنين:**

ثم بيَّن تعالى صفات المؤمنين الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل إعلاء كلمته، فكأنَّ سائلاً يسأل: من يفعل ذلك؟ فيقال له:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ عن المعاصي والآثام، فالمؤمن غيرُ معصوم عن المعاصي، ولكنّه لا يصرُّ عليها، بل يبادر إلى الإقلاع عنها، والتوبة والندم على فعلها.

واستهلال الآية بهذه الصفة فيه حثٌّ على التوبة، وتشجيع للمنافقين كي يبادروا إلى التوبة عن النفاق، فما أكثر ما حثَّتهم الآيات على التوبة، وأطمعتهم بالمغفرة، حتى سُمِّيتِ السورةُ سورة التوبة.

﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ أي: المطيعون لله تعالى وحده في كل ما شرع لهم، فلا يُحلُّون إلا ما أحلَّه لهم سبحانه، ولا يحرِّمون إلا ما حرَّمه عليهم، ولا يفعلون كما يفعل أهل الكتاب بطاعة أحبارهم ورهبانهم فيما يشرِّعون لهم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ أي: الذين يثنون على الله تعالى بكل صفات الكمال في جميع الأحوال؛ السراء منها والضرَّاء.

﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ في ملك الله تعالى للنظر والاعتبار، أو للجهاد في سبيله، أو لطلب العلم، أو للاكتساب وطلب الرزق الحلال، أو لأداء مناسك الحج والعمرة، وكل ذلك من المقاصد المشروعة للسياحة في الأرض، قال تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال أيضاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال ﷺ: «**مَنْ سلكَ طريقاً يلتمِسُ فيه علماً سهَّلَ اللهُ له طريقاً إلى الجنَّةِ**» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

وقد يراد من السياحة الصيامُ، لأنَّ الصائم يترك الشهوات والملذات من الطعام والشراب والنكاح.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ لله تعالى في صلاتهم.

﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: الذين ينفعون الناسَ، يرشدونهم إلى طاعة الله تعالى، ويحذرونهم من معصيته، فلا يعزلون أنفسهم عن أمَّتهم ومجتمعهم ما داموا يستطيعون ذلك، وجاء حرف العطف بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكونهما متلازمين، فكأنَّهما خصلة واحدة.

وفوق كل ما تقدَّم من صفاتهم، فهم وقَّافون عندَ حدود شريعة الله تعالى، فلا يتجاوزونها، ولا يخرقون أسوارها، لكي ينصرفوا إلى غيرها. وهو المراد من قوله سبحانه:

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ فحدود الله: أحكام دينه وشرعه، وما أكثر ما حذَّر الله سبحانه من مجاوزتها أو انتهاكها، كقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ الآية [البقرة: ١٨٧].

وقوله أيضاً: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والمعيار الحقيقي لمدى تديُّن الإنسان هو وقوفه عند حدود الله تعالى، ولهذا أخَّره سبحانه عن جميع الصفات السابقة، وخصَّه بالعطف عليها بحرف الواو، لبيان أهميته، ولخطورته في حياة المؤمنين.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بهذه الصفات الكريمة، بشِّرهم بفضل الله ورحمته والجنة، فالجنةُ ليست للمجاهدين فقط، إنَّما هي لهم ولغيرهم من المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الكريمة، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

- **تحريم الاستغفار للمشركين:**

ومهما كانت صلات النسب قويةً بين المؤمنين والكافرين، فإنَّها تنقطع بالموت، ولهذا حرَّمَ الله تعالى على المؤمنين أن يستغفروا لأقاربهم من المشركين بعد موتهم على الكفر، وحرَّمَ عليهم أيضاً أن يصلُّوا عليهم ويقوموا عند قبورهم بعد دفنهم، كما مرَّ معنا، قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾.

أي: ما صح لهم الاستغفار في حكم الله وحكمته، من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك(١)، أما قبل موتهم فيجوز الاستغفار لهم بالدعاء لهم بالهداية إلى الإيمان.

ويبدو أنَّ النبيَّ ﷺ كان يستغفر لِعَمِّه أبي طالب حتى نزلت هذه الآية، ففي الحديث الشريف: عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرتْ أبا طالبٍ الوفاةُ، دخل عليه النبيُّ ﷺ وعنده أبو جهل وعبدُ اللهِ بنُ أبي أمية، فقال النبيُّ ﷺ: «**أيْ عمُّ قُلْ: لا إلـٰهَ إلا الله، كلمةً أُحاجُّ لكَ بها عندَ اللهِ**» فقال أبو جهل وعبدُ الله بن أبي أمية: يا أبا طالب ترغبُ عن مِلَّةِ عبد المطلب؟! فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخرَ شيءٍ كلَّمهم به: على ملَّة عبد المطلب، فقال النبيُّ

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٠٤.

ﷺ: «لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنه» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾. [رواه البخاري (٣٨٨٤)].

وحتى لا يحتجَّ أحدٌ باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] بيَّن سبحانه أن استغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب وعده له بذلك، فقال:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ وذلك عندما قال إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته على الكفر، أو بواسطة الوحي.

﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي: تبرأ إبراهيم من أبيه، وقطع استغفاره له.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ﴾ أي: كثير التأوُّه، مما يدلُّ على شدة رأفته، ورقَّة قلبه، ورهافة أحاسيسه، وقوة عاطفته ومشاعره.

﴿حَلِيمٌ﴾ كثير الصبر، عظيم الصفح، ولهذا قابل غِلظةَ والده وجفوته، برقَّة وشفقة وعطف[1].

**وقد يقال:** إذا كان الأمر كذلك، فلمَ مُنعنا من الاقتداء به، في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]؟.

**أقول:** لعلَّ سبب ذلك أنَّ أكثرنا لا يفرِّقون بين الاستغفار بمعنى طلب الهداية لمن تُرجى منه، وهو جائز، وبين الاستغفار بمعنى طلب المغفرة لمن ماتَ

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: تفسير سورة مريم، التي أصبح عنوانها في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوحيد والتنزيه في سورة مريم).

على الكفر، وهو غيرُ جائزٍ، أو لعلَّ استغفاره ﷺ لأبيه كان من خصائصه[1].

ثم بيَّنَ سبحانه أنَّه لا يؤاخذهم على ما صدر منهم قبل نزول هذه الآيات، فقال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي: ليحكم عليهم بالضلال والعصيان.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ بعد أن وفقهم للإيمان.

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ﴾ أي: يبين لهم ما يجب اتقاؤه واجتنابه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١١٥].

فالتحليل والتحريم لله تعالى وحده، لأنه هو الخالق والمالك، وهو الذي يدبِّر أمرَ الخلق وحده سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

فعليكم أن تتوجَّهوا إلى الله تعالى وحده، فهو مولاكم وناصركم، وعليكم أيضاً أن تتبرَّؤوا ممن تبرَّأ الله تعالى منهم، فاتصالُ الآياتِ بما صدَّر الله تعالى السورة من البراءة واضح وظاهر.

- **ساعة العسرة:**

وبعد أن مرَّت خمسون ليلةً على المتخلِّفين الثلاثة من المؤمنين، الذين أرجأ الله تعالى أمرهم في قوله تعالى السابق: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] أنزل الله سبحانه توبته عليهم، وأخبر سبحانه قبلها بتوبته على جميع

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢١/ ٢٣٠.

المهاجرين والأنصار الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فقال:

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ بزيادةٍ في كماله عليه الصلاة والسلام وترقيته ورفعة شأنه، فالإِنسانُ مهما ترقَّى في العبادة والخشوع لله تعالى، محتاجٌ دائماً إلى توبته سبحانه عليه.

﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي: وتاب سبحانه على المهاجرين والأنصار.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: الذين اتبعوا النبي ﷺ، وخرجوا معه إلى تبوك في وقت العسرة، وقت الشدة والضيق، ولهذا سمِّيت غزوةُ تبوك غزوةَ العسرة، وجيشُها جيش العسرة، لكثرة المعوِّقات والشدائد التي واجهتهم، ومع العسرة وشدائدها خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، فلم يتخلَّف منهم سوى ثلاثة، فالمعوقات مهما اشتدت وكثرت، لا تمنع أصحاب الهمم العالية من الوصول إلى غاياتهم النبيلة السامية.

إن في الآية الكريمة وساماً ربَّانيّاً رفيعاً تفضَّل الله تعالى به على جنود جيش العسرة، تقديراً لجهادهم وصبرهم وتحملهم لمشقات العسرة، لقد كانوا في قلةٍ من الظهر، حتى كان العشرةُ يعتقبون البعيرَ الواحدَ، وكانوا في قلَّة من الزاد، حتى كان الواحِدُ منهم يلوك التمرةَ، ثم يخرِجُها من فمه، ويعطيها صاحبَه ليشاركه فيها، وخرجوا في حرٍّ شديد، وساروا في مفازة مهلكةٍ، وعطشوا عطشاً كادت رقابهم أن تتقطع من شدَّته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسولِ اللهِ ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطشٌ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إنْ كانَ الرجلُ ليذهبُ يلتمِسُ الماء، فلا يرجعُ حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إنَّ الرجل لينحرُ بعيرَه فيعصِرُ فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو

بكر: يا رسول الله إنّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادعُ لنا، قال: «**تحبُّ ذلك؟**» قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى سالت السماءُ فأهطلتْ، ثم سكنتْ، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. [رواه الطبراني في الأوسط (المجمع: ٦/ ١٩٤)].

- **التوبة:**

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: من بعد ما قاربت أن تميل قلوب بعضهم عن الحق بسبب عظم الشدة، وضخامة المشقة، لكنهم رضي الله عنهم صبروا واحتسبوا، وثبتهم تعالى، وندموا على الخواطر السيئة التي خطرت لهم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: عمَّا طاف في خواطرهم، وهجس في نفوسهم لما عَلِمَه سبحانه من إخلاصهم، وكرَّر سبحانه ذكر توبته عليهم زيادة في تطييب نفوسهم وقلوبهم وتطمينهم، مما يدلُّ على إحسانه تعالى إليهم رضي الله عنهم.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ فهنيئاً لكم جندَ العسرةِ، هنيئاً لكم توبةُ الرؤوف الرحيم بكم.

إنني لأتصور مدى سعادتهم وفرحتهم رضي الله تعالى عنهم، وهم يسمعون النبيَّ ﷺ يتلو عليهم هذه الآيات الكريمة:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي: وتاب سبحانه على المؤمنين الثلاثة الذين أرجأ سبحانه أمرهم، والذين قصَّ علينا كعبُ بنُ مالكٍ قصَّتهم، كما مرَّ معنا عند تفسير الآية (١٠٦) من السورة، وقد أرجأتُ بقية قصَّتهم إلى موضعها هنا مع الآيات الكريمة:

قال كعب بن مالك: فلمَّا صليتُ صلاةَ الفجرِ صُبْحَ خمسين ليلةً، وأنا

على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكر الله، قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر!.

قال: فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أنْ قد جاءَ فرجٌ، وآذنَ رسولُ اللهِ ﷺ بتوبةِ اللهِ علينا حين صلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهبَ الناسُ يبشروننا، وذهبَ قِبَلَ صاحبيَّ مبشِّرون، وركضَ إليَّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، نزعتُ له ثوبيَّ، فكسوتُه إيَّاهما ببشراه، واللهِ ما أملكُ غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهما، وانطلقتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فيتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبةُ الله عليك.

حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ حوله الناس، فقام إليَّ طلحةُ بنُ عُبيدِ اللهِ يُهرولُ حتى صافحني وهنأني، واللهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، فلمَّا سلَّمتُ على رسولِ اللهِ ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرُقُ وجهُه من السرور: «**أبشرْ بخيرِ يوم مرَّ عليك منذُ ولدتْكَ أمُّك**» قلتُ: أمن عندك يا رسولَ اللهِ أَم مِنْ عندِ اللهِ؟ قال: «**لا بل مِنْ عندِ اللهِ**» وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قمرٍ، وكنَّا نعرفُ ذلك منه.

فلمَّا جلسْتُ بين يديه قلتُ: يا رسولَ اللهِ إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله تعالى وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ: «**أمسكْ عليكَ بعضَ مالك، فهو خيرٌ لك**» قلتُ: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلتُ: يا رسول الله إن الله إنَّما نجَّاني بالصدق، وإنَّ مِنْ توبتي أن لا أحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيتُ. فو اللهِ ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاه الله[1] في صدق الحديث، منذُ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، وإني لأرجو

---

(١) أي: أنعم عليه.

أن يحفظني الله فيما بقي.

وأنزل الله على رسوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩] فو اللهِ ما أنعمَ الله عليَّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظمُ في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أنْ لا أكونَ كذبتُه، فأهلِكَ كما هلكَ الذين كذبوا، فإنَّ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحيَ شرَّ ما قالَ لأحدٍ، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة].

قال كعب: وكنا تخلَّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ اللهِ ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس **الذي ذكر مما خُلِّفنا عن الغزو، إنما هو تخليفُه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلَف له واعتذر إليه. فقبل منه.** [أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ للبخاري].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع سعتها بسبب مقاطعة الناس لهم.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من كثرة الحزن والهم والوحشة التي نزلت بهم.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ أي: وعلموا أنَّه لا ينجيهم من غضب الله تعالى وسخطه إلا اللجوء إليه تائبين مستغفرين خاشعين.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: أنزل سبحانه توبته عليهم ليصبحوا من جملة التوابين المقبولين، أو ليستقيموا على التوبة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

- **كونوا مع الصادقين:**

جاء تعقيب الآيات الكريمة على توبة الله تعالى على المؤمنين الثلاثة الذين تخلَّفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، بتوجيه المؤمنين هذا التوجيه الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

الذين صدقوا في إيمانهم وطاعتهم، ولم يتخلَّفوا عن رسول الله ﷺ.

وإن لم تستطيعوا أن تكونوا معهم بأجسامكم، فكونوا معهم بقلوبكم وأرواحكم، كما جاء عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: لما رجعَ رسولُ اللهِ ﷺ من غزوة تبوك، فدنا من المدينة قال: «**إنَّ بالمدينةِ لقوماً، ما سِرْتُم من مسيرٍ، ولا قطعتُم وادياً إلا كانوا معكم فيه**» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «**وَهُمْ بالمدينةِ، حَبَسَهُمُ العذرُ**» [رواه البخاري (٤٤٢٣) وأبو داود (٢٥٠٨) وابن ماجه (٢٧٦٤) واللفظ له].

وفي الآيةِ فضيلةٌ لجنود جيش العسرة، وهي شهادة الله تعالى لهم بالصدق والإخلاص في إيمانهم وجهادهم رضي الله عنهم.

أو: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الذين صدقوا في اعترافهم بذنب تخلُّفهم عن رسولِ اللهِ ﷺ، ولم يعتذروا له بالأعذار الكاذبة كما فعل المنافقون.

ولهذا وفقهم الله تعالى بعدَ ذلك، وتابَ عليهم بسبب صدقهم، وهو ما أشار إليه كعب بن مالك رضي الله عنه أحد المتخلفين الثلاثة في آخر قصَّة تخلُّفه وتوبة الله تعالى عليه التي مرَّت معنا.

ولا شك أنَّ عاقبةَ الصدق حميدة طيِّبة، تحدَّث عنها النبيُّ ﷺ فقال: «**إنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البِرَّ يهدي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرجلَ ليصدُقُ، ويتحرَّى الصِّدْقَ حتى يُكْتَبَ عندَ الله صِدِّيقاً، وإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النارِ، وإنَّ الرجلَ ليكذِبُ، ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كذاباً**» [رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧)].

ومفهوم الآية النهي عن مخالطة المنافقين والكذَّابين، ووجوب مباعدتهم، والحذر من كيدهم ومكرهم، فمَنْ جالسَ جانسَ، وعلى المؤمن أن يحرصَ على مجالسة أهل الإيمان والصلاح، وأهل العلم والتقوى، وينأى بنفسه عن مجالس الفُسَّاق والفجار والكذبة والمنافقين.

عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصالحِ والجليسِ السوءِ كحاملِ المِسْكِ ونافخِ الكيرِ، فحامِلُ المسكِ، إمَّا أن يُحْذِيَكَ (يعطيك)، وإمَّا أن تبتاعَ منه، وإمَّا أن تجدَ منه ريحاً طيبة، ونافخُ الكيرِ، إمَّا أن يحرقَ ثيابك، وإمَّا أن تجدَ ريحاً خبيثة**» [رواه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٢٦٢٨)].

- **يا جيران رسول الله ﷺ:**

ثم بينت الآيات الكريمة فضيلةَ وشرفَ وكرامةَ صُحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه، بقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، وهو ﷺ أفضل الصادقين وسيدهم، وقد أكرم الله تعالى أهل المدينة ومَنْ حولها بجوار رسول الله ﷺ، فلا ينبغي لهم أن يتخلَّفوا عن الجهاد معه، ولا أن يخالفوا سُنَّةً من سننه عليه الصلاة والسلام، وهو حُكْمٌ عام ينسحب على جميع المسلمين والمسلمات، وخصتِ الآيةُ أهل المدينة ومَنْ حولها لقربهم من رسول الله ﷺ، وتشرُّفهم بجواره الكريم، مما يدل على أنه ينبغي لكل من يكرمه الله تعالى بسُكنى المدينة أن يكون شديدَ الحرص على سنته ﷺ، وأن يتحفَّظ من مخالفته أكثر من غيره، فقد أكرمه الله تعالى بنعمة عظيمة، يجب عليه أن يعرف قدرها، وما يترتب عليه من أجلها.

﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ أي: لا يرغبوا لأنفسهم بالراحة، بينما رسول الله ﷺ بالمعاناة والمشقة، وكيف يرغبون بأنفسهم عن نفسه، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْۖ﴾ الآية [الأحزاب: ٦].

هذا الشعور هو الذي جعل **أبا خيثمةَ** ﷺ يلحقُ برسولِ اللهِ ﷺ إلى تبوك، إذ كان في أوَّلِ أمرِه قد تخلَّفَ عن الخروج أياماً، وفي يوم حار رجعَ أبو خيثمةَ إلى بيته، فوجَدَ امرأتين له في عريشينِ لهما في بستانه، قد رشَّتْ كلُّ واحدة منهما عريشها، وبرَّدت له فيه الماءَ، وهيَّأت له طعاماً، فلمَّا نظرَ إلى امرأتيه، وما صنعتا له، قال: رسولُ اللهِ ﷺ في الضِّحِّ (الشمس) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظلٍّ باردٍ، وطعام مُهَيَّأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف (الإنصاف). ثم قال: واللهِ لا أدخلُ عريشَ واحدةٍ منكما حتَّى ألحقَ برسولِ اللهِ ﷺ فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدَّم ناضحه (بعيره) فارتحله، ثم خرجَ في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

قال الناسُ لمَّا رأوه من بعيدٍ: هذا راكبٌ على الطريقِ مقبل. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**كُنْ أبا خيثمةَ**» فقالوا: يا رسولَ اللهِ هو واللهِ أبو خيثمة. فلمَّا أناخَ أقبل فسلَّمَ على رسولِ اللهِ ﷺ، فقال له: «**أولى لكَ يا أبا خيثمة**» فأخبره الخبرَ، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ خيراً، ودعا له بخير[١].

بيَّنَ سبحانه أنه يعطي المجاهدينَ ثوابَ كل ما يصيبهم من عناء ومشقة في طريق الجهاد، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة شديدة.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم يجاهدون في سبيل الله.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: لا يضعون قدماً في مكان يغضب الكفار.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: ولا يصيبون من العدو إصابة، كقتل أو جرح أو أسر أو غنيمة.

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ٤/ ١٢١ بتصرف قليل.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح، فلا ينقصهم الله شيئاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فالجهاد من أعلى مراتب العبادة، يصل به المجاهدون إلى مرتبة الإحسان.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيله تعالى.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهم في طريقهم إلى الجهاد.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: يعطيهم الله تعالى على كل نفقة بذلوها في سبيل الله، وعلى كل حركة لهم على طريق الجهاد، أحسنَ الثواب وأكملَه، فاللهُ سبحانه يجعل بفضله ثوابَ العمل القليل كثوابِ العمل الكبير إذا كان في سبيل الله.

- **مراعاة المصالح العامة كلّها:**

ولاشكَّ أنَّ الترغيبَ الكبير للخروج إلى الجهاد، بهذا الاستقصاء والتتبع لكل حركة من حركات المجاهدين، يجعل كل فرد من أفراد الأمة يندفع إلى الجهاد، لكنَّ هذا الاندفاع الجماعي الكلي إلى الجهاد لا ينبغي أن يكون إلا في حالات الخطر الكبير، وذلك عندما يعلن وليُّ أمرِ المسلمين حالةَ النفير العام، كما فعل النبيُّ ﷺ عندما خرج إلى تبوك لدفع خطر اجتياح الروم لبلاد المسلمين، وهذه حالات استثنائية مؤقتة، لا تبقى مستمرةً إلا ببقاء أسبابها، إذ إنَّ دوامها واستمرارها يعطِّل حياة الأمة، ويعوِّق تقدمها، فثمة مصالح عامة ضرورية للمجتمع ينبغي تأمينها، ولا يكون ذلك ممكناً إذا انصرف الجميع إلى الجهاد، ففي الأحوال العادية حيث لا يكونُ الخطرُ داهماً يكون الجهاد فرضَ

كفايةٍ، إذا قام به البعضُ سقط إثمُ التكليفِ عن الآخرين، وهو ما دلَّت عليه الآية التالية في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ أي: ما صحَّ وما استقامَ أن يخرج جميع المؤمنين إلى مقصد واحد كجهاد أو طلب علم، بل ينبغي أن يكون خروجهم مدروساً بحسب خطة موضوعة، يراعى فيها تأمين جميع المصالح الضرورية العامة التي تحتاج إليها الأمة، فالأخذ بالأسباب أمر مشروع، ورسم الخطط المستقبلة لتأمين المصالح العامة للأمة وتقدمها أمر مرغوب في الإسلام، وهذه الآية الكريمة تدلُّ عليه.

وقد فعله نبي الله يوسف عليه السلام، عندما رسم خطة مستقبلة لمواجهة سنوات القحط والجفاف: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف][1].

وبيَّنتِ الآيةُ كيف ينبغي أن تراعى جميع المصالح العامة للمجتمع بقوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: هلَّا خرج من كل مجتمع كأهل بلد أو قبيلة كبيرة، أو أهل منطقة، جماعة قليلة.

﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: ليطلبوا علمَ الفقه في دين الله تعالى، أي: ليفهموا أحكام شريعة الله، وهو من أشرف العلوم وأفضلها.

ففي الحديث الشريف: عن **معاوية** رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقهه في الدين**» [رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) واللفظ للبخاري].

---

(١) انظر: تفسير سورة يوسف في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا، تحت عنوان: (الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف).

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ خرجَ في طَلَبِ العلمِ، فهو في سبيلِ اللهِ حتى يرجعَ**» [رواه الترمذي (٢٦٤٧) وحسنه].

وذكرت الآيةُ الخروجَ لطلب العلم على سبيل التمثيل، فأشرفُ العلوم وأعلى المقاصد لا ينبغي لجميع أبناء المجتمع أن ينصرفوا إلى تحصيله، بحيث تتعطَّل المصالح الأخرى، بل يقومُ به جماعة من كل مجتمع، وينصرف الآخرون إلى تأمين الجوانب الأخرى التي تحتاجُ إليها الأمة، وكذلك الشأن في الجهاد وغيرها من المقاصد والأغراض.

﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي: وليجعلوا الغاية من خروجهم خدمة أمَّتهم، وأبناء مجتمعهم، فإذا رجعوا قاموا بتعليمهم وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم ويؤذيهم.

فالآية الكريمة توجِّه المسلمين إلى أن تكون استجابتهم الجماعية لتنفيذ الواجبات الشرعية العامة، استجابة منظمة واعية، تُراعَى فيها جميعُ المصالح الضرورية للأمة.

ولم يغفل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، عندما استنفر الأمةَ كلَّها لمواجهة الخطر الذي كان يتهدَّدُ كيان الأمة كلِّها في تبوك، فخلَّف عليه الصلاة والسلام وراءه في المدينة المنوَّرة عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لكي يرعى مصالح أهل بيته في غيابه خاصة، ومصالح الأمة عامة، ومن المعلوم أن عليّاً رضي الله عنه أمةٌ في الجهادِ والشجاعةِ والإِقدام، ومع ذلك خلَّفه ﷺ في المدينة.

عن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه قال: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ إلى تبوك واستخلف عليّاً، فقال: أتخلِّفني في الصبيان والنساء؟! قال: «**ألا ترضى أنْ تكونَ مني بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلَّا أنه لا نبيَّ بعدي**» [رواه البخاري (٤٤١٦) ومسلم (٢٤٠٤) واللفظ للبخاري].

- **خطة مدروسة:**

وكذلك أمرَ سبحانه المسلمين أن يكونَ جهادُهم لأعدائهم منظَّماً

مدروساً، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: قاتلوا الكفار القريبين منكم، ابدؤوا بقتال العدو القريب حتى تصِلوا بعده إلى البعيد، وبذلك تتمكنون من قتال المشركين كافة، الذي سبق في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

فلا تعارض بين الآيتين، ولا نسخ، كما رأى بعضُ المفسرين، فالآية هنا ترسم للمسلمين الخطة التي يجب اتباعها في قتال جميع الكفار، فلا ينبغي لهم أن يفتحوا على أنفسهم جبهات متعددة في وقت واحد، إذا كانوا لا يستطيعون القيام بها، كما هو الحال في أمر الدعوة، يبدأ الإنسان بدعوة الأقرب فالأقرب حتى يصل إلى البعيد، ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ في أول الأمر: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولـمَّا فرغ ﷺ من دعوة قريش التفت إلى غيرها من قبائل العرب، ثم توجه رسول الله ﷺ إلى نشره في خارج أرض العرب، وبدأ ببلاد الشام التي كانت تحت سيطرة الروم، لأنها كانت أقرب البلاد إلى أرض العرب.

فشؤونُ الجهاد والدعوة وغيرها يجب أن تخضع لخطة مدروسة مرسومة، ولا ينبغي أن تكون قرارات المسلمين ومواقفهم فيها ارتجالية عاطفية، حتى لا يتمكَّنَ أعداءُ الإسلام من استدراج المسلمين إلى الوقوع في شرَك خداعهم ومكرهم.

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ﴾ أي: شدة في قتالهم، فإنَّ ذلك يؤدي إلى إدخال الخوف والرعب في قلوب غيرهم من الكفار، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الملتزمين بأحكام شريعته، وللجهاد في الإسلام أحكامٌ يجبُ على المسلمِ المجاهد أن يلتزم بها.

هكذا بينت هذه الآياتُ الكريمةُ الخطوطَ العامةَ التي ينبغي للمسلمين أن يسترشدوا بها في جميع شؤون حياتهم، وقد جاءت كلمساتٍ نهائية للنظام العام للمجتمع الإسلامي، وخاصة في مجال الدعوة والجهاد والتعامل مع غير المسلمين.

- **الكلمة الأخيرة:**

وقبل أن تصل بنا الآيات إلى ختام السورة، وقفت وِقفةً قصيرةً نهائية مع بقايا المنافقين المصرِّين على نفاقهم، لتوجه لهم الإنذار النهائي القطعي، وتقول لهم الكلمة الأخيرة من خلال وصف موقفهم السلبي من السورة الكريمة، قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ من سور القرآن الكريم.

﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ أي: فمن المنافقين من يقول ساخراً مستهزئاً: أيكم ازداد إيماناً وتصديقاً بهذه السورة؟! فكأنَّهم لا يجدون أي فائدة من السور والآيات التي تتنزَّل على رسول الله ﷺ بسبب النفاق الذي استولى على قلوبهم وغطى على عقولهم ومداركهم.

وردَّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ أي: زادتهم تصديقاً وتعظيماً لله تعالى ولأمره وشرعه.

﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أي: وهم أيضاً يفرحون بتتابع نزول الوحي والقرآن، ولهذا حزنوا حزناً شديداً على انقطاع الوحي بموت رسول الله ﷺ.

فعن **أنس** رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمرَ رضي الله عنهما بعد وفاةِ رسول الله ﷺ: انطلقْ بنا إلى أُمِّ أيْمنَ رضي الله عنها نزورُها كما كان رسولُ اللهِ ﷺ يزورُها. فلمَّا أتيا

إليها بكتْ، فقالا لها: ما يُبكِيكِ؟ أما تعلمينَ أنَّ ما عندَ اللهِ خيرٌ لرسول الله ﷺ؟! قالت: بلى، إنِّي لأعلمُ أنَّ ما عندَ اللهِ خيرٌ لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أنَّ الوحي قد انقطعَ من السماءِ. فهيَّجتْهُما على البكاءِ، فجعلا يبكيانِ معها. [رواه مسلم (٢٤٥٤)].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفراً إلى كفرهم، لأنهم كلَّما جحدوا نزولَ سورةٍ، أو استهزؤوا بها، ازدادوا كفراً.

فالقرآنُ الكريمُ رحمةٌ وهدايةٌ للمؤمنين، وحجَّة وشقاء على الكافرين: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ بسبب إصرارهم على النفاق.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: ألا يرى هؤلاء المنافقون المصرُّون على النفاق أن الله تعالى يبتليهم ويختبرهم في كل عام مرة أو مرَّتين بأنواع المصائب والعذاب، أو بما ينزل من آيات وسور تفضحهم وتكشف نفاقهم، ومع ذلك:

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون عن نفاقهم، ولا يتعظون ويعتبرون بما أنزل الله فيهم.

وأنى لهم أن يتَّعظوا بما أنزل الله تعالى، وهم يستثقلون مجالس القرآن وينصرفون عنها؟!.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: أشار بعضهم إلى بعض بنظرات الإنكار والغضب، ثم تساءلوا سرّاً:

﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين إذا قمتم وتركتم المجلس.

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن مجلس التنزيل خشية أن يكون فيه ما يفضحهم ويكشف أمرهم.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن هداية الإيمان، وهو دعاء عليهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم لا يفهمون كلام الله تعالى، فلا يتدبرونه ولا يتعظون به.

• **الختم والطابع:**

وأخيراً ختم الله تعالى سورةَ التوبةِ بهذا الخطاب الموجَّه للمؤمنين عامة وللعرب منهم خاصة، ذكَّرهم ﷻ بمنَّته الكبرى عليهم، ببعثة رسول الله ﷺ منهم، لكي يعرفوا قدْر المسؤولية التي أُلقيتْ عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ومن نسبكم، عربي تعرفون نسبه وحسبه.

قال القرطبي رحمه الله: «والخطابُ للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاءهم بلسانهم، وبما يفهمونه، وشرفوا به غابر الأيام، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ، وأنه من

صميم العرب وخالصها»[١].

ورأى بعض المفسرين: أنّ الخطاب في الآية لجميع المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: مِنْ جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]»[٢].

ويمكن القول: إنَّه خطاب للمؤمنين كافة، إلا أن الإسلام عند نزول الآية كان قد انتشر بين العرب خاصة، ولم ينتشر بعدُ بين الأمم الأخرى.

ومن صفاته الكريمة عليه الصلاة والسلام:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد شاق عليه عنتكم.

**والعنتُ**: المشقة والمكروه، فلا يريد بكم إلا الخير والسهولة واليسر، ويصعب عليه أن يصيبكم أي مكروه ومشقة، فهو **رسول الرحمة**، أرسله الله تعالى بالشريعة السمحة الميسَّرة، التي نفى الله تعالى عنها الحرج والمشقة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ أيضاً: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا بعثهم في أي شأن بالتيسير؛ فعن **أبي موسى الأشعري** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا بعثَ أحداً من أصحابه في بعضِ أمرِه قال: «**بَشِّروا ولا تنفِّروا، ويسِّروا ولا تعسِّروا**» [رواه مسلم (١٧٣٢)].

ويختار رسول الله ﷺ الأيسرَ؛ قالت **عائشة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **ما خُيِّرَ رسولُ اللهِ ﷺ**

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٣٠١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٨٠.

**في أمرين إلا أخذَ أيسرَهُما ما لم يكن إثماً، فإن كانَ إثماً كان أبعدَ الناسِ منه.** [رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧)].

وكان رسول الله ﷺ يترك في بعض الأحيان بعضَ النوافل خشيةَ أن تُفْرَضَ على أمته؛ فعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: **إنْ كان رسولُ اللهِ ﷺ لَيَدَعُ العملَ، وهو يحبُّ أن يعملَ به، خشيةَ أن يعملَ به الناسُ، فيُفْرَضَ عليهم.** [رواه البخاري (١١٢٨)].

**وعنها** أيضاً: أن رسول الله ﷺ صلَّى ذاتَ ليلةٍ في المسجدِ، فصلى بصلاته ناسٌ، ثم صلَّى من القابلةِ فكثرَ الناسُ، ثم اجتمعوا من الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ، فلم يخرجْ إليهم رسولُ اللهِ ﷺ، فلمَّا أصبحَ قال: «**قد رأيتُ الذي صنعتُم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنِّي خَشِيْتُ أن تُفرضَ عليكم**» وذلك في رمضان. [رواه البخاري (١١٢٩)].

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حريصٌ على هدايتكم وسعادتكم، فما أكثر ما تحمّل رسول الله ﷺ من أجلكم، ونصح لكم!.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يشفِقُ عليهم، ويرحمهم، ويحسن إليهم، ويدعو لهم في حياته ﷺ، ويشفع لهم يوم القيامة.

فعن **ثوبان** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الله زَوَى** (جمع) **لي الأرضَ فرأيتُ مشارِقَها ومغاربَها، وإنَّ أمتي سيبلغُ ملكُها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ ربي لأمتي أن لا يهلكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ** (أي: القحط)، **وأن لا يسلِّطَ عليهم عدوّاً من سِوى أنفسِهم، فيستبيحَ بيْضَتَهم** (جماعتهم)، **وإنَّ ربي قال: يا محمَّدُ إني إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُردُّ، وإني أعطيتُك لأمتِكَ أن لا أُهلِكَهم بسَنَة عامة، وأن لا أسلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسِهم يستبيحُ بيضتَهم، ولو اجتمعَ عليهم مَنْ بأقطارها، حتى يكونَ بعضُهم يهلِكُ بعضاً، ويسبي بعضُهم بعضاً**» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

ثم أفردت الآية الأخيرة النبي ﷺ بالخطاب بعد أن بينت بعض السمات المميزة للشريعة الإسلامية، كآثار وظلال لشخصيته الكريمة الرحيمة:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن هذه الرسالة السمحة الكريمة.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا يسعك إلا أن تقول: حسبي الله، أي: يكفيني الله وينصرني.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وكيف لا تكونُ بالله الكفايةُ والنصرةُ وهو ربُّ العرش العظيم؟! فلا كافي إلا هو سبحانه، ولا ناصرَ سواه.

وجاءت كلماتُ الآيةِ الأخيرةِ كختم رسمي للسورة كلِّها، أظهر الله تعالى بها سمة البلاغ الأخير الموجَّه في السورة إلى جميع الناس.

لقد بدأه سبحانه بالبراءة من المشركين، وختمه برحمته العظمى ومنَّته الكبرى ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، فالبلاغ ما وجه في الحقيقة إلا لخيرهم وسعادتهم، فلعله يسوقهم إلى الإيمان، ويجعلهم ينضمُّون إلى النبي الكريم ﷺ، ليسعدوا برسالته، رسالة الإسلام والسلام، رسالة السماحة واليُسر والسعادة في الدنيا والآخرة.

فمن تولَّى وأعرضَ عنها، فهو الجاني على نفسه، وحسبه أن رسول الله ﷺ قد بلَّغَ الرسالة، وأدَّى الأمانة، حسبه أن الله ربَّ العرش العظيم هو مولاه وناصره صلى الله عليه وآله وسلم.

أسأله سبحانه أن يثبتنا على دينه، ويحشرنا تحت لوائه، اللهم آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁




# تفسير سورة يونس

## الإنسانُ بينَ التَّقْديرِ والتَّكليفِ في سُورةِ يُونُس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

## المُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

**أما بعد:** فإنَّ الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ ركين من أركان الإيمان، لا يصح من دونه، لما له من اتصال وثيق بكمال الله سبحانه، وكمال علمه وإرادته، وهو موضوع خطير ودقيق، ضلَّت فيه أفهام كثير من الناس، فتشعبت آراؤهم، وتعددت فِرَقهم.

وكان السَّلَفُ الصالح مُمْسكين عن الخوض في مسائله، اتباعاً للأمر النبوي الشريف: «**إذا ذُكرَ القَدَرُ فأمسكوا**» [رواه الطبراني في (الكبير) من حديث ابن مسعود، وهو حديث صحيح].

وقد اضطر المتأخِّرون من علماء الأمة للخوض فيه بسبب ظهور البدع وشيوع الفتن في الدين، إشفاقاً على عامة المسلمين من الزيغ والضلال.

ولما تدبرتُ آيات سورة يونس وجدتها تركِّز على موضوع القضاء والقدر، فترددت كثيراً قبل الكتابة في موضوعها، ثم عزمتُ متوكلاً على الله تعالى، ومستعيناً به سبحانه، والذي جعلني أجمع رأيي، وأعزم في أمري، أنني وجدت

آيات السورة الكريمة تقرر موضوع القضاء والقدر ببساطة ووضوح لا خَفاء فيه ولا لَبْس، بحيث لم تدع فيه مجالاً لأدنى رَيْب أو زَيْغ.

واسترشدتُ بما كتبه شيخنا الشيخ محمد الحامد رحمه الله في هذا الموضوع، وقد قرأه علينا في الدرس، وقرَّره قبل نشره، فأفاد رحمه الله وأجاد، ودفع كلَّ ما يمكن أن يعلق بالأذهان من شُبَه بما آتاه الله تعالى من علم وبيان ودقة وإحكام، فجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأسأله سبحانه أن يجمعنا به تحت لواء سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأن يرفع مقامه في علّيِّين.

كما استعنتُ بما كتب غيره من أهل العلم والفضل، وما ذكره أصحاب التحقيق والتدقيق من علماء التفسير رحمهم الله تعالى.

وقد قسمتُ الكتاب إلى تمهيد وأربعة فصول:

فخصَّصْتُ **التمهيد**: لتعريف القارئ بموضوع السورة، وشرح معنى التقدير، وضرورة التكليف، وعلاقة أعمال العبد بالقضاء والقدر، ومعنى الإرادة والمشيئة، وكيفية التوفيق بين الآيات في هذا الموضوع.

ثم جاءت فصول الكتاب الأربعة تساير آيات السورة الكريمة:

• **فالفصل الأول**: للوحي وضرورته، وحاجة الناس إليه، وصلة الوحي بكمال حكمته سبحانه وعلمه وتدبيره لشؤون المكونات.

• **والفصل الثاني**: لبيان مواقف الناس من آيات التنزيل الحكيم، ومن عبادة الله تعالى، ولمواقفهم وأحوالهم في حال الخطر، ثم ما يعتريهم من أحوال بعد نجاتهم منها.

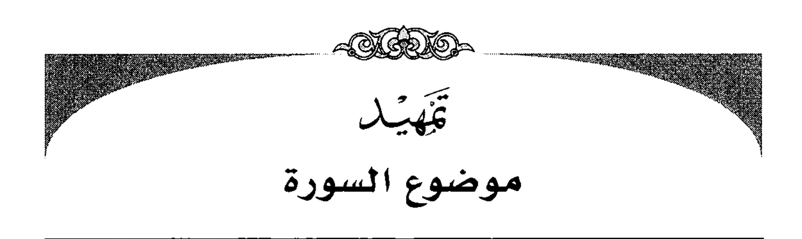
• **والفصل الثالث**: لبعض حجج عقيدة التوحيد البالغة الملزمة، وللمؤيدات الكبرى لرسالة النبي ﷺ.

• **والفصل الرابع**: لبيان أحوال السعداء والأشقياء، وذكر نماذج لكلا الفريقين من الأمم الغابرة.

جعلنا الله تعالى بمنِّه وكرمه من السعداء، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين دعواهم في الجنة سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

اللهم آمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.





# تمهيد

## موضوع السورة

لا بدَّ لفهم موضوع سورة يونس من توضيح الأمور الآتية:

**أولاً: التقدير:**

إن وجود الكائنات بعد العدم يدلُّ على وجود الله تعالى، وإنَّ ارتباط بعضها ببعض من أصغر ذراتها إلى أكبر أجرامها، يدل على وحدانيته سبحانه، وتنزُّهه عن الشريك، كما أنَّ كثرة أجناس المخلوقات؛ وكثرة أنواعها وأفرادها، وتخصيصَ كل فرد منها بخصائص يتميَّز بها عن سائر المخلوقات دليلٌ على كمال إرادته تعالى، وتمام مشيئته، ونفوذها في كلِّ المكونات.

ثم إنَّ إيجادَ المخلوقات، وإبرازها من العدم على نحو ما تعلَّق بها علمه سبحانه، واقتضتها إرادته، دليلٌ على عظمة قدرته.

والتقدير من القدر، ويقال لكلٍّ من الإحاطة العلمية، والتخصيص بالإرادة، والإبراز بالقدرة على وفق ذلك، يقال له: قدر، من قولهم: **قدَّرت الشيء**: إذا أحطتَ بقدره، أو خصصته بقدر مخصوص بإرادتك، أو وضعته على قدر مخصوص على وفق هذه الإرادة[١].

**ثانياً: قِدم صفاته سبحانه:**

ويجب التنبيه إلى أنَّ صفات الله تعالى قديمة قدم ذاته تعالى، قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله: إنَّ الله سبحانه أزلي بصفاته الأزلية، فهو أول بلا بداية، وآخر بلا نهاية، واتصافه بصفاته الذاتية أزلي أيضاً.

---

(١) انظر: البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة، للشيخ سلامة العزامي رحمه الله.

**والعلم** منها، فتعلُّقه بالمعلومات تعلُّق أزلي لم يسبقه جهل، ولم يتجدَّد له سبحانه علمُ ما لم يكن يعلم، وإنَّ من المعلوم من الدين بالضرورة استحالة البداء عليه سبحانه، وهو أن يبدو له سبحانه ما كان خافياً عنه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

**والإرادة**: صفة أزلية أبدية قائمة بذاته تعالى، تخصِّص الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود وعدم، وصفة ومقدار، وزمان ومكان وجهة.

ويكون الإبرازُ من بعدُ بصفة **القدرة**؛ وهي صفة أزلية أبدية يتأتَّى بها إيجاد كلِّ ممكن وإعدامه على وفق الإرادة.

وللقدرة تعلُّقان:

١ ـ **تعلُّق صلوحي قديم**: أي إنها صالحة في الأزل للإيجاد والإعدام لكل ممكن.

٢ ـ **وتعلُّق تنجيزي حادث**: وهو الإيجاد والإعدامُ بالفعل للممكنات التي قدَّر الله إيجادها وإعدامها[(١)].

والجدير بالذكر بيان أنَّ **المشيئة والإرادة مترادفان** ومعناهما واحد[(٢)].

**ثالثاً: التكليف:**

وتظهر حكمةُ التقدير بالتكليف، فتقدير المكونات على ما هي عليه يبدو عبثاً ولعباً من دون تكليف، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٢٧].

فلا منافاة بين التقدير والتكليف، بل إنَّ التقدير يقتضي التكليف، قال الشيخ العزامي رحمه الله: «فمن التقدير انبثق التكليفُ، وكان رحمةً على رحمةٍ،

---

(١) ردود على أباطيل: ٢/ ٨٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٨٤.

ولهذا جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: «**يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفِّيكم إيَّاها، فمَنْ وجدَ خيراً فَلْيَحْمدِ الله، ومَنْ وجد غير ذلكَ فلا يلومنَّ إلا نفسه**» [رواه مسلم (٢٥٧٧)]»[1].

**رابعاً: إرادة المكلَّف واختياره:**

ولا بدَّ للتكليف من إرادةٍ واختيار، وإرادةُ المكلَّف واختياره أساسُ التكليف، وما يستتبعُ من مسؤولية وثواب وعقاب، ولهذا أراد الله تعالى للإنسان المكلَّف أن يكون مريداً، وشاء سبحانه له أن يشاء، فخلق له إرادةً وجعل له اختياراً، فإرادة الإنسان مخلوقةٌ ومحدودةٌ مثله، ولا يعقلُ أن تكون إرادته تامةً نافذةً كإرادة الخالق سبحانه، فإرادةُ المخلوقِ مخلوقةٌ وتابعةٌ لإرادة خالقه ومشيئته: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

**خامساً: أفعال المكلف واتصالها بالقضاء والقدر:**

ولا يُسأل المكلَّف عن الأفعال الصادرة عنه بلا إرادة ولا اختيار، ولهذا فإنَّ العلماء يميِّزون في الحكم بين أفعال المكلَّف الاختيارية وأفعاله الاضطرارية.

قال الشيخ محمد الحامد رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرقُ واضحٌ بين الأفعال التي يأتيها الإنسانُ بمحض اختيار وحرية تصرُّف، وبين ما ينزل به ويصيبه من أمور ليس في إمكانه دفعها عن نفسه، كحركة المرتعش مثلاً وكالجوع والعطش والنعاس، فإنَّه فيها مقهور، وعليها مجبور، فلا حساب عليه ولا عقاب.

أما الأولى فإن المذمَّة فيها متجهةٌ إلى فاعلها إنْ كانت سيئةً، والمحمدةُ تناله إن كانت حسنةً، من حيث إنه فعل ما فعل بمحاكمة ذهنية، نظر فيها إلى المقدمات ونتائجها، واتخذَ سبيله إلى الأسباب التي تُفضي إلى مسبباتها، فهو بهذا جدير بالمدح إذا أحسن، وبالذمِّ إن أساء.

(١) البراهين الساطعة، للعزامي.

وليس يصحُّ في الأذهان التسوية بين النوعين في الحكم من حيث إنها إنكار لما تقضي به بداهة الفكر وواقعُ الحال، فإنَّ الحيوانات لها موازنات في أفعالها، تفرِّق بها بين ما ينفعها منها وما يضرها، فهي تتقي الحفر والوهاد، ولا تلقي بأيديها إلى التهلكة، وتميِّز طيب المرعى من خبيثه، وصافي الماء من كدره.. إذا كانت هذه حالها ـ وهي لا تملك من سعةِ أفق التفكير ما يملكه الإنسان ـ فهل يسوغ في المنطق الصحيح أن يكونَ هو أدنى منها فكراً، وأقلَّ بصراً في الأمور، فيدَّعي أنَّه فاقد الاختيار فيما يأتي ويذر؟! اللهمَّ إنَّ هذا مما لا يقبله العلم، ولا يقرُّه العقلُ الصحيحُ والمنطقُ السليم.

نحن نشعر يقيناً أننا نأتي ما نأتي من الأعمال مختارين، وهذه ضرورةٌ عقليةٌ ليس من الممكن جحدها ودفعها إلا أن ينسلخ المرءُ من رشاده تائهاً في بيداء الضلال.

لو أنَّ الأمر كان إجباراً محضاً فعلامَ السمع وعلام البصر؟! وعلام إرسال المرسلين مبشِّرين ومنذرين؟! وأي معنى مع هذا لوعد الله ووعيده؟! هل كان هذا إلا لأنّ للعبدِ تمييزاً يسبق عمله، واختياراً يتقدَّم فعله، أما الذي في علم الله فغيبٌ عنه، يظهر بعد صدوره، ويثبت بعد حصوله، وهذا لا ينفي اختيار العبد ولا يلغيه»[(١)].

وقال ﷺ في موضع آخر: «وليس القدر الإلٰهي إلا العلم الأزلي السابق، وتعلُّق الإرادة الأزلية طبق هذا العلم، والترتب بين تعلُّق العلم الأزلي بالأشياء وبين تعلُّق الإرادة ترتب عقلي للفهم فقط، لا ترتب وقوعي متأخر، لأنَّ كلّاً من العلم والإرادة صفة أزلية لله تعالى لا افتتاح لاتصاف مولانا بها ولا ابتداء، فالله تعالى أزلي قديم بذاته وصفاته، والإرادة الإلٰهية هي تخصيص الله الشؤون منذ الأزل، وقد يكون الشيءُ المخصص مَرْضيّاً ومأموراً به كالطاعات، وقد يكون غير مرضيٍّ كالمعاصي، فالإرادةُ غير العلم وغير الرضا وغير الأمر، وهذا هو

---

(١) ردود على أباطيل: ٢/ ١١٧.

الذي توجبه لغة العرب، وهي ملاك النصوص الدينية ووعاؤها، فإذا علم الله أزلاً من زَيْد مثلاً أنه سيفعل كذا باختياره ولا يفعل غيره، والإرادة تعلَّقت بهذا الذي تعلَّق به العلم بلا ترتب وقوعي متأخر كما قلنا، فهل يكون الله مجبِراً له على ما يفعل، خيراً كان هذا الفعل أو شرّاً؟»[1].

**سادساً: التوفيق بين النصوص:**

ثم رسم رحمه الله مسلكاً وفّق فيه بين النصوص القرآنية وأظهرها مجموعةً واحدةً صدرت من إلٰه واحد، لا تناقض في بياناته، ولا يضل في إرشاداته، فقال:

«فما كان من النصوص موهماً للإطلاق، وأنَّ العبد حرٌّ في أفعاله، فهو محمول على كسب الفعل وتحصيله بتوجيه عزمه إليه، وقصده إياه بإرادته، وهذا تنطق به آيات كثيرة، مثل: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، و﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والنصوص التي ظاهرها الإجبار تُحْمَلُ على عقوبة أنزلها الله بهم، وضلال ألزمهم إياه، لمزيد تعنُّتهم، وقبيح تنكُّرهم للحق، ومحاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، و ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقد تُحْمَلُ على أنَّ الله قادر على أن يهدي الخلق كلَّهم، وأنه ليس بعاجز، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، و﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقد تُحملُ على علم الله أزلاً بالذي سيكون من العبد خيراً كان أو شرّاً، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**السعيدُ منْ سَعِدَ في بطن أمه**» [رواه الطبراني في (الصغير)] والعلم ليس فيه معنى الإجبار.

فلا تعارضَ بين الآيات ولا تضاربَ، ومعاذ الله أن تكون آياتُ الله

(١) ردود على أباطيل: ١/ ٣٩٤.

سبحانه يضربُ بعضها بعضاً وهو القائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]»[1].

على ضوء هذا التوضيح لما سبق يمكننا أن نلاحظ كيف أن آيات السورة الكريمة تدور في هذا الفَلَك من أول آية إلى آخر آية.

❁ ❁ ❁

(١) ردود على أباطيل: ٢/ ١٢٥.




# ضرورةُ الوَحْيِ وصِلَتُه بالتَّقْدير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟

﴿لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

- **هذه الحروف المقطَّعة:**

افتتح الله تعالى سورة يونس بقوله الكريم:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

﴿الٓر﴾ وقد ذكر علماء التفسير في الأحرف المقطَّعة التي استهلَّ الله تعالى بها بعض السور القرآنية أقوالاً كثيرة في معانيها، وتدلُّ كثرة هذه الأقوال على حقيقة هامة، هي: أنَّ الإنسان مهما تدبَّر كلمات الله تعالى فلن يقف على كل معانيها وأسرارها، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى القول بأن معاني هذه الحروف مما استأثر الله تعالى بعلمها، فهي من الآيات المتشابهات التي لا يعلم حقيقة معانيها إلا الله سبحانه القائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

ورأى فريق آخر أنها ذكرتْ لبيان إعجاز القرآن الكريم، وتنبيه الأسماع إليه، فقد كان المشركون ينفرون عند سماع القرآن، فلمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓمٓصٓ﴾... استنكروا هذه الألفاظ، فلما أنصتوا إلى رسول الله ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيمَ الحجَّة عليهم، ففي هذه الحروف إشارةٌ إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدَّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناءُ كلامهم عليها، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجَّة عليهم[1].

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ١/ ٢٩.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره، وأيده بقوله: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة»(١).

وسورة يونس من بين هذه السور، وسيأتي معنا ما فيها من بيان لإعجاز القرآن وعظمته.

- **الكتاب الحكيم:**

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ **تلك**: للإشارة إلى الآيات الموجودة في سورة يونس، وهي تستعمل للإشارة إلى البعيد، والتبعيدُ هنا للتعظيم، كما قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

وقد تكونُ الإشارةُ إلى كل ما تقدم نزوله من آيات القرآن.

ومعنى ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ ذو الحكمة لاشتماله عليها، أو المحكم عن الكذب والافتراء(٣).

أو الحكيم بمعنى الحاكم، فهو حاكمٌ بالحلال والحرام، وحاكمٌ بين الناس بالحق، فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول(٤).

ولا شكَّ أنَّ القرآن الكريم يتّصف بكل هذه المعاني، فهو ذو حكمة، ومحكم، وحاكم، ومحكوم فيه، لأنه كلام الحكيم الخبير، قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

---

(١) انظر: تفسير سورة النمل في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد جعلنا عنوانها في هذا التفسير: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

(٢) فتح القدير، للشوكاني: ٢/ ٤٢١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٢٥.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٨/ ٣٥.

• **التعجُّب من نزول الوحي:**

أثار نزولُ الوحي على سيدنا رسول الله ﷺ تعجُّبَ المشركين من العرب وإنكارهم، فاستهلَّ سبحانه سورة يونس بذكر هذا التعجُّب، ورده ببيان ضرورته للناس، فقال ﷻ:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؟ وهمزة الاستفهام في ﴿أَكَانَ﴾ لإنكار تعجُّبهم، وتوبيخ لهم عليه، مع التعجيب منه، فليسَ في الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضي العَجَبَ، فلو أرسل الله تعالى لهم ملكاً لأرسله إليهم بهيئة رجل، حتى يستطيعوا التلقي عنه، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وقال أيضاً: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

**والعجبُ**: حالةٌ تعتري الإنسان من رؤية الشيء على خلاف العادة.

ولم يكن إرسال سيدنا محمد ﷺ أمراً جديداً على خلاف العادة، فقد أرسل الله تعالى كثيراً من الرسل قبله، وهو عليه الصلاة والسلام خاتمهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

وذكر المفسرون أنَّ المراد من الناس في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ كفار العرب، لكنني لا أرى مانعاً من تعميمها على جميع الكفار من العرب وغيرهم الذين أنكروا ظاهرة الوحي، واستبعدوا وقوعها، بسبب قَصْر عقولهم ومداركهم على الظواهر المادية المحسوسة المحيطة بهم، أو بسبب غلبة التعصُّب والحسد على قلوبهم ومشاعرهم، مما جعلهم ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ، وهذا ما فعله بعض المستشرقين من أمثال «درمنغهام»، و«واط»، و«جولدتسهر» وغيرهم.

• **قَدَم الصدق:**

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذه هي المهمة الأساس للرسول ﷺ، وهي **الإنذار والتبشير**.

وجاء **الإنذارُ** عامّاً لكلِّ الناس، لأنهم يحتاجون إلى مَنْ يهدِّدهم ويتوعَّدهم، ويعرِّفهم نتيجة إعراضهم عن دعوة ربهم، أو مخالفتهم لحكم من أحكام شريعته وخروجهم عليها.

وجاء **التبشير** خاصّاً بالمؤمنين ليقوِّي رغبتهم في دعوة ربهم، ويشدَّ عزيمتهم للتغلب على المعوقات النابعة من أهوائهم ونزواتهم، والعقبات التي يقيمها الأعداء في طريقهم.

وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قالوا: المراد بقدم الصدق **السعادة** التي قدَّرها الله تعالى لهم في سابق علمه، وتعلَّقت بها إرادته سبحانه، وكتبها في اللوح المحفوظ، ولهذا المعنى اتصال وثيق بموضوع السورة الذي سبق الحديث عنه.

وقالوا أيضاً: **الأجر الحسن** بما قدَّموا من أعمال، أو **المنزلة الرفيعة** يوم القيامة، أو **شفاعة النبي** ﷺ.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فللمؤمنين سابقةُ فضل عند الله تعالى سبقت في علمه سبحانه، وتعلَّقت بها إرادته، وبها ينالون يوم القيامة الثواب العظيم والمنازل الرفيعة، ويكرمهم الله تعالى بشفاعة النبي ﷺ.

والسبب في إطلاق لفظ القَدَمِ على هذه المعاني أنَّ السعي والسَّبق لا يحصُلُ إلا بالقدم، فسُمي المسبب باسم السبب، كما سُميت النعمةُ يداً لأنَّها تعطى باليد[١].

وأضيفت القَدَمُ إلى الصدق للدلالة على زيادة الفضل، أو لتأكيد تحققها

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٢٢٧.

وزيادة مدحها[١]، أو للتنبيه على أنَّ ما نالوه من المنازل الرفيعة كان بسبب صدق القول والنية[٢].

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وفي قراءة: ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقول الكافرين هذا فيه اعترافٌ بعجزهم عن معارضة القرآن الكريم، قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا اعترافٌ بأنَّ ما عاينوه خارجٌ عن طوق البشر، نازلٌ من حضرة خلَّاق القوى والقدر، ولكنهم سمَّوه بما قالوا تمادياً في العناد»[٣].

- **الأيام الستة:**

وردَّ الله سبحانه على الكفار المتعجبين من الوحي والمنكرين له، ببيان أنه تعالى الخالق للكون كلِّه، وأنه سبحانه مالكه، يتصرَّف فيه كما يشاء، وأنَّ حكمته سبحانه من الخلق والتكوين أن يعمره المكلَّفون بطاعته وعبادته، فلا بدَّ إذن من التكليف، ولا يتم التكليف إلا بإنزال الوحي على مَنْ يختارهم سبحانه لحمل رسالته، وتبليغ أمانته لعباده المكلَّفين بطاعته وعبادته؛ قال سبحانه على وجه الإلزام والتقرير:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأنَّه خالقكم ومالككم ومدبر أمركم، فهو سبحانه ربكم شئتم أو أبيتم.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: إن ربكم الذي تعجبون من

---

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٣/ ٢٢٧.

(٢) روح المعاني: ٤/ ٦٢.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٦٤.

إرساله إليكم رجلاً منكم هو الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستة أوقات؛ فالمراد من اليوم معناه اللغوي وهو مطلق الوقت[(١)].

وما دمنا لا ندري مقدار هذه الأيام وحقيقتها فلا ينبغي أن ندخل في تحديدها، فهي كما قال سيد قطب رحمه الله: «ذُكرتْ لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق، فالأيام الستة غيبٌ من غيبِ الله الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر، فعلينا أن نقف عنده ولا نتعدَّاه»[(٢)].

وتدل الآية الكريمة على أنه سبحانه ما خلق الخلق دفعة واحدة، بل خلقه على التدرج في ستة أوقات مع أنه سبحانه قادر على خلقه دفعة واحدة في أقل من لمح البصر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

ولا بد للتدرُّج في الخلق من حكم عظيمة يعلمها سبحانه، وقد ذكر المفسرون أن من حكمته سبحانه أن يعلِّم عباده **الرفق والتثبُّت في الأمور، والتأني في الأحوال**، ولا شك أنَّ في التدرُّج في الخلق دليلاً على كمال مشيئته سبحانه، فما خلق الخلق مجبراً عليه، بل خلقه بمحض إرادته ومشيئته وعلمه.

وقد فصَّل سبحانه التدرُّج في الخلق في قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت].

- **ثم استوى على العرش:**

وقوله سبحانه:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ نؤمن به على المعنى الذي أراده سبحانه من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل.

---

(١) روح المعاني: ٤/ ٦٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ١٧٦٢.

روى البيهقيُّ في كتابه «الأسماء والصفات» بسنده عن عبد الله بن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرُّحضاء (عرق كثير)، ثم رفع رأسه فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوعٌ، وأنت رجلُ سوءٍ وصاحبُ بدعةٍ، أخرجوه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله، فإن الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

بل الأمر كما قال نُعيم بن حمَّاد الخزاعي، شيخ البخاري، قال: **من شبَّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص، فقد سلك سبيل الهدى**»(١).

والعرش أكبر المخلوقات وأعظمها، ويطلق في اللغة على أكثر من معنى، فهو سرير الملك، وسقف البيت، والمُلْك، والسلطان والعز(٢).

- **التقدير والتدبير:**

ثم أكد سبحانه كمال قدرته وتمام مشيئته بقول:

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ أي: يقدِّر ويقضي أمر جميع المخلوقات، فلا يَحْدُثُ حدثٌ في العالم كلِّه إلا بإرادته سبحانه وقضائه وتدبيره وحكمته، فلا يخرج أمر عن قضائه وتقديره(٣).

فالتقدير والتدبير له وحده سبحانه، ولهذا قال ﷻ:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٥.

(٢) انظر: فتح القدير: ٢/ ٢١١.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي والخازن: ٣/ ٢٢٧.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾، فنفي الشفاعة يدلُّ على استبداده سبحانه وحده بالتدبير والتقدير، وهو تقرير لعظمته سبحانه إثر تقرير، فلا يشفع أحد في أي وقت إلا بعد إذنه تعالى المبني على الحكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة[1].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فالموصوف بهذه الصفات الجليلة هو ربكم المستحق للعبادة.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده، فلا ربَّ غيره، ولا معبود سواه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فأمْر الله سبحانه بإفرادِه بالعبادة والطاعة ظاهرٌ واضحٌ لا يحتاج إلى تفكُّر كثير، وتعقُّل كبير، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

- **أهمية الإيمان بالقضاء والقدر:**

ومن خلال هذه الآيات الكريمة تظهرُ لنا أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، فهو ركن من أركان الإيمان، فلا يكون العبدُ مؤمناً بالله تعالى وكماله ووحدانيته إلا إذا صدَّق بالقضاء والقدر، الذي يدلُّ على أنه لا يحدث شيءٌ في الكون كلِّه إلا بسابق علمه سبحانه وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله: «الإيمانُ بالقدر أساسٌ من أسس العقيدة، وركن من أركانها، ولما سُئل النبيُّ ﷺ عن الإيمان قال: «**أن تؤمنَ بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخِرِ، وتؤمنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ**» [رواه مسلم (٨)].

وشرُّ القدر هو بالنسبة إلى العبد المتصف بالشر لا إلى الرب تعالى وتبارك سبحانه، فهو منزَّه عن الشر مطلقاً، وكان من دعاء النبيِّ عليه الصلاة والسلام ربه تعالى: «**الخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك**» [رواه مسلم (٧٧١)]»[2].

فأفعاله سبحانه كلُّها حِكَمٌ، وعدم ظهور الحكمة في بعضها لقصور علم

---

(١) روح المعاني: ٤/ ٦٥.

(٢) ردود على أباطيل: ١/ ٣٨٨.

المخلوق عن علمه سبحانه، وما هو شرٌّ في نظر الناس ليس شرّاً بالنسبة إليه سبحانه، فما خلقه إلا لحكمة بالغة، قال الشيخ العزامي رحمه الله: «ويقرِّب ذلك إلى فهمك أن تنظر إلى فعل الطبيب الشفيق على المريض في إعطائه الدواء الكريه قهراً، وقطعه العضو الذي يُخشى من بقائه على الجسد كلِّه، ونحو ذلك، فهو شرٌّ في نظر الضعفاء لما فيه من الإيلام وتشويه الجسد بقطع شيء منه، وهو في النظر السليم يعدُّ خيراً لما يُفضي إليه من الصحة والسلامة لباقي البدن، وكلُّ أفعاله تعالى من هذا القبيل عند من دقَّق النظر وكان من أولي الألباب»[1].

ولقد فطن الناس في العصر الحاضر إلى أهمية استمرار البيئة كما خلقها الله تعالى وأبدعها، وأنَّ أي تغيير فيها تشويه لها وتلويث قد يؤدي إلى أخطار كبيرة تهدد حياة الإنسان ووجوده على الأرض، ولهذا ترى أنصار حماية البيئة يبذلون الجهود الكبيرة لحماية جميع أنواع الحيوانات من الانقراض، سواء منها القريبة من الإنسان أو البعيدة عنه في أعماق البحار الدافئة والمتجمدة، كل ذلك لاعتقادهم أنَّ لوجودها حكمة وارتباطاً بحياة الإنسان ووجوده.

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلَقه، وبدأ خلق الإنسان من طين.

وتدبيره سبحانه للأمور كلِّها يمتد للدنيا والآخرة، للحياة وبعد الممات، فلا فوت للإنسان إذا مات من قدرته سبحانه وإرادته:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إلى ربكم أيها الناس رجوعكم بعد الموت فاستعدوا للقائه.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ لا خُلْفَ فيه، إذ سبق بذلك علمه، وتعلَّقت به مشيئته.

---

(١) البراهين الساطعة.

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ من العدم.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت إلى الحياة.

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، فلا ينقص من أجورهم شيئاً، بل يزيدهم من فضله. أو: ليجزيهم بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا، فالإيمان عدلٌ قويم، والشرك ظلم عظيم[1].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بلغ الغاية في حرارته.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

وتغيَّر نظم الكلام عند الحديث عن العذاب عن نظمه في الحديث عن الثواب، للتنبيه على أنَّ المقصود بالذات من إعادتهم إلى الحياة بعد الموت هو الثواب للمؤمنين، وأما عقاب الكافرين فغير مقصود[2]، فهو واقع بالعَرَض، ساقه إليهم سوءُ اعتقادهم وشؤم أفعالهم؛ فالله سبحانه ما خلق الخلق ليعذبهم، ولكن الناس يعرِّضون أنفسهم إلى عذاب الله تعالى بكفرهم وفجورهم: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ويلاحظ المتأمِّل للآيات السابقة أنها أثبتت للإنسان كسباً واختياراً في إيمانه أو كفره، وبيَّنت في الوقت نفسه كمال علم الله سبحانه المحيط أزلاً بكل المخلوقات، وتمام مشيئته النافذة في كلِّ الحادثات.

- **الشمس المضيئة والقمر المنير:**

ومن مظاهر تدبيره سبحانه لأمر المخلوقات وتقديره لنواميس الكائنات خلقه الشمس والقمر، وتخصيص كل واحد منهما بخصائص ونواميس يسيرُ عليها لا يتجاوزها، وإبداعه لنظام الليل والنهار، وجعل كل ذلك مرتبطاً بمصالح العباد وحياتهم على الأرض:

---

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٣/ ٢٢٨.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٢٨.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ أي: ذات ضياء.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نور.

وقد تساءل بعض المفسرين عن سِرِّ وصف الشمس بالضياء، ووصف القمر بالنور، فقال بعضهم: خصَّ الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور، وخصَّ القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء(١).

وقال آخرون: ما بالذات ضوءٌ، وما بالعرض نور، وقد نبَّه ﷻ بذلك على أنه خلق الشمس مضيئة في ذاتها، والقمر منيراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها(٢).

وهذه حقيقة علمية عرفت في العصور المتأخرة، فنور القمر مستَمَدٌّ من ضوء الشمس، وهو انعكاسٌ لأشعة الشمس، ولهذا سمَّى الله تعالى الشمس بالسراج، لأنها مضيئة بذاتها، كما وصف القمر بالمنير لأن نوره انعكاس لأشعة الشمس عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح].

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: وقدَّر لسير القمر منازل لا يجاوزها ولا يقصِّر عنها، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

وهذا التقدير والتنظيم جعله الله بفضله من أجل الإنسان وفائدته:

﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فتقوم به مصالح الناس الدينية والدنيوية،

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٢٢٩.

(٢) تفسير النسفي: ٣/ ٢٢٩.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

- **العلم والتقوى:**

وهذا التقدير والإبداع ما خلقه الله تعالى عبثاً ولا باطلاً:

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الثابت الذي يدلُّ على كمال قدرته سبحانه وبديع حكمته.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ دلائل قدرته، وبراهين وجوده وعظمته، فيؤمنون به ويصدقون بوحدانيته وكماله.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، ومجيء أحدهما بعد الآخر على وفق النظام المقدر لهما.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من أنواع المخلوقات والنواميس والنظم التي تحكمها، والتي تدل على وجود خالقها ومبدعها.

﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله تعالى بعبادته وطاعته واتباع رسله.

ويلاحَظ أنه سبحانه ختم الآية الأولى بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ثم ختم الآية الثانية بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، ممَّا يدلُّ على أن الإنسان الذي يتأمل ويتدبر ويلاحظ بديع صنع الله في مخلوقاته، ويعلم ما فيها من الأدلة والبراهين على وجوده سبحانه ووحدانيته، لا بد أن يؤمن بالله ويخشاه، ويعمل في طاعته وعبادته ليتقي عذابه وغضبه، فالعلم مع الإيمان يؤدي إلى العمل بطاعته، ويوصل طلاب الحق إلى معرفة ربهم وتقواه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

• **المطمئنون بالدنيا:**

إلا أنَّ أكثر الناس يغفلون عن آيات الله تعالى المبثوثة في هذا الكون، بسبب انشغالهم بالحياة الدنيا وانكبابهم على ملذاتها، وصرفهم كل إمكاناتهم في تأمين متطلباتها، حتى إنَّهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى، ولا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، وتلك هي مشكلة أكثر الناس، وخاصة في العصر الحاضر: الغفلة عن الأدلة الكثيرة التي قرَّبها العلم من أسماعهم وأبصارهم، والاغترار بالدنيا والاطمئنان بها.

هذه الغفلة عن آيات الله تعالى لا تخلِّصهم من الحساب يوم القيامة، ولا تنجيهم من العقاب، فقد زوَّدهم سبحانه بكل وسائل النظر والتفكر، وأرسل إليهم رسلاً ينذرونهم ويحذِّرونهم، وجعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، وقدرة على التمييز والاختيار:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يتوقعون لقاء الله تعالى يوم القيامة، أو لا يخافون لقاء الله تعالى لأنهم لا يؤمنون به.

﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فسكنوا إليها، وقصروا همهم على ملذاتها وزينتها.

﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ مما جعلهم يغفلون عن آيات الله تعالى فلا يتفكرون بها ولا يلتفتون إليها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾.

فسوء اختيارهم وكسبهم وغفلتهم عن ربهم أوصلهم إلى عذاب النار.

**• الواصلون إلى الجنة:**

وبالمقابل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله تعالى وآياته التي غفل عنها الغافلون.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي كُلِّفوا بها بواسطة الأنبياء والمرسلين.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يوفقهم ربهم للسير على طريق الحق، ويثبِّتهم عليه حتى يصلوا إلى جنته ورضوانه بسبب إيمانهم، فهو كقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

فنظرهم إلى الأدلة الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، واستجابتهم لدعوة المرسلين، جعلهم في كنف الله ورعايته وتوفيقه، فسدَّد خطاهم، ونوَّر بصائرهم، فاستقاموا على الصراط، حتى وصلوا بفضل الله تعالى إلى رضوانه وجنته.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ حيث السعادة الأبدية الحقة، والنعيم الدائم الذي لا ينقطع، فلا يشغلهم فيها عن ربهم سبحانه طلب رزق وتحصيل لذة وتحقيق متعة، أعطاهم سبحانه فوق ما يؤملون وأعظم مما يشتهون.

ولهذا يقبلون على تسبيحه سبحانه وتمجيده وتقديسه والثناء عليه بما هو أهله، فيزيدهم الله سبحانه من فضله، ويفتح عليهم خزائن جوده وكرمه، فتزداد سعادتهم ويتضاعف سرورهم:

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي: كلام أهل الجنة في الجنة، أو دعاؤهم فيها.

﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي: يصفون الله تعالى بصفات الجلال التي يقال فيها: جلَّ عن كذا وجلَّ عن كذا، وهذا معنى التسبيح والتنزيه والتقديس، ثم يثنون عليه سبحانه بصفات الإكرام والكمال وهو التحميد..

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يقابَلون بالسلام من ربهم: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

ومن الملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب قائلين لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: وخاتمة كلامهم أو دعائهم:

﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

- **المستعجلون للعذاب:**

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه ورحمته إمهال الكافرين، وعدم تعجيل عذابهم، لعلَّهم ينتبهوا من غفلتهم، ويصحَوْا من سكرتهم، فتتفتح بصائرهم على الأدلة المبثوثة حولهم، وتستنير عقولهم وقلوبهم بأنوار الهداية، فتنقاد لدعوة المرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم، وتلزمهم بهذا الإمهال الحجة، وتقوم عليهم البينة، فإذا ما استعجلوا العذاب لفرط جهلهم وعنادهم فالله سبحانه لا يعجل لعجلتهم، ومشيئته سبحانه أجلُّ وأعز من أن تكون تابعة لمشيئتهم، بل يتركهم سبحانه متحيرين مترددين في ظلمات كفرهم:

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: مثل استعجالهم بالخير.

فمن المعروف شدَّة حُبِّ الإنسان للخير، واستعجاله في تحصيله.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لأهلكوا وأميتوا، ولكن حكمته سبحانه اقتضت إمهالهم.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يترددون ويتحيرون.

وما أشدَّ جهلهم حين يستعجلون العذاب! ألا فلينظروا إلى أحوالهم عندما يصيبهم شيء من المكروه، وحينئذ يستشعرون ضعفهم، ويعرفون ذلَّتهم وافتقارهم، فيقبلون على الله تعالى ضارعين يسألونه كشف الضر عنهم:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ كالفقر والمرض.

﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: دعانا في جميع أحواله؛ سواء كان مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً، وهذا يدلُّ على أنه يستمر في الدعاء والسؤال حتى يكشف الله عنه المكروه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: مضى واستمر على ما كان عليه من الإعراض عن الله تعالى، والانصراف إلى الدنيا وزينتها وشهواتها. أو: مرَّ عن موقف الدعاء والابتهال والشعور بالضعف والذلة إلى موقف التكبر والتجبر.

- **من حقائق النفس البشرية:**

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ والمسرفون هم المتجاوزون لحد الاعتدال، والمبالغون في الإقبال على الدنيا وشهواتها، مما جعلهم غافلين عن آخرتهم ومصيرهم.

**والتزيين**: التحسين والتحبيب، ولا شك أن نفوسهم الأمَّارة بالسوء زينت لهم أمر الإقبال على الدنيا والانهماك بشهواتها، والانصراف عن أمر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب.

هذه حقيقة من الحقائق التي تنطوي عليها النفس البشرية، تواجهنا بها الآية الكريمة بكل ما فيها من موضوعية وصدق، مع عمق في تحليل نفس الإنسان، وبيان ما انطوت عليه من نزعات ونزغات.

وقد أحسن سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ عندما تحدَّث عن الاتساق والاتفاق بين كلمات الآية الكريمة وبين الحالة النفسية للإنسان فقال: «والسياق ينسِّق خطوات التعبير، وإيقاعه مع الحالة النفسية التي يصوِّرها، والنموذج البشري الذي يعرضه، فيصوِّر منظر الضر في بطء وتلبث وتطويل: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾، يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر، ليصور وقفة هذا الإنسان، وقد توقف التيار الدافع في جسمه أو في ماله أو في قوته كما يتوقف التيار أمام السد، حتى إذا رفع الحاجز ﴿مَرَّ﴾ كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق ﴿مَرَّ﴾ لا يتوقف ليشكر، ولا يلتفت ليتدبَّر، ولا يتأمل ليعتبر، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ﴾، واندفع مع تيار الحياة دون كابح ولا زاجر ولا مبالاة»[1].

• **جزاء المجرمين:**

ثم التفتت الآيات تخاطب المشركين وتذكرهم بمصير الأمم السابقة التي كذَّبت رسلها، وإهلاك الله تعالى لهم بسبب ذلك:

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي: عندما أشركوا.

﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، مما يدلُّ على أن ظلمهم كان بتكذيب الرسل وإعراضهم عن المعجزات والحجج التي جاؤوا بها.

﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ مهما طال عليهم الزمن، وامتدَّ بهم العمر، لأن الله علم أنهم يصرون على كفرهم[2].

فالسبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل، بعد أن أقام الله عليهم الحجة

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٧٦٩.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٣٤.

بالبينات والمعجزات التي جاء بها الرسل، وعلمه سبحانه (أنهم لن يؤمنوا) لم يكن سبب هلاكهم، كما أنه لم يكن سبب امتناعهم عن الإيمان، إنما هلاكهم كان بسبب اختيارهم للكفر، وإعراضهم عن دعوة المرسلين.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإهلاك.

﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وهو وعيد شديد للمشركين المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ والمكذبين له، ولا يخفى من صفة الإجرام التي وصفوا بها ما فيها من دلالة على تأكيد اختيارهم وكسبهم ومسؤوليتهم عن هذا الكسب والاختيار.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: ثم استخلفناكم في الأرض بعد الأمم السابقة التي أهلكناها، والخطاب للذين أُرسل إليهم سيدنا محمد ﷺ، وهو يشمل الذين شهدوا بعثته، ومن يأتي بعدهم من الأجيال إلى قيام الساعة.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أتعملون خيراً أم شرّاً؟ فنعاملكم على حسب عملكم لا حسب علم الله سبحانه، فالله سبحانه يعلم ما يكون قبل أن يكون، وهو سبحانه يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه(١).

قال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ الدنيا حلوةٌ خضرةٌ، وإنَّ الله مستخلِفُكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساءَ، فإنَّ أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء**» [رواه مسلم (٢٧٤٢)].

وقد بيَّن الله تعالى لنا من خلال هذه الآيات الكريمة قاعدة عظيمة جليلة في موضوع القضاء والقدر، وهي تقرر أن للإنسان كسباً واختياراً، وأنه سبحانه سيحاسبه ويسأله عمَّا صدر عنه من عمل باختياره وكسبه، لا بمقتضى علمه سبحانه به.



(١) تفسير الخازن: ٣/ ٢٣٥.



## الفصل الثاني

## مواقف

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

- **القرآن والنبي ﷺ:**

وجاءت الآيات الكريمة بعد ذلك تبيِّن مواقف الخلائف في الأرض الذين أُرسل إليهم سيدنا محمد ﷺ، وبدأت ببيان موقفهم من القرآن الكريم عندما كان الرسول ﷺ يتلوه عليهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات الدلالة على أنها كلام الله تعالى وعلى صدق رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ وهو طلب عجيب يدلُّ على أنهم طلبوه على سبيل السخرية والاستهزاء، أو طلبوه على سبيل الجد امتحاناً للنبي ﷺ[١].

وعلى كلا الاحتمالين فهو طلبٌ لا يصدر إلا عن قوم لا يرجون لقاء الله تعالى، ولا يدركون مدى المسؤولية المترتبة على مثل هذا الكلام.

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٧/ ٥٩.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي: قل أيها الرسول لهم: ما يصح لي أصلاً تبديله من جهتي ومن عندي.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبعُ إلا ما يوحى إلي من غير زيادة ولا نقصان، لأنه من عند الله تعالى لا من عندي، فحاله عليه الصلاة والسلام مقصورةٌ على اتباع ما يوحى إليه، فلا يستقل بشيء دونه أصلاً[١].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو تأكيد لعبوديته عليه الصلاة والسلام لربه، ولشدة خشيته منه ﷺ، وفيه ردٌّ على تعريضهم به عليه الصلاة والسلام عندما طلبوا منه تبديل القرآن الكريم.

- **حقيقة القرآن الكريم:**

وبعد أن بيَّن سبحانه بطلان ما اقترحوه بيَّن حقيقة القرآن الكريم وأنه من عند الله تعالى، نزل على النبي ﷺ بأمره تعالى ومشيئته:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لو شاء الله أن لا ينزل هذا القرآن عليَّ ما قرأته عليكم.

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أعلمكم الله به على لساني.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: فقد أقمت بينكم أربعين سنةً من قبل نزول القرآن لا أتلوهُ ولا أعلمه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم في التدبر والتفكر فيه، لتعلموا أنه ليس مني، ولكنّه كلام الله تعالى.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ القرآن الكريم معجز خارقٌ للعادة، **فإنَّ منْ عاش**

---

(١) روح المعاني: ٤/ ٨٤.

بين أظهرهم أربعين سنة، لم يمارسْ فيها علماً، ولم يشاهد عالماً، ولم يُنشئ شعراً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بَزَّت فصاحته فصاحةَ كل مِنطيق، وعلا عن كلِّ منثور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعربَ عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه: عُلِمَ أنَّه معلَّمٌ من الله تعالى.

• **الصادق الأمين:**

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؟ وهو استفهام إنكاري معناه النفي، أي: لا أحد أظلمُ ولا أعتى ولا أشدُّ إجراماً ممَّن كذب على الله.

وحاشا رسول الله ﷺ أن يكون كذلك، ولقد اشتهر عليه الصلاة والسلام بغاية الصدق والأمانة بين قومه، فلا يُعقلُ أن يترك الكَذِبَ على الناس، ويكذب على الله تعالى.

وقد استدلَّ هِرَقْل ملكُ الروم بهذا على صدق النبي ﷺ عندما سأل أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفر وزعيمَ المشركين، ومع ذلك اعترف بالحق، فقال له هِرَقلُ: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهبَ ليكذب على الله. [رواه البخاري (٧)].

وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشيِّ ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته. [رواه أحمد (١/ ٣٠٢ و٥/ ٢٩٠)].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾، وهو تعريض بالمشركين المكذِّبين للقرآن الكريم، أي: ولا أحدَ أظلمُ ممن كذَّب بآيات الله سبحانه وتعالى.

ويدلُّ على أنَّ الكاذب على الله تعالى والمكذب بآياته في الكفر سواء[1]،

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٣٨.

ولهذا كرَّر وصفهم بصفة الإجرام بقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

- **توبيخ واستنكار:**

وبعد أن بينت الآيات الكريمة موقف المشركين من القرآن الكريم، بيَّنت موقفهم من العبادة:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ أي: يعبدون آلهة مزعومة لا تضرُّ ولا تنفع، والعبادة أعظم أنواع التعظيم، فلا تليق إلا بمن يضر وينفع، ويحيي ويميت.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، وهذا يدلُّ على شدَّة جهلهم حيث ينتظرون من هذه الآلهة التي لا تضر ولا تنفع أن تشفع لهم عند الله تعالى.

﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: قلْ لهم على وجه التوبيخ والاستنكار: أتخبرون الله أن له شريكاً في ملكه، أو شفيعاً بغير إذنه، وهو سبحانه لا يعلم أن له شريكاً في السماوات ولا في الأرض؟!:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق مجتمعين على التوحيد من غير اختلاف، وذلك مِنْ عهد آدم عليه السلام إلى عهد نوح عليه السلام.

وقيل: المرادُ من ﴿ٱلنَّاسُ﴾ العرب خاصة، وكانوا على التوحيد من زمن

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلى أن ظهرَ عمرو بن لَحْي، وجلب الأصنامَ إلى أرض العرب، ونشر عبادتها بينهم[١]. فحدثَ الاختلافُ بينهم حينئذٍ:

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ﴾ وصاروا مللاً، فالشرك أمرٌ طارئ على الناس.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ولولا ما تقدم أن الله تعالى لا يعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه سبحانه جعل لكل المخلوقات أجلاً معدوداً ومحدوداً، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، وأنزلَ العقوبة على المكذبين[٢].

وفي الآية كما قال القرطبي إشارةٌ إلى القضاء والقدر.

ولا شك أن اختلاف الناس دليلٌ على أنه سبحانه جعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، واقتضت مشيئته وحكمته سبحانه أن تكون الحياة الدنيا للابتلاء والتكليف، ولا يتمُّ هذا إلا إذا تمتَّع المكلَّف بالإرادة والكسب والاختيار.

- **اقتراح المعجزات:**

أظهرت لنا الآيات السابقةُ أنَّ القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبيِّ ﷺ، وأنه يكفي للدلالة على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته، ويُغني عن أي معجزة أخرى، وطلب معجزة ثانية لا يكون إلا مكابرة وعناداً، وقد اشتهر مشركو مكة بالعناد والمكابرة، وعرفوا بكثرة مواقف العناد والمكابرة، وجاءت الآية الكريمة تعبِّر عن هذه المواقف بصيغة المضارع:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لتؤذن أن هذه المقالة من دأبهم وعادتهم[٣].

---

(١) روح المعاني: ٤/ ٨٩.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٨٨.

(٣) روح المعاني: ٤/ ٩٢.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: هلَّا أظهرَ الله على يده معجزة من المعجزات التي اقترحوها، والتي جاء ذكرها مفصَّلة في قوله تعالى في **سورة الإسراء**: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

ولو أنصفوا لوجدوا في القرآن الكريم ما يكفيهم ويغنيهم عن كل هذه المعجزات المقترحة.

وأمر اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ أن يردَّ عليهم بقوله:

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: إن إنزال المعجزات من الغيب المختص بإرادته سبحانه.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: انتظروا قضاء الله تعالى بيني وبينكم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

- **من الآداب القرآنية:**

وكيف يحقِّق الله تعالى ما اقترحوه من المعجزات وهم لا يقابلون نعمه سبحانه التي أنعم بها عليهم إلا بالجحود والكفران، وهو حال أكثر الناس؟!.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ كالصحة والسعة في الرزق.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: من بعد مرض أو قحط أصابهم، وللصحة بعد المرض، والغنى بعد العسر، وقعٌ شديدٌ وتأثيرٌ كبير على الإنسان.

---

(١) انظر تفصيلاً للموضوع: تفسير سورة الإسراء، في تفسيرنا الموضوعي هذا، والذي جاء تحت عنوان (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

ويلاحِظُ المتأمِّلُ لكلمات الآية الكريمة أنه سبحانه أسند إلى ذاته المقدسة إذاقة الرحمة للناس، بينما لم يسند الضراء إليه سبحانه، مع أن الكلَّ بإرادته وقدرته، وهذا يجعلنا نفقه أدباً من الآداب القرآنية التي تحلَّى بها الأنبياء ﷺ، ألا ترى إلى أدب إبراهيم ﷺ مع ربه سبحانه عندما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

كما يجعلنا نستيقنُ أنَّ الخيرَ فضلٌ منه سبحانه، بينما الشرُّ لا يكون إلا بما يصدر عنَّا من أسباب تؤدي إليه، مع أنه من خلق الله تعالى وتقديره، إذ هو الخالق لكل شيء، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

- **الله أسرع مكراً:**

وقوله سبحانه:

﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ يدل على مسارعتهم إلى المكر حال إنزال الرحمة عليهم، فكلمة ﴿إِذَا﴾ تفيد المفاجأة، ومعنى **المكر**: الكيد والاحتيال الخفي، أي: يسارعون إلى تكذيب آيات الله تعالى، والاحتيال في دفعها.

وجاء الجواب من الله تعالى يتناسب مع مسارعتهم إلى المكر:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أعجل عقوبة.

قال الشوكاني رحمه الله: «وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة، كما قُرِّر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز»(١).

ويمكن حمل المكر على المعنى الأصلي له على الوجه اللائق بكماله

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٤٣٤.

سبحانه، قال الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد شاع أنه لا يُستعمل في حقِّه تعالى إلا على سبيل المشاكلة، وليس بذلك كما حُقِّق في موضعه»[١].

فالله سبحانه أشدُّ استدراجاً وإمهالاً حتى يظنَّ الظانُّ من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنَّما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه[٢].

أو أنه سبحانه قابل مكرهم بمكر أشدَّ منه، وهو إمهالهم إلى يوم القيامة[٣]. ويؤكدهُ قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكة الموكَّلين بحفظ أعمالكم.

﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ وأنتم لا تشعرون، فما تدبِّرونه غير خافٍ على الكرام الكاتبين فضلاً عن رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية.

• **بين الأمواج العاتية:**

ولا بد لتوضيح هذه المعاني من مثال عملي كامل يبيِّن فضل الله تعالى على الإنسان، بنقله من الضرِّ الشديد إلى الرحمة والسعة، ويبين أيضاً موقفَ الإنسان بعد ذلك ومَكرَه، لأنَّ المعنى الكلي المجرد لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثالٍ جلي واضحٍ يكشفُ عن حقيقة ذلك المعنى الكلي[٤]:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: الله سبحانه يهيئ لكم أسباب السير في البر والبحر ويمكنكم منه، فلولا النواميس والوسائل التي جعلها الله سبحانه في

---

(١) روح المعاني: ٤/ ٩٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٨٩.

(٣) تفسير الخازن: ٣/ ٢٤١.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ١٧/ ٧٠.

البر والبحر ما تمكَّن الإنسان من السير فيهما. أو: هو الذي جعلكم قادرين على السير في البر والبحر بما سخر لكم وخلق من أجلكم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي: في السفن، والفلك كلمة تطلق على المفرد والجمع.

﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾: وجرت السفن بركابها بريح طيبة هادئة لينة.

﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ لموافقتها لمقصودهم.

﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ شديدة الهبوب.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ في البحر.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك به سبحانه، لرجوعهم إلى الفطرة التي فُطروا عليها، وهي التوحيد، ولعلمهم أنه لا ينجيهم من الهلاك إلا الله وحده، ولهذا يقولون في دعائهم:

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال، أو هذه الشدائد التي نحن فيها.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: والله لنكونن من الشاكرين لك دائماً.

- **البغي في الأرض:**

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ مما نزل بهم من الشدائد والأهوال.

**والفاء** تدل على سرعة الإجابة.

﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: يفسدون في الأرض، **والبغي**: مجاوزة الحد، يعني أنهم أخلفوا الله ما وعدوه، وتجاوزوا في الأرض إلى غير ما أمر به سبحانه من الكفر والمعاصي.

وكلمة (إذا) تدلُّ على المسارعة والمبادرة إلى البغي حال شعورهم

بالنجاة، وهذه طبيعة أكثر الناس في كل عصر ومصر، يقبلون على الله تعالى في الضراء، وينسون فضله، ويُعرضون عن طاعته وعبادته في الرخاء، فتراهم يفرحون بالنعمة، وينسون المنعم.

وجاء التعقيب على هذا المثال العملي الصادق في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: إن وباله وعاقبته ترجع عليكم، فهو كقوله سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

أو: إن بغيكم واقع على أمثالكم وأبناء جنسكم(١)؛ إذ الناس بمثابة نفسٍ واحدةٍ بما بينهم من وشائج وصلات؛ فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] أي: يقتل بعضكم بعضاً.

أو: إن بغيكم عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وجاء في الحديث الشريف: «**ما من ذنب أجدر أن يُعجَّل لصاحبه العقوبةُ في الدنيا مع ما يدخرُ له في الآخرةِ؛ من البغي وقطيعة الرَّحم**» [رواه الترمذي (٢٥١١) وقال: حديث حسن صحيح].

﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: تتمتعون متاع الحياة الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: ثم ترجعون إلينا.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ونحاسبكم عليه، فالبغي سريع الزوال، شديد الوبال.

- **حقيقة الحياة الدنيا:**

ثم ذكرت الآيات مثالاً آخر لسرعة انتهاء الحياة الدنيا وقِصَر متاعها، وقلَّته وحقارته، فهي سريعة التقلُّب، وشيكة الانقضاء:

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٢٤٣.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فاختلط نبات الأرض بالماء، فنبت ونما.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ كالحبوب والكلأ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: استكملت زينتها بأنواع النبات وألوانه الزاهية.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: تزينت كما تتزين العروس وتتبرَّج.

وأهلها مزهوُّون بها، مطمئنون إليها، يظنون أنهم أصحاب الأمر والنهي فيها، لا يغيرها عليهم مغيِّر، ولا ينازعهم فيها منازع.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على الأرض متمكنون منها، وذلك بسبب شدة اغترارهم بها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا بهلاكها.

﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ في زمن غفلتهم ونومهم، أو في حال انتباههم ويقظتهم، فلا يمنع من عذاب الله مانع، ولا يدفعه دافع.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ محصودة مقطوعة.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأن نباتها لم يكن ولم يقم منذ زمن قريب، من غني بالمكان، إذا أقام فيه.

وهكذا الدنيا بعد زوالها كأنها لم تكن، تزول في ومضة ولحظة بعد أن بذل أهلها فيها ما بذلوا، وأمَّلوا منها ما أملوا، فما أشد خيبتهم! وما أعظم حسرتهم! خيبة وحزن في الدنيا، وحسرة وعذاب يوم القيامة، كما مرَّ معنا في

أوائل السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بإرادتهم واختيارهم.

وختم الله تعالى هذين المثلين الرائعين لحقيقة الدنيا وموقف الناس منها بقوله الكريم:

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالتفكر بداية التذكر والانسلاخ عن حال الغفلة الذي يغلب على الراضين بالحياة الدنيا والمطمئنين بها.

- **الدعوة إلى دار السلام:**

ومن المناسب بعد أن بينت الآيات الكريمة حقيقة الدنيا، وزهَّدت الناس بها، أن تبيِّن بعض ما في الجنة من النعيم، فقد دأب القرآن الكريم على تشويق المؤمنين إلى الجنة، لتتعلَّق قلوبهم بها، وتتطلَّع نفوسهم إليها، وتسمو أرواحهم نحوها، فيسيروا على طريقها، ويلتزموا المنهج الرباني الذي يوصل إليها. قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهذه دعوة مفتوحة من الله العزيز الرحيم موجهة إلى سائر العباد بواسطة النبي ﷺ.

عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: **«إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيلَ عند رجليَّ، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعتْ أذنُكَ، واعقلْ عقل قلبك؛ إنَّما مثَلُكَ ومَثَلُ أمتك كمثل ملكٍ اتَّخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدةً، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامِهِ، فمنهم من أجابَ الرسولَ، ومنهم منْ تركه. فاللهُ هو المَلِكُ، والدَّار الإسلام، والبيتُ الجنَّة، وأنت يا محمَّد الرسول، فمن أجابك دخلَ الإسلامَ، ومن دخلَ الإسلامَ دخل الجنةَ، ومن دخلَ الجنةَ أكلَ ما فيها»** [رواه الترمذي (٢٨٦٠)].

وسمِّيت الجنة بدار السلام لأنه سبحانه هو السلام، وأضافها إلى اسم من

أسمائه الحسنى تعظيماً لها، أو لكثرة ما فيها من التحية بالسلام، فالله سبحانه يسلِّم على أهلها، والملائكة تسلم عليهم أيضاً، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

أو لسلامتها عن الآفات والنقائص والنكبات، فلا تعب فيها ولا نَصَب، ولا همَّ ولا حزن: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

أو لسلامة أهلها من النقص في خلْقهم وخُلُقهم، فلا يكرمهم الله تعالى بدخول الجنة حتى يهذِّبهم ويجمِّلهم ويكمِّلهم، قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وعن **أبي هريرة** ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أولَ زمرةٍ يدخلون الجنةَ على صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ، والذين يلونهم على أشدِّ كوكبٍ دريٍّ في السماء إضاءةً، لا يبولون ولا يتغوَّطون، ولا يتمخَّطون ولا يتفُلون، أمشاطُهم الذهبُ، ورشحُهم المسْكُ، ومجامرهم الأُلُوَّةُ[(١)]، أزواجُهم الحورُ العينُ، أخلاقُهم على خلق رجلٍ واحدٍ، على صورة أبيهم آدمَ ستونَ ذراعاً في السماء**» وزاد في رواية: «**لا اختلاف بينهم ولا تباغُض، قلوبهم قَلْب واحد، يسبِّحون الله بكرةً وعشياً**» [رواه البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤)].

وعن **معاذ بن جبل** ﵁: أن النبي ﷺ قال: «**يدخلُ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ جُرْداً مُرْداً مكحَّلين، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة**» [رواه الترمذي (٢٥٤٥) وحسنه].

اللهم أنت السلام، ومنك السلام، نسألك أن تدخلنا دار السلام بسلام.

- **الهداية الخاصة:**

ثم قال سبحانه بعد أن دعا إلى دار السلام:

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوفق من يشاء إلى طريق الجنة، وهو

---

(١) أي: مباخرهم نباتات عطرية فائحة الشذى.

دين الإسلام، فيلتزم بأحكامه ويسير على نهجه، فالدعوة عامةٌ، والهداية خاصةٌ، فلا يدخل الجنة إلا المهديون[(١)]، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩] فإيمانهم وعملهم الصالح سبب توفيق الله سبحانه لهم.

والإنسان محتاج دائماً إلى هداية الله وتوفيقه ومعونته، فالطريق طويلٌ، والعقبات كثيرة، والمعوقات كبيرة، ولهذا علَّمنا ربنا أن نسأله الهداية كلَّما وقفنا في الصلاة نناجيه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

- **الحسنى والزيادة:**

ثم بيَّنت الآيات بعض النعيم الذي أعدَّه الله تعالى في دار السلام لعباده المؤمنين الذين لبوا دعوته وانقادوا لرسالته:

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وهي الجنة دار السلام ودار الإحسان: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ وهي إكرامهم بالنظر إلى وجه ربهم الكريم. وقيل: الزيادة في حسناتهم فضلاً منه سبحانه. وقيل: هي مغفرة الله ورضوانه. ولا مانع من إرادة العموم.

قال الطبري رحمه الله: «إنَّ الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة، وأن يبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٤٦.

بالنظر إليه، وأن يعطيهم غرفاً من لآلئ، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كلُّه مجموع لهم إن شاء الله، فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعمَّم»[١].

وقال ابن كثير رحمه الله: «هي تضعيف ثواب الأعمال، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: **النظر إلى وجهه الكريم**، فإنَّه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهورُ من السلف والخلف»[٢].

- **رؤية الله تعالى يوم القيامة:**

وقد أثبتت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وهي رؤية تليق بذاته المقدسة بلا تكييف ولا تشبيه، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة].

ويُحْرَمُ الكفَّارُ منها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارُّونَ في رؤيةِ القَمَرِ ليلةَ البدرِ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**هل تضارُّونَ في الشَّمْسِ ليسَ دونها سحابٌ؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فإنَّكم ترونه كذلك**» [رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)].

فيراه المؤمنون دون أن يضارَّ بعضهم بعضاً لزحمة أو مشقة.

وعن **صهيب** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، يقول اللهُ** تبارك وتعالى: **تريدونَ شيئاً أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تبيِّضْ وجوهَنا، ألم تدخلنا الجنةَ، وتنجنا من النار؟ قال: فَيُكشَفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم**

---

(١) تفسير الطبري: ١١/١٠٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/١٩٠.

**من النظر إلى ربِّهم** » ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. [رواه مسلم (١٨١) والترمذي (٦٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧)].

ومعى قوله: «**فيكشف الحجاب**» أي: تزال مانعية الرؤية عن المؤمنين، فيكمِّلهم الله تعالى حتى يصبحوا أهلاً لرؤيته سبحانه، فالحجاب فينا.

وقد مرَّ معنا من قريب أنه سبحانه يكمِّل أهلَ الجنة خَلْقاً وخُلُقاً، فهو سبحانه منزَّه عن حجاب يحجبه.

- **ترغيب وترهيب:**

وتابعت الآية وصف أهل الجنة بقوله تعالى:

﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ لا يعلو، أو لا يغشى، أو لا يلحق.

﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غبرة وسواد وكآبة.

﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا هوان ولا مذلة، فلا يصيبهم ما يصيب أهل النار، ولا تشوب نعيمهم شائبة من شوائب المكاره، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أي: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته(١).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ومن أساليب القرآن الكريم الجمع بين الترغيب والترهيب، ولهذا انتقلت الآيات إلى وصف أصحاب النار:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عملوا **السيئات** فكفروا بالله، وخالفوا أمره.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٩١.

وجاء التعبير عن عمل السيئات بكلمة (**كسبوا**) ليؤكد اختيارهم وإرادتهم في كفرهم ومعاصيهم، فما عملوا السيئات مجبرين، وهم مسؤولون عنها ومجزيون:

﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ فلهم جزاء السيئة مثلها من العقاب، والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات، فالحسنات تضاعف فضلاً منه سبحانه، وأما السيئات فالجزاء عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ وتغشاهم ذلَّة وشدة.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي: كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم، من شدة ما يعلو وجوههم من السواد والحزن والكآبة يوم القيامة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً.

- **الطاعة والعبادة:**

وتأكيداً لقوله سبحانه: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: ٢٧] عرضت الآيات المشهد التالي من مشاهد الحشر يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجمعهم يوم القيامة جميعاً، المؤمنين والكافرين.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم، واثبتوا فيه.

﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي: أنتم أيها المشركون وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ففرقنا بين العابدين والمعبودين، وميزنا بينهم.

والمراد: قطع الصلات التي كانت بينهم وبين الشركاء، فهو كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ وهم الأصنام، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الذي أنطق كل شيء.

أو: المراد الملائكة الذين كان بعض العرب يعبدونهم ويقولون عنهم: بنات الله ـ تعالى الله عن ذلك وتقدس ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

وقد يكون المراد من الشركاء رؤساء الضلال وزعماء الكفر الذين وضعوا للناس شرائع وقوانين مخالفة لشريعة الله تعالى، فحرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم، وأطاعهم أتباعهم، فأصبحوا بطاعتهم عابدين لهم من دونه سبحانه، فالطاعة نوعٌ من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يسٓ].

وقال أيضاً في طاعة عامة أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأحبارهم ورهبانهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولما دخل عدي بن حاتم الطائي على النبيِّ ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ـ وكان عدي على نصرانيته لم يسلم بعد ـ قال للنبي ﷺ: إنِّهم لم يعبدوهم، فقال رسول الله ﷺ: «**بلى إنَّهم حرَّموا عليهم الحلالَ، وأحلُّوا لهم الحرامَ فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**» [رواه الترمذي (٣٠٩٥)].

﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ بل كنتم في الحقيقة تعبدون أهواءكم الداعية لكم إلى هذه العبادة.

- **أمل خائب:**

فما أعظم حسرتهم! وما أشدَّ خيبتهم! كانوا يرجون أن يشفع لهم شركاؤهم عند الله، كما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبدل أن يشفعوا لهم يتبرؤون منهم، وتنقلب المودة إلى عداوة، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

ويُشْهِدون الله سبحانه أنهم كانوا لا يشعرون بعبادتهم:

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾.

أي: قد علم الله ـ وكفى به شهيداً ـ أنا ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا غافلين ما نشعر بها.

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾.

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ أي: في ذلك الموقف تختبر كل نفس ما قدمت من عمل، فتعرف نفعه وضرره.

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه.

﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ الذي هو مالكهم ومتولي أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوا مولى لهم.

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ وضاع وبطل عنهم.

﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ بأنهم آلهة وشركاء وشفعاء، وبهذا ضاع العمل، وخاب الأمل.

❁ ❁ ❁

# الفَصْلُ الثَّالِثُ

## حُجَجٌ ومُؤَيِّداتٌ لعَقيدةِ التَّوْحيدِ وَرِسالةِ النَّبيِّ ﷺ

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

- **الحجج الثلاث:**

وبعد بيان مواقف الناس المُستخلَفين في الأرض من القرآن الكريم وعبادة غير الله تعالى، ومواقفهم في حال الخطر من الله تعالى وفي حال الرخاء، وإقبالهم على الدنيا وانهماكهم بها، وقيمة الدنيا بالنسبة لما عند الله في الآخرة، بعد كل هذا شرعت الآيات الكريمة تعرض بعض الحجج والبراهين والمؤيدات للإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة النبي ﷺ، فعرضت ثلاث حجج دامغة وقاطعة لعقيدة التوحيد، ثم بعدها بيَّنت المؤيِّدات الكبرى لرسالة الإسلام، واتبعت أسلوب الاستفهام التقريري المفيد للقطع والجزم في عرض الحجج الثلاث الدالة على توحيد الخالق سبحانه.

- **الحجة الأولى: التدبير والتقدير:**

ويأتي التدبير على وفق التقدير الذي سبق به علمه ﷻ، وتعلَّقت به إرادته، ولما كان الرزق أهم شيء يهتم به الإنسان في حياته ومعيشته بدأت الآيات به، قال سبحانه:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ بإخراج النبات، ويشكل الماء والنبات العناصر الأساسية الكبرى لكل ما يحتاج إليه الإنسان في معيشته.

ثم تتابعت الأسئلة التقريرية الملزمة بتراكيبها القصيرة السريعة متلاحقةً كأنَّها مطارق تنزلُ على رؤوس الغافلين، تذكِّرهم بحقيقة فقرهم، واحتياجهم إلى الله وحده خالقهم ومدبر أمور حياتهم ومعاشهم:

﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾، و(أَم) للإضراب، والانتقال السريع لتقرير حقيقة ثانية، والسمع والبصر أعظم الوسائل التي تصل الإنسان بالعالم الخارج عنه، وتمكِّنه من الوصول إلى رزقه الذي أنزله الله تعالى من السماء، أو أخرجه له من الأرض، والتعبير بكلمة ﴿يَمْلِكُ﴾ يدلُّ على أنَّ السمع والبصر لا يحدثان إلا بإرادته وقدرته سبحانه، فهو المالك لهما على الحقيقة، فلا يسمع الإنسان بأُذنه إلا إذا أراد الله له أن يسمع، وقدَّر له ذلك، ولا يبصر أيضاً بعينه إلا إذا أراد له سبحانه أن يُبصر، وقدَّره له، وليست الأذن والعين السليمتان سوى سببين للسمع والبصر، ستر الله تعالى بهما قدرته وتدبيره وأمره التكويني: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فهو سبحانه المالك الحقيقي للسمع والبصر، فلا سمع ولا بصر إلا بمشيئته وقدرته.

- **في أجسامنا:**

﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذه ظواهر مبثوثة في جميع المخلوقات، وهي أكثر وضوحاً في النبتة الخضراء الحية عندما تخرج بقدرة الله تعالى من الحبة اليابسة أو من الجذر اليابس في أطباق الثرى، وأيضاً عندما تخرج الحبة اليابسة من داخل الثمرة أو النبتة الحية الخضراء بقدرة الله

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

إنَّ إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي بقدرة الله تعالى ظاهرة مستمرة حتى في داخل أجسامنا، ففي كل لحظة تنقسم ملايين الخلايا في أجسامنا، ثم تموت ويُحيِي الله تعالى غيرها، وفي كل فترة تتولد داخل أجسامنا ملايين الحيوانات المنوية من الدم الذي تمده الأغذية المقطعة والمطبوخة والممضوغة والمهضومة. أبعدَ مرورها بكل هذه المراحل كيف يخلق الله تعالى منها هذه المخلوقات الحية التي هي أصل النوع الإنساني وعنصر توالده وتكاثره؟!.

- **من يدبِّر الأمر:**

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ تعميم بعد تخصيص، إذ جاء هذا السؤال التقريري على عمومه بعدما سبقه من التنصيص على بعض ظواهر الخلق والتدبير في المكونات.

من يدبِّر أمر المكونات كلِّها بَدْءاً من الذرة الصغيرة ذات النواة والجسيمات السابحة على أفلاكها من حولها، إلى المجرات الكبيرة الجارية على أفلاكها والتي تحوي المجرَّة الواحدة منها ملايين الكواكب والنجوم؟!.

أجيبوا على هذا السؤال أيها الماديون، أيها الدهريون، أيها الطبيعيون، أيها الملحدون! من يدبِّر الأمر؛ أمر كل السابحات الجاريات في أعماق الذرات، والسابحات الجاريات في آفاق الفضاء؟ كم قدَّم الناس من جهد وتعب وبحث ونظر وأموال حتى تمكَّنوا من وضع بعض الأقمار الصناعية على أفلاك قريبة من الأرض في الفضاء؟ وكم يبذلون من جهود في مراقبتها ومتابعتها؟ كم عين تراقبها؟ وكم أذن تتسمع إلى ما يصدر منها؟ وأقمار الإنسان الصناعية لا تعد شيئاً بجانب الكواكب والأقمار الربانية، الأرض بمن عليها وما حولها من أقمار

لا تعادل هباءة صغيرة بالنسبة للمجرَّات الفضائية وما فيها من أجرام، فمن يدبِّر أمرها؟ ويضبط حركتها؟ وينظِّم سيرها؟!.

- **أفلا تتقون:**

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لا بد لهم أن يقولوا: الله وحده الذي يدبِّر الأمر، فلا مجال للمكابرة والعناد، والقائلون هذا القول هم الذين عاشوا في الجاهلية قبل الإسلام، أقروا لله تعالى بالربوبية، أقروا بأنه سبحانه الخالق والمالك والمدبِّر للأمر، إلا أنهم جحدوا إلٰهيته سبحانه واستحقاقه للعبادة وحده، فعبدوا غيره، واتخذوهم شفعاء إليه سبحانه، فأشركوا وكفروا.

وهم مع شركهم وكفرهم وجاهليتهم خيرٌ من كثير من الناس في العصر الحاضر، هم خيرٌ من الملاحدة الماديين والطبيعيين والدهريين الذين ينكرون وجود الله تعالى، مع أنهم عرفوا أسرار الجاريات السابحات في أعماق الذرات، وعرفوا دقَّة النظام وإبداع الناموس في تدبير شؤون المجرَّات، عرفوا كثيراً من أسرار إبداع الخلق في أعماق البحار ولا يزالون غافلين عن الخالق العظيم الذي يدبِّر الأمر.

لا نملك إلَّا أن نقول لهم ما أمر الله تعالى أن نقوله:

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَ الله تعالى الذي قرَّب إلى أسماعكم وأبصاركم كلَّ هذه الأدلة الدالة على وجوده سبحانه.

ولم يأمرنا سبحانه أن نقول لهم: **أفلا تعلمون**، فالقوم يعلمون بما شاهدوا ويشاهدون في مراكز بحوثهم ومخابرهم ومراصدهم ومركباتهم الفضائية وأقمارهم الصناعية، فهم محتاجون لمن يقول لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الواجب الوجود الذي لا شك فيه ولا ريب.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فلا واسطة بين الحق والضلال، فمن تخطَّى الحقَّ وقع في الضلال، ومن زاغ عن الإيمان كفر.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فكيف تختارون الانصراف عن الحق إلى الباطل؟!.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وكما انصرف هؤلاء الكفار عن الحق إلى الضلال.

﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وجب عليهم قضاؤه وحكمه في سابق علمه[(١)].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ تمرَّدوا وخرجوا عن الإيمان الذي فطرهم الله تعالى عليه إلى الكفر.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكون منهم اختيار للإيمان وكسب له.

● **الحجة الثانية: بدء الخلق وإعادته:**

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؟ ولا يخفى ما في هذا السؤال من إلزامٍ قاطعٍ مع التحدِّي لهم ولشركائهم الذين يعبدونهم من دون الله تعالى.

ولمَّا كان القوم لا يؤمنون بالإعادة، وينكرون يوم القيامة، وكان أمر إعادة الخلق مسلَّماً بظهور برهانه، ولمشاهدتهم له كلَّما أُنزل المطر على الأرض اليابسة الميتة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١١٤.

فمكابرتهم تمنعهم من الإقرار بالحقيقة، وهي أنَّ جميع شركائهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابةً صغيرةً، أو يعيدوها إلى الحياة بعد الموت.

ألم تقرأ قوله تعالى وهو يضرب مثلاً يبين فيه عجزهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وما دامت مكابرتهم تمنعهم من إعلان الحقيقة بأنفسهم، إذن أعلنها أنت بنفسك أيها النبيُّ، أعلن في وجوههم الحقيقة التي تستيقنها أنفسهم وقلوبهم، وتأبى ألسنتهم أن تنطق بها:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ﴾.

وقل لهم أيضاً تقريعاً وتوبيخاً لعجزهم عن إعلان الحقيقة:

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل؟! ما الذي يجعلكم معرضين عن الحق غير مذعنين له؟!.

- **الحجة الثالثة: الهداية:**

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن، كقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشورى: ٧٨].

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى]»(١).

وللهداية في القرآن معنيان:

**أولهما: الإرشاد والبيان.**

**ثانيهما: التوفيق والتسديد والمعونة.**

فمن رحمته سبحانه بخلقه أنَّه خلقهم وهداهم إلى كل ما يحتاجون إليه في أمر حياتهم ومعادهم، وجاءت هدايته سبحانه لكل مخلوق بما يتناسب معه،

---

(١) انظر: فتح القدير: ٢/ ٤١٤.

فلكل نوع من أنواع المخلوقات هدايةٌ خاصةٌ به تناسب ظروفَ حياة هذا النوع ومستلزماتها.

والمتأمِّل للهداية عند بعض الحيوانات يستيقن وجود الله سبحانه وقدرته ورحمته:

انظر إلى **النحلة** كيف هداها الله تعالى لتنظيم حياتها، وبناء مساكنها، وجني طعامها، وسلوك السبل المذللة لها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل].

ومن النحل بين الأشجار والأزهار إلى **النمل** في طيات التراب، تأمل كيف هداه الله تعالى لتنظيم حياته الاجتماعية في تجمعات سكنية يبنيها في داخل الأرض، وكيف يجمع غذاءه ويدَّخره بطريقة علمية مدروسة، فلا تؤثر فيه عفونة الأرض ورطوبتها[١].

وانظر إلى **الأسماك** في أعماق البحار كيف هداها ربها إلى كل ما تحتاجه في كل شؤون حياتها داخل المياه، بل هداها سبحانه إلى الهجرة داخل المحيطات طولاً وعرضاً، فلا تضل عن مقصدها، ولا تخطئ هدفها.

وارفع بصرك إلى جوِّ السماء، وانظر إلى **الطيور المهاجرة** شمالاً وجنوباً وهي تقطع أجواء القارات والمحيطات، بلا آلات توجهها، ولا مخططات تعتمد عليها، إنَّها تعتمد فقط على هداية الله تعالى.

ومن الطبيعي أن تكون هداية الله تعالى للإنسان أعلى من هداية الحيوان وأكمل، كي تتناسب مع الميزات والخصائص التي خصَّه سبحانه بها، فليست هداية الله للإنسان قاصرة على إرشاده إلى طرق تحصيل معاشه، وتأمين أسباب بقائه، فهو مخلوق كرَّمه تعالى وشرَّفه بحمل التكليف والمسؤولية، فجاءت هداية

---

(١) انظر: تفسير سورة النمل في كتابنا هذا: التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم، وقد جاء تفسيرها هذه السورة تحت اسم (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

الله تعالى له تعرِّفه بالمنهج الذي كُلِّف به، ليعمر الحياة بعبادته سبحانه، ويسعد في دنياه وآخرته، بهذه الهداية تحدَّى الله تعالى المشركين وشركاءهم فقال:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى النظر والتدبُّر بما نصَبَ في الآفاق والأنفس[1].

ولا بدَّ أن يكون جوابهم: لا، لأنَّ عجز شركائهم واضح ظاهر، ولذلك أُمر النبيُّ ﷺ أن يقول لهم على سبيل التقرير والإلزام:

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ لا غيره سبحانه.

﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ فالله سبحانه هو الذي يهدي إلى الحق، فهو أحق أن يتبع، لا رؤساء الكفر والضلال، فإنهم لا يقدرون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله تعالى.

فأصل ﴿يَهِدِّيٓ﴾: يهتدي، فأُدغمتِ التاءُ بالدّالِ وفُتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل وتعبدون غير الله تعالى؟!.

- **العقائد لا تُبنى على الظن:**

هذه بعض حجج العقيدة الإسلامية التي جعلت منها عقيدةً قويةً راسخةً لا تتزعزع، لأنها تستند إلى الحجج البالغة، والأدلة القاطعة، وكلُّ العقائد المخالفة لها ظاهرة البطلان، بيِّنة الفساد، ليس لها أدلَّة تسندها، ولا حججٌ تحتج بها، لهذا تجد أصحابها في ريب وحيرة وتردد كما وصفهم الله تعالى في قوله:

---

(١) روح المعاني: ٤/١١٣.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾، أنهم يقلِّدون آباءهم أو رؤساءهم في الضلال والكفر.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: إنَّ الشك لا يغني عن اليقين شيئاً، ولا يقوم مقامه، فلا ينبغي أن تُبنى العقائد على مجرَّد الظن، فتحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالظنِّ غيرُ جائز[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، ولا يخفى ما فيه من الوعيد بسبب اتباعهم للظن والتخمين وإعراضهم عن الحق واليقين.

- **إعجاز القرآن الكريم:**

وبعد بيان بعض حجج عقيدة التوحيد انتقلت الآيات إلى الحديث عن مؤيدات العقيدة الإسلامية، وبما أنَّ آيات التنزيل الحكيم هي أكبر وأعظم مؤيدات الدعوة الإسلامية شرعت الآيات في الحديث عن **إعجاز القرآن الكريم**، وتتحدَّى به كل المخالفين:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما صح وما استقام أن يكون مثل القرآن في علو أمره وإعجازه مفترًى[٢]، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو مبرأ عن الافتراء والكذب، والدليل في القرآن نفسه، فلا يقدر على مثله إلا الله تعالى.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكنَّ الله أنزله يصدِّق الكتب المتقدمة عليه في النزول كالتوراة والإنجيل، فيشهد أن الله تعالى أنزلها.

---

(١) انظر: تفسير الخازن وتفسير النسفي: ٣/ ٢٥٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٥٤.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ويبيِّن ويفصِّل ما كتب الله وفرض على الأمة المسلمة من أحكام وتشريعات.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لا شكَّ فيه لأنه من رب العالمين.

- **في ميدان التحدي:**

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتحدَّى بالقرآن جميع المكذبين له، ولا يزالُ هذا التحدي قائماً، وسيبقى إلى قيام الساعة، فالقرآن الكريم في الساحة يتحدَّى، وهو منذ نزوله حتى الآن وحده في ميدان التحدي يصول ويجول، ويعلن أنه كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ، فأين المكذِّبون؟!.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أم يقول هؤلاء المكذبون: افترى محمد عليه الصلاة والسلام القرآن من قبل نفسه؟! وهو استفهام إنكار وتوبيخ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: إن كان الأمر كما تقولون.

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة، فالتحدي بأي سورة من سور القرآن الكريم الطوال والقصار، وقد تكرر التحدي في عدة مواضع من القرآن الكريم مما يدل على الثقة الكبيرة بأنه كلام الله تعالى:

تحدَّاهم أولاً **بالقرآن كلِّه**: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨](١).

فعجزوا، فنزل بالتحدي إلى **عشر سور**: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

**فعجزوا أيضاً، فتحداهم بسورة واحدة كما في هذه الآية وفي آية سورة**

---

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء، وقد جاءت في هذا التفسير الموضوعي الكبير تحت اسم: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

**البقرة:** ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلَّقاتهم، وإليهم المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ به(١).

- **مقدار التحدي:**

ومن المعلوم أنَّ **سورة الكوثر** أقصر سور القرآن الكريم، وهذا يعني أنَّ التحدي بمقدار سورة الكوثر، وهو موجه إلى كلِّ المعارضين للقرآن من الإنس والجن أفراداً وجماعات.

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: سوى الله تعالى.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أنَّ القرآن الكريم مفترًى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول!.

وليس إعجاز القرآن الكريم في فصاحة كلامه وبلاغته وحُسن نظمه فحسب، بل إعجازه في معانيه التي لا تنتهي، وفيما اشتمل عليه من أخبار الأمم السابقة والحوادث المستقبلة.

ولهذا دعا القرآن الكريم الناس ليتدبروا آياته، ويتأملوا في معانيه، فيكتشفوا وجوهاً كثيرة لإعجازه، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سبحانه هنا يقرِّع المخالفين للقرآن الكريم ويوبخهم، لأنَّهم كذَّبوا به قبل أن يتدبَّروا آياته، ويفهموا معانيه وبعض ما اشتمل عليه:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، فتكذيبهم للقرآن غير مقبول عند أهل العلم

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٩٤.

المنصفين، لأنَّه صدر عن جهل بالقرآن لا عن علم.

وكثيراً ما نواجه في عصرنا الحاضر أمثال المشركين من أهل الجاهلية الذين يسارعون إلى تكذيب القرآن الكريم قبل أن يعلموا شيئاً عنه، ما أكثر ما نقرأُ ونسمعُ عن أناس يدَّعون لأنفسهم صفة العلم والفهم والموضوعية، ويحملون ألقاباً علمية كبيرة، يكيلون الاتهامات جُزافاً للكتاب الكريم وللسُّنَّة النبوية الشريفة وهم أجهل الناس بالكتاب والسُّنَّة، ترى أحدهم يحاول انتقاد القرآن، وهو لا يستطيع قراءة آية من آياته، فضلاً عن فهم معانيها، وترى بعضهم يتطاول بلسانه على كبار رجال الفكر الإسلامي وعلمائه وهو لا يستطيع قراءة كلماتهم بشكلها الصحيح، والأنكى من ذلك مسارعة كثير من الناس إلى الخوض في أحكام دين الله تعالى وإصدار الفتاوى فيها كأنهم أصحاب العلم والتخصص فيها. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتتابع الآية الكريمة إظهار حقيقة هؤلاء المكذبين لكتاب الله وبيان زيفهم وخداعهم:

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: وكذَّبوا أيضاً بالقرآن قبل أن يأتيهم التأويل المنتظر، وهو ما يؤول إليه من الصدق في الإخبار بالمغيبات[(١)].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا شأن المكذبين للحق في كلِّ زمان، يسارعون إلى التكذيب عناداً واستكباراً قبل معرفة الحقيقة.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾أي: انظر نظر الاعتبار كيف أهلك الله الظالمين المكذبين.

- **المغيَّبات في القرآن الكريم:**

والمغيَّبات التي أخبر عنها القرآن الكريم كثيرةٌ، منها ما ذكره عن بعض تاريخ الأمم السالفة وأخبار بعض الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى

(١) روح المعاني: ٣/ ١٢١.

هذه الأمم، ومنها إخباره عن بعض أحداث مستقبلة، وقد حدث أكثرها كما أخبر ﷻ علّام الغيوب.

ومن هذه الأخبار المستقبلة في القرآن، والتي سارع المشركون إلى تكذيبها، ولكنها وقعت كما أخبر سبحانه عنها، ما جاء في أول **سورة الروم**: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أقرب أرض من بلاد العرب، وهي بلاد الشام. وبعضهم يقول: في الأغوار بين فلسطين والأردن، ولا شك أنها من بلاد الشام، فلا تعارض بين الرأيَيْن، وقد حدث هذا قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، فقد انتصر الفرس على الروم، واحتلوا قسماً كبيراً من بلاد الشام، وبعد أن أخبر عمَّا حدث، أخبر عما سيحدث في المستقبل، فقال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أي: وبعد هزيمة الروم سيَغلبون الفرس خلال بضع سنين، وسارع المشركون إلى تكذيب القرآن، واستبعاد حصول ذلك، ولكنّ خَبَرَ علّام الغيوب لا يكون إلا حقّاً وصدقاً، ففي العام السادس من الهجرة انتصر الروم على الفرس، واستعادوا سيطرتهم على بلاد الشام.

وما أكثر الآيات التي نزلت على النبي ﷺ تثبته وتواسيه، وهو في قمة مواجهته للمشركين، وتبشره بالظهور والنصر والتمكين في الأرض، وحدث كل ذلك كما وعد الله سبحانه في كتابه.

وهناك أخبار كثيرة عن أشراط الساعة الكبرى وعلاماتها، وما يكون بين يديها، وما يحدث عند قيامها، لم تقع بعد، ولكنها ستقع كما أخبر عنها العليم الخبير سبحانه.

- **التبرؤ من المفسدين:**

ومن المغيبات التي أخبر عنها سبحانه قوله بعد ذلك:

﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤٠﴾.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي: ومن هؤلاء المكذبين من سيؤمن بالقرآن الكريم.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾، فيبقى مصرّاً على كفره حتى الموت.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ المصرِّين على الكفر.

وعلمه سبحانه أنهم سيصرُّون على الكفر، ويستمرون عليه، لا يعني إجبارهم؛ فما أصرُّوا على الكفر إلا بإرادتهم واختيارهم وكسبهم، كما أنَّ الذين علم الله تعالى أنهم سيؤمنون به بعد تكذيبهم له، سيؤمنون بإرادتهم واختيارهم، ولو كانوا مجبرين على الإيمان ما صدر عنهم ما صدر من تكذيب وإعراض وكفر.

وجاءت الوقائع والأحداث مطابقة تماماً لما أخبرت به الآية القرآنية؛ إذ آمن بعد ذلك كثير من مشركي قريش، وأصبحوا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وظلَّ فريق آخر منهم مصرّاً على الكفر حتى مات عليه.

وأُمِرَ رسول الله ﷺ أن يقول للمصرِّين على الكفر والتكذيب:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم، أنتم مسؤولون عن عنادكم وإصراركم، ولا يسألني ربي إلا عن عملي.

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تؤاخَذون بعملي، ولا أؤاخَذ بعملكم.

فالمسؤولية شخصية، ولا يتحمل أحد وِزْر أحد، وهذا أيضاً يؤكد وجود الاختيار والكسب عند الإنسان المكلف.

- **من أسباب الهداية:**

وكان تكذيبهم للنبيِّ ﷺ وإعراضهم عن دعوته يسبب له عليه الصلاة والسلام حزناً شديداً، لأنه كان شديد الحرص على هدايتهم ورشادهم، ولهذا

جاءت الآيات الكريمة تواسيه عليه الصلاة والسلام، وتبين له أنَّ أمر توفيقهم إلى الإيمان منوط بإرادته سبحانه وحده ومشيئته:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن، ولكنهم لا يستجيبون كالصمِّ الذين لا يسمعون أصلاً.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾؟ فكما لا تقدر على إسماع الصمِّ لا تقدر على جعل هؤلاء يسمعون منك سماع إجابة.

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ فكيف إذا انضمَّ إلى صممهم عدم استعمالهم لعقولهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: يشاهد دلائل الصدق وأعلام النبوة في كمال خَلْقك وخُلُقك.

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ أي: لا تقدر على هداية العمي الذين لم يوفقوا إلى رؤية دلائل النبوة.

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكيف إذا انضمَّ عمى البصر عن رؤية دلائل النبوة إلى عمى البصيرة عن التفكر والاستبصار؟!.

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ النظرَ إلى النبي ﷺ ورؤية محاسنه الخُلقية والخَلْقية من أسباب الهداية، وقد اهتدى كثير من الصحابة إلى الإيمان فور رؤيتهم لوجهه الشريف عليه الصلاة والسلام، قال عبد الله بن سلام ﷺ: لما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة انجفل (أسرع) الناس إليه، فكنتُ فيمن انجفل، فلمَّا رأيته عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجه رجل كذَّاب، فكان أول ما سمعته يقول:

**«يا أيها الناس: أفشوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ، تدخلوا الجنَّة بسلامٍ»** [رواه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: حسن صحيح].

ورضي الله عن حسان بن ثابت القائل:

**لَوْ لَمْ تَكُنْ فيه آياتٌ مبينةٌ كانت بديهتُه تأْتيْكَ بالخَبَرِ**

- **المعرضون عن الهداية:**

ولا تظنن أن الله ﷻ ظلمهم بعدم توفيقهم للهداية والإيمان، فقد أعطاهم الله سبحانه كلَّ أسباب الهداية:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً فيه مصلحة لهم.

فقد زوَّدهم بوسائل التمييز والإدراك والفهم، ونصب لهم الأدلَّة والحجج، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وحذَّرهم فيها وبشَّرهم، وجعل لهم أهلية الكسب والاختيار بالإرادة التي وهبها سبحانه لهم.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ باختيارهم ما يُغْضب ربهم عليهم، ولهذا حرمهم سبحانه من هدايته ولم يوفقهم إليها.

وليس لأحدٍ أن يتحكَّم على الواحد الأحد، فيقول: لِمَ لم يمنعه وهو قادر على منعه؟ بل الأجدر أن يوجه اللوم إلى العبد، فيقول: لم لم يطعه؛ وهو متمكن من طاعته؟[1] فليس لأحدٍ سابقة استحقاق على الله تعالى، فالكل مُلْكٌ له سبحانه، وحضرته سبحانه حضرة إطلاق: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وبهذا الاعتبار لا يتصور منه ظلم قطعاً، لأنّ الظلم تصرُّف في مِلْكِ الغير

---

(١) البراهين الساطعة.

على خلاف الإذن والمصلحة[١]، وهو سبحانه حكيم فيما أعطى وفيما منع، إن أثاب فبفضله، وإن عاقب فبعدله.

• **الخسارة الكبرى:**

وما أكثر ما حذَّر سبحانه من يوم القيامة؛ وعرض لهم مشاهد مما سيكون في هذا اليوم العظيم:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: اذكر يوم يجمعهم الله تعالى، فيستقلون مدة أعمارهم، ولا يرونها إلا شيئاً يسيراً، كأنَّها ساعة من نهار، وذلك لأنهم ضيَّعوا أعمارهم في الدنيا، فأصبحت بالنسبة لهم كالعدم، أو استقلوها لشدة ما يلقون من العذاب ويرون من الأهوال.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرفُ بعضُهم بعضاً، ولكنَّهم لا ينتفعون بهذه المعرفة، فكلٌّ واحد مشغول بنفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ خسروا أنفسهم وحياتهم وأهلهم وأصحابهم، خسروا الإيمان والإسلام، والجنة والرضوان، والحسنى والزيادة، ولا عوض لخسارتهم ولا جبر لها.

وسبب خسارتهم عدم هدايتهم:

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

• **الانتقام العاجل والآجل:**

وتابعت الآيات الكريمة مواساة النبي ﷺ عما يلقاه من تكبُّرهم وعنادهم:

---

(١) انظر: ردود على أباطيل: ٢/ ١٠٤.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقرَّ عينك منهم.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والمعنى: إن لم ننتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً.

وقد أراه الله سبحانه ذلَّهم وأسرهم وانكسار سَوْرة كبْرهم يوم بدر، وما بعده من المواطن، حتى أقرَّ سبحانه عين النبيِّ ﷺ بفتح مكة، وتكسير الأصنام، وتطهير البيت الحرام، فلله الحمد والمنة.

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

وعذاب يوم القيامة أشدُّ من عذاب الدنيا، عندما تعرض كل أمة على الله تعالى بحضرة رسولها الذي أرسل إليها:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، فينجو المصدِّقون، ويهلك المكذِّبون، وهذا تكريم من الله تعالى لعباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فلا يقضي الله تعالى بينهم حتى يأتي رسولهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وكذلك ختم الآية هنا بقوله سبحانه:

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

• **الآجال المقدَّرة:**

ومن الشواهد على عنادهم وتكبُّرهم استعجالهم للعذاب، وسبق أن بيَّن الله سبحانه في هذه السورة الحكمة من إمهالهم ـ الآية [١١] ـ، وحكاه عنهم هنا كشاهد يشهد على شدة عنادهم واستكبارهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

وهو خطاب موجه للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر على دفع ضر عن نفسي أو جلب نفع لها، فكيف أملك جلب العذاب لكم؟!.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن أقدر عليه أو أملكه، فالأمور كلُّها منوطة بمشيئته سبحانه وحده.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: مدة مضروبة ووقت معين قدَّره العليم الخبير لهلاكهم.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر لهم.

﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فللأفراد والجماعات والأمم وللدنيا كلّها بما فيها آجال مقدَّرة معينة، لا تزيد ولا تنقص، ولا تتقدم ولا تتأخر.

إنَّ للحياة نواميس كبيرة تسير عليها بتقدير الله سبحانه، فلا تقصر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها محدودة، وأحداثها مكتوبة، فهي مبرمجة ـ إن صحَّ هذا التعبير الحديث ـ وهذا دليل على وجود الخالق المدبِّر سبحانه.

- **إيمان البأس واليأس:**

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: أخبروني.

﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا﴾ ليلاً.

﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ما الذي يستعجلون من نزول العذاب، ولا شيء فيه يستدعي الاستعجال فكلّه مكروه؟! وماذا يكون حالكم عند وقوعه؟!.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ٥١﴾.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أبعدما وقع عذاب الله عليكم، وحلَّ بكم سخطه آمنتم به، حيث لا ينفعُ الإيمان لوقوعه في غير وقته مجرداً عن الاختيار والكسب، فهو إيمان البأس، لأنه أتى عند نزول العذاب والبأس، كما مرَّ معنا في قصة فرعون عند غرقه، وهو أيضاً إيمان اليأس، لأنَّه وقع عند اليأس من الحياة، وهو إيمان الإلجاء والقهر لأنهم ما آمنوا وقتئذ إلا مجبرين ومقهورين، ولهذا لا ينتفعون به، ولا يقبله الله سبحانه منهم، ولهذا يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ عندما كنتم تستهزئون بالنبي ﷺ والمؤمنين وتقولون: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وممَّا يؤكد أنه سبحانه لا يقبل إيمان اليأس قوله بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٥٢﴾.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بكفرهم وفجورهم:

﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الذي لا ينتهي ولا ينقطع في جهنم.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والمعاصي.

وقد سبق أن نبهتُ إلى مدلول كلمة ﴿تَكْسِبُونَ﴾ على وجود الإرادة للإنسان والاختيار في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

## • حيرة وقلق:

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٥٣﴾.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي: يستخبرونك.

﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: أحق عذاب الله؟ أو أحق يوم القيامة؟.

ويدلُّ السؤال على حيرتهم وقلقهم، فهم غير مطمئنين إلى عقائدهم الباطلة، ولهذا أمر الله الحكيم العليم نبيَّه ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ أي: نعم وربي.

﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ إنَّ عذاب الله حق، أو إنَّ يوم القيامة حق.

والجوابُ المؤكَّدُ بالقسم يدلُّ على أنَّ القوم يستشعرون في قرارة أنفسهم حَيْرةً وقلقاً، وأن نوازع الفطرة التي فُطروا عليها تجذبهم إليها، وجاء الجواب المؤكَّد بالقسم المجرد عن أي دليل وبرهان متناسباً تماماً مع الحالة النفسية التي يمرون بها.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: وما أنتم بفائتين من العذاب، فهو مدرككم لا محالة إذا لم تنقذوا أنفسكم بالإيمان بالله تعالى والتصديق مع الإذعان لرسالة النبي ﷺ.

فالبدارَ البدارَ إلى ساحل الأمان وسُلَّم النجاة قبل أن ينزل بكم العذاب، فحينئذ لا فداءَ لكم منه ولا خلاص ولا نجاة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والشرك.

﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من خيرات وأموال.

﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لجعلته فديةً لها من العذاب.

ولكنَّها لا تملكُ ما تفدي به نفسها، ولو ملكت الفدية فلا تُقبل منها، ولا تنفعها شفاعة. فبادروا إلى الإيمان في فسحة الحياة قبل فوات الأوان، وقبل أن يحرق الأسى قلوبكم، ويعقد الخوف ألسنتكم:

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ إنها الحقيقة التي لا بدَّ منها، ولهذا جاء

التعبير عنها بصيغة الماضي تأكيداً لها، فالقوم بهتوا ودهشوا عندما رأوا العذاب، فلم يقدروا أن ينطقوا، فما كان منهم إلا أن أسروا الندامة.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وسبق أن قلنا: إن الظلم لا يكون من الله تعالى أبداً، والقوم ظلموا أنفسهم بكسبهم واختيارهم.

ومما يؤكِّد صدق الوعد أنه صدر عن مالك السموات والأرض:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فوعده ثابت لا محالة.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لسوء استعدادهم، واستيلاء الغفلة عليهم بسبب اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها وانهماكهم بها، كما مرَّ معنا.

وهو سبحانه الذي يتصرَّف في ملكه، فلا يحدث في ملكه شيء لا يريده:

﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وخصَّ الإحياء والإماتة بالذكر لما لهما من صلة بوعده سبحانه بالبعث والنشور، فقال بعد ذلك:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الرَّابِعُ

# أحْوَالُ السُّعَدَاءِ والأشْقِيَاءِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ

أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ
بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ
ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا
يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ
إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى
ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾
۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ
قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا
ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى
شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾».

وتعود بنا الآيات للمرة الثالثة إلى رحاب القرآن الكريم، لتحدِّثنا عن جانب آخر في القرآن الكريم غير ما تقدم.

ففي **المرَّة الأولى**: بيَّنت لنا الآيات **علاقة النبي ﷺ بالقرآن الكريم**، وأنه عليه الصلاة والسلام يتلقَّى القرآن بالوحي من الله تعالى وأنَّه متبع له، ولا دخل له فيه، فلا يستطيع تغييره أو تبديله، أو تقديم نزوله عليه أو تأخيره.

وفي **المرَّة الثانية**: تحدَّثت الآياتُ عن **إعجاز القرآن الكريم**، وبيَّنت بعضَ أوجه الإعجاز فيه، وأنَّه المعجزة الكبرى المؤيدة للنبي ﷺ.

وأما في **المرَّة الثالثة**: فتحدثنا الآيات عن **آثار القرآن الكريم** الطيِّبة في

قلوب ونفوس المصدِّقين به والمذعنين لشرعه ونهجه؛ فهم السعداءُ بالقرآن الكريم، وأما المعرضون عنه فهم الأشقياء به.

• **أسباب السعادة:**

وتبدأ الآيات بنداء موجَّه إلى جميع الناس، فرسالة القرآن عامة شاملة لكلِّ الناس:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: قد جاءكم كتاب من الله تعالى يتصف بأربع صفات رئيسة:

١ ـ **فالقرآن واعظ** بما فيه من زواجر عن المعاصي والآثام.

٢ ـ ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ **والقرآن شافٍ** لما في الصدور من الأمراض المعنوية الخطيرة، كالكفر، والشك، والنفاق، والجهل.

وإنه لتعبير عجيب عن حقيقة عميقة، كما قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ هذا القرآن شفاءٌ لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء، إنه يدبُّ في القلوب فعلاً دبيب الشفاء في الجسم المعلول، يدبُّ فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب، ويدبُّ فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقِّي الفطرية، فتهتزُّ وتتفتَّح وتتلقى وتستجيب، ويدبُّ فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية، ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تسكب الطمأنينة في القلوب»[١].

٣ ـ ﴿وَهُدًى﴾ وفي **القرآن هداية ورشاد** إلى الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٨٠٣.

٤ ـ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه أيضاً **رحمة من الله تعالى للمؤمنين**، تنزل عليهم عندما يتلون آياته ويتدبَّرون كلماته.

عن **أبي هريرة** ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلونَ كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلتْ عليهم السكينةُ، وغشيتهمُ الرحمةُ، وحفَّتهمُ الملائكةُ، وذكرهم اللهُ فيمن عنده**» [رواه مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (١٤٥٥)].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وهكذا جمع الله تعالى في القرآن الكريم كل أسباب السعادة في الدنيا والآخرة: ففيه **الموعظة**، **والشفاء**، والموعظة تهذِّب النفوس من آفاتها، والشفاء يطهِّر القلوبَ مما يلحقها ويدنِّس صفاءها، كما أنَّ في القرآن شفاءً بإذن الله من أمراض الأجسام وأسقامها.

ثم بعد ذلك فيه **الهداية** إلى أقوم طريق: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وفوق كل ذلك **الرحمات الربانية** التي يفيضها الله تعالى على عباده المؤمنين عندما يكونون متحلِّقين حول مائدة القرآن الكريم يتلونه ويتدارسونه.

- **الفرح بفضل الله ورحمته:**

بهذا ينبغي أن يكون فرح المؤمنين:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ وهو القرآن الكريم، إذ هو فضل عظيم من الله تعالى، ورحمة جليلة وكبيرة.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: عليكم أن تغتنموا ما في القرآن الكريم من الفضل والرحمة، فتقبلوا عليه فرحين به، مسترشدين بهديه، متمسكين بشرعه.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الزائل.

أو: عليكم أن تفرحوا بالنعمة، لأنَّها من فضل الله ورحمته، لا من حيث كونها نعمة، وحينئذٍ يكونُ فرحكم بالمنعم لا بالنعمة، وتتعلَّق قلوبكم بالله تعالى وحده، وهذا خير لها من التعلُّق بحطام الدنيا الزائل، والذي تشوبه الأكدار والمنغِّصات.

- **حاجة الناس إلى الشريعة الإسلامية:**

وممَّا يؤكِّد شدة حاجة الناس إلى هدي القرآن وشرعه، ما كان عليه الناس في الجاهلية؛ وما هم عليه الآن أيضاً؛ من فوضى في التشريع، وخاصة في مجال التحليل والتحريم، فقد حرَّم أهل الجاهلية على أنفسهم كثيراً من الرزق الطيب الذي أنعم الله به عليهم:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي: أخبروني عما أنعم الله عليكم من رزق، فحرَّمتم بعضه، وأحللتم بعضه، وذلك كقولهم: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

فعلى أي أساس صدر هذا التحريمُ والتحليلُ؟! وما القواعد التي جعلتكم تحرِّمون هذا وتحلون هذا؟!.

إنَّ التحريم والتحليل في شريعة الإسلام قائمٌ على قواعد وأسس واضحة، استهدفت سعادة الإنسان وسلامة دينه وبدنه، فكلُّ حكم من أحكام الشريعة مرتبط بأصول وقواعد، ولهذا لا تجد فيها تعارضاً واختلافاً، بل إنها تتفق فيما

بينها، ويكمِّل بعضها بعضاً وتتلاءم مع طبيعة الإنسان وحياته، وتلبي كلَّ حاجاته التشريعية في كلِّ زمان ومكان، وهذا ما تتميز به الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع والقوانين الوضعية، وعندما يبتعد الناس عن شريعة الله تعالى يقعون في الفوضى التشريعية، وتظهر شدة حاجتهم إلى شريعة الله تعالى، وفضله سبحانه عليهم بإنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟! فلا تشريع ولا تحليل ولا تحريم إلا من عند الله تعالى بواسطة الوحي الذي ينزل على رسول الله ﷺ.

ولهذا توعَّدت الآيات أولئك الذين يرفعون أنفسهم إلى مقام التشريع والتحليل والتحريم:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾، ما ظنُّهم أن يصنع بهم ربهم يوم القيامة وقد كذبوا عليه سبحانه؟!.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإنزال أفضل الشرائع وأكملها وأكثرها سماحة ورحمة وملاءمة لمصالح الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه، بل يعرضون عن دينه وشريعته إلى ما يستحدثون من تشريعات متهافتة وقاصرة، لا تلبي حاجاتهم، ولا تلائم فطرتهم.

- **كمال علم الله تعالى:**

وكمال الشريعة من كمال علم مُشَرِّعها، ولهذا فإنَّ شريعة الله تعالى كاملةٌ لكمال علمه سبحانه الذي وسع كل شيء:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ والخطاب للنبيِّ ﷺ، **والشأن**: الخطب والأمر والحال، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور(١).

ولما كانت تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن أعظمَ الشؤون، لأنَّه كان يتلوه للتبليغ والعبادة، خصَّه سبحانه بالذكر، فقال:

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تتلو مما أنزل الله عليك من قرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وهو خطاب شامل لسائر العباد برّهم وفاجرهم.

وروعي في كلا الخطابين ما يليق به، ففي خطاب النبي ﷺ جاءت كلمة «الشأن» ولا تقال إلا لما يعظم من الأعمال والأحوال، لأنَّ عمل العظيم عظيمٌ، وفي الخطاب الثاني جاءت كلمة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأنها شاملة للعمل الجليل والحقير(٢).

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: إلا كنا عليكم رقباء مُطَّلِعين على أعمالكم حافظين لها.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ حين تدخلون في العمل وتتلبسون فيه.

**والإفاضة**: الدخول في العمل مع الانشراح والانبساط فيه.

فالله سبحانه شاهدٌ علينا ونحن نقوم بأي عمل من الأعمال، كما أنه سبحانه في سابق علمه قد أحاط بنا وبأعمالنا:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يغيب عن علمه سبحانه وبصره وزن ذرة في أي مكان كانت، في السماوات أو في الأرض.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٢٦٥.

(٢) انظر: روح المعاني: ٤/ ١٤٤.

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ ولا يغيب عن علمه سبحانه وبصره ما هو أصغر من الذرة أو أكبر منها.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ وهي أيضاً مكتوبة في لوح القدر الذي كتب فيه سبحانه كل المقدرات التي سبق بها علمه، وتعلَّقت بها إرادته، فكيف تغيب عنه سبحانه؟! فهو كقوله ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فسبحان من أحاط علمه بأوراق الأشجار، وقطرات الأمطار، وحبَّات الرمال، وكل ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار!.

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من صلة كبيرة بموضوع القضاء والقدر، فأعمالنا كلُّها من خير وشر سبق بها علمه قبل أن تكون، وعندما تكون، فهو سبحانه يعلَمنا ويرانا ونحن نعملها، ولا نعملها إلا بمشيئته، فلا يحدث في الكون شيءٌ لا يريده سبحانه، فإرادته سبحانه نافذة في كل المكونات، وإحاطة علمه سبحانه لأعمالنا وإرادته لها لا ينفي اختيارنا وكسبنا لها.

ولا يخفى أيضاً ما للآية من أثر عميق على نفسية الإنسان المؤمن وهو يستشعر رقابة الله تعالى عليه في كل أحواله وأعماله، ورحم الله ابن كثير عندما ختم تفسيره لهذه الآية بالحديث الشريف:

قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)][(١)].

- **السعداء أولياء الله تعالى:**

وعلمه الأزلي سبحانه لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وما تعلقت به إرادته سبحانه على وفق علمه لا يتغير ولا يتبدل، وقد علم سبحانه أنَّ الناس بما جعل لهم من إرادة واختيار وكسب سيكونون فريقين: سعداء وأشقياء.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/١٩٩.

والسعداء هم أهل الإيمان والتقوى، هم أولياء الله الذين لهم قَدَمُ الصدق عند ربهم، وهم الذين يفرحون بفضله ورحمته، ويتمسَّكون بشريعته، ويتَّعظون بمواعظه، وهم الذين قال فيهم:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ففرحهم بالله تعالى ورحمته وفضله غلب على قلوبهم، فلا يلتفتون إلى ما يجمعه غيرهم من حطام الدنيا ويتنافسون عليه، فلا يخافون أن يفوتهم شيء من الدنيا، ولا يحزنون عليه إذا فاتهم.

أو إنهم لا يخافون من حصول ضارِّها، ولا يحزنون من فوات نافعها.

أو إنَّهم لا يخافون ولا يحزنون يوم القيامة، لأنهم يكونون في حمايته وكنفه، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

أو إنهم عند الموت لا يحزنون على مفارقة الدنيا، ولا يخافون مما يستقبلون من أمور الآخرة بسبب ما تحمل لهم ملائكة الرحمة من البشارة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقد يكون المعنى المراد شاملاً لجميع هذه المعاني ولمعانٍ أخر يعلمها سبحانه، **وما ذكره الشوكاني** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «والمراد بنفي الخوف عنهم أنَّهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم، لأنَّهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظنٍّ بربهم»[١] **فهو غير صحيح**، ويجانب الصواب، لأنَّ الخوفَ من الله تعالى يغلب على قلوب الأولياء والصالحين، وكلَّما ازداد العبد قرباً منه تعالى زاد خوفه

(١) فتح القدير: ٣/ ٤٥٧.

وخشيته منه سبحانه، مع قوة رجائه برحمته سبحانه وفضله، وقد وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

وقال أيضاً فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون].

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فكيف خفيت عليه؟!.

- **صفاتهم:**

ثم وصفهم سبحانه بقوله:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وأصل معنى (**الولي**) من الولاء، وهو القرب والنصرة، فولي الله هو الذي يتقرَّب إلى الله تعالى بطاعته مع اجتناب معاصيه ومحارمه، ومن كان كذلك فإنَّ الله تعالى يقرِّبه ويعينه ويوفِّقه وينصره.

كما جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إليَّ مما افترضتُ عليه، ولا يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصِرُ به، ويدَهُ التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشِي بها**» الحديث [رواه البخاري (٦٥٠٢)].

فالولي يحبُّ الله تعالى، ويحبه الله سبحانه، ويحفظ له حواسه وجوارحه، فلا يستعملها الولي إلا في ما يُرضي الله سبحانه، أو المراد أنه سبحانه يوفِّقه في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وييسِّر عليه استعمالها في طاعته، ويحميها عن مواقعة المعاصي والآثام.

والحديث يدلُّ على وجوب احترام الأولياء، والتأدب معهم، والحذر من إيذائهم. والتقوى هي علامتهم التي بها يُعرفون، فكل من كان تقيّاً كان لله وليّاً،

فهم الذين يتولَّونه سبحانه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، وأعظم كرامة يكرمهم الله تعالى بها أن يوفقهم لطاعته والاستقامة على شريعته، ولهذا قالوا: الاستقامة عين الكرامة.

ولا يلتفت الأولياء إلى خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على أيدي بعضهم، ولا يريدون صدورها على أيديهم إلا إذا تضمَّنت مصلحةً للمسلمين خاصةً أو عامةً، ويخافون أن تكون استدراجاً من الله تعالى أو تشغلهم عنه سبحانه.

وخوارق العادات ليست دليل الولاية، فالله سبحانه يخلقها على أيدي الصالحين وغير الصالحين، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة: أن الله سبحانه يخلق على يد الدجال عندما يظهر قُبيل قيام الساعة كثيراً من خوارق العادات استدراجاً له، وابتلاءً للناس به.

- **الرؤيا الصالحة:**

ثم بيَّن سبحانه بعض ما أولاهم من الخير في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ والبشرى في الدنيا هي **الرؤيا الصالحة**، يراها المؤمن أو تُرى له.

كما جاء في الحديث الشريف: عن **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «**هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له**» [أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥ و٤٥٢) والترمذي (٣١٠٥) وابن ماجه (٣٨٩٨)].

**والرؤيا الصالحة**: هي الصادقة التي تكشف عن بعض الوقائع المستقبلة، والتي فيها خير ومسرَّة لمن رآها أو رؤيت له، وقد عدَّها النبيُّ ﷺ جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة لصدقها وتحققها.

فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوَّة**» [رواه البخاري (٧٠١٧) ومسلم (٢٢٦٣) واللفظ له].

ولا يكونُ جزءُ النبوةِ نبوةً، فالمراد أنها من صفات وشمائل النبوة، ووجه تخصيص هذه الأجزاء العددية أنه عليه الصلاة والسلام مكث يوحى إليه في المنام ستة أشهر، ثم نزل عليه الوحي، واستمرَّ ثلاثاً وعشرين سنة، فهي إذن بالنسبة له عليه الصلاة والسلام جزء من ستَّة وأربعين.

وجاء أيضاً: أنَّ المراد من البشرى في الحياة الدنيا: **الثناء الحسن**.

فعن **أبي ذر** رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرجلَ يعمَلُ من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**» [رواه مسلم (٢٦٤٢)].

فثناء الناس عليه من غير تعرُّض منه لثنائهم دليل على رضا الله عنه.

وأما البشرى في الآخرة فهي الجنة كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: لا تغيير لأقواله سبحانه، ومنها ما وعد به أولياءه في كتابه وبواسطة رسله.

فهي قَدَمُ الصدق التي أمر النبيُّ ﷺ أن يبشِّر بها المؤمنين، كما مرَّ معنا في أول السورة، وهي السعادة التي قدَّرها لهم سبحانه في سابق علمه وكتبها في اللوح المحفوظ، وبها يتحقق لهم الفوز العظيم:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

- **الأشقياء:**

وأما الأشقياء فهم الذين جاء النبيُّ ﷺ لينذرهم بغضب الله وعذابه، وليقيم حجَّته سبحانه عليهم، وهم الذين عانى رسول الله ﷺ كثيراً من عنادهم وإعراضهم:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

فهو سبحانه السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، والمالك لجميع المخلوقات.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولا يصلح المخلوق المملوك أن يكون ندًّا لله تعالى وشريكاً.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ على الحقيقة، وإن كانوا يسمُّونهم شركاء.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون إلَّا الظن والوهم الذي لا حقيقة له.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلَّا يكذبون.

ومن الأدلة على وحدانيته سبحانه وكمال قدرته وعظيم فضله ورحمته أنه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه من عناء العمل والحركة.

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: مضيئاً.

فالليل والنهار من أعظم الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته وكمال قدرته، فتدبير نظام الليل والنهار بهذا الشكل الدقيق المحكم الثابت المستمر يدلُّ على وحدانيته سبحانه وعظمته، كما يدل على حكمته ورحمته، فهو من نعمه الكثيرة التي أفاضها على مخلوقاته عموماً، وعلى الإنسان خصوصاً، الذي

يحتاج إلى سكون اللَّيل لراحته، كما يحتاج إلى ضوء النهار لسعيه واكتسابه، ولهذا جاء التذكير بالليل والنهار في آيات كثيرة وبأساليب متنوعة.

وجاء هنا بأسلوب الخبر الصادق ليتناسب مع ما تقدَّمه من حكاية أوهام المشركين وأكاذيبهم وظنونهم الخائبة، ومن شأن العاقل أن يُصغي للخبر الصادق، ويفتح له سمعه ليعرف الحقائق التي يحملها، ألا ترى أنَّ الله ختم الآية بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع اعتبار وتذكُّر.

**• الكذبة الكبرى:**

وثمة نوع آخر من الأشقياء، وهم الذين وصفوا الله سبحانه بصفات لا تليق بكماله سبحانه ووحدانيته، فنسبوا إليه سبحانه الجزئية والولد، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وهو الفرد الصمد، والواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، والذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١]:

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ﴾ تقدست ذاته، وتسامت صفاته.

﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ﴾ عن كل شيء.

فاتخاذ الولد من صفات المخلوقين، وهو دليل حاجتهم وفنائهم، أما القديم أزلاً، والباقي أبداً، والقيُّوم على كل شيء، فهو الغني، ولا غنى على الحقيقة إلا غناه، لأن الكلَّ محتاج إليه سبحانه قائم به.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فالكل ملك له سبحانه، فكيف يتخذ منهم ولداً؟!.

إنها دعوى باطلة كاذبة لا يؤيدها عقل ولا نقل:

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ﴾ أي: ما عندكم من حجَّة ولا برهان.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كيف تتجرؤون على الله تعالى، وتصفونه سبحانه بصفات لا يؤيدها عقل ولا نقل ولا علم؟!.

إنها الكذبة الكبرى التي لا فلاح ولا نجاح لكل مَنْ يقول بها:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وكيف يفلحون وهم يكذبون على الله تعالى؟!.

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وتمتُّعهم ببعض حظوظ الدنيا كما هو مشاهدٌ عند بعضهم، قليل وقصير، ومليء بالمنغِّصات والمكدِّرات.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم مصيرهم إلى الله تعالى الذي حكم عليهم بالعذاب الشديد:

﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

• **الإنذار الأخير:**

ثم أوردت الآياتُ نماذج للأشقياء والسعداء، وكان اختيارها لهم دقيقاً متلائماً تماماً مع موضوع السورة كما سيظهر لنا.

وبدأت **بقوم نوح** كنموذج للأشقياء، فذكرت الحلقة الأخيرة لقصة نبي الله نوح عليه السلام معهم، ومن المعلوم أنَّ نوحاً عليه السلام مكثَ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، مما يدلُّ على أنَّ أعمار قومه كانت طويلة، وأنَّهم عُمِّروا في الحياة الدنيا زمناً كبيراً، ثم بعد هذا العمر المديد جاءهم العذاب، فأُغرقوا بالماء بسبب إصرارهم على الكفر، وتكذيبهم لنبيهم نوح عليه السلام، فما قيمة حياتهم المديدة وقد انتهت بالعذاب الذي لن ينقطع عنهم أبداً؟!.

فبعد إغراقهم أتاهم عذابُ البرزخ في النار، ثم يوم القيامة يخلدون في

جهنم، قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]، والفاء في ﴿فَأُدۡخِلُواْ﴾ تدل على التعقيب، أي: جاءهم عذاب البرزخ في النار بعد هلاكهم بالغرق.

فالدنيا إذن متاع قليل مهما طالت وامتدت:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ على المصرِّين على الكفر والشرك.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبر نوح مع قومه الذين هم أمثال قومك في العناد والكفر.

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عَظُمَ وشقَّ.

﴿عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ أي: قيامي بتذكيركم ووعظكم. وهذا يدلُّ على أنَّ قوله هذا كان المواجهة الأخيرة مع قومه والإنذار الأخير لهم.

﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إياكم.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على وحدانيته.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ لا على غيره، فافعلوا ما بدا لكم.

﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ أي: أجمعوا كلَّ ما تقدرون عليه للتخلص مني.

﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ مع شركائكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي: مستوراً.

فما كان عليه السلام يبالي بمكرهم وكيدهم سواء كان مستوراً أو ظاهراً.

﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أي: نفِّذوا وحقِّقوا ما عزمتم عليه.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلوني، وهذا يدلُّ على أنه عليه السلام بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى كما بلغ الغاية أيضاً في تحدِّيهم.

• **الجناة على أنفسهم:**

ولم ينسَ عليه السلام في كلماته الأخيرة لقومه أن ينزِّه دعوته عن الأغراض الدنيوية ومتاعها الرخيص، فقال:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أصررتم على إعراضكم وعنادكم.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ يستوجب إعراضكم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ما أجريَ إلا على الله، فدعوة الأنبياء أسمى من الدنيا كلِّها لأنها من الله وإلى الله.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين الخاضعين لأمره سبحانه وحكمه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه، مع أنه عليه السلام ما ترك سبيلاً لإقناعهم إلا سلكه، كما جاء في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح].

وبقي ألف سنة إلا خمسين عاماً يسلك معهم كلَّ هذه الأساليب، والنتيجة:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ من المؤمنين.

﴿فِي الْفُلْكِ﴾ في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ عن الهالكين.

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ﴾ نظرَ التدبر والاعتبار.

﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذرهم وحذرهم، وعمرهم عمراً كافياً ليتذكَّروا ويتَّعظوا، ولكنهم أصرُّوا واستكبروا استكباراً، فهم الجناة على أنفسهم بسوء كسبهم واختيارهم.

والإنسان هو الإنسان، لا يتغير، ولا يتبدَّل، مهما تعاقبت الأجيال، وتجددت الأيام، ولا يزال عنادُ قوم نوح وإعراضهم عن الحق المؤيد بالبينات، باقياً عند كثير من الناس، يتوارثونه جيلاً عن جيل حتَّى عصرنا الحاضر، ولقد عانى الأنبياء بعد نوح عليه السلام من عناد أقوامهم وإعراضهم كما عانى نوح عليه السلام.

• **الطبع على القلوب:**

قرَّرت هذه الحقيقة الآية الكريمة التي سلكت الأنبياء الذين أرسلهم الله من بعد نوح حتى عهد موسى وهارون في خبر واحد:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كلُّ رسول إلى قومه.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدقهم.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرُّنهم عليه قبل بعثة الرسل، استمروا على حالهم هذه بعد بعثة الرسل، كأن لم يُبْعَثْ إليهم أحد(١).

أو: إنهم لم ينتفعوا بالبيِّنات، فكذَّبوا رسلَهم بعد مجيء البيِّنات كما كذَّبوهم من قبل(٢).

لكنَّ قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ يتفق مع المعنى الأول أكثر من المعنى

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٣/ ٢٧٥.

(٢) تفسير الخازن: ٣/ ٢٧٥.

الثاني، فللعادات والتقاليد التي اعتاد عليها الإنسان تأثيرٌ كبيرٌ عليه، لقد ألف القوم الكفر والضلال، وطال عليهم الأمد فيه، فأصبحت قلوبهم قاسيةً، لا تنكرُ منكراً، ولا تعرف معروفاً، ولا تتأثر إلا بأهوائها وشهواتها، فهي القلوبُ التي طبع الله عليها بسبب إسراف أصحابها في المعاصي والآثام.

انظر إلى قوله تعالى يبيِّن سبب قسوة قلوب أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ في المعاصي والآثام، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

ولهذا كان اليهود من أهل الكتاب يقولون للنبيِّ ﷺ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: مغلقة ومغلَّفة ومطبوع عليها، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

فتغليف القلوب والطبع عليها من الله تعالى وبمشيئته، إلا أنه بسبب اختيارهم للمعاصي وكسبهم لها: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

- **فرعون وملؤه:**

وهم الأنموذج الثاني للأشقياء، ولما وصلت الآيات إلى **قصة موسى وفرعون** وقفت عندها، ففصَّلت بعض وقائعها، وأضافت عليها حلقةً جديدةً، انفردت بها السورة، فلم تُذكَر في غيرها، ولعل سرَّ التفصيل في قصة موسى وفرعون أن اتصالها بموضوع السورة أكثر وأظهر ممَّا سبقها، وخاصة الحلقة الأخيرة الجديدة فيها.

عاش فراعنة مصر حياة ترف وسرف وبذخ ما عُرف لها مثيل في الحضارات القديمة، وإنَّ آثارهم الباقية حتى الآن تدلُّ على ذلك، فلا تزال هذه الآثار شواهد صدق على مدى الترف الذي كانوا عليه، لقد كان متاعهم في الحياة الدنيا كبيراً بالنسبة لمتاع غيرهم فيها، وأما بالنسبة للآخرة ونعيمها فهو قليل وحقير، وخاصة بعد أن نزل بهم العذاب والهلاك.

ويبدو أنَّ فرعون موسى بلغ الغاية القصوى في الترف والسرف، والقوة

والسلطان، والبطش والطغيان، فأرسل الله تعالى إليه رسولين كريمين ليبلِّغاه وقومه رسالة الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ الذين يملؤون العين بمظاهر الغنى والقوة المحيطة بهم.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالمعجزات التسع التي أيَّد الله تعالى بها موسى وهارون عليهما السلام، وكلّ معجزة كافية لإظهار صدقهما في دعوتهما.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: تكبَّروا وأُعجبوا بأنفسهم وبقوَّتهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟﴾ عن المعجزات:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فردَّ موسى عليهم مستنكراً وموبِّخاً:

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

فلا فلاح لمن يمارس السحر.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفنا.

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾؟ إنَّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد أو لغيرهم من أكبر المعوِّقات التي تقف في وجه الإصلاح والمصلحين في كل زمان ومكان.

وأول ما يسارع المبطلون إلى الاحتجاج بها، ثم يكيلون التهم لدعاة الإصلاح بأنهم لا يقصدون الإصلاح، إنما يقصدون أن يحلوا محلَّهم في سلطانهم ومُلْكهم:

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم يعلنون بكل وقاحة وتبجح:

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدِّقين.

ثم تحدَّثت الآيات بعد هذه المواجهة عن مواجهة ثانية بين موسى ﵇ من جهة، وبين السحرة الذين جمعهم فرعون واستعان بهم من جهة ثانية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

بفنون السحر.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

واجه موسى السَّحَرة بكل هذه الثقة والتحدي.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ ما ألقوا من العصي والحبال.

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾، فلا يبقى له أثراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فالمفسدون لا يكون منهم إصلاح أبداً، ولا بقاء لفسادهم، لا بد أن يمحقه الله تعالى ويزيله.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره سبحانه وأحكامه، أو بكلماته التكوينية، أو بما سبق من قضائه وقدره.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لأن إرادته سبحانه هي النافذة، وقدرته هي الغالبة.

ولم تتحدَّث الآياتُ عن نتائج المواجهة، إذ عُرفت النتيجة من خلال إظهار قوة الحق وسلطانه الغالب القاهر، وضعف الباطل وفساده.

• **المحنة:**

وانتقلت الآيات تتحدَّث عن محنة المؤمنين الذين استجابوا لدعوة موسى، فوصفتهم بأنهم كانوا من شباب بني إسرائيل، وأنهم آمنوا رغم خوفهم من بطش فرعون:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشراف وأغنياء بني إسرائيل، فإنهم كانوا يمنعون الشباب عن الإيمان خوفاً على أموالهم ومصالحهم من انتقام فرعون، وهو أمر واقع ومشاهد في كل عصر ومصر، فإنَّ كثيراً من أصحاب الوجاهة والمراتب يعرضون عن الحق ويدافعونه حماية لمصالحهم ومراتبهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْۚ﴾ أي: يصرفهم ويصدَّهم عن الإيمان، فالخوف لم يكن على أنفسهم، إنما كان خوفهم على دينهم وإيمانهم، فالبلاء كان كبيراً، والمحنةُ شديدةً، والسبب ما كان عليه فرعون:

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ متكبر ومتجبر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد.

ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يتمنَّى البلاء، ويعرِّض نفسه له، بل عليه أن يسأل الله تعالى العافية والسلامة لدينه ونفسه، فإنه لا يدري كيف يكون حاله عند نزول البلاء، فلعله لا يثبت فيفتن عن دينه، أما إذا نزل به البلاء فعليه الثبات مستعيناً بالله سبحانه ومتوكلاً عليه، وهذا ما نصح به موسى عليه السلام المؤمنين:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ فثقوا به سبحانه واعتمدوا عليه.

﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ حقاً لله تعالى.

﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره، ثم توجهوا بالدعاء إلى الله تعالى قائلين:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تسلِّطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، أو لا تجعلنا موضع فتنة لهم، فيتسلَّطوا علينا، ويزدادوا طغياناً وكفراً ويقولوا: لو كنتم على حق ما سُلِّطنا عليكم.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

- **الكيس والعجز:**

والتوكل على الله تعالى لا ينافي الأخذ بالأسباب، والدعاء سبب للمقصود، فمن أخذ بالأسباب، واعتقد أنَّ الله هو الخالق، ولا تأثير للأسباب في خلق المسببات، كان متوكلاً. ومن ترك الأخذ بالأسباب التي ينبغي له أن يأتي بها مع التمكن من فعلها كان عاجزاً.

قال رسول الله ﷺ: «**احرصْ على ما ينفعُك، واستعن بالله، ولا تعجز**» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

وقال أيضاً: «**إنَّ الله تعالى يلومُ على العجزِ، ولكنْ عليكَ بالكيسِ، فإذا غلبكَ أمرٌ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**» [رواه أبو داود (٣٦٢٧)].

**والكيس**: النباهة والتفطّن والحزم بإتيان الأسباب المشروعة الموضوعة للمسببات، وترك ذلك ليس من التوكل في شيءٍ، ولا ممَّا يقتضيه الإيمان

بالقدر، فما تراه في الناس من ذلك بحُجَّة الاعتماد على القدر إنما هو من الجهل بالشرع والقدر(١).

فالقدر لا يدلُّ على جري الأمور على محض المصادفة والاتفاق، وإنَّما يدلُّ على إجرائها على نظام خاص ووضعها على قدر معين بحيث تؤخذ المسببات من أسبابها(٢).

ولهذا أوحى الله إلى موسى أن يأمرَ قومه أن يأخذوا بأسباب السلامة والوقاية من ظلم فرعون وبطشه، مع الإكثار من عبادته والتوكل عليه سبحانه:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتخذوا في مصر المنازل والمساكن، ولعلَّ ذلك لإيهام فرعون وجنوده أن بني إسرائيل غير راغبين في الخروج من مصر مع موسى، فقد كان من جملة الأمور التي طالب بها موسى، أن يرسل فرعون بني إسرائيل مع موسى ليخرجهم من مصر، ويخلِّصهم من ظلم فرعون واستعباده لهم، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

وكان فرعون معارضاً لهذا ليبقى بنو إسرائيل مسخَّرين في خدمته وخدمة قومه.

واتخاذُ المساكن يدلُّ على الرغبة في التوطن والاستقرار، فيتوهم فرعون أن بني إسرائيل غيرُ راغبين بالخروج من مصر مع موسى، فيخفف من مراقبتهم وحراستهم.

﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلُّوا في بيوتكم، وكان من دينهم أنهم

(١) البراهين الساطعة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم[(١)].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في بيوتكم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

- **الدعوة المستجابة:**

ولما أتى موسى عليه السلام بكل المعجزات التي أيده الله بها، ورأى استكبار فرعون وملئه وإصرارهم على الكفر، وعدوانهم على المؤمنين، وبطشهم بهم، وبغيهم عليهم؛ توجَّه إلى الله تعالى يدعو مع أخيه هارون على فرعون وملئه، فلا سبيل للمظلوم المقهور إلا أن يتوجَّه إلى الله تعالى يستنصره على ظالمه، والله سبحانه الحَكَمُ العَدْلُ لا يخيِّب مظلوماً لجأ إليه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ من كلِّ شيء يتزيَّن به في الدنيا.

﴿وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ابتلاءً واختباراً لهم.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: فكان عاقبة ما أعطيتهم الضلال والإضلال.

فالله سبحانه ما أعطاهم ليضلوا، وإنما أعطاهم ليبتليهم.

**وقد يقول قائل:** لماذا أعطاهم وهو سبحانه يعلم أنهم سيضِلُّون؟!.

**والجواب:**

**أولاً:** أنَّه سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ سبحانه، ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٥] في خلقه له أيضاً.

---

(١) تفسير القرطبي: ٨/ ٣٧١.

**وثانياً**: لا يتم الابتلاء في الحياة الدنيا إلا بإمداد الناس بأسباب الابتلاء والعطاء، وتفاوت الناس فيه من أسباب الابتلاء.

**وثالثاً**: قضت حكمته سبحانه وإرادته ألا يحاسبَ الناس بمقتضى علمه سبحانه بما سيعملون، وإنما يسألهم عن أعمالهم التي عملوها باختيارهم وكسبهم.

- **الرضا بالكفر كفر:**

﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أي: أهلكها وامحقها.

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ أي: اطبع على قلوبهم، واجعلها قاسية، فلا يؤمنوا إلا إيمان اليأس والبأس الذي لا ينفعهم حين ينزل بهم العذاب الأليم.

ولا تظنن أن موسى وهارون رضيا بكفر فرعون وملئه بهذا الدعاء، فالرضا بالكفر كفر، إنما سألا الله ذلك لينتقم منهم أشد الانتقام.

ومن هذا القبيل ما جاء في الحديث الصحيح في فتح مكة: أنَّ عبد الله بن أبي سرح الذي أهدر النبيُّ ﷺ دمه، أتى به عثمان بن عفان رضي الله عنه (وكان أخاه من الرضاعة) إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله بايعه، فكفَّ ﷺ عن بيعته، ونظر إليه ثلاث مراتٍ، كلُّ ذلك يأبى أن يبايعه، فبايعه بعد الثلاث، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟**» قالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأتَ إلينا بعينك. فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين**» [رواه أبو داود (٢٦٨٣) والنسائي (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦)][(١)].

فتوقفه عليه الصلاة والسلام عن بيعته لا يعد رضاً بكفره، إنما لرغبته في الانتقام منه.

---

(١) روح المعاني: ٤/ ١٧٤.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، والخطاب لموسى وهارون، إذ شارك هارون في الدعوة بالتأمين على دعاء موسى عليه السلام.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: اثبتا على أمر الله، ولا تستعجلا، فإنَّ الإجابة كائنة في الوقت الذي يشاء الله تعالى، لا في الوقت الذي تشاءان، فمشيئته سبحانه هي الغالبة والنافذة.

﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعان طريق الجهلة في استعجال الإجابة أو عدم الثقة بوعده سبحانه.

وفي الحديث: «**يُستجابُ لأحدِكُم ما لَمْ يَعْجَلْ، يقول: قد دعوتُ فلم يستجبْ لي**» [رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥)].

- **طريق بين الأمواج:**

ولما حان الوقت الذي سبق به علمه سبحانه وتعلَّقت به إرادته لإجابة الدعوة، أمر الله تعالى موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً، وعندما علمَ فرعونُ بخروجهم خرجَ مع جنوده في أثرهم، ولما وصل موسى وقومه إلى شاطئ البحر شقَّ الله تعالى لهم بقدرته طريقاً في البحر يبساً:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: جعلهم سبحانه يجتازون البحر، ويقطعونه بالطريق الذي شقَّه لهم بين الأمواج الهائجة الثائرة، وقد أمسكتها قدرة الله تعالى على أطراف الطريق كالجبال العالية، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء]. أي: كالجبل العظيم.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلماً واعتداءً، وأعماهم الغضب والحقدُ عن رؤية الحقيقة ومعرفة المعجزة الخارقة في الطريق الذي شقَّته القدرة الإلٰهية بين الأمواج العاتية، فدخلوا فيه.

وما إن وصل بنو إسرائيل إلى اليابسة حتى أمر الله تعالى الأمواج الهائجة المزبدة أن تطبق على فرعون وجنوده وأسلحته ومراكبه وزينته.

• **أدركه الغرق:**

وتمزَّقت جيوشُ الطاغية، وضاعت بين الأمواج، عندئذ عرف المتجبر المتكبر نفسه، وأدرك ضعفه وعجزه، ولمَّا أدركه الغرق ويئس من النجاة، وأيقن بالهلاك:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ يا لروعة التعبير ودقة التصوير! ﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ الطالب صار مطلوباً، تغير الموقف في لحظات، فقد كان فرعون طالباً لبني إسرائيل، جادّاً في أثرهم، وهاهو بين الأمواج أصبح مطلوباً من قبل الهلاك والغرق، ولا نجاة له منه، فقد أدركه وأحاط به من كل جانب.

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

إنه إيمان البأس واليأس، إيمان القهر والإلجاء الذي لا يقبله الله تعالى، ولا ينفع صاحبه، الإيمان المجرَّد عن الكسب والاختيار، ولهذا قيل له تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات.

﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بطغيانك وظلمك، وادعائك صفة الربوبية والألوهية، عندما كنت تقول: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ فقط، وهو تهكُّم مرٌّ بمن كان يدعي لنفسه صفة الربوبية والألوهية، فنلقي بدنك على ساحل البحر جثة هامدة لا روح فيها، أو على نجوة مرتفعة من الأرض.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أي: لتكون لمن يأتي بعدك عبرة وموعظة، تبيِّن لهم أن الإنسان مهما تجبَّر وطغى فإن الله تعالى ينتقم منه.

والعجيب أنَّ كثيراً من الناس لا يتعظون، ولا تزال الإنسانية تعاني من ظلم وطغيان الطغاة، كما جاء في خاتمة الآية:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ بسبب انهماكهم بالدنيا وشهواتها.

- **لا نجاة لفرعون من العذاب:**

وقد تعلَّق بعضهم بهذه الآية، فقالوا بإيمان فرعون ونجاته، وأنه سبحانه لم يزدْ على أن عاتبه وبكَّتَهُ بقوله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وقد ردَّ عليهم الشيخ محمد الحامد رَحِمَهُ اللَّهُ، وجاء في ردِّه: «قالوا ذلك غافلين عن قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]، فإيمانه إيمان يأس غير مقبول.

ثم ماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود].

أفيقدمهم إلى النار ويوردهم إياها ثم يعود أدراجه إلى الجنة، ما هذه المهزلة التي يتنزَّه عنها القرآن؟!.

وماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥] أليست الأولى هي الدنيا، والآخرة هي يوم القيامة وما بعده؟!.

على أن هناك آيات أخرى قاطعة لشبهتهم، وليس بعدها مجال لقائل، ولا اجتهاد لمجتهد، إذ الاجتهاد في موارد النصوص ممنوع، وليس لأحد مع الله كلام فيما قضاه: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص].

فهل بقي شك في كفر فرعون وجنوده؟!»[1].

وقال الآلوسي رحمه الله: «ولهذه الآية وأشباهها وقع الإجماع على كفر المخذول، وعدم قبول إيمانه، ويشهد لذلك أيضاً ما رواه ابن عدي والطبراني: من أنه ﷺ قال: «**خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً**» فهو من أهل النار المخلدين فيها بلا ريب»[2].

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما قال فرعون: آمنت أنه لا إلٰه إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل، قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذتُ من حال البحر (طينه الأسود) فدسستُ في فيه مخافة أن تناله الرحمة**» [رواه أحمد (١/ ٣٠٩) والترمذي (٣١٠٧) وحسنه].

وهو من قبيل الرغبة بالانتقام منه، لا من قبيل الرضا بكفره، وقد مرَّ معنا منذ قليل ما يماثله.

### • ماذا يبقى من الإنسان إذا تجرَّد عن اختياره؟!:

وهكذا استجاب الله تعالى لدعوة موسى وهارون، وأهلك فرعون وجنوده

---

(١) انظر: العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

(٢) روح المعاني: ٤/ ١٨٤.

ونجّى بني إسرائيل من طغيانه وظلمه، وأنعم عليهم بنعم كثيرة، فكيف قابلوا نعم الله عليهم؟.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: منزلاً صالحاً مرضيّاً.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الخيرات النافعات.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: جاءهم ما كانوا به عالمين، فقد كانوا قبل مبعث النبيِّ ﷺ مقرين به، مجمعين على نبوَّته، غير مختلفين فيه، لِمَا يجدونه مكتوباً عندهم من صفاته عليه الصلاة والسلام، فلما بُعِثَ اختلفوا فيه، فآمن به عددٌ قليل منهم كعبد الله بن سلام، وكفر أكثرهم به بغياً وحسداً[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل.

فكما جحد فرعون وملؤه المعجزات التسع الحسِّية التي أيد الله بها موسى وهارون، ولم يؤمن إلا عندما يئس من الحياة، كذلك جحد أكثر أهل الكتاب آيات التوراة والإنجيل التي تحدَّثت عن خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وجحد المشركون في مكة أيضاً آيات القرآن الكريم وما فيها من بلاغة وإعجاز، فلماذا الجحود؟! ولماذا الإنكار؟!.

تلك هي مشكلة الإنسان مع الحق، وليس المشكلة في غموض الحق أو خفائه، الحق واضح ظاهر، لا لبس فيه ولا غموض، ولكن المشكلة قائمة في نفس الإنسان، ونابعة من داخله، فهو مصدرها، وعليه تقع تبعاتها ونتائجها.

لماذا لا يُقبِل أكثر الناس على الحق بإرادتهم واختيارهم؟! لماذا يعرضون عنه وهم مختارون، ويقبلون عليه وهم مقهورون مجبورون كما فعل فرعون؟! إذن فليجرَّد الإنسان من إرادته واختياره وكسبه، وليُقْهر على الحق ويُجبر عليه،

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٣/ ٢٨٦.

فلتذبح إرادة الإنسان وليُضَحَّ باختياره من أجل الحقِّ، وليصبح الإنسان بلا إرادة ولا اختيار، عندها يفقد العقل قيمته، لأنَّه آلة التمييز والاختيار عند الإنسان، فماذا يبقى بعد ذلك من الإنسان؟!.

يصبح الإنسان بعد ذلك كمّاً مهملاً، لا تكريم له ولا تشريف، ولا تدبُّر له ولا نظر، وبالتالي لا تكليف ولا نبوات ولا رسالات، ويصبح الإنسان بهذا التصور زمرة من زمر الحيوانات التي تعيش على هذه الأرض، بل يصبح إيجاد الخلق وإبداع المكونات لعباً وعبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٢٧].

تباركْتَ ربي مكوِّن الأكوان، وخالق الإنسان، ما أعظم حكمتك! وما أجلَّ نعمتك! خلقت الإنسان، وجعلت له إرادة واختياراً، كرمته فكلَّفته، وسخَّرت له ما في السموات والأرض ليسعدَ بعبادتك، وينعمَ بطاعتك.

- **التفاتة رائعة:**

كانت الآيات تتحدَّث عن بني إسرائيل، فالتفتت فجأةً تخاطب النبيَّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، ومهدت بهذه الالتفاتة الرائعة لمتابعة الخطاب للنبي ﷺ الذي كان يتألم ألماً شديداً بسبب إعراضهم عن الحق وجحودهم لآياته:

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾، ففي الخطاب تثبيت للنبي ﷺ، وتوبيخٌ لأهل الكتاب لتركهم الإيمان برسالته عليه الصلاة والسلام، رغم ما عندهم من الدلائل القاطعة على صدقه وصحة نبوته.

وفيه أيضاً دفعٌ لأي شك يمكن أن يطرأ على قلب أحد من المؤمنين.

نقل ابن كثير عن قتادة قوله: بلغنا أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا أشكُّ ولا أسأل**» ثم قال ابن كثير بعد ذلك: «وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلامٌ لهم أنَّ صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبِّسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم»[1].

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله حقّاً، وأنّ أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكِّين المترددين.

والشكُّ والتردد أخفُّ من التكذيب، ولهذا قال بعده انتقالاً من الأخفِّ إلى الأشدِّ:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

لابدَّ أن يظهر في كلامه سبحانه عِزُّ الربوبية وكبرياؤها واستعلاؤها، وهذا أيضاً من فوائد توجيه الخطاب للنبي ﷺ، ففيه يظهر أنَّ هذا الكلام كلام الله تعالى، وأنه لا دخل للنبيِّ ﷺ فيه إلا اتباع آياته وتبليغها للناس، فلا يعقل أبداً أن يخاطب النبي ﷺ نفسه بمثل هذا الخطاب.

- **كلمة ربك:**

وأخيراً وصلت الآيات الكريمة إلى تقرير الحقيقة الكبرى التي مهَّدت لها بما سبق من الخطاب الموجَّه للنبي ﷺ، وهي:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٠٧.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فقالوا: هي حكمه وقضاؤه سبحانه، أو كلمته التي كتبها في اللوح المحفوظ، والتي تعلَّق بها علمه سبحانه وإرادته في الأزل.

وقال شيخ المفسِّرين الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى ذكره: الذين وجبت عليهم يا محمد كلمة ربك، وهي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]؛ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ لا يصدِّقون بحجج الله، ولا يقرون بوحدانية ربهم، ولا بأنك لله رسول، ولو جاءتهم كل آية وموعظة فعاينوها. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ حتى يعاينوا العذاب الأليم، كما لم يؤمن فرعون وملؤه، إذ حقَّت عليهم كلمة ربك حتى عاينوا العذاب الأليم»(١).

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل. ثم نقل بسنده عن مجاهد وقتادة قولهما: حقَّ عليهم سخط الله بما عصوه(٢).

• **قوم يونس:**

ثم قال سبحانه على وجه التوبيخ واللوم لمن كان مثل فرعون وملئه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي: فهلَّا كانت قرية من القرى التي أهلكها الله تعالى آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينة العذاب كما أخر فرعون إيمانه، فنفعها ذلك الإيمان وقَبِلَه سبحانه.

---

(١) جامع تأويل آي القرآن: ١١/ ١٧٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي: لكنَّ قوم يونس ـ وهو من أنبياء الله أرسله سبحانه إلى أهل نينوى من أعمال الموصل في شمال العراق ـ.

﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عندما آمنوا بعد نزول العذاب بهم، قَبِلَ الله إيمانهم، ونفعهم به، فكشف عنهم عذاب الهوان والذلة في الحياة الدنيا.

وكلمة ﴿كَشَفْنَا﴾ تدلُّ على أنّ العذاب نزل بهم حقيقة، وهو رأي جمهور المفسرين.

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى انتهاء حياتهم وانقضاء آجالهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما **عاينوا أسبابه**، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرَّعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابَّهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب».

**ولا بدَّ لنا أن نتساءل**: كيف قبل سبحانه إيمان اليأس من قوم يونس، ولم يقبله من غيرهم؟!.

**والجواب**: أنه سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فإرادته سبحانه مطلقة، فلو عذَّبهم سبحانه لعذَّبهم بعدله، وعندما عفا عنهم عفا عنهم بفضله، والله يعطي فضله من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

ولعلَّ سبب هذه الخصوصية التي خصَّ الله بها قوم يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنه سبحانه علم صدقهم في إيمانهم، وإخلاصهم في توبتهم، والدليل أنهم لما رفع عنهم العذاب لم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، بل ثبتوا على الإيمان، واستقاموا على التوبة حتى انتهت آجالهم. أمَّا غيرهم من أهل إيمان اليأس فما كانوا صادقين في إيمانهم، ولا مخلصين في توبتهم، ولو أنه سبحانه قبل إيمانهم ورفع عنهم العذاب، لعادوا إلى ما كانوا عليه من طغيان وكفر.

وقد مرَّ معنا في هذه السورة بعض الأمثلة العملية لحقيقة كثير من الناس، وكيف أنهم يقبلون على الله تعالى في حال الخطر، ثم إذا نجَّاهم منه أعرضوا عنه سبحانه، وانغمسوا في حمأة الكفر والفجور، فليرجع القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ [يونس: ٢١]. وإلى قوله أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الآية [يونس: ٢٢]، ليعلم مدى الانسجام والاتفاق بين آيات السورة كلِّها وبين موضوعها الأساس.

لقد قدَّر الله سبحانه الخلود في النار لكلِّ من يموت مصرًّا على كفره وشركه، لأنهم مهما امتدَّت أعمارهم سيظلون متمسِّكين بالكفر، حتى إنهم بعد معاينة عذاب جهنم، لو ردُّوا إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وفساد وعناد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام].

فسَلِّمْ لحكمته سبحانه، وأذعِنْ لأمره، وارضَ بقضائه وقدره، تسلمْ بفضله، وتفُزْ برحمته سبحانه.

- **لا إكراه في الدين:**

ثم بيَّن سبحانه كمال قدرته ومشيئته فقال:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا تحقيقٌ لدوران إيمان جميع المكلَّفين وجوداً وعدماً على قطب مشيئته سبحانه[1].

لكنَّه سبحانه شاء أن تكون الدنيا دار تكليف وابتلاء وامتحان، فشاء

---

(١) روح المعاني: ٤/ ١٩٣.

سبحانه أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر ممن علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به[١].

وكان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن به جميع الناس، ويتابعوه على إيمانهم[٢].

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: إنَّ رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن به جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله ﷻ أنه لا يؤمن به إلا مَنْ سبقت له من الله السعادة في الذكر الأول ـ وهي قَدَمُ الصدق التي ذُكرت في أول السورة ـ ولم يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول، وفي هذا تسلية للنبيِّ ﷺ، لأنه كان حريصاً على إيمانهم[٣] كلّهم.

ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تملك أن تكرههم على الإيمان، فالإيمان لا يكون بالإكراه، إذ هو تصديقٌ وإقرارٌ، ولا بد له من إرادة واختيار، كما قال سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: بمشيئته أو بقضائه، أو بتوفيقه وتسهيله، أو بعلمه[٤]، فلا يحدث شيءٌ في ملكه من دون علمه سبحانه وإرادته.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ العذاب أو الغضب.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم، ولا يستعملونها بالنظر في الحجج والبراهين.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٩١.
(٢) تفسير الخازن: ٣/ ٢٩١.
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٩٢.

**• ميادين البحث والنظر:**

وميادين البحث والنظر والتعقل واسعة وكبيرة، وقد أعطاهم سبحانه وسائل البحث والنظر وأمرهم به:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ نظر التدبُّر والتعقل.

﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ هكذا على الإطلاق، فكل ما في السموات والأرض دلائل وبراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من التحدي مع الثقة، فلن يجد أهل البحث والنظر في السموات والأرض إلا النواميس المحكمة المتناسقة الدالة على أنها تدبير إلٰه واحد أحكمها وأبدعها، كما أنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الإسلام فتح للناس ميادين البحث والنظر على أوسع مداها، فلا حَجْر في الإسلام على فكر الإنسان، فالكونُ بكل ما فيه ميدان بحث ونظر.

﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: علم سبحانه أنهم لا يؤمنون، وما أمرهم بالنظر إلا ليقيم الحجَّة عليهم، ويبيِّن لهم نتيجة اختيارهم وكسبهم.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ والذين أنزل الله سبحانه بهم بأسه وعذابه بسبب كفرهم وعنادهم.

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

وإذا جاء الأجل المقدَّر والوقت المنتظر:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

بما سبق من وعده سبحانه بنجاتهم وفوزهم.

وهكذا لم تترك الآيات الكريمة سبيلاً من سبل إقناع الناس وتقريب حقيقة الإيمان من عقولهم وقلوبهم إلا سلكته، مما يدلُّ على أهلية الإنسان للاختيار والكسب، وأنه مزود بالإرادة والتمييز.

• **إعلان:**

وبعد كل ما تقدم أُمر النبيُّ ﷺ أن يعلن في وجوههم ثباته على الحق، واعتزازه به، وعدم تأثره بإعراضهم وعنادهم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في أي وقت مهما كانت الظروف.

إنَّ كثرة ركام الباطل وانتشاره قد يضعف من عزيمة بعض الدعاة، وينال من حماسهم في حمل الدعوة، وصمودهم في وجه تيارات الباطل، فتتزعزع ثقتهم، وتضعف مقاومتهم، ويجرفهم التيار.. فلا بد إذن من هذا الإعلان، ففيه قوة معنوية تمدُّ الداعية بالثقة والعزيمة، فلا يلين ولا يضعف، ولا يتوانى ولا يتخاذل:

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ﴾ الذي بيده حياتكم وموتكم، فهو وحده المستحق للعبادة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا مداهنة في أمر العقيدة والإيمان ولا مسايرة، فهي تكليف مفروض،وإن كانت في الأصل بالاختيار والكسب.

ثم بيَّنت الآية مضمون الأمر الإلـٰهي:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: استقم على دين الله ولا تمل عنه.

﴿حَنِيفًا﴾: تاركاً كل ما يخالفه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فإنَّ أيَّ ميل عن الحق يؤدي إلى الوقوع في الشرك والكفر، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

• **النفع والضرر من القدر:**

والسبب الرئيس لانحراف أكثر الناس عن عبادة الله وحده اعتقادهم أنَّ غير الله تعالى قد يجلب لهم النفع، أو يدفع عنهم الضرَّ، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ لأن كل شيء بمشيئته سبحانه، وقد مرَّ معنا قوله ﷻ أيضاً: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩].

فكل ما يصل إلى المخلوق من خير أو شر فبقضائه سبحانه وبقدره.

وقد جاء في الحديث الشريف: قوله عليه الصلاة والسلام: «**واعلم أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوكَ بشيءٍ، لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصحفُ**» [رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح].

ومن أدعية النبي ﷺ: «**اللهمَّ لا مانعَ لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ**» [رواه مسلم (٥٩٣)].

**والجَدُّ**: هو الحظ، والمجدود هو المحظوظ، فالحظ من جملة المقدّرات الإلـٰهية كما أنَّ الحرمان قدرٌ، وقد ييسر الله أسباب المحبوبات لبعض عبيده لينالوا ما قسم لهم منها، وقد تحول الأقدار بين العبد وبين ما يريد[١].

---

(١) ردود على أباطيل.

ولا يعني هذا الانصراف عن تحصيل الأسباب، فالله سبحانه قدَّر الأسباب والمسببات، وقد مرَّ معنا أن العجز ترك الأخذ بالأسباب، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر.

**• من آثار الإيمان بالقدر:**

وقد دفع الإيمان بالقدر سلف هذه الأمة الصالح إلى سيادة الأمم في كل ميادين الحياة، فكانوا بحق السبَّاقين إلى كل خير ورشاد، كيف لا وهم يسمعون قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ٧١].

وقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقوله: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقد سألوا رسول الله ﷺ حين ذكر لهم أنَّ القلمَ قد فرغ من كتابةِ ما هو كائن، فقالوا: أفلا نتوكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**لا، فكلٌّ ميسر**» وفي رواية: «**كلٌّ لا ينال إلا بالعمل**» [رواه البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤٩)].

وفي رواية أخرجها البزَّار: فقال القوم بعضهم لبعض: فالجد إذاً[(١)].

﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ أي: دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك.

﴿فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسك لأنك وضعت طاعتك وعبادتك في غير موضعها، وحاشا النبي ﷺ أن يفعل ذلك، فالخطاب له عليه الصلاة والسلام تثبيتاً، ولغيره تحذيراً.

**• يا كاشف الضر:**

وما عليك إذا أصابك شيء من الضر إلا أن تتوجه إلى الله تعالى ليكشفه عنك:

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ فلا يزيله عنك غير الله تعالى.

---

(١) البراهين الساطعة.

وقدِّم مع الدعاء عملك وجهدك في تحصيل أسباب كشف الضرِّ، مع الاعتقاد أنها أسباب فقط، وأن الكاشف الحقيقي للضر هو الله سبحانه وحده، فالأسباب لا تأثير لها بنفسها إلا إذا وافقت قدر الله تعالى، قال ﷺ: «**إنَّ لكلِّ داءٍ دواءً، فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ برأَ بإذن الله تعالى**» [رواه مسلم (٢٢٠٤)].

﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ أي: لا مانع ولا دافع لفضله، لأن إرادته سبحانه هي الغالبة النافذة.

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ أي: يصيب بكلٍّ من الخير والضر من يشاء من عباده.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يغفر بالبلاء ويرحم بالعطاء، وهذا خاصٌّ بأهل الإيمان، قال ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن! إنَّ أمرَه كلَّه له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إن أصابته سرَّاءُ شكرَ فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرَّاءُ صبرَ فكان خيراً له**» [رواه مسلم (٢٩٩)].

- **الخلاصة:**

وجاءت الآية قبل الأخيرة تلخِّص كلَّ ما سبق تقريره في السورة:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ ببعثة الرسل وإنزال الكتب، فلا عذر لكم.

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بالتصديق والقبول والإذعان.

﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لأن نفعه وثوابه يعود عليها.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ واختار الكفر والفجور.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ لأن وبال ضلاله وكفره على نفسه.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ أي: ما أنا مسؤول عنكم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ بالامتثال والتبليغ.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على تبليغهم، وتحمُّل ما تلقاه منهم.

﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ فينصرك عليهم، ويعزّ دينه، ويعلي كلمته.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

فما على الدعاة إلى الله تعالى إلا الاتباع والامتثال والاستمرار في الدعوة إلى الله تعالى، مهما طال الزمن، واشتدت المحن، واضعين نصب أعينهم هذا التوجيه الحكيم للنبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمَّ التسليم.

﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يونس].

﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله ربِّ العالمين.





# فهرس الموضوعات

## تفسير سورة الأعراف

## أسبابُ هلاكِ الأممِ وسُقوطِ الحَضارات في سُورةِ الأعْرَاف

## تفسير سورة الأنفال

## أسبابُ النَّصْرِ في سُورةِ الأنفالِ

## تفسير سورة التوبة

## البَلاغُ الأخيرُ في سُورةِ التَّوْبةِ

## تفسير سورة يونس

## الإنسانُ بينَ التَّقْديرِ والتَّكليفِ في سُورةِ يُونُس

